ورة المقاتل الصليبي فى المصادر العربية

دكتور قاسم عبده قاسم
كلية الآداب _ جامعة الزقازيق

لا يكاد الكثيرون من عامة مثقفى الغرب اليـــوم يعرفون شـــيئا من حوادث القرن الحادى عشر الميـلادى سوى صـورة يغلفها الخيال للحملة الصليبية الأولى • هذه الصورة تجعل من المقاتل الصليبى آنذاك مقـاتلا عملاقا ذا سترة مصفحة ، يمتطى جوادا فارها ويتبع شارة الصليب الى حيث يطارد العرب ذوى البشرة الداكنة ، وقد فروا أمامه فى جبن وتخاذل• وهـكذا ، فان مصطلح « الحملة الصليبية » نفســه يشى بصـورة فرسان بوسائل تلهبهم الحماســة الدينية الخالصــة ، فيفارقون الأهـل والوطن ليشاركوا فى الحرب المقدسة العادلة ضد أعداء الصليب (١) •

ورغم جاذبية هذه الصورة الأخاذة ، فالواقع أنه ليس هناك جانب واحد صحيح فيها ذلك أن قامة الفارس الأوربى فى أواخر القرن الحادى عشر لم تكن ــ فى الغالب لتزيد عن خمسة أقدام وثلاث بوصات ، وهو مستوى طول الرجل العادى فى مجتمع كان يعانى من انحطاط مســتوى الطب والعلاج فضلا عن النقص العام فى التغذية (٢) ، ولم يكن أبناء طبقة

(١) Norman F. Cantor; The medieval history, (2nd. ed).

(٢) Ibid, p. 318.

الفرسان ليشذوا عن هـذه القاعدة ، صحيح أن كمية الطعـام التى كان بوسعهم الحصول عليها كانت وفيرة ولكنها كانت من نفس النوعية التى يأكلها الفلاح المزارع فى ضياعهم ، ولم تكن لديهم الفرصة لتنويع هـذا الطعام بالشكل الذى يكفل لهم التغذية الكاملة (١) • ومن ناحية أخرى فان فرسان الحملة الصليبية الأولى لم يستخدموا السترات المصفحة التى لم ينتشر استخدامها سوى فى أواخر القرن الثانى عشر الميلادى بل كانوا يستخدمون قمصان الزرد (٢) • كما أن خيولهم كانت هزيلة بالقياس الى مستويات القرن الثالث عشر ، ذلك أن سلالات الخيول الأوربية لم تتحسن الا بفضل تهجينها بالسلالات العربية أثناء القرنين التاليين للحملة الأولى • واذا كان فرسان الحملة الصليبية الاولى وغيرهم قد حاربوا تحت راية الصليب ، فالحقيقة أن دوافعهم وأسبابهم لم تكن دينيــه خالصة (٣) • وأخيرا • فان المحاربين المسلمين لم يكونوا جبناء أو متخاذلين بل انهم كانوا على الأقل متســاوين ، من حيث البسالة والمهـــارة القتاليه مع الفرسان اللاتين ، ولم يكن نجاح الصليبيين المبـدئى راجعا الى تخاذلهم أو نقص كفاءتهم القتـالية ، بل الى الضعف السـياسى والتمزق الداخلى والفوضى والمنازعات التى نشبت مخالبها فى الجسد الاسلامى آنذاك (٤) •

هذه الصورة التى تتمثلها أذهان عامة مثقفى الغرب ليست فى حقيقة أمرها الا تراثا تكون بفضـل تلك الدعاية الدينية المحمومة التى قادتها البابوية وأثنـاء الحروب الصليبية • فقد خلع المؤرخون الغربيون الذين عاصروا هذه الحملة هالة من الخيال الدينى العاطفى التزق على صورة المقاتل الصليبى ، ومن خلال ضبابية الدعاية ، والخرافات والخزعبلات التى شاعت

---

(١) Sidney Painter, A hist. of the Middle Ages, Mcmillan, England 195), pp. 118-22.

(٢) عن تسليح الفارس الصليبى أنظر :

(٣) A.V.B. Norman, The Medieval Solider, (New York 1971) pp. joshua Prawer The world of the Crusaders, Ouadrange books. New York, 1972) pp. 121-32.

(٤) عن أسباب الحملة الاولى أنظر :

Edward Peters, The First Crusade, The chronicle of Charter and other source materials, (The University of Pennsylvania press 1971), pp. xi-xxii; Joshua Pawer, op. cit., pp. 14-22; Horris Bishop. The Penguin Book of the Middle Ages, (1971), pp. 103-108.

انظر أيضا سعيد عاشور ، الحركه الصليبية (مكتبـة الانجلو المصرية ، ط • ثانية ١٩٧١) جـ ١ ، ص ٢٧ – ص ٤٢ • وكذلك جـوزيف نسيم ، العـرب والروم اللاتين فى الحرب الصليبية الاولى (دار المعارف ، ١٩٦٣) ص ١٤٦ – ص ١٥٢ •

آنذاك برزت صورة الفارس القديس لتحتل مكانة هامة فى وجدان الغرب فقد كان ذلك الفارس هو أداة الرب التى يستخدمها لتنفيذ ارادته (١) ٠

وهكذا نجد أنفسنا بالضرورة فى مواجهة سؤال يطرح نفسه بالحاح عن طبيعة الصورة التى رسمتها المصادر العربية للمقاتل الصليبى ٠ هذا السؤال هو محور هذه الدراسة التى تحاول أن تجد الاجابة المناسبة ٠

ولدينا وصف للصليبيين رسمته كلمات «العماد الكاتب الأصفهانى» ـ الذى كان شاهد عيان لمعظم المعارك التى خاضها صلاح الدين الايوبى وألف كتابه بمناسبة استيلائه على بيت المقدس ـ وهو وصف يكاد يكون تجسيدا لرؤية المصـادر العربية عموما فى ذلك الدور المبكر من أدوار الصراع ضد الصليبيين ، فهو يقول (٢) :

«٠٠٠ والكفار قد خشنت عرائكهم ،واستعت ممالكهم ٠٠٠ وقاتلوا جندا ورعية ، واستباحوا الأنفس متورعين ، فلا ترى أعجب من أن ترى استباحة ورعية ، وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون ، وأمدهم فى طغيانهم يعمهون ، ورفعوا التكليفات ، فلا ينزع الحديد لوضوح ولا مسح ٠ شقرا كأنما لفحت النار وجوههم ، وهم فيها كالحون ، زرقا كأنما عيونهم من حديدهم ، فهم بقلوبهم وعيونهم يكافحون ، قد نزع الله الرقة من قلوبهم ، ونقلها الى غروبهم ، وعذب بهم لما يريده من تعذيبهم ، واشتعلت نار جهنم فى فحم ذنوبهم ٠ تستعيذ المردة من مردتهم ، ويدعى بالنـار للعون على الاطلاع على أفئدتهم ٠ فظاظ غلاظ ، جهنميون كلامهم شرر ، وأنفاسهم شواظ ٠٠٠ خلق الله الخلق من طين وخلقهم من حجارة ٠٠٠ » ٠

هذه الصورة التى ترسمها كلمات العماد الأصفهانى المنمقة وعباراته المزخرفة ، تجعل من الصليبى **عدوا كافرا** ، كما تصمه بالقسوة وجمود العاطفة الى حد الوحشية ، فقد نزع الله من قلوب المقاتلين الصليبيين الرقة، وخلق النـاس من طين وخلقهم من حجارة ٠ كمـا أن هذا **العدو الكافر القاسى** ، يعيش فى مستوى حضارى متواضع أيضا ٠

وبوسعنا أن نجد العذر للعماد الكاتب ، وغيره ، فى وصم الشخصية الصليبية بالوحشية والقسوة ، فعلى الرغم من أن القسوة فى معاملة العدو

---

(١) سعيد عاشور : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٥٦ ـ ص ٥٨ ٠

(٢) العماد الكاتب : الفتح القسى فى الفتح القدسى (تحقيق محمد محمود صبح، الدار القومية للطباعة والنشر ١٩٦٥) ؛ ص ٥١ ٠

كانت سمة من سمات ذلك العصر ، فان ما ارتكبه الصليبيون من أهوال كان يتسم بالوحشية الشديدة والقسوة حتى بمقاييس تلك العصور : فان الفظائع التى اقترفها الصليبيون فى انطاكية سنة ٤٩٦هـ (١٠٩٨ م) ، ومعرة النعمان والبارة فى العام التالى (١) • ثم بعد سقوط مدينة بيت المقدس بأيديهم رغم الأمان الذى منحوه للحامية الفاطمية (٢) • أو المذبحة التى ارتكبها « ريتشارد قلب الأسد » وجنوده ضد أهالى عكا ، على الرغم من الأمان الذى بذله لهم سنة ٥٨٧ هجرية (١١٩١م) (٣) أثناء معارك الحملة الصليبية المعروفة بالثالثة والتى جردها الغرب ، استجابة للبابوية، بعد سقوط بيت المقدس فى يد صلاح الدين الأيوبى •

وهناك أمثلة كثيرة فى صفحات المصادر التاريخية العربية (٤) يمكن أن تبرر صفة القسوة والوحشية التى نعت بها العماد الكاتب المقاتل الصليبى • ومن الطبيعى أن تجد هذه التصرفات الهمجية التي قام بها

---

(١) ابن العديم : زبدة الحلب من تاريخ حلب (تحقيق سامى الدهان ، دمشق ١٩٦٤) ج ٢ ، ص ١٣٢ — ص ١٣٣ • ويذكر أيضا (ص ١٤٢) أن الصليبيون دخلوا معرة النعمان بالامان ، وقضوا الليل بها وهم يسكنون من روع أهلها ويطمئنوهم « ... حتى اذا أصبح الصبح اخترطوا سيوفهم ، ومالوا على الناس وقتلوا منهم خلقا كثيرا ••• وقتل فيها أكثر من عشرين ألف رجل وامرأة وصبى » ، كما أحرقوا سور البلد ومساجده • أنظر أيضا ابن القلانس : ذيل تاريخ دمشق (بيروت ١٩٠٨) ص ١٣٦ •

(٢) يذكر ابن القلاسى ان الصليبيين قتلوا أعدادا هائلة فى بيت المقدس كما جمعوا اليهود فى كنيسة وأحرقوها عليهم (ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٣٧) • وقد اعترف المؤرخون اللاتين المرافقون للحملة بالفظائع التى ارتكبها الصليبيون ، اذ يقول فلوشير دى شارتر Flucher de charter على سبيل المثال أن الصليبيين أخذوا يفتشون أجساد القتلى من المسلمين بحثا عن الذهب والفضة ثم أخذوا يجمعون هذه الاجساد فى أكوام كبيرة يحرقونها حتى يسهل عليهم العثور على ما يريدون فى الرماد. أنظر الترجمة الانجليزية لكتابه فى Edward Peters, The First Crusads pp. 77-ff. انظر أيضا سعيد عاشور ، الحركة الصليبية، ج ١ ، ص ٢٤٣ — ص ٢٤٥ ، وكذلك Runciman, op. cit., Vol. 1, pp. 286-88.

(٣) ابن شداد • النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية (تحقيق الدكتور جمال الدين الشيال) ص ١٧٤ •

(٤) ابن القلانس : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٤٥ — ص ١٣٧ ، أسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار تحقيق فيليب حتى) ص ٦٧ ، ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ج ١٠ ، حوادث سنه ٤٩٢ هـ ، ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٩٧ — ٩٨ ، ص ١٠٢ ، ص ١٠٣ ، ص ١١٧ ، العماد الاصفهانى : الفتح القسى : ص ٢٨٦ •

الصليبيون صداها في سطور المدونات التاريخية العربية • ويقدم لنا أسامة بن منقذ مثلا موحيا عن مدى قسوة الصليبي ، فيذكر أن أحد الفرسان المسلمين وقع أسيرا في يد جنود تنكرد Tancréde أمير انطاكية وهو يسميه دنكري — وتفنن الصليبيون في تعذيب هذا الفارس ، وأرادوا قلع عينه اليسرى ولكن تنكرد أمرهم بأن يفقأوا عينه اليمنى حتى اذا حمل ترسه لا يرى شيئا (١) •

هذه القسوة والوحشية التى تميز بها المقاتل الصليبي في الأدوار الأولى من الحروب الصليبية هى في حقيقة الأمر تعبير عن المستوى الحضارى الذى عاشه مجتمع أوربا في تلك المرحلة التى شهدت اكتمال ملامح حضارة العصور الوسطى فى الغرب ، فأولئك المقاتلون هم أحفاد أبناء القبائل الجرمانية التى أخذت تطرق حدود عالم البحر المتوسط منذ وقت مبكر ، كما أنهم كانوا افرازا لمجتمع ما يزال فى طور الفتوة والحيوية المتدفقة •

ويهمنا أن نتعرض لصفة « الكافر » التى نعتت بها المصادر التاريخية العربية المقاتل الصليبي • والحقيقة أن هذه المصادر — بصفة عامة — بتعامل مع الشخصية الصليبية باعتبارها شخصية « عدائية عدوانية » من جهة ، وباعتبارها شخصية « كافرة » من جهة ثانية • وتتجسد هذه الحقيقة واضحة جلية من خلال العبارات التى ترد كثيرا فى ثنايا هذه المصادر ، والتى تصف الصليبيين « بالكفار » تارة وبأنهم « العدو المخذول » تارة ثانية ، وبأنهم « الأفرنج لعنهم الله » تارة ثالثة (٢) •

ومن الطبيعى تماما أن تتعامل المصادر التاريخية العربية مع الشخصية الصليبية من منطلق عدائى ، وهى فى هذا تعكس المشاعر التى خلفها العدوان الصليبى فى وجدان الناس فى العالم الاسلامى • حقيقة

---

(١) أسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار ، ص ٦٧ — ص ٦٨ •

(٢) انظر على سبيل المثال : ابن العديم : زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ١٣٢ ، ص ١٣٣ ، ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٣٥ ، ص ١٣٧ ، أسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار ، صفحات ١٢ ، ٦٤ ، ٦٧ ، ٨٥ — ١١٤ — ابن الأثير : الكامل فى التاريخ جـ ١٠ — صفحات ٧١ — ٧٢ — ١٥٤ — جـ ١١ ، ص ١٤ ، أبو شامة : الروضتين ، صفحات ٥٧ — ٥٨ — ٨٩ — ٩٠ — ابن شداد : النوادر السلطانية صفحات ٢٩ — ٣٨ — ٤٨ — ٦٣ — ١٠٤ — ١٠٥ — ١٢٠ — ١٧٤ — ١٧٨ — ٢٣٦ — ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ٢ ، صفحات ٧٢ — ٩٣ — ١٢٦ — ١٦٠ • والجدير بالذكر أن ابن جبير فى رحلته (تحقيق د. حسين نصار) يردف دائما اسم كل مدينة صليبية بعبارة « دمرها الله » • أنظر رحلة ابن جبير ، ص ٢٩١ ، ص ٢٩٤ •

أن القرآن الكريم يضع السيد المسيح عليه السلام فى مرتبة سامية ، كما أن على المسلم أن يعترف بأن المسيح من الرسل والأنبياء ، الذين يرسلهم الله لهداية البشر ، كجزء من ايمانه بالاسلام ، الا أن موقف المصادر التاريخية العربية العدائى من الشخصية الصليبية وتكفيرها موقف سياسى وليس موقفا دينيا • لقد كانت الحروب الصليبية حربا كأية حرب أخرى رغم أنها تسربلت بمسوح الدين فقد جاء الصليبيون من الغرب الاوربيين ليشنوا حربا عدوانية على ديار الاسلام•وحين وصلت أنباء الحملة الى العالم الاسلامى لأول مرة » •• قلق الناس لسماعها ، وانزعجوا لاشتهارها ••• ، فشرع فى الجمع والاحتشاد ، واقامة مفروض الجهاد ••• » (١) • وكان لابد من مقاومة الصليبيين تحت راية الجهاد • وليس من المعقول أو المنطقى أن يكون الجهاد ضد من لا يعتبره المسلمون عدوا كافرا • فضلا عن أن البابوية فى المغرب الأوربى قد رفعت ــ منذ البداية ــ شعار الحرب المقدسة ضد المسلمين « الكفرة » (٢) • وهكذا تبدو النظرة التى تتعامل بها المصادر التاريخية العربية مع الصليبى ، باعتباره عدوا كافرا ، متوافقة مع منطق ذلك العصر الى حد بعيد •

بيد أنه يجدر بنا أن نشير الى أن هذه المصادر ، فى تعاملها مع الصليبى كعدو كافر ، لم تخل من السمة الموضوعية التى افتقرت اليها المصادر اللاتينية التى تتحدث عن تلك الفترة (٣) • فكثيرا ما نلاحظ أن

---

(١) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٣٤ •

(٢) انظر على سبيل المثال خطبة البابا أوربان الثانى فى كلير مونت سنة ١٠٩٥ ، والتى وصف فيها المسلمين بالكفار والاعداء (Edward Peters, the First Crusande, pp. 1-16).

والجدير بالذكر أن هذا الكتاب يورد الترجمة الإنجليزية الكاملة لنصوص خمس روايات عما تم فى كلير مونت ، وهى رواية «روبرت الراهب» الذى يحتمل أنه كان من شهود العيان فى كلير مونت ، وقد ذكر مانصه « .. هذه المدينة المقدسة (أورشليم) ، التى تحتل مكان القلب من العالم ، أسيرة الآن فى أيدى أعداء المسيح ، وخاضعة لأولئك الذين لايعرفون الله ... » والمؤرخ المجهول صاحب اعمال الفرنجة Gesta Francorum الذى رافق الحملة الاولى وجاء فيها « ... من يريد الخلاص لروحه لايجب أن يتردد فى السير على طريق السيد ، واذا كان يفتقر الى المال ، فان الرحمة الالهية سوف تمنحه كفايته .. » • انظر رواية «بلدريك كبير أساقفة دول Baldric of Dol ورواية « جيبرت النوجنتى Guibert of Nogent »

انظر كذلك : Morris Bishop, op. cit., p. 111.

وأيضا : جوزيف نسيم ، العرب والروم واللاتين ، ص ٥٩ •

(٣) انظر تحليل الدكتور جوزيف نسيم للمصادر اللاتينية لتاريخ الحروب الصليبية فى المرجع السابق ص ٣ ــ ص ١٧ •

المؤرخ المسلم يحترم فى عدوه صفات الشجاعة والبسالة والقدرة القتالية ، والمناورة فى ميدان القتال ، فضلا عن جلده وقوة تحمله ٠

ولعل الوصف الذى يقـدمه لنا « أسامة بن منقذ » فى هذا الصدد يرسم لنا صورة غاية فى الوضوح والتركيز ، اذ يقول : « ٠٠٠ سبحان الخالق البارى اذا خبر الانسان أمور الفرنج سبح الله تعالى وقدسه ، ورأى فيهم فضيلة الشجاعة والقتال لا غير ٠٠٠ » (١) ٠ ويسوف لنا أسامه فى أماكن متفرقة من كتابه ، أو مذكراته ، عددا من الأمثلة الدالة على شجاعة المقاتل الصليبى وجسارته اذ يروى لنا قصة فارس صليبى اشتهر بين المسلمين والصليبيين على السواء ببسالته ، وكيف أن هذا الفارس استطاع أن يهزم بمفرده أربعة من فرسان المسلمين ٠ كما يحكى عن فارس آخر حملته شجاعته وحماسته على مهاجمة فرقة كاملة من الجيش الاسلامى ، وعلى الرغم من أن فرسه قتل أثناء المعركة ، فانه ظل يقـاتل راجلا ، وهو يتقهقر حتى تمكن من اللحاق برفاقه وقد نالت الجراح من كل مكان فى جسده (٢) ٠ ويبدى « أسامة بن منقذ » اعجابه الشـديد بهذا الفارس الشجاع الذى ذاع صيته بين المسلمين والصليبيين على السواء ، ويقدم أسامه مثالا ثالثا على شجاعة بعض الفرسان الصليبيين فيما رواه عن أن « أحد شياطينهم » ــ على حد تعبيره ــ قد استطاع أن يستولى بمفرده على مغارة كان فيها بعض المسلمين فقد كانت المغارة معلقة فى الجبل وقد احتمى بها بعض المسلمين ، ونزل اليهم هـذا الصليبى فى صـندوق ربطـه رفاقه بسلاسل الحديد فتمكن من الاستيلاء على المغارة وأسر من بها (٣) ٠

والحقيقة أن مذكرات « أسامة بن منقذ » التى تتناول أخبار الحروب الصليبية فى تلك الفترة على قدر كبير من الأهمية لأنها عبارة عن ملاحظات شخصية نتيجة لاحتكاك كاتبها بالصليبيين احتكاكا مباشرا ، فقد آخى الصليبيين زمن السلم وعقد الصداقات معهم ، وقاتلهم وقت الحرب ، ثم دون ملاحظاته الذكية القيمة فى أسلوب يتميز بالموضوعية ودقة الملاحظة ٠

أما ابن شداد فيتحدث عن قوة احتمالهم فى اعجاب قائلا : «٠٠فانظر الى صبر هؤلاء القوم على الأعمال الشاقة من غير ديوان ولا نفع٠٠٠» (٤) ٠

---

(١) أسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار ، ص ٦٤ ٠

(٢) المصدر نفسه ، ص ٦٩ ٠

(٣) المصدر نفسه ، ص ٧٠ ــ ٧١ ٠

(٤) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ١٧٨ ــ ص ١٨٠ ٠

كما يتحدث عن ريتشارد قلب الاسد ـ ملك انجلترا وأحد زعماء الحملة الصليبية المعروفة بالثالثة ـ بقوله : « ... وكان الملعون شجاعا باسلا ، صاحب رأى فى الحرب ، وثبت بين يدى العسكر .. » (١) كما يقول عنه فى مكان آخر من كتابه « ... وهذا الانكثار شديد البأس بينهم ، عظيم الشـــجاعة ، قوى الهمـــة ، له وقعـــات عظيمة ، وله جســـارة عـلى الحرب ... » (٢) .

كذلك تتحـدث بعض المصادر العربيه الأخرى عن بعض فرســان الصليبيين ومقـاتليهم فتصفهم بالفروســية والشجاعة والبسالة وشـدة المراس (٣) .

وهـكذا نجـد أن المصادر التاريخية العربية اسرمت فى المقاتل الصليبى شجاعته وبسالته ، وقوة تحمله ، ولم يجد المؤرخون المسلمون حرجا فى ذكر الأمثلة الدالة على هذه الشجاعة على الرغم من الحرب القائمة والصراع الدائر بين الطرفين .

وفى تصورنا أنه يمكن تفسير هذه الشجاعة التى تميز بها المقاتل الصليبى ، فى ضوء خلفيته الاجتماعية من جهة ، والتدين العاطفى الذى حكم سلوكه من جهة ثانية ، فضـلا عن الظروف المعـادية التى عاش فى اطارها الصليبى على أرض الشام من جهة ثالثة .

فقد كانت التنشئة العسكرية لفرسان العصور الوسطى تغرس فيهم صفات الشجاعة والاقدام وقوة التحمل ، كما تنمى فيهم روح الولاء . ولما كانت الحـرب هى الحرفة الأساسية للفـارس ، فانه كان يعد منذ نعومة أظافره لهذه المهمة . بيد أن الفرسان ـ كطبقة اجتماعية آنذاك ـ كانوا يتوارثون هذه الحرفة ، اذ لم يكن يسمح لأحد بالانخراط فى سلك الفرسان ما لم يكن ابنا لأحـــد الفرسان ، أو سليلا لفـارس من عائلة أبيـه على الأقل (٤) .

وفى القرن الحادى عشر ـ الذى حدثت الحملة الصليبية قرب نهايته كان الفارس يتلقى تدريبه منذ الطفولة على فنون القتال واستخدام مختلف

---

(١) المصدر نفسه ، ص ٢٩ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٥٦ .

(٣) ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٦١ ، أبو شامة ، الروضتين ـ ص ٥٨ .

(٤) A.V.B. Norman, The Medieval Soldier, p. 142.

الاسلحة التى عرفهـا ذلك العصر ، متـل السيف والحربة والبلطه ... وغيرها . كمـا كان يتدرب على كيفيـة استخدام درعـه والسـيطرة على فرسـه (١) . وتفصيل ذلك أن الطفل فى سن السابعة كان يؤخذ بعيدا عن منزله ، خوفا من أن يفسده تدليل الأبوين ، ويرسل الى بلاط أحـد السادة الاقطاعيين الذين تربطهم بأسرته علاقة وديه من نوع ما . وحين يبلغ الرابعة عشرة من عمره يوكل اليه أمر العناية بخيول سيده الاقطاعى وأسلحته ، كما يقوم بخدمته على المائدة . وعندما يقترب من سن العشرين يكون قد أتم تدريبه على أسـلحة الفرسان ومعـداتهم ، أى يكون مؤهلا للانخراط فى سلك هذه الطبقة . فيمنحه سيده الاقطاعى سلاحا وفرسا ودرعا ، ويتم تنصيبه فارسا فى حفل ذى مراسم محددة . وعندها يصير الفارس مكلفا بالقتال تحت راية سيده الاقطاعى فى الحروب التى يخوضها . والتى حاولت البابوية ، وبعض الأمراء الحد منها بالدعوة الى «هدنة الله» ، وسلام الله (٢) .

والى جانب هذه الخلفية الاجتماعية التى نشأ الفارس الصليبى فى رحابها يمكننا أن نفسر هـذه الشجاعة فى ضـوء الحقيقة القائلة ان هـذا الفارس كان أسير عاطفة دينية جياشة ، ولو أنهـا مشوبة بالاعتقاد فى الخرافات والغيبيات بفعل سيطرة البابوية والكنيسة على الحياة الثقافية فى أوربا آنذاك . ويرى الدكتـور جوزيف نسيم أن الحـروب الصليبية « كانت تمثل روح العالم الغربى الوسيط والأفكار السائدة فيه تمثيلا صادقا فى ناحيتين هامتين هما ناحية الدين وناحية الحرب ... وهكذا عاش الفرد الوسيط داخـل الدائرة الضيقة المغلقة التى وضعته فيهـا الكنيسـة لا حـول له ولا طول ، وعليه السمع والطـاعة دون جـدل أو مناقشة » (٣) . وكان الفارس فى هذا الغرب الأوربى مكلفا بالدفاع عن

---

(١) Ibid, p. 143.

(٢) عن تفاصيل حياة الفروسية فى المجتمع الاقطاعى انظر :

Sidney Painter, I hist. of the Middle Ages, pp. 118-22 Canter. The Med. hist., p. 235; Bishop, The Pengiu, book of The Middle Ages. pp. 58-86; Norman, op. cit., pp. 141-156.

انظر أيضا : سعيد عاشور ، أوربا العصور الوسطى (الانجلو المصرية سـنة ١٩٧٦) ج ٢ ، ص ٢٧٤ ـ ص ٢٧٥ .

(٣) جوزيف نسيم ، العرب والروم واللاتين ، ص ٣٣ ـ ص ٣٤ ، ص ٥٢ ـ ص٥٩ حيث يناقش تأثير التيارات الدينية على مفاهيم العصر ، وكيف أن البابوية ورجالها كانوا يروجون للنبوءات والرؤى التى تحمل الطابع الاسطورى كلمـا خبت الحماسة للحركة الصليبية .

الكنيسة وخدمة أهدافها . ولعل مراجعة نص الخطبة المنسوبة الى البابا أوربان الثاني والكلمات التي حاطب بها فرسان فرنسا تكشف عن مدى فعالية الدعاية البابوية في هذه الأوساط (١) .

وهناك من الأمثلة ما يؤكد أن خضوع الصليبيين لهذه الدعاية الدينية ، وما يعتمل في نفوسهم من مشاعر تولدت عنها ، كانت تدفع بهم من أحط حالات اليأس الى الصمود والاستبسال في القتال على نحو ما حدث بعد استيلاء قوات الحملة المعروفة بالحملة الصليبية الأولى على مدينة أنطاكية سنة ٤٩١ هـ (١٠٩٨ م) (٢) . ويذكر ابن الأثير أن الصليبيين بعد أن استولوا على مدينة أنطاكية ، وصلت قوات المسلمين بقيادة « كربوقا » ، ووقع الصليبيون في الحصار ، وظلوا على هذا الوضع اثنى عشر يوما يعانون فيها من قلة المؤن والأقوات » ... وتقوت الأقوياء منهم بدوابهم ، والضعفاء بالميتة وأوراق الشجر ، فلما رأوا ذلك أرسلوا الى كربوقا يطلبون منه الأمان ليخرجوا من البلد فلم يعطيهم ما طلبوا ، وكان معهم من الملوك بردويل وصنجيل وكندفرى والقمص صاحب الرها وبيمنت صاحب أنطاكية ، وهو المقدم عليهم ، وكان معهم راهب مطاع فيهم وكان داهية من الرجال (٣) . فقال لهم ان المسيح عليه السلام كان له حربه مدفونة بالقسيان الذى فى أنطاكية ، وهو بناء عظيم ، فان وجدتموها فانكم تظفرون ، وان لم تجدوها فالهلاك محقق ، وكان قد دفن قبل ذلك حربة فيه وعفى أثرها ، وأمرهم بالصوم والتوبة ففعلوا ذلك ثلاثة أيام ، فلما كان اليوم الرابع أدخلهم الموضع جميعهم ومعهم عامتهم والصناع منهم ، وحفروا فى جميع الأماكن فوجدوها كما ذكر ، فقال لهم أبشروا بالظفر .. » ودبت الحماسة فى صدور الصليبيين المحصورين داخل أسوار

---

(١) Edward Peters, The First Crusade; pp. 2-5.

(٢) ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٣٥ ، ابن العديم، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ١١٣٢ : ص ١٣٦ ، ابن الاثير ، الكامل فى التاريخ ، جـ ١٠ ؛ حوادث سنة ٤٩١ هـ . وانظر كذلك

Runciman, A history of the Crusades Vol. 1 pp. 213-35.

أيضا : سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ ١ ، ص ٢٠١ — ص ٢٠٥ .

(٣) هو المندوب البابوى أدهمار ، وكان المشتركون فى معركة انطاكية هم : بوهيموند (بيمنت) وروبرت أمير فلاندرز وريموند (القمص صاحب الرها) وجود فرى (كند فرى) .. وغيرهما — أنظر سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ ١ ، ص ١٩٠ .

Runciman, op. cit., vol. 1 pp. 206.

أنطاكية وأخذوا يتأهبون للخروج الى قتال قوات كربوقا التى كانت قد وصلت لنجـدة المدينه · وحين حرج الصليبيون من انطاكية استطاعوا أن يلحقوا الهزيمة بالقوات الاسـلامية التى كانت الخلافات والمنـازعات بين قادتها قد اودت بروحها القتالية (١) ·

وتكشف هذه الرواية التى أوردها ابن الأثير بوضوح كيف أن هذه الحيله التى لعبت على أوتار عاطفة الصليبيين الدينية كانت عاملا حاسما فى أخراجهـم من المـأزق الذى كاد أن يدفعهم الى الاستسـلام · والجدير بالدكر ان المصادر اللاتينية تتحدث عن هذه الحادثة فى تفصيل كبير يكشف عن اعتقاد مؤلفيها الراسخ فى صحة هذه الواقعة ·

ومن ناحيـــة أخرى يلاحظ المؤرخ ابن شـــداد مدى خضوع المقاتل الصليبى للدعاية البابوية بعد سقوط مدينة بيت المقدس فى أيدى المسلمين بقيادة صلاح الدين الايوبى سنة ٥٨٣ هـ وكيف أن هذه الدعايه قامت على أساس صورة كبيرة تمثل مدينة القدس « ··· وبها كنيسة القيامة التى يحجون اليها ويعظمون شأنها ، وفيها قبر المسيح الذى دفن فيه بعد صلبه بزعمهم ، وصور القبر وصور عليه فارسا مسلما قد وطىء قبر المسيح وقد بال الفرس على القبر ··· » ويستمر ا بن شداد فيقول «···وأظهرت هذه الورقة فى الأسواق والمجامع والقسوس يحملونها ورؤوسهم مكشفة، وعليهم المسوحة وينادون بالويل والثبور ··· » ثم يقدم لنا ملاحظة ذكية عن نوعية تدين الصليبى فيقول «··· وللصور عمل فى قلوبهم ···» (٢) كما أنه حين يتحدث عن المفاوضات بين ريتشارد قلب الأسد والعادل أخى صلاح الدين يوضح كيف كان اهتمام الصليبيين عظيما ببيت المقدس وصليب الصلبوت (٣) ·

كما أن العماد الأصفهانى يوضح لنا ــ رغم زخرفة أسلوبه ــ صورة

---

(١) ابن الاثير ، الكامل فى التاريخ ، جـ ١٠ ، ص ١٠٣ ، حوادث سنة ٤٩١ هـ · والجدير بالذكر أن المؤرخ المجهول ، الذى كان من شهود العيان يذكر أن قسيسا جاء الى القادة الصليبيين المحاصرين فى انطاكية واخبرهم نبأ الرؤية التى تتحدث عن هذه الحرب المقدسة · أنظر نص الترجمة الانجليزية لروايته ، وكذلك رواية «ريموند من أجويليه

E. Peters, The first Crusade, pp. 176-85 Raymond d'Aguiliers.

ويذكر الدكتور جوزيف نسيم ان اسم هذا الرجل الفرنجى «بطرس برثوللاوس»

(٢) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ١٣٦ ــ ص ١٣٧ ·

(٣) المصدر نفسه ، ص ١٩٤ ·

واضحة عن المعارك حول بيت المقدس ، وكيف أن تدين المقاتل الصليبى كان يدفعه الى الاستبسال فى القتـــال دفاعا عن المدينة ضـــد قوات صلاح الدين (١) ٠

وتقدم لنا المصادر العربية المزيد من الأمثلة التى تكشف عن أن العزف على أوتار العاطفة الدينية كانت تدفع المقاتل الصليبى الى اظهار الشجاعة والاستماتة فى القتال ، وهو ما يدل على مدى خضوع المقاتل الصليبى لمؤثرات الدعاية البابوية المحمومة التى واكبت أحداث الحروب الصليبية (٢) ٠

على أننا يجب أن نلاحظ أنه اذا كانت شجاعة المقاتل الصليبى التى استحوذت على انتباه المصادر العربية ليست الا نتاج خلفيته الاجتماعيه، والمفاهيم الدينية التى حكمت تصرفات الناس فى تلك المرحلة من العصور الوسطى ، فان هذا المقاتل ، من ناحية أخرى ، كان ممثلا لحضارة ما تزال فى طور شبابها وحيويتها ، ومن ثم فانه كان تعبيرا عن واقع المجتمع الذى شـهد اكتمـال ملامح الحضـارة الوسيطة (٣) فقد كانت الحروب الصليبية فى حقيقة أمرها توضيحا ـ ولو أنه توضيح درامى له مغزاه للجوانب الرئيسية فى حيـاة الناس فى العصور الوسطى ، كما انهـا ـ من ناحية أخرى ليست سوى عامل سببى من عوامل التغيير التاريخى آنذاك ٠ على أية حال ، فانه يمكن القول بأن الحروب الصليبية تمثل فترة تاريخية تجلت فيها خصائص وسمات المجتمع الأوربى واضحة تماما ، ذلك أن تلك الحروب تكشف عن أهل العصور الوسطى فى أفضل حالاتهم وأكثرها سوءا ٠ وهذا هو ما يجعل هذه المرحلة جديرة بالدراسـة من زاوية غير تقليدية ٠

وفى هـذا المجتمع الذى تكشف الحـروب الصليبة عن سـماته وخصائصه كان الفـارس يحتـل مكانة هامة ، انعكست على أوضاع الصليبيين فى بلاد الشام وقد كان الفارس مكلفا بالدفاع عن الكنيسة ـ وبأن يدفع الظلم عن الفقراء وأن يوطد دعائم السـلام فى بلدته أو

---

(١) العماد الاصفهانى ، الفتح القسى ، ص ١١٩ ، ص ١٢٩ ٠

(٢) ابن القلانسى (ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢١٣) ويذكر أن الصليبيين كانوا يأخذون معهم كنيسة متنقلة فى تحركاتهم العسكرية ٠ انظر أيضا ابن واصل ، مفرج الكروب جـ ١ ، صفحات ٧٢ ، ٧٣ ، ١٢٦ ٠

(٣) Cantor, The med. hist, p. 325.

مقاطعته ، وعليه أن يريق دمه أو يضحى بروحه فى سبيل الدفاع عن اخوانه . وعلى الرغم من مثالية هذه المهمة . فان الفارس كان مطالبا ، بأن يقوم – على الأقل بأداء الشطر الأعظم منها . وهو الأمر الذى كان يتطلب منه قدرا كبيرا من الشجاعة والقدرة القتالية والصبر والتحمل . ومن ناحية أخرى اكتسب الفارس مكانته السامية فى المجتمع من أهمية وخطورة المهمة المنوطة به فى هذا المجتمع (١) .

ولذا فان المكانة الهامة التى احتلها الفارس فى المجتمع الصليبى لفتت أنظار المؤرخين المسلمين خاصة أولئك الذين شاءت ظروفهم أن يتعاملوا مع الصليبيين عن قرب ، ومن هؤلاء « أسامة بن منقذ » الذى يقول فى هذا الصدد «...والافرنج خذلهم الله ، ما فيهم فضيلة من فضائل الناس سوى الشجاعة ، ولا عندهم تقدمة ومنزلة عالية الا للفرسان ، ولا عندهم ناس الا الفرسان ، فهم أصحاب الرأى ، وهم أصحاب القضاء والحكم..» ويقدم لنا أسامة من الأمثلة ما يؤكد ذلك ويؤكد (٢) ابن شداد ما رواه أسامة عن أهمية الفارس الصليبى وتوليه أمر القضاء والحكم (٣) .

ومما يكشف عن مدى أهمية الفارس لدى الصليبيين مثالان قدمهما « أسامة بن منقذ » يتحدث أحدهما عن فشل فرسان تنكرد Tencerde فى هجومهم على شيزر سنة ١١١٠ م مما جعله يوبخهم بقوله : «...أنتم فرسانى وكل واحد منكم له ديوان مثل ديوان مائة مسلم ، وهؤلاء سرجند (أى مشاة) ما تقدرون تقلعوهم من مواضعهم ... » (٤) أما المثال الثانى فيتعلق بأحد الأسرى من مشاة الصليبيين ، فحين طلب المسلمون منه فدية قدرها ستمائة دينار لاطلاق سراحه سخر منهم بقوله « أنا سرجند ديوانى كل شهر ديناران . من أين لى ستمائة دينار ؟ » (٥) .

ان المقابلة بين هذين المثالين تكشف لنا بوضوح عن الفرق بين مكانة الفارس الصليبى وما يتمتع به من رفاهية فى المجتمع الصليبى من ناحية ، وضآلة قدر المقاتل من المشاة فى المجتمع نفسه من ناحية أخرى . وهذه الحقيقة التى أدركتها المصادر العربية تتفق تماما مع

---

(1) Morris Bishop, The penguin Book of Middle Ages, p. 85.

(٢) أسامة بن منقذ : الاعتبار ، ص ٦٤ – ص ٦٥ ، ص ٦٧ .

(٣) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٢١٧ ، ص ٢١٨ .

(٤) أسامة : الاعتبار ، ص ٦٧ .

(٥) المصدر نفسه ، ص ٧٥ .

طبيعة الوجود الصليبى فى بلاد الشام ، فهو وجود عسكرى استيطانى لا يجد لنفسه أمانا فى المحيط الاسلامى المعادى له سوى بتدعيم قواته القتالية التى كان الفرسان أهم دعاماتها بطبيعة الحال ، ولذلك كان امراء الصليبيين وملوكهم يغضبون كثيرا اذا فشل فرسانهم فى تحقيق مهامهم وينزلون بهم أقصى ضروب العقاب (١) .

هذه المكانة الهامة التى تبوأها الفارس فى الكيان الصليبى تفرض علينا ان نتوقف قليلا أمام بنية الجيش الصليبى بوجه عام . فالواقع أن الفرســان كانوا الركيزة الاساسيه فى أى جيش صــليبى ، بيد انهم كانوا فى الوقت نفسه قلة فى هذا الجيش بسبب طبيعة تنشئة الفارس منذ الصغر من ناحية ، وكثرة تكاليف اعداد الفارس من ناحية أخرى . وكان الجيش الصليبى يتكون فى العادة من مصادر ثلاثة : هى الفرسان، والجنود المرتزقة ، ثم الرجال العاديين القادمين لحج . وكان هؤلاء يفوقون من حيث اعــدادهم المصـــدرين الآخرين وذلك بسبب قلة تكــاليف تجنيدهم ، وقلة الامتيازات التى كانوا يحصلون عليها من وراء اشتراكهم فى القتال . ولكن هؤلاء لم يكونوا مؤهلين للقيام بالأعمال العسكريه وهو الأمر الذى كان يترك تأثيره السلبى على أداء الجيش الصليبى بطبيعة الحال (٢) . ويشير ستيفن رنسمان ـ اعتمادا على تحليله لمصادر الحملة الصليبية الأولى ـ الى أن نسبة الفرسان الى المشاة فى الجيش الصليبى ربما كانت نسبة واحد الى سبعة ، وذلك اذا ما كان الجيش يضم كل القادرين على القتال (٣) . والواقع أن قوة الجيش الصليبى كانت تقاس بعدد الفرسان الذين يضمهم بين صفوفه ، بل ان نتيجة المعركة غالبا ما كانت تحسم بعد أول صدام مع الجيش المعادى اذا ما نجح الفرســان فى هجومهم (٤) .

وتمدنا المصادر التاريخية العربية بطائفة من الأمثلة التى يمكن أن تساعدنا على تكوين فكرة عامة عن بنيــة الجيش الصــليبى . فابن القلانسى يذكر فى حوادث سنة ٤٩٤ هـ أن جيشا مصريا كبيرا اتجه الى عسقلان لمحاربة الصليبيين » ... ونهض اليه من الفرنج ألف فارس

---

(١) المصدر نفسه ، ص ٦٤ ، ص ٦٧ .

(٢) James A. Brundage, Medival Canon Law and the Crusaders, C.usader in the memoirs of Usama Ibn Munqidh (a paper delivered at the American Academy of relision, Washington), p. 8.

(٣) Runciman, A hist. of the Crusaders, vol. 1, pp. 336-41.

(٤) J. Prawer, The World of the Grusaders, p. 131.

وعشرة آلاف راجل (١) ... » كما يقدم لنا ابن شداد - الذى عاصر الصراع بين المسلمين بقيادة صلاح الدين الايوبى ، والصليبيين الذين تدعمت قواتهم بوصول الحملة الصليبية المعروفة بالثالثة بقيادة ثلاثة من كبار ملوك أوربا آنذاك وهم ريتشارد قلب الاسد ملك انجلترا . وفيليب أوغسطس ملك فرنسا ، وفردريك بربروسا ملك ألمانيا ، وقدم لنا وصفا شيقا للمعارك ، والأحداث التاريخية ، فضلا عن وصفه الدقيق للأسلحة وأساليب القتال - يقدم ابن شداد مثالا عن جيش الصليبيين الذى حاصر عكا ، وأستولى عليها سنة ٥٨٧ هـ . (١١٩١)م، فيذكر أنه كان يتألف من ألفى فارس وثلاثين ألف راجل (٢) .

كما يقدم لنا المؤرخ ابن الأثير عددا من الأمثلة التى يمكن أن توضح سبب هذا الفرق الكبير بين الفرسان والمشاة فى الجيش الصليبى ، فهو يوضح كيف كان الصليبيون فى الشام يستعينون بمن يفد اليهم من الغرب الأوربى ، بقصد الحج الى بيت المقدس فى تدعيم قوتهم العسكرية. صحيح ان بعض أولئك الحجاج كانوا من الفرسان ، بيد ان نسبتهم كانت ضئيلة . ففى حوادث سنة ٤٩٦ هجرية يذكر ابن الأثير ان بلدوين (ويسميه بغدوين) استعان بالفرنج الذين كانوا قد وصلوا من أوربا لزيارة بيت المقدس لمحاربة القوات الفاطمية فى عسقلان (٣) .

كما يذكر أن ريموند (ويسميه الصنجيل وهو تحريف لعبارة Raymond de St. Angilles) نفسه بحاجة الى قوات لمساعدته استعان بمن وصل الى ميناء اللاذقية من الفرنج الذين كانوا خليطا من « ... التجار والأجناد والحجاج وغير ذلك » لحصار طرابلس سنة ٤٩٧ هـ ولكن هذه القوات فشلت فى الاستيلاء على طرابلس فسارت الى جبيل واستولت عليها ، ثم واصلت سيرها الى صور واستولت عليها أيضا (٤) . وتمدنا المصادر التاريخية العربية التى عالجت أحداث هذه الفترة بطائفة من الأمثلة المتشابهة (٥) .

---

(١) ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٤٠ .

(٢) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ١٠٤ - ص ١٠٥ ، انظر أيضا أبو شامة ، الروضتين ، ص ٥٧ - ص ٥٨ .

(٣) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ١٣٦ .

(٤) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ١٣٩ .

(٥) ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٤١ ، ص ١٤٣ حيث يتحدث فى حوادث سنتى ٤٩٥ هـ ، ٤٩٧ هـ عن وصول بعض السفن التى تحمل امدادات من « التجار والاجناد والحجاج وغير ذلك » ، ويذكر أبو شامة (الروضتين - ص ٥١ - ص ٥٢) نبأ وصول امدادات صليبية عن طريق البحر .

وهكذا نجد أن المصادر التاريخية العربية احترمت فى المقاتل الوجود الصليبى الاستيطانى محيط فى بشرى معادى من ناحية ثانية ، فرضت هذه الأهمية التى تمتع بها الفرسان فى الجيش الصليبى بوجه عام ، كما أنها ـ من جهة أخرى ـ فرضت أسلوبا معينا فى القتال كان على الجيش أن يتبعه ، فضلا عن أنها غرست فى المقاتل الصليبى صفات معينة . بيد أننا يجب أن نشير الى أن مكانة الفرسان الاجتماعية قد انعكست أيضا على مكانتهم فى الجيش (١) .

أما أسلوب القتال الذى كان الجيش الصليبى ينتهجه ، فيمكن توضيحه من خلال بعض الأمثلة التى أوردتها المصادر العربية . فابن شداد ، مثلا ، يقول « ... فخرج فارسهم وراجلهم ، وامتدوا على التلول وساروا الهوينا غير مفرطين فى أنفسهم ، ولا خارجين عن راجلهم ، والرجالة حولهم كالسور المبنى يتلوا بعضها بعضا ... » (٢) . وفى كلامه عن احدى المعارك التى جرت قبيل سقوط عكا فى أيدى صليبى الحملة الثالثة يؤكد ابن شداد مرة أخرى هذه الملاحظة بقوله : « ... وكان عسكر العدو المخذول قد ترتب فكانت الرجالة حوله كالسور ... » (٣) .

وربما يكون بوسعنا أن نستنتج من كلمات ابن شداد ـ وهو شاهد عيان خبر الحرب وأساليب الصليبيين فى القتال بنفسه ـ ان أهمية الفرسان فى الجيش الصليبى تركت تأثيرها على تشكيل القتال أو الزحف فى الجيش الصليبى ، اذ كان الفرسان يسيرون فى قلب الجيش بحيث يكونوا فى مأمن بفضل حماية المشاة الذين يشكلون ما يشبه السور من حولهم . والجدير بالذكر أن بعض المؤرخين المتخصصين فى التاريخ الحربى قد أشاروا الى هذه الحقيقة التى توصلوا اليها نتيجة تحليلهم لمعارك الصليبيين (٤) . وهنا ينبغى أن نشير الى ملاحظة هامة أبداها « رنسمان » ، وهى أن اصطلاح « الفرسان » يجب

---

(١) عن الاقطاع فى فلسطين زمن الحروب الصليبية ومكانة الفرسان انظر :
Jonathan Riley-Smith, The Feudal Nobility and the kingdon of Jerusalem 1174-1277, (Macmillan, London 1973), pp. 3-39.

(٢) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٦٢ ـ ص ٦٣ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ١٧٨ ـ ص ١٨٠ .

(٤) أنظر A.V.B. Norman, The Med. Soldier, pp. 193-5.
حيث يذكر ان الشكل التقليدى للجيش الصليبى قبيل المعركة هو أن يكون المشاة فى مقدمة الجيش لتلقى صدمة الاقتحام ويصطف الفرسان خلفهم فيما يشبه الكتلة .

أن يستخدم فقط للدلالة على الخيالة الثقيلة التسليح ، وليس على كل من يمتطى صهوة جواد (١) ·

وتمثلت النتيجة الأخرى ، لقلة عدد الفرسان فى الجيش الصليبى. فى ذلك الحذر الشديد والحيطة البالغة اللذين ميزان سلوك المقاتل الصليبى · فقد كانت الجيوش الصليبية تضم أعدادا كبيرة من الحجاج والوافدين الجدد الذين يفتقرون الى الخبرة القتالية وكان طبيعيا أن يتأثر الجيش بوجود هؤلاء بين صفوفه وأن يهتم بالحفاظ على الفرسان والمقاتلين المحترفين · والواقع أن هذا العيب الكامن فى الجيش الصليبى لم يكن واضحا فى غمرة الانتصارات المذهلة التى أحرزتها جيوش الحملة الأولى ، ولكن الأمر تجلى واضحا حين استوعب المسلمون الصدمة الأولى ، وبدأوا تنظيم صفوفهم للدفاع ثم الهجوم فيما بعد ·

على أية حال ، هذا الحذر البالغ الذى ميز سلوك المقاتل الصليبى. والذى رصدته المصادر التاريخية العربية ، يمكن تفسيره بهذا السبب ، الى جانب أسباب أخرى دينية ونفسية كما سنرى فى الصفحات التالية ·

وقد يبدو كلامنا عن الحذر الشديد والحيطة البالغة اللذين ميزا سلوك المقاتل الصليبى متناقضا مع ما ذكرناه من قبل عن شجاعة هذا المقاتل وقدرته القتالية · ولكن تحليل مفهوم الشجاعة عند المقاتل الصليبى ، كما يقدمه لنا أحد الباحثين الغربيين المعاصرين ، قد يساعدنا على تبرير هذا التناقض الظاهرى · يقول هذا الباحث «··· أن الشجاعه صفة أساسية فى الفارس الصليبى ، شأنها شأن صفة الاخلاص تماما · بيد أنها صفة تدل على نشاط منظم مدروس ، فالشجاعة هنا لا تعنى أن يغض الفارس بصره عن الأخطاء الماثلة ، كما أنها لا تعنى التهور والاندفاع الغير مأمون العاقبة ، ولكنها فى الواقع شجاعة تعنى القدرة على تحديد حجم الخطر ، وتقدير مداه فى هدوء ، ودون أن يدع المرء للخوف الى نفسه سبيلا ··· » (٢) ·

وقد تنبهت المصادر التاريخية العربية الى الحذر الذى ميز سلوك المقاتل الصليبى ، فها هو « أسامة بن منقذ » يذكر ما نصه : «···وهم،

---

(١) Runciman, A hist. of the Crusades, vol. 1, p. 337.

(٢) Show (M.R.B.), Joinville and Villehardouin chronicles of the Crusades, (Penguin classics 1973) p. 15.

لعنهم الله ، أكبر النـــاس احترازا فى الحرب ··· » (١) ويسوق لنـا أسامة عدة أمثلة لكى يدلل بها على صدق ملاحظته · فقد حدثت مواجهة بين مجموعة صغيرة من فرسان المسلمين ـ كان أسامة بينهم ـ وقوة كبيرة من الصليبيين ، قرب بيت جبريل فى منتصف الطريق بين غزة وبيت المقدس ، « ··· فصعدوا الى رابية وقفوا عليها ، وصعدنا نحن على رابية مقابلهم وبين الرابيتين فضاء وأصحابنا المنقطعون وأصحاب الجنائب عبور تحتهم لا ينزل اليهم منهم فارس خوفا من كمين أو مكيدة ، ولو نزلوا أخذوهم عن آخرهم ونحن مقابلهم فى قلة ، وعسكرنا قد تقدمنا منهزمين وما زال الافرنج وقوفا على تلك الرابية الى أن انقطع عبور أصحابنا ثم ساروا الينا فاندفعنا بين أيديهم والقتال بيننا لا يجدون فى طلبنا ، ومن وقف فرسه قتلوه ، ومن وقع أخذوه ، ثم عادوا عنا ، وقدر الله سبحانه لنا السلامة ، ولو كنا فى عددهم ونصرنا عليهم كمـا نصروا علينا كنا أفنيناهم ··· » ·

وتقدم لنا المصادر العربية الأخرى مزيدا من الأمثلة التى تدعم الملاحظة التى أبداها أسامة بن منقذ عن صفة الحذر البالغ فى شخصية المقاتل الصليبى · من ذلك ما يذكر ابن الأثير (٢) ، وابن شـــدادا (٣) والعمـــاد الكاتب الأصفهانى (٤) ، وابن القلانسى (٥) وأبو شامة (٦) · وجميع هذه الأمثلة تكشف كيف كان الصليبيون لايدخلون معركة الا اذا كانت نتائجها مضــمونة تمـاما ، وكيف أنهم كانوا يميلون الى القيـام بعمليات عسـكرية محـدودة · ويبحثون باستمرار عن النصر السريع السـهل متوسلين الى ذلك بالحيلة والخـداع (٧) · كمـا توضـح بعد الأمثلة كيف أن الصليبيين كانوا ، فى بعض الأحيان يقتلون أسراهم خوفا من أن ينقذهم رفاقهم (٨) ·

---

(١) أسامة بن منقذ ، كتاب الاعتبار ، ص ١٢ ·

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ١٠٣ ، ص ١٣٩ ـ جـ ١١ ص ١٤٨ ·

(٣) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ١٠٠ ـ ص ٢٠١ ·

(٤) العماد الاصفهانى ، الفتح القسى ، ص ٥٩ ـ ص ٦٠ ·

(٥) ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٨٥ ـ ص ١٨٦ ، ص ٢١٣ ـ ص ٢١٤ ، ص ٢٩٧ ـ ص ٢٩٩ ·

(٦) أبو شامة ، الروضتين ، ص ٥٢ ·

(٧) أسامة بن منقذ ، الاعتبار ، ص ٥٦ ـ ص ٥٧ ·

(٨) ابن شداد ، النوادر ، ص ١٠١ ·

ويسوق لنا المؤرخ ابن شداد مثالا واضح الدلالة على ما تميز به المقاتل الصليبي من حرص وعلى رغبته النصر السهل ، فقد حدث سنة ٥٥٨ هـ (١٥٥٢ م) أن هاجم ريتشارد قلب الأسد قافلة اسلامية كانت قادمة من مصر • وكان قد تخفى في زى أعرابى ليستطيع التعرف على القافلة ثم هاجمها بعد أن تأكد أن حراسها يغطون في نومهم واستولى عليها ، ولكنه ما لبث أن ترك غنيمته وهرب بجنوده حين سرت اشاعة بأن السلطان صلاح الدين قادم بجيشه • وحين تأكدوا من كذب الاشاعة وعادوا ثانيــة الى القــافلة التى كان بعض أفرادها قد تمكنــوا من الهرب (١) •

ويرى أحـد المؤرخين العسكريين المحدثين انه يمكن تبرير هـذا الحذر في ضوء طبيعه الوجود الصليبى فى بلاد الشام • ذلك انه يرى أن الصليبيين فى بلاد الشام كانوا يواجهون عدة مشــاكل عســكرية تكتيكية واستراتيجية فرضت عليهم المبالغة فى الحذر والحيطة ، كمــا أنهم كانوا يقاتلون فى سبيل تحقيق أهداف محدودة ، هى الاستيلاء على بعض المنــاطق ذات الأهميــة الدينية البالغة بالنســبة لهم ، وذلك – والكلام ما يزال للمؤرخ نفسه – فانهم أخذوا ينهجون نهجا دفاعيا فى حروبهم بعد الجيل الأول (٢) •

وعلى الرغم من أن كلام سميل Smail يحمل قدرا من الحقيقة ، فانه لا يقدم لنا التفسير الكافي لهذه الظاهرة التي لفتت انتباه المصادر العربية في سلوك المقاتل الصليبي • ذلك أنه اذا كان الحذر ضروريا بالنســبة للصليبيين ، كما يقول ، فانه ضرورى أيضا لكل الجيــوش المتحاربة في كل زمان ومكان حتى لا تقع الجيوش فريسة الأخطاء التى قد تنجم عن اتخاذ قرار متسرع • والواضح أن الحــذر الذى ميز سلوك المقاتل الصليبى لم يكن حذرا عاديا من ذلك النمط ، ولو كان كذلك لما احتــاج الأمــر من « أسامة بن منقــذ » أن يستخدم عبــارة يصف فيها الصليبيين بأنهم « أكبر الناس احترازا في الحرب » • فاستخدامه لكلمة الاحتراز ، ثم التأكيد عليها بما قدمه من أمثلة أيدتها المصادر العربية الأخرى ، يوحى بان هناك عاملا نفسيا خبيئا وراء هذه الظاهرة •

---

(١) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٢١٣ – ص ٢١٤ •

(٢) R.C. Smail, Crusading Warfare (1097-1193) Cambridge university press 1967, p. 138; Mohammad K. H. Ahmed, The Crusader. p. 3.

وفى رأينا أن هذا العامل النفسى لا يرتبط بطبيعة المرحلة الدفاعية التى مر بها الوجود الصليبي فحسب ولكنه يرتبط أيضا بظروف تكوين الجيش الصليبى السابق الاشارة اليها من ناحية ، والوضع القانونى للمقاتل الصليبى فى نظر الغرب الأوربى آنداك من ناحية ثانية ، وطبيعة الوجود الصليبي والظروف المحيطة به من ناحية ثالثة ·

وبما أننا قد ناقشنا ظروف تكوين الجيش الصليبى وتأثيرها السلبى على أداء المقاتل وتصرفاته ، فانه يبقى علينا أن نناقش الوضع القانونى للمقاتل الصليبى ، ثم طبيعة الوجود الصليبى فى بلاد الشام واستجابة المسلمين للتحدى الذى فرضه هذا الوجود ·

لقد كان المقاتل الصليبى من الناحية القانونية جنديا فى حرب مقدسة مما أكسبه مكانة خاصة بين أقرانه من العسكريين ، فقد كان هذا المقاتل يتمتع بمزايا تفوق تلك التى يتمتع بها أى مقاتل عادى فى أى جيش عادى · والحقيقة أن القسم الذى كان الصليبى يقطعة على نفسه قبل الانضمام الى الحملة الصليبية كان يجعل منه حاجا فى رحلة حج الى بيت المقدس ومحاربا فى حملة دينية فى الوقت ذاته · أى أن الصليبى كان حاجا قطع على نفسه نذرا بأن يساهم فى الحرب المقدسة أثناء رحلة الحج ، وثوابه على ذلك أن يغفر له البابا ـ باعتباره الملك لمفاتيح ملكوت السماء ـ جميع خطاياه السابقة · وفى مقابل ذلك على كل من يأخذ شارة الصليب أن يقسم على الذهاب الى بيت المقدس فاذا ما عاد دون أن يفعل ذلك فانه يعرض نفسه لخطر الحرمان البابوى (١) · وهكذا كان فشل الصليبى فى الوفاء بقسمه يعرضه للعقاب الدينى فى الوقت الذى يتعرض أيضا للعقاب المدنى المتمثل فى فقدانه لامتيازاته التى نالها بوصفه مقاتلا صليبيا ولمكانته المدنية وشخصيته القانونية تبعا لذلك ، بل انه يتعرض للموت بسبب فشله الذى كان يعتبر جريمة تستوجب العقاب (٢) ·

---

(١) Brundage, Med. Canon Law, p. 30; Runciman, Ahist. of the Crusades, pp. 107-109; Cantor, the Med. Hist. p. 321.

أنظر أيضا نص خطبة البابا اوربان الثانى فى كلرمونت بمختلف رواياتها ·
Peters, The first crusad, pp. 2-15.

وعن امتيازات الصليبيين أنظر المصدر نفسه pp. 238-46.

(٢) Muhammad K. H. Ahmad, The crusader, pp. 7-12.

وقد يسرت الانتصارات الأولية للصليبيين زيارة بيت المقـدس ، وحتى أولئك الذين لم يكونوا ضمن أفراد الجيش الصليبى الذى استولى على بيت المقدس أحسوا بضرورة قيامهم برحلة الحج الى القدس ، ولم يَبْق هناك ما يعوقهم عن ذلك • ولكن الموقف تبدل تماما حين بدأ الصليبيون يتعرضون لهجمات المسلمين الذين تمكنوا من استرداد بعض ما كان الصليبيون قد استولوا عليه ، ومن بينها بيت المقدس ، ورغم وطأة الاحباط المرير الذى أرهق الصليبيين فى تلك المرحلة فقد ظل الحج يحتل جانبا هاما فى وجدان المقاتل الصليبى وتفكيره ، خوفا من الفشل فى الوفاء بنذره أو قسمه مما قد يعرضه للعقاب أو يعرض ورثته له اذا مات قبل ذلك (١) •

وتمدنا المصادر العربية بطائفة من الأمثلة التى توضح مدى حرص الصليبيين على رحلة الحج ولعل أكثر هذه الأمثلة دلالة ومغزى هو المثل الذى يقدمه ابن شـداد (٢) فقد حدث بعـد صلح الرملة بين المسلمين والصليبيين أنوصل الى بيت المقدس عدد كبير من الصليبيين للحج ، وفتح لهم صلاح الدين الباب فى ذلك « ••• ونفذ معهم الخفراء يحفظونهم حتى يردونهم الى يافا ••• » وكان هدف السلطان « ••• أن يقضـوا وطرهم من الزيارة ويرجعوا الى بلادهم فيأمن المسـلمون شرهم ، ••• « ولما علم ريتشارد قلب الأسد باقبال الصليبيين على الحج » •• صعب عليه ذلك ، وسير الى السلطان يسأله منع الزوار ، واقترح ألا يأذن لأحد الا بعد حضور علامة من جانبه أو بكتابه ، وعلم الأفرنجية ذلك فعظم عليها واهتموا فى الحج ، فكان يرد منهم كل يوم جموع كثيرة ، مقدمون أوساط وملوك متنكرون ••• » •

هذا المثل الذى قدمه لنا ابن شداد ، والذى تدعمه شواهد عديدة أشارت اليها المصادر العربية الأخرى (٣) ، يقطع كل سبيل أمام الشك فى أهمية الحج لدى المقاتل الصليبى ، فقد أدرك المسلمون أهمية الحج عند الصليبيون مما دفع بصلاح الدين الى تسهيل تلك المهمة أمامهم حتى يعودوا الى أوربا • الا أنه لم تكن لدى المصادر العربية فكرة واضحة

---

(١) Brundage, op. cit., p. 125

(٢) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٢٣٦ •

(٣) انظر مزيدا من الامثلة فى : ابن شداد ، ص١٥٦ ، وأسامة ، الاعتبار ص٦٩• وابن الاثير ، الكامل ، ج ١٠ ، ص ٢٥٠ - ص ٢٥١ ، ابن القـلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٧١ وأبو شامة ، الروضتين ، ص ٥٢ •

عن الأبعاد القانونية والاجتماعية التى أكسبت الحج هذه الأهمية عند المقاتل الصليبي ودفعته الى سلوك سبيل الحذر والحيطة حتى يستطيع القيام برحلة الحج والعودة الى بلاده دون أن يتعرض للعقوبات ولكى يظل محتفظا بامتيازاته من ناحية ثانية ٠ وهكذا نخلص الى أن حرص المقاتل الصليبى على الوفاء بنذره كان عنصر ضغط على نفسيته يحد من تحركاته وقدرته القتالية ويجعله أكثر حرصا فى قتاله ٠

تبقى بعد ذلك نقطة أخيرة ، وهى أن حذر المقاتل الصليبى يمكن أن يفسر أيضا فى ضوء الظروف التى أحاطت بهذا الوجود العدوانى الاستيطانى فى بلاد الشام ٠ ذلك احساس المقاتل الصليبى بانتمائه الى كيان دخيل قائم فى محيط من الأعداء الذين يتحينون الفرصة للاطاحة به ، جعله أكثر حذرا وحرصا ٠ وربما كان هذا الاحساس كامنا فى اللاشعور فى بداية الأمر ، ولكن تصاعد المقاومة الاسلامية ثم تنظيمها بحيث انتقلت الى مرحلة الهجوم ، أفقد هذا الكيان الدخيل احساسه بالأمان ٠ لا سيما وان الجميع قد شاركوا فى مقاومة الوجود الصليبى العدوانى بل ان البدو كانوا يهاجمون المعسكرات الصليبية بشكل مستمر من أجل سرقة الأسلحة والذخائر والمؤن ، وكذلك لاختطاف جنود الصليبيين (١) ٠

ولعل هذا السبب أيضا كان وراء اهتمام الصليبيين الشديد بالتحصينات سواء فى مدنهم وقلاعهم ، أو فى حصارهم وهجومهم على مدن المسلمين وحصونهم (٢) والأمثلة كثيرة ومتواترة فى المصادر التاريخية العربية على مدى اهتمام الصليبيين بالتحصينات ، فقد ذكر ابن الأثير (٢) ، وابن القلانسى (٣) ، وابن شداد (٤) ، وأبو شامة (٤) ،

(١) أنظر مثلا : ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ٣١٥ ، ابن شداد ، النوادر السلطانية ، صفحات ١٠٣ – ١٤٤ – ١٥٥ – ١٥٨ – ١٧٦ – ١٩٠ – ٢١٣ ، الروضتين ، ص ٨٠ ٠

(٢) عن تفاصيل التحصينات داخل القلاع الصليبية انظر :
J. Prawer, The world of the Crusaders, pp. 121-23 pp. (123-26).
وعن آلات الحصار أنظر المرجع نفسه ٠

(٣) الكامل فى التاريخ ، ج ١٠ ، ص ١٣٩ ، ص ١٨٤ ٠

(٤) ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٤٩ ، ١٦٣ ، ص ١٦٧ – ص ١٦٨ ٠

(٥) النوادر السلطانية ، ص ٩٠ – ٩٤ – ١٤٠ – ١٤١ – ١٦٢ – ١٦٦ ٠

(٤) الروضتين ، ٨٩ – ص ٩٠ ٠

وابن العديم (١) فى صفحات مؤلفاتهم طائفة من الأمثلة التى توضح مدى اهتمام الصليبيين بالتحصينات ، كما تكشف من ناحية أخرى عن مدى ضخامة الأبراج التي كانوا يستخدمونها فى حالات حصار المدن الاسلامية ، أو اقتحامها ، فقد كانت بعض هذه الأبراج تتألف من عدة طوابق ، كما كان بعضها يتسع لألف مقاتل ٠

كما أن الرحالة ابن جبير ـ الذى زار بلاد الشام فى عصر صلاح الدين فيلاحظ اهتمام الصليبيين بتحصين مدنهم ، ويقول فى ملاحظة ذكية عن مدينة صور المحتلة « ٠٠٠٠ مدينة يضرب بها المثل فى الحصانة ، لا تلقى لطالبها بيد طاعة ولا استكانة ، وقد أعدها الفرنج مفزعا لحادثة زمانهم ، وجعلوها مثابة لأمانهم ٠٠٠ » (٢) ٠

والواقع أن أية مجموعة استعمارية استيطانية تمثل أقلية عسكرية ، وتريد أن تبسط سيادتها على أكثرية معادية ، لابد لها من أن تتركز فى مجموعة من المدن الحصينة والقلاع ، وأن تهتم بتدعيم قواتها العسكرية لكى تؤمن وجودها ٠ وهو ما يصدق على الكيان الصليبى فى بلاد الشام ٠ فقد اهتم الصليبيون بالتحصينات فى مدنهم ، كما أقاموا مجموعة من الحصون والقلاع رصعوا بها شبكة الطرق الرئيسية والفرعية فى جميع أنحاء الشام لتؤدى دورا أشبه ما يكون بدور مراكز الشرطة أو القواعد العسكرية ، التى ربطوا بينها بوسائل الاتصال السريع ، مثل الحمام الزاجل واشارات النيران ، لكى يوفروا لأنفسهم سبل الانذار المبكر ، ويسهلوا الاتصالات بين أماكن الوجود الصليبى (٣) ٠

وقد أشار العماد الأصفهانى الى هذه الحقيقة بقوله : « ٠٠٠ وقد رتب الفرنج أفواجا على تلك الفجاج ، لا سيما أبرنس الكرك ، فانه كان حريصا على الدرك ٠٠٠ » (٤) ٠

واذا كانت المصادر العربية قد لاحظت اهتمام الصليبيين بالتحصينات فان استماتة الصليبى فى الدفاع عن مدنه وقلاعه لفت

---

(١) زبدة الحلب ، ج ٢ ، ص ١٤٢ ٠

(٢) رحلة ابن جبير ، ص ٢٩١ - ص ٢٩٢ ، ص ٢٩٤ ـ ٢٩٥ ٠

(٣) J. Prawer, op. cit., p. 121.

(٤) الفتح القسى ، ص ٥٩ ٠ وابرنس الكرك هو Renauld de Chaillon الذى تسميه المصادر العربية « أرناط » ٠

انتباه هذه المصادر أيضا . ويمكن تفسير هذه الاستماتة والضراوة فى الدفاع فى ضوء الحقيقة القائلة بأن فقدان الصليبيين للمدن والأراضى التى احتلوها فى سوريا وفلسطين كان يعنى النهـاية بالنسبة لهم وتتجسد هذه الحقيقة واضحة فى عبارة لأحد المؤرخين المحدثين يقول : « كان الغرب موجودا تحت سماء الشرق » (١) .

ويجـد البـاحث العديد من الأمثلة التى توضـح مدى استماته الصليبى فى الدفاع عن مدنه وقلاعه ففى حوادث سنه ٥٠٩ هـ , ١١١٥م) يذكر أسامة بن منقذ كيف ظل الصليبيون يقاتلون بضراوة فى قلعة كفر طاب رغم اشتعال النيران فى الحصن حتى افتحمه المسلمون (٢) . كما يقـدم ابن شـداد عدة ملاحظات هامة فى هـذا المجال مثل قوله « ... وقد شاهدتم ، وكلما قتل منهم رجل قام غيره مقامه ، وهم قيام عرض الجدار مكشفين ... » أو قوله : « ... ورأى الناس هولا عظيما من صبر القوم وثباتهم ... » الى غير ذلك من الملاحظات (٣) . كما يقدم لنا الأصفهانى عددا من الأمثلة على ذلك (٤) .

ويجدر بنا أن نشير فى هذا المقام أن بعض نساء الصليبيين كن يشاركن فى المعارك ضـد المسلمين وأن بعضهن مات أثنـاء احتدام المعارك (٥) .

كذلك وصفت المصادر العربية المقاتل الصليبى بالغدر ونستطيع أن نجـد لهذه المصادر مبررا فيما ارتكبه الصليبيون من فعال شنيعة بمذابح ضد أهالى البلاد رغم أمانهم لهم ، ويضيق بنا المقام عن تتبع هذه الأمثلة ، ولكننا نقتبس عبارة لابن شداد تجسد هذه الرؤية التى نظرت بها المصادر العربية الى الصليبى ، فهو يقول « ... فان مصافاة الفرنج للمسـلمين بحيث يخالطـوهم بعيـدة وصحبتهم غير مأمونة الغائلة ... » (٦) .

(١) Prawer, op. cit., p. 83.

(٢) أسامة الاعتبارية ، ص ص ٧٣ ـ ص ٧٥ .

(٣) النوادر السلطانية ، ص ٩١ ـ ص ٩٣ ـ ٩٤ ـ ١٢٠ ـ ١٦٧ ـ ٢٢٣ ـ ٢٢٤ ـ ٢٢٦ ـ ٢٢٧ .

(٤) الفتح القسى ـ ص ٦٥ ـ ١٤ ـ ص ١٢٩ ـ ص ١١٩ ـ ص ٢٧٣ ـ ص ٢٧٤ .

(٥) أسامة، الاعتبار ، ابن شداد : النوادر ـ ص ١٣٠ ـ ١٦٧ ـ ١٧٨ ـ ١٧٩ .

(٦) ابن شداد : النوادر السلطانية ـ ص ٢٠٣ ـ انظر أمثلة غدر الصليبيين صفحات ٩٧ ـ ٩٨ ـ ١٠٢ ـ ١٠٣ ـ ص ١١٧ وأنظر أيضا الفتح القسى ـ ص ٢٨٦ .

تبقى بعد ذلك ملاحظة أخيرة للمصادر العربية على صورة المقاتل الصليبى وهى ملاحظة فرعية جسدها أسامة بن منقذ فى قوله «...فكل من هو قريب العهد بالبلاد الأفرنجية أجفى أخلاقا من الذين قد تبلدوا وعاشروا المسلمين ...» (١) ، وهنا نشير الى أن الحرب لم تمنع من قيام الصلات الحضارية والانسانية بين المتحاربين فقد ضربت لنا المصادر العربية الكثير من الأمثلة الدالة على ذلك . بل ان بعض المؤرخين يصف الوافدين الجدد من الصليبيين بكلمة « الغرباء » (٢) . بيد أن مسألة التفاعلات الحضارية بين الشرق والغرب مسألة لا يمكن أن تبحث فى مثل هذه الحالة ، وانما تستحق أن نفرد لها صفحات بحث مستقل .

والخلاصة أن الصورة التى رسمتها المصادر التاريخيه العربيه للمقاتل الصليبى خلال فترة الحملات الثلاث الاولى ، صورة تبدو متناقضة الملامح للوهلة الأولى ، فهو مقاتل يتحلى بالشجاعة ولكنه فى الوقت نفسه مبالغ فى الحذر . وعلى الرغم من تدينه العاطفى ، فانه يوصم بالوحشية والقسوة والغدر .

بيد أن النظرة الفاحصة المتأنية تكشف أن هذا التناقض البادى فى صورة المقاتل الصليبى تناقض ظاهرى وهمى تماما ، فالشجاعه صفه أساسية فى الفارس الصليبى ، ولكنها فى الوقت نفسه فعل محسوب لا يهمل الخطر ، كما أن الحذر والاهتمام بالحصون يتوافقان تماما مع طبيعة الوجود العدوانى الاستيطانى للصليبيين فى بلاد الشام ، وما يلقان من مقاومة اسلامية مستمرة . أما تدين المقاتل الصليبى فهو تدين عاطفى غير عقلانى ، خلقته الدعاية البابوية واشاعات الرؤى والاحلام التى واكبت الحركة الصليبية ، كما أن هذا التدين تشوبه الخرافات ويحكمه التعصب الأعمى والحقد على المسلمين . ومن ثم لم يجد الصليبى بالمرة بين تدينه وغدره بأعدائه ، بل أنه رأى فى ذلك خدمة للصليب وتنفيذا لارادة الرب الذى أراد لهذه الحرب أن تكون .

---

(١) أسامة الاعتبار - ص ١٣٤ . ويقصد بكلمة « تبلدوا » أنهم تعودوا على نمط الحياة الاسلامية فى بلاد الشام .

(٢) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١٤٠ .

قائمة المصادر والمراجع

١ ـ ابن الأثير (أبو الحسن على بن أبى الكرم بن الأثير الجزرى) · ت ٦٣٠ هـ :

ـ « الكامل فى التاريخ « ج ١٠ ، ج ١١ ·

٢ ـ ابن جبير (أبو الحسن محمد بن أحمد الأندلس · ت ٦١٤) :
ـ « رحلة ابن جبير » تحقيق د ·حسين نصار (القاهرة ١٩٥٥)

٣ ـ ابن شداد (بهاء الدين بن شداد · ت ٦٣٢ هـ) :
النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية »
تحقيق د · جمال الدين الشيال (الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٦٤) ·

٤ ـ أبو شامة (شهاب الدين أبو محمد عبد الرحمن بن اسماعيل ابن ابراهيم المقدس الشافعى ت ٦٦٥ هـ) :
ـ « كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية » (القاهرة ١٢٨٧ هـ) ·

٥ ـ أسامة بن منقذ (مؤيد الدولة أبو مظفر أسامة بن مرشد الكنانى الشيزرى (ت ٥٨٤ هـ) ·
ـ « كتاب الاعتبار » تحقيق فيليب حتى (برنستون ١٩٣٠) ·

٦ ـ ابن العديم (كمال الدين أبو القاسم عمر بن أحمد بن هبة الله ابن العديم ت ٦٦٠ هـ) ·
ـ « زبدة الحلب من تاريخ حلب » الجزء الثانى
تحقيق سامى الدهان (دمشق ١٩٥٤) ·

٧ ـ ابن القلانسى (أبو يعلى حمزة بن القلانسى · ت ٥٥٥ هـ) :
« ذيل تاريخ دمشق »
(بيروت ١٩٠٨) ·

٨ ـ ابن واصل (جمال الدين محمد بن سالم واصل · ت ٦٩٧ هـ)
ـ « مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب » ج ١ ـ ج ٣ ·
تحقيق د· جمال الدين الشال (القاهرة ١٩٥٣ ـ ١٩٦٠)

٩ ـ جوزيف نسيم (دكتور) :
ـ « العرب والروم واللاتين في الحرب الصليبية الأولى »
(دار المعارف ١٩٦٣) ·

١٠ ـ سعيد عاشور (دكتور) :
ـ « الحرب الصليبية » جزءان (الطبعة الثانية·القاهرة ١٩٧١)

١١ ـ العماد الأصفهانى (صفى الدين أبو الفرج محمد بن حامد ابن محمد بن عبد الله القرشى الأصفهانى · ت ٥٩٧ هـ) ·
ـ « الفتح القسى فى الفتح القدسى »
تحقيق محمد محمود صبح (القاهرة ١٩٦٥) ·

١٢ ـ محمد مصطفى زيادة (دكتور) :
ـ « حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته فى المنصورة »
(القاهرة ١٩٦١) ·

13. Brundage (James), Medieval canon law and the Crusaders, The university of Wisconson press, Madison 1969.

14. Barraclough (Geoffrey) :
— The Medieval papacy, Thomas and Hudson, London 1968.

15. Cantor (Norman F.) :
— The Medieval history, Macmillan, New York, 1969.
— The Medieval World., Macmillan, 1968.

16. Joinville and Villehardouin :
Chronicles of the Crusades, tranel, and introduced by M.R.B. Shaw, Penguin Classics 1973.

17. Jonathan Riley-Smith :
— The Feudal nobility and the Kingdom of Jerusalem, 1174-1277, Macmillan, London 1973.

18. Fulcher of Charteres :

— The chronicle of Fulcher of Charters and other source materials of the First Crusade, transel. with an introduction by Edward Peters, pennsylvania 1971.

19. Morris Bishop :

— The Penguim book of the Middle Ages,

20. Mahammed K. H. Ahmed :

— «The Crusader in the memoires of Usama Ibn Munqidh» A paper delivered at the American Academy of religion, Washington.

21. Norman (A.V.B.).

— The Medieval Soldier, New York 1971.

22. Painter Sidney.

— A history of the Middle Ages, Macmillan, London 1953.

23. Prawer (Joshua) :

— The world of the Crusaders, New York 1972.

24. Runciman (Steven) :

— A History of the Crusads, Vol. 1, New York 1964.

25. Smail (R.C.) :

— Crsading Warfare 1097-1193, Cambridge 1967.



حياة الإمبراطور إلكسيوس كومنينوس كمصدر من مصادر تاريخ العلاقات بين الشرق الإسلامي والغرب المسيحي في القرن الثاني عشر الميلادي

د. فتحية عبد الفتاح النبراوي

كلية الدراسات الانسانية ـ جامعة الأزهر

تميز القرن الثانى عشر الميلادى بالصراع المسلح بين الشرق والغرب ذلك الصراع الذى اتخذ من أراضى الاسلام مسرحا لعمليات عسكرية مختلفة شاركت فيها شعوب مختلفة المذاهب والاتجاهات الفكرية والسياسية ٠

ومن جهة أخرى تميز هذا القرن بظهور علاقات دبلوماسية مختلفة بين الخلافة الاسلامية وجيرانها من الافراد المسلمين على اختلاف ميولهم السياسية والمذهبية ، والدولة البيزنطية ، والأتراك والسلاجقة ، بالاضافة الى الغـــرب اللاتينى الكاثوليكى الذى كان له دور اســـاسى فى تلك العلاقات ٠

كان من الواضح أن الصراع المسلح بين الشرق والغرب اســتهدف بالدرجة الأولى اراضى الدولة الاسلامية وذلك تحقيقا لأطماع ومكاســب شخصية للصليبيين أو بالأحرى للمسيحيين على كافة أقسامهم ٠

لقد كانت البابوية تهدف الى تدعيم وجودها الروحى بين أبنـــاء الشعب المسيحى فى أوربا ، كما انها أرادت أن تؤدب المسيحيين المنشقين عن البابوية ممثلين فى المسيحيين الشرقيين ٠ وفى ذات الوقت كان الأمراء الاقطاعيون يتوقون الى الحصول على مجد شخصى يرضى طموحهم خاصة اذا

ما كان ذلك يتعلق بالأراضى المقدسة بمالها من بريق مادى ، وآثار روحية .

بينما رأت الامبراطورية البيزنطية فى قيام فكرة الحروب الصليبية فى الغرب فرصة سانحة للثأر من الأتراك السلاجقة ، واستعادة بعض أراضيها المفقودة ، بل يمكن القول انها وجدت فى الاشتراك فى تلك الحروب فرصة للثأر من الاسلام عامة ، فقد كانت سورية كلها ولاية بيزنطية تدفع الضرائب وتقدم الرجال للامبراطور طاعة وولاء . وهى حين رأت ذلك نست أو تناست الخلافات الدينية عميقة الجذور بينها وبين البابوية فى روما .

وقد كان لتلك العلاقات الدولية على كافة أنماطها واشكالها وألوانها، سلمية كانت أو عسكرية ، ثقافية أو اقتصادية ، آثارها الواضحة فى تشكيل تاريخ البلدان التى اسهمت بدور فيها ، كما انها تركت بصماتها واضحة فى حضارة شعوبها .

وعلى الرغم من الجهود العلمية المتعددة التى بذلت لدراسة العلاقات بين الشرق والغرب فى هذه الفترة ، وعلى الرغم من المحاولات الكثيرة لبحث طبيعة تلك العلاقات فان الموضوع لا يزال مجالا خصبا لمزيد من الدراسة والبحث خاصة اذا وضعنا فى اعتبارنا أن المصادر الاصلية ما تزال تحتاج الى مزيد من القاء الضوء على محتوياتها للافادة من المادة التاريخية الأولية التى تقدمها للدارسين .

والدراسة التى بين ايدينا تعتمد بالدرجة الأولى على واحد من أهم المصادر التاريخية التى عالجت موضوع العلاقات بين الشرق والغرب ، وأعنى به كتاب حياة الامبراطور البيزنطى الكسيوس كومنينوس الذى كتبته اناكومنينا ابنة الامبراطور ، ووضعت له عنوانا ملحميا (The Alexiad)

وحياة الامبراطور الكسيوس كومنينوس يقدم صورة حية لطبيعة العلاقات بين الغرب المسيحى الكاثوليكى وبين الدولة البيزنطية الارذوكسية حين حاول المسيحيون رغم خلافاتهم المذهبية العميقة التقارب من اجل تنفيذ مخططهم لغزو الشرق الاسلامى واسترجاع الأراضى المقدسة من أيدى المسلمين ، وعلى الرغم من ظهور بوادر اتفاق على الهدف فى بداية الأمر الا أن الخلافات الدينية بين الغرب اللاتينى والشرق الرومانى كانت عميقة بحيث أنها كانت تظهر على السطح بين حين وآخر لتفسد الجهود

المشـــتركة التى حاول المسيحيون بذلها فى ســـبيل انجاح الحروب الصليبية ٠

وهنا يجب ان نبرز حقيقة هامة وهى أن الوفاق بين الشرق الرومانى والغرب اللاتينى لم يكن الا لخدمة مصالح كل فريق على حدة ، فالامبراطور البيزنطى رأى فى ذلك الوفاق فرصته سانحة لتحقيق أهداف الامبراطورية الرومانية القومية وذلك بالثأر من الاتراك واسترداد الأراضى التى استولى عليهـا السلاجقة وفى نفس الوقت كان الغرب المسيحى ممثلا فى الكنيسة والبابوية والامبراطورية والأمراء يحاول أن يحقق آمالا عراضا فى اطار الدعاية لحرب مقدسة تكرس لها المسيحية طاقاتها المادية والروحية تخليصا للأرض المقدسة وحماية للحجاج المسيحيين الى أرض المسيح ٠

حاولت الأميرة أناكومنينا فى كتابها رســم صورة حقيقية لجهـود أبيها فى خدمة الامبراطورية البيزنطية وخدمة شعبها ، وألقت الأضواء على دوره فى المجالات العسكرية والانشائية وغيرها الا أن أهم ما يعنينا فى كتابها هو موضوع العلاقات بين الامبراطور البيزنطى الكسيوس كومنينوس والصليبيين الأوائل رجال الحملة الصليبية الأولى ، حيث عملت الأمـيرة جاهدة على ابراز موقف أبيها الواضح فى خدمة المسيحية بغض النظر عن مصالح الدولة والامبراطورية ، وان كان الدارس يستطيع ان يرى استماتة الامبراطور فى اقناع الصليبيين بكافة الوسائل لاستعادة الأراضى التى استولى عليها السلاجقة ويتمثل ذلك فى موقفه من امارة انطاكية اللاتينية وخاصة فى عهد الأمير تانكرد ٠

ولما كنا بصـــدد الحديث عن كتـــاب حياة الامبراطور البيزنطى الكسيوس باعتباره الاساس الأول الذى تعتمد عليه هذه الدراسة فانه من المفيد أن نلقى بعض الضوء على كاتبة هذا الكتاب وهى الأميرة اناكومنينا الابنة الكبرى للامبراطور ، بالاضافة الى الاشارة الى الحياة الفـــكرية والثقافية فى الامبراطورية البيزنطية وبصفة خاصة فى عهد الامبراطور الكسيوس كومنينوس ، مع عرض لمحتويات الكتاب ٠

انا كومنينا : Anna Comnena

أنا كومنينا هى نتاج الحياة الفكرية الخصبة التى عاشـــتها الامبراطورية البيزنطية فى عهد الاسرة الكومنينية حيث انها تمثل العقلية الرومانية الشرقية المتعصبة لمسيحيتها أولا ولجنسها ثانيا ، فقد كانت

تنظر لغير الرومان على انهم برابرة وامتدت هذه النظرة لتشمل المسلمين من العرب والأتراك والفرس حيث كانت تسميهم مشارقة Saracens وابناء هاجر Ayareen والاسماعيليين احفاد سيدنا اسماعيل ، كذلك كان المسيحيون من الغرب الأوروبى يندرجون تحت هـذه النظرة فقد كانت تسميهم البرابرة ، وقد ظهرت كراهية الأميرة للأرمن وللبابوية وخاصة البابا جريجورى السابع ، وقد تمادت اناكومنينا لدرجة التطرف فى انها احتقرت اخوانها فى الدين مسيحى غرب أوروبا .

حظيت اناكومنينا بقسط وافر من التعليم والثقـافة فقد تعلمت اللغـة اليونانية واتقنتها ، وتزوقت الشعر وقرضته ، ونهلت من أعمال أرسطو وأفلاطون .

وكان لها دراية واسعة بالعلوم الانسانية واللاهوتية ، وابدت كثيرا من الاهتمام بدراسة الطب ، وعرفت شيئا من الفلك والموسيقى والحساب والهندسة .

وقد ولدت اناكومنينا عام ١٠٨٣ بعد عودة أبيها منتصرا من احدى حروبه ، ولقد كانت لحظة سعيدة لكل من الكسيوس وأيرينى بيد أنهـا لم تخلو من خيبة امانهما فمن المؤكد أنهما كانا يريدان ان يكون وليدهما الأول ولدا (وريثا للعرش) .

واناكومنينا واحدة من سبعة أبناء ، اربعة من الاناث وثلاثة مـن الذكور ، وفى عامها الثـامن تمت خطبتهـا الى قسطنطين (ديوكاس Canstantine Ducas ومن ثم انتقلت لتعيش مع اسرته ، كمـا اهتم ابوها بزوج ابنته المرتقب وعامله معاملة طيبـة واشركه فى كثير من أموره .

وربمـا تمنت اناكومنينا أن تخلف أباها على عرش الامبراطورية البيزنطية مع قسطنطين الا أن هذا الامل تبدد حين ظهر فى الافق أخوها يوحنا كومنينوس ففسخت خطبتها .

ومن الجدير بالاشارة الى أن علاقاتها بأخيها ظلت سيئة يشوبهـا الشك ، بل أنها قادت ثورة فاشلة ضده حين تولى العرش ، فنفاها حيث عاشت بقية حياتها .

تزوجت اناكومنينا بقيصر نقفورس يرينيوس ضـد رغبتها كمـا تقول فى مقدمة وصيتها حيث تذكر أنها وافقت على الزواج منه ارضاء

لرغبة والدها وبالرغم من ذلك استمر زواجهما أربعون عاما انجبت خلالها أربعة من الأطفال ، ومات زوجها عام ١١٣٧ م ، ولقد كان نقفورس متكلما بليغا مؤرخا محاربا شجاعا ، استخدمه الامبراطور الكسيوس فى القضاء على الهراطقة ، كما اشترك فى خدمة الامبراطور يوحنا كومنينوس شقيق اناكومنيا واخلص فى خدمته ٠

الحياة الفكرية فى عصر الامبراطور الكسيوس كومنينوس : ـ

أدى احياء مدرسة القسطنطينية التى شملها الاصلاح فى القرن الحادى عشر الى خلق مناخ فكرى اتاح لكثير من العلماء والكتاب والمفكرين فرصة سانحة للظهور ٠ (٢)

وكان اهتمام الأسرة الكومنينية بالنهضة الأدبية كبيرا حيث كرس عـــدد من أفرادها أنفسهم للعلم ، فقد كانت أم الامبراطور الكسيوس Anna Dalassena مهتمة بالعلم ومن ثم أخذت عنها اناكومنينا حب العلم والشعف بالمعرفة ٠ كذلك كتب الامبراطور الكسيوس بعض الرسائل الفلسفية الدينية ضد الهراطقة نشرت عام ١٩١٣ م ٠ (٣) ٠ كما كان زوج الأميرة اناكومنينا مؤرخا أديبـــا ، وقد اراد ان يكتب تاريخا للامبراطور لكن الموت حال بينه وبين تحقيق هذه الرغبة ، وكتب تاريخا مختصرا للأحداث بين عامى ١٠٧٠ : ١٠٧٩ ، ويقال ان تاريخ الكسيوس الذى وضعته أنا لأبيها هو ذيل لما كتب زوجها نقفورس ٠

الالكسياد : The Alexiad

الالكسياد هو سنجل لحياة الامبراطور الكسيوس كومنينوس من وجهة نظر ابنته أنا المعجبة بأبيها والتى تقول : انها أرادت أن تسـجل أعمال والدها حتى لا يجرفها تيار الزمان الى محيط النسيان ، كما أنها أرادت أن تعدد أعماله وانجازاته وخدماته التى أداها للامبراطورية قبل ان يعتلى عرشها وقبل ان يتوج امبراطورا للدولة الرومانية الشرقية ٠ وتضيف أنا كومنينا انها حاولت ان تضع الحقائق فى كتابها والحقائق العارية عن الامبراطور والامبراطورية ٠

والكتاب وضع باللغة اليونانية ، صنفته الأميرة أنا بعد وفاة أبيها بثلاثين أو أربعين عاما وترجم الكتاب الى الانجليزية عدة مرات ٠ (٤) ويعد كتاب حيـــاة الامبراطور الكسيوس انجازا عظيمـا لذلك العصر ، بل انه يعد من مقدمات عصر النهضة ٠

وتتمثل أهمية هذا العمل التاريخي فى اعتماد الأميرة أنا كومنينا على الوثائق والاوراق الرسمية فى ارشـــيف الدولة ، بالاضـــافة الى المراسلات الدبلوماسية بين أبيها وجيرانه الامراء والملوك والبابوات ، وكذلك نصوص الاتفاقيات والعهود التى كانت تبرم بين الامبراطور وغيره من الملوك المعاصريين ، الى جانب المراسيم الامبراطورية .

والألكسياد أو حياة الامبراطور الكسيوس يعد من المصادر اليونانية الهامة للحروب الصليبية ، وخاصة الصليبية الأولى ، وعلى الرغم من بعض المآخذ التى يبرزها المؤرخون ضده فانهم يضعون فى مقدمة المصادر الاولية لقضية الصراع بين الشرق والغرب فى القرن الثانى عشر الميلادى . (٥)

وللمؤرخين آراء كثيرة حول هذا الكتاب فيقول Seuter وهو صاحب الترجمة التى اعتمدنا عليها عند اعداد هذا البحث أن شخصية الامبراطور الكسيوس الحقيقية ضاعت خلال المديح المصطنع الذى لا تخلو منه صفحة من صفحات الكتاب (٦) . بينما يرى Ostragorsky أن هذا العمـــل مصدر على جانب كبير من الأهمية ويؤكد هذا الرأى كل من
Prof. Hussey Vaseliev
فيقول الأول ان الكتاب مهم جدا من وجهة النظر التاريخية ، وتذكر الثانية أن الألكسياد يقـــدم عملا لشخصية ناضجة مستقلة (٧) . كمـــا يقول krumbaeher ان الالكسياد يعتبر من أهم الاعمال التاريخية فى العصور الوسطى على الاطلاق .

اما نورمان بينز Norman Bayns فيرى ان الالكسياد من كتب التاريخ التى كتب للقارىء المثقف الذكى ، ويرى فى كتابه Byzantuim ان الكتابة التاريخية فى الامبراطورية البيزنطية تنقسم إلى قسمين (٨) .

(أ) التاريخ الذى يكتبه رجال متعلمون ومؤرخون يكتبون للقارىء المثقف .

(ب) الحوليات وهى التى تكتب للاستهلاك المحـــلى واســـتيعاب الجماهير .

ويضيف Bayns ان من ممثلى الكتابات التاريخية الصحيحة History Proper بروكوبيوس من كتاب القرن السادس (٩) ، وليو دياكونس من كتاب القرن العاشر ، وانا كومنينا من كتاب القرن الثانى عشر

ويذكر Bayns أن أنا كومنينا اعتمدت على ذاكرتها ومعاصريها الا أنه مما يضعف روايتها أنها لم تكن تعى تماما الحوليات ، أنها كانت تمثل الشعور البيزنطى العام الذى تمثل فى العداء ضد الصليبيين (١٠)٠

ومع أهمية الكتاب كمصدر من مصادر تاريخ الامبراطورية البيزنطية الا أنه لابد من اثبات الحقائق التالية :

١ ـ يظهر بوضوح مدى تحامل الأميرة انا كومنينا على الشعوب المحيطة من الفرس والعرب والاتراك واللاتين وغيرهم ٠

٢ ـ غموض المعلومات الجغرافية الواردة فى الكتاب ٠

٣ ـ وردت بعض الاخطاء فى التواريخ المثبتة فى الكتاب كما ورد بعض الخلط فى الأسماء ٠

٤ ـ وردت بعض الاخطاء الخاصة بمعلومات الأميرة أنا عن الشعوب المجاورة للامبراطورية الرومانية ٠

قسمت أنا كومنينا كتابها الى خمسة عشر سفرا ، كتبته بلغة أدبية تمثل لغة العصر ، كما يذكر صاحب الترجمة ٠ ويطالعنا السفر الأول ليحدثنا عن حياة الامبراطور الكسيوس من الصبا وبداية الشباب مشيرا الى دوره العسكرى فى خدمة الامبراطور رومانوس ديوجينس وخاصة الحرب ضد الاتراك ٠ وتتحدث الأميرة فى السفر الثانى عن ثورة الأسرة الكومنينية ، أما السفر الثالث فيختص بالحديث عن اعتلاء الامبراطور الكسيوس عرش الامبراطورية والصراع بين اسرتى كومنينوس ودوكاس ٠ ويأتى السفر الرابع ليتناول الحرب مع النورمان عام ١٠٨١ : ١٠٨٢ م ٠ ويوالى الخامس الحديث عن الحرب مع النورمان ، والمواجهة الأولى بين الامبراطور الكسيوس والهراطقة ٠ ثم يلى ذلك السفر السادس حيث تذكر فيه هزيمة النورمان ٠ وخصصت السفر السابع للحديث عن الحرب مع القبائل البربرية القاطنة شرق أوروبا وروسيا الآسيوية ٠ .«Scyths» (١١) واما السفر الثامن فتتابع الحديث فيه عن الحرب مع تلك القبائل (السكائية) Scythians (الشناق ؟) ٠ ويتناول السفر التاسع حرب أبيها مع الأتراك ومؤامرة نقفور ديوجنيس ، وأما السفر العاشر فيعالج احدى الهرطقات الذى ظهرت فى الامبراطورية حول طبيعة المسيح ، وتشير فى هذا السفر الى الحملة الصليبية الأولى ٠ ويختص السفر الحادى عشر بالحملة الصليبية الأولى

١٠٩٧ : ١١٠٤ م وتذكر في هذا السفر وحشية الصليبيين خاصة عند دخولهم المدينة المقدسة بيت المقدس فتقول : —

«They were in a hurry to reach Jerusalem. The Walls were encircled and Repeatedly attached, and after a Ridge of ne lunar month it fell. Meny Saralens and Hebrews were marraled».

وتفرد أنا كومنينا السفر الثاني عشر من كتابها للحديث عن المشكلات الداخلية والعدوان النورماندى الثانى على الامبراطورية · أما السفر الثالث عشر فيدرس المؤامرة التى استهدفت حياة الامبراطور ، وهزيمة بوهيمند · والسفر الرابع عشر يناقش الشعوب المتبررة من الاتراك والفرنجة والكومانس Cumans وغيرهم · وفى هذا السفر تفصل أنا كومنينا الحديث عن العلاقات بين أبيها وتانكرد الذى تولى امارة أنطاكية بعد وفاة بوهيمند فى لومباردى ، وتوضح كيف ساءت العلاقات بشكل واضح بين اللاتين والرومان · وقد أبدت اناكومنينا احتقارها الشديد للفرنجة البرابرة Barbarian Franks الذين خرقوا العهود والمواثيق التى عقدوها مع أبيها الامبراطور الذى ضحى بالكثير من الاموال والجهد والرجال من أجل مساعدتهم على أمل الحصول على ما فقدت الامبراطورية من أراض ، الا ان هذا كله تبدد أمام أطماع اللاتين وحرصهم على الحصول على مكاسب دنيوية فى الأراضى المقدسة ·

وتختتم كتابها بانتصار الامبراطور على الاتراك ، وموقفه من الهراطقة وخاصة هرطقة Bogomils الى ان انتهت حياة الامبراطور الحافلة بالاحداث الجسام والانتصارات المختلفة للامبراطورية البيزنطية ·

أوضحت أنا كومنيا سير العلاقات السياسية بين الامبراطورية البيزنطية فى عهد أبيها الامبراطور الكسيوس كومنينوس وبين الكيانات السياسية المختلفة فى العالم الاسلامى ، ومهما حاولت الأميرة أنا تصوير تلك العلاقات السياسية فان السمة العامة التى ميزتها كانت العداء وعدم الثقة المتبادلين بين الصليبيين والامبراطور ، خاصة بعد أن عقد الامبراطور اتفاقا معهم وذلك لمساندتهم فى مسيرتهم المسلحة ضد أراضى الدولة الاسلامية وذلك فى عام ١٠٩٧ · وفى تلك الاتفاقية تعهد الامبراطور بتقديم العون المادى والمعنوى للصليبين بل وتسهيل سبل العبور فى آسيا الصغرى للمقاتلين المسيحيين وحمايتهم ضد غارات الأتراك

السلاجقة ، بينما تعهد الصـــــليبيون برد الأراضى البيزنطية التى يتم استردادها من الأتراك السلاجقة للامبراطور ٠

لقد جمد الصليبيون بمسلكهم تجاه الامبراطور الكسيوس كومنيوس اتفاقية القسطنطينية الشهيرة وجعلوها غير ذات موضوع ، ويتضح هــذا من حديث بوهيمند أوردته الأميرة آنا كومنينا فى حياة أبيها ٠ يقول بوهيمند :

«When with my multitudinous army of Franks I came to the imperial city on my from Europe to Asia for the lebiration of Jerusalem an agreement was made with your Majesty, the divinely appointed Empror. That agreement in consequence of certain unexpected events has since been violated...» (١٣)

وخلال وجوده فى القسطنطينية فى طريق عودته الى ايطاليا جـــدد بوهيمند الولاء بل والحلف مع الامبراطور البيزنطى فيما يمكن ان يعد ملحقا لاتفاقية القســـطنطينية وقد اقسم بوهيمند يمين الولاء والطاعة للامبراطور ، وذلك عام ١١٠٨ وفى هذا القسم الذى اوردته أنا كومنينا تظهر مبالغة الأميرة فى تصوير الموقف المهين الذى كان عليه بوهيمند ومدى ندمه على موقف الصليبيين من الامبراطور البيزنطى راعى المسيحية فى الشرق ٠ وكان نص القسم :

(I swear by the passion of Christ our Savior who suffers no longer and by his invicible cross, which for salvation of all men He endured, and by the All-holy Gospels here before us, which have coverted the whole worled; with my hand on these Gospels I swear; In my mind I associate with them the much honourd Cross of Christ, the Crown of Thorns, the Nails, the Spear that pierced Our Lord's side, giver of life: by these I swear to you our Lord and Emperor Alexius Comnenus, most powerful and revered, and to your co-Emperor. The thrice beloved Lord John the Porphyrogenitus, that all the agreements made between us and confirmed by me verbally I will observe and will for ever keep absolutely inviolate; that I support Your Highness now, so I will support you in the future, with no malignity, no treachery — the mere thought of them is abhorent — for I will abide by the un-

dertakings I have given and will in no manner whatsoever violate my oath to you, nor will I proceed to disregard my promises, nór attempt to evade my responsibilities in any way under the treaty and this applies not only to myself but also to all those with me, who are under my jüridiction and make up the numbers of my army. Moreover, we shall arm ourselves againest your enemies with breastplate, weapons and spears, and we shall clasp the right hand of your friends. In though and in deed I shall do everything to help and honour the Empire of the Romans. So my I enjoy thl aid of God, of the Cross, of the holy Gospels).

وهنا تضيف أنا كومنينا ان هذه الكلمات دونت ووقع عليها الشهود وكان ذلك فى سبتمبر عام ١١٠٨ م (١٥) .

ومهما يكون من أمر ، فقد حاول كل فريق ان يؤكد للفريق الآخر حسن نواياه ، واخلاصه من أجل خدمة الآخر ، الا ان الواقع كان يحتم مسلكا آخر ، وهنا يذكر Runciman ان الامبراطور البيزنطى لم يكن ليضحى بمصالح الامبراطورية من أجل ارضاء الصليبيين ، ذلك أن واجبه الأول يحتم عليه رعاية مصالح رعاياه (١٦) . فلم يتوان الامبراطور فى ارسال حملة عسكرية الى انطاكية حين ماطل الصليبيون فى تنفيذ بنود الاتفاقية المبرمة بينه وبينهم ، مع وضعنا فى الاعتبار ان النورمان هم الذين تولوا أنطاكية ، وان ثمة عداء قديما بين النورمان والامبراطورية ذلك العداء الذى لم يستطع كلا الفريقين ان يتخلص منه أو حتى يتناساه .

وبنفس الدرجة لم ينس البيزنطيون هزيمتهم فى ملاذكرد عام ١٠٧١ تلك الهزيمة التى اسر فيها الامبراطور البيزنطى رمانوس ديوجينس ذلك أن ملاذكرد قد غيرت الاوضاع السياسية تماما فى آسيا الصغرى بل وفى بلاد الشام ، واستطاع السلاجقة ان يستولوا على كثير من بلاد الشام وأصبحوا هم الخطر الحقيقى الذى يهدد الامبراطورية البيزنطية .

لم تكد آثار الصدمة الكبرى تزول بعض الشىء عن الامبراطورية ، كما لم يكد البيزنطيون يلتقطون انفاسهم بعد صراعهم الطويل مع الاتراك السلاجقة حتى واجهتهم قضية جديدة هى قدوم الصليبيين الى اراضيهم فى طريقهم الى بيت المقدس .

ويرى Vasliev أن فكرة الحرب الصليبية لم تكن معـــروفة

أو مطروحة للمناقشة في القرن الحادى عشر في الدولة البيزنطية ، وان مشكلة استرداد فلسطين لم تكن حيوية بالنسبة للامبراطورية(١٧) ، بل يمكن القول أن الهدف الاول لدى البيزنطيين في ذلك الوقت ، والرغبة الملحة لدى حكامهم هي الحصول على مساعدات ضد الاتراك السلاجقة الذين أرقوا أمن وسلامة الامبراطورية وقد ظهرت هذه الفكرة بصورة واضحة في عهد الامبراطور الكسيوس كومنينوس الذى وضع أمن الاراضي البيزنطية فوق كل اعتبار ، ورأى التهديدات التى تعرضت لها الامبراطورية سواء التى تمثلت في النورمان أو في الاتراك السلاجقة أو في القبائل البربرية في شرق أوروبا وجنوب الدانوب أو في الصليبيين أنفسهم تهديدا للفكرة التى تمثلها الامبراطورية البيزنطية حامية المسيحية في الشرق ، ومن أجل هذا وقف من هذه القوى جميعا موقفا يكاد يتشابه وقاومها بشدة وعنف ولم يبخل ببذل الرجال والجهد والمال من أجل انقاذ الامبراطورية البيزنطية .

ومن أجل هذا كرست الأميرة أنا كومنينا جهودها في سبيل ايضاح هذه الفكرة ، وتدعيمها بالأدلة ليظهر الامبراطور البيزنطي الكسيوس كومنينوس في النهاية سياسيا قديرا ، وقائدا عسكريا ماهرا ، ودبلوماسيا محنكا ، واداريا ناجحا .

الحواشي

حاشية رقم ١ كتب اصلا باللغة اليونانية وترجم الى الانجليزية عدة مرات ، واعتمدنا فى هذه الدراسة على ترجمة E.R.A. Sewter بعنوان

The Alexiad of Anna Comnen. Translated from Greek by E.R.A. Sewter, Penguin Books, London, 1969.

حاشية رقم ٢ :

A.A. Vaseliev, History of The Byzantine Empire, II. p. 487.

حاشية رقم ٣ : Ibid, p. 488.

حاشية رقم ٤ :

Elizabeth Daws, The Alexiad, London, 1967 Greorgina Buckler, The Alexiad, Oxford University Press. 1929.

كما ترجم ايضا الى الفرنسية حيث ترجمه Bernard Leib.

Anna Comnena, The Alexiad, ed. B. Leib, 3 Vols., Paris, 1937-1945.

حاشية رقم ٥ : A. Vaseliev, History of The Byzantine Empire, II, p. 490.

حاشية رقم ٦ : E.R.A. Sweter, The Alexiad of Anna Comnena, p. 11.

حاشية رقم ٧ : Norman Bayns, Byzantine, p. 232.

حاشية رقم ٨ : Norman Bayns, Ibid, p. 232.

حاشية رقم ٩ : Ibid, 232.

حاشية رقم ١٠ : Ibid, 232.

حاشية رقم ١١ : انظر

A. Vaseliev History of The Byzantine Empire, 1, 109.

حاشية رقم ١٢ : The Alexiad, English Translation, p. 352.

حاشية رقم ١٣ : Ibid., p. 424.

حاشية رقم ١٤ : Ibid, p. 433.

حاشية رقم ١٥ : Ibid, p. 434.

حاشية رقم ١٦ : N. Bayns, Byzantium, p. 322.

حاشية رقم ١٧ :

A. A. VaselieV Byzantium and Islam, Bayns, Byzantum pp. 308—325.

مصادر البحث : ـ

١ ـ ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ١٣ جزء بيروت ١٩٦٧

٢ ـ ابن القلانس : ذيل تاريخ دمشق ، دمشق ١٩٥٨

٣ ـ د. الباز العرينى : مؤرخو الحروب الصليبية ، القاهرة ١٩٦٢

٤ ـ د. اسحق عبيد : روما وبيزنطة ، القاهرة ١٩٦٩

٥ ـ د. سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـــــزءان ، القاهرة ١٩٦٣ .

6. Anna Comnena, The Alexiad, Translated from Greek by E.R.A. Sewter, 1969.

7. Bayns, N. H. and H. st. L. B. Moss.
   — Byzantuim, An Introduction to East Roman Civilization, Oxford, 1962.

8. The Hellenistie Civilization and East Rome, Oxford University Press, 1946.

9. Bury., J.B., History of Greec, Oxford, 1959.

10. Elizabeth Daws. The Alexiad, Routledge and Kegan Paul. 1967.

11. Georgina Buekler, Anna Comnena, The Alexiad, Oxford University Press, 1929.

12. Hussey, J. M. The Byzantium Empire, Cambridge Medieval History Vol. IV, 1966.

13. Ostragorsky; G. History of The Byzantine state, Trans. J. M. Hussey, Blaekwell, 1956.

14. Runciman, S. A History of the Crusudes, 3 Vols., London. 1958.

15. Saunders, J.J. A History of Medieval Islam, London, 1965.

16. Selton, K. M. A. History of The Crusades, 2 Vols. University of Wis Consen Press, 1969.

17. Smail, R. C. Crusading Warfare, Cambridge, 1958.

18. Vaseliev, A. A. History of the Byzantine Empire 2 Vols. The University of Wisconsen Press, 1964.

تفويض من عصر العادل طومان باى "صانع السلاطين"

دكتور محمد محمد أمين

كلية الآداب ـ جامعة القاهرة

تمهيـــد :

ترجع الوثيقة التى نقدمها اليوم للدراســـة والنشر (١) الى عصر السلطان العادل طومان باى ، والذى يمكن أن نطلق عليه لقب « صانع السلاطين » ، ذلك أن طومان باى رفع اثنين من كبار الامراء الى عرش سلطنة المماليك قبل أن يلى هو نفسه العرش ٠

والفترة التاريخية التى ترجع اليها هذه الوثيقة ، انما تمثل فترة اضطراب وقلق شديدين فى أواخر عصر سلطنة المماليك ، والوثيقة رغـم صغر حجمها فانها تلقى بعض الضوء على العلاقات التى سادت بين كبار

فى صيف عام ١٩٧٨ اكتشفت بأرشيف وزارة الأوقاف بالقاهرة ٩٧ وثيقة ترجع الى عصر سلاطين المماليك ، لم تسبق دراستها أو الاشارة اليها ، فقمت بفهرستها وعمل بطاقات لبياناتها ـ لتحفظ بالوزارة ـ وذلك لاول مرة ، ولاحظت ان من بين هذه الوثائق المكتشفة ثلاثة وثائق لها أهمية خاصة من حيث الموضوع الذى تتناوله الوثيقة ، فكل منها هى الوحيدة التى وصلتنا من حيث موضوعهـا من عصر ســـلاطين المماليك ، ومن هذه الوثائق وثيقة « التفويض » هذه ، وهى تتعلق بتفويض خاص ، وتختلف عن التفاويض التى تصدر عن ديوان الانشاء والتى ورد ذكرها فى كتب المصطلح ٠

الأمراء المتنافسين على العرش ، وما يمكن ان نطلق عليه « صراع من أجل السلطة » ، فالوثيقة تدور بين أربعة أشـــخاص تولى ثلاثة منهم عرش سلطنة المماليك ، والوثيقة توضح لنا جانبا من نوعية العلاقات بين هؤلاء الأمراء ، كما أنها تمثل نوعا من تقسيم الغنائم بين المشتركين فى الصراع بعد أن تم توزيع المناصب الكبرى عليهم ، وهذا ما توضحه بجلاء الخلفية التاريخية لهذه الوثيقة .

وفى المجال الوثائقى ، فان الوثيقة هى الوحيدة التى وصلتنا فى موضوعها من عصر سلاطين المماليك ، فهى الوثيقة المفردة الوحيدة التى وصلتنا من هذا العصر ، وتتناول موضوع « تفويض » وهى وثيقة خاصة، ولم تسبق دراستها أو نشرها ، أو حتى مجرد الاشارة اليها . (١)

طومان باى « صانع السلاطين » :

شهدت الفترة التى أعقبت وفاة السلطان قايتباى (٢) ، وحتى تولية السلطان الأشرف قانصوه الغورى (٣) ، صراعا شديدا بين كبار الأمراء من أجل الوصول الى عرش سلطنة المماليك ، حتى أنه ولى الحكم فى هذه الفترة القصيرة ، والتى لم تتجاوز الخمس سنوات خمسة سلاطين ، تولى أحدهم وهو محمد بن قايتباى السلطنة مرتين ، وانتهى الأمر بقتله على يد الأمراء (٤)، كما تولى أحدهم وهو قانصوه خمسمائة عرش السلطنة

---

(١) انظر محمد محمد أمين : فهرست وثائق القاهرة ص ٢٢٧ مسلسل رقم ٦٠٩ .

(٢) اعتلى الأشرف قايتباى عرش سلطنة المماليك فى سـنة ٨٧٢ هـ / ١٣٦٧ م وحتى وفاته سنة ٩٠١ هـ / ١٤٩٦ م ـ السخاوى : الضوء جـ ٦ ص ص ٢٠١ ـ ٢١١ ترجمة رقم ٦٩٧ ، ابن العماد : شذرات الذهب جـ ٨ ص ص ٦ ـ ٩ ، الغزى : الكواكب السائرة جـ ١ ص ٢٩٧ وما بعدها .

(٣) اعتلى الأشرف قانصوه الغورى عرش سلطنة المماليك فى سنة ٩٠٦ هـ/١٥٠١ م ، وحتى وفاته فى مرج دابق سنة ٩٢٢ هـ / ١٥١٦ م . ـ ابن اياس : بدائع الزهور جـ ٤ ص ٤ ، جـ ٥ ص ٧٠ ، ابن العماد : مصدر سابق جـ ٨ ص ١١٣ ، وللدراسـة التفصيلية انظر د . عبد العظيم حامد خطاب : قانصوه الغورى ونهاية الدولة المملوكية (رسالة دكتوراه لم تنشر بكلية الآداب جامعة عين شمس) .

(٤) اعتلى محمد بن قايتباى عرش سلطنة المماليك فى سنة ٩٠١ هـ / ١٤٩٦ م ، ثم خلعه الامراء وولوا قانصوه خمسمائة مدة ثلاثة أيام ، ثم أعادوا محمد بن قايتباى الى العرش حتى قتل على يد الامراء فى سنة ٩٠٤ هـ / ١٤٩٨ م ، ابن العماد : مصدر سابق جـ ٨ ص ٢٢ ، ٢٣ ، ابن اياس : مصدر سابق جـ ٣ صفحات ٣٣٢ ، ٣٤٢ ، ٣٤٥ ، ٤٠١ .

مدة ثلاثة أيام فقط ، ثم خلعه الأمراء (١) .

وفى خلال هذه الفترة المضطربة ظهرت شخصية المملوك « طومان باى » ، والذى ترقى فى الخدم المملوكية خلال هذه الفترة القصيرة ، بصورة ليس لها مثيل فى عصر سلاطين المماليك ، فنجح خلال فترة قياسية أن يترقى من أمير عشرة (٢) فى شعبان سنة ٩٠٢ هـ/١٤٩٧ م وأن يصل الى السلطنة فى جمادى الآخرة سنة ٩٠٦ هـ/١٥٠٦ م ٣ ، بل كان هو الذى رفع اثنين من كبار الأمراء الى منصب السلطنة .

وحتى يمكننا أن ندرك الفترة القياسية التى ترقى خلالها طومان باى ، نقارن فى الجدول الآتى بين الفترات الزمنية التى ترقى خلالها أواخر سلاطين المماليك فى الخدم المملوكية منذ أن اعتقوا حتى تولوا السلطنة ، بعد أن استبعدنا محمد بن قايتباى باعتباره ابن السلطان قايتباى ، وليس مملوكا ، والظاهر قانصوه الأشرفى باعتباره خال السلطان محمد بن قايتباى ، وكان لهذه العلاقة أثرها فى سرعة ترقيه ووصوله الى السلطنة (٤) .

---

(١) السخاوى : مصدر سابق ج ٦ ص ١٩٩ ترجمة رقم ٦٨٣ ، ابن اياس : مصدر سابق ج ٣ ص ٢٤٢ ، ٣٤٥ ، ونلاحظ انه نظرا لقصر فترة تولية قانصوه خمسمائة لم يعده ابن اياس ضمن سلاطين المماليك .

(٢) امير عشره : من اصغر المراتب الحربية لامراء المماليك ، وكان فى خدمة صاحبها عشرة مماليك ، ومن هذه الطبقة صغار الولاة ونحوهم مثل والى الفسطاط وشاد الدواوين ، ووظائف الدوادار الثالث ، وأمير آخور الثالث .... الخ القلقشندى : صبح الاعشى ج ٤ ص ١٥ - ٢٣ - ٢٧ - ٢٨ - ابن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ١١٥ - المقريزى : المواعظ والاعتبار ج ٢ ص ٢١٥ .

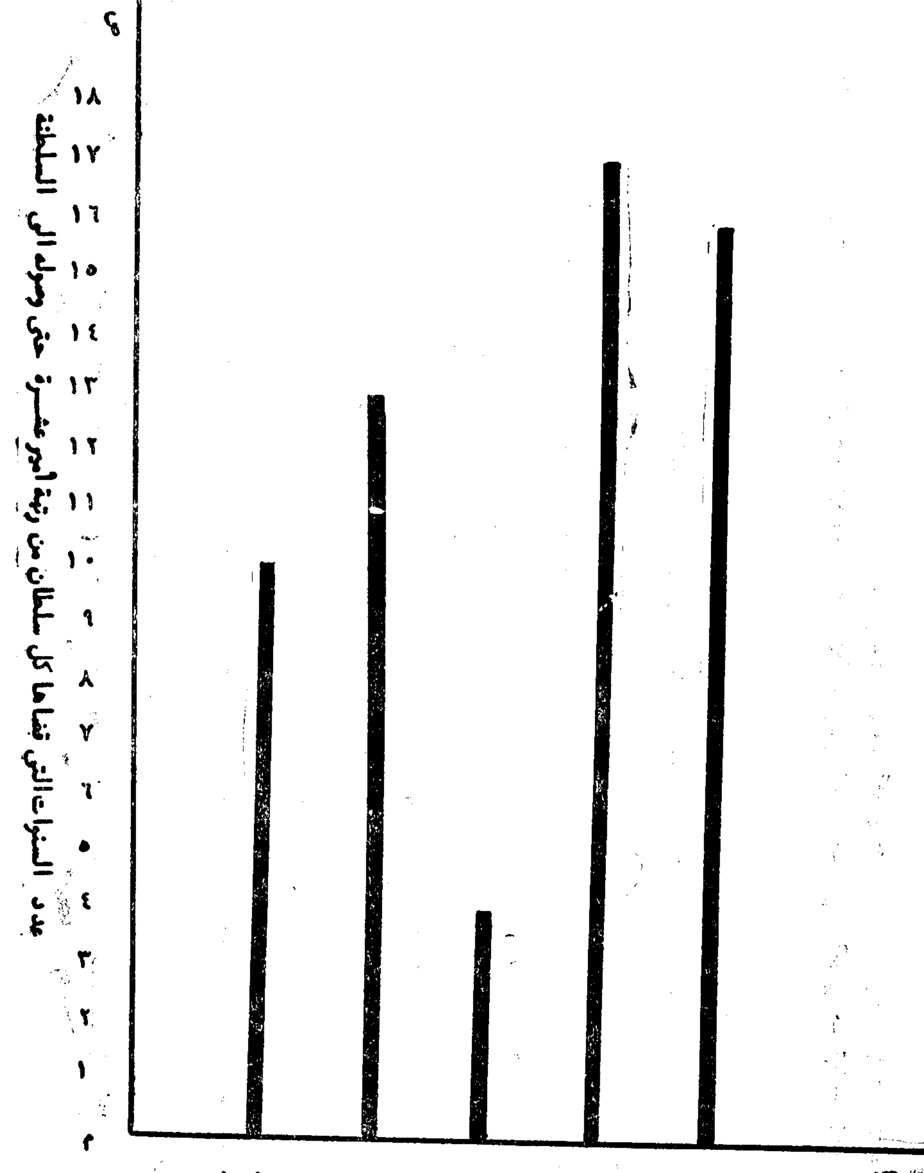
(٣) ابن اياس : مصدر سابق ج ٣ ص ٣٥٨ - ٤٦٣ .

(٤) ناصر قانصوه الاشرفى ابن أخته محمد قايتباى ، ولذا قرره أمير طبلخانات شاد الشرابخاناه دفعة واحدة ، ولذا لا يمكن وضعه فى المقارنة - ابن اياس : مصدر سابق ج ٣ ص ٤٠٤ ، ٤٠٦ .

الوظيفة / السلطان	قايتباى	جان بلاط	طومان باى العادل	قانصوه الغورى	طومان باى الأشرف
تاريخ العتق	قبل ٧٥٧ هـ	قبل ٨٩٠ هـ	قبل ٨٩٨ هـ	قبل ٨٨٦ هـ	٩٠١ هـ
أمير عشرة	٨٦٢	٨٩٢	٩٠٢	٨٨٩	٩٠٦
أمير طبلخاناه	٨٦٥	٨٩٤	٩٠٣	ـــ ؟	٩١٠
أمير مائة مقدم ألف	٨٧٢	٨٩٧	٩٠٤	٩٠٢	٩١٣
سلطان	٨٧٢	ذو الحجة ٩٠٥	جمادى الآخرة ٩٠٦	شوال ٩٠٦	رمضان ٩٢٢
المدة من أمير عشرة حتى الوصول الى السلطنة	١٠ سنوات تقريبا	١٣ سنة تقريبا	٤ سنوات تقريبا	١٧ سنة تقريبا	١٦ سنة تقريبا

المصدر :

السخاوى : مصدر سابق حـ ٣ ص ٦٢ ، حـ ٦ ص ٢٠١ ، ابن اياس مصدر سابق حـ ٣ صفحات ٣ ، ٤ ، ٢٨٨ ، ٣٥٨ ، ٤٣٨ ، ٤٦٣ ، حـ ٤ صفحات ٤ ، ٧٨ ، ١٢٠ ، حـ ٥ ص ١٠٢ ، ١٠٤ .



ع
عدد السنوات التي قضاها كل سلطان من رتبة أمير عشرة حتى وصوله الى السلطنة
١٨
١٧
١٦
١٥
١٤
١٣
١٢
١١
١٠
٩
٨
٧
٦
٥
٤
٣
٢
١
٠
س
قايتباى
جان بلاط
طومان باى العادل
الغورى
طومان باى الأشرف
السلطان

ويتضح من الجدول والرسم البياني ، سرعة ترقى طومان باى فى الخدم المملوكية بصورة غير عادية ، ولم يسبق لها مثيل ، فهو الوحيد بين خمسة سلاطين الذى وصل الى عرش السلطنة بعد أن رقى الى امرة عشرة بأربع سنوات فقط ، مما يدل على مدى الاضطراب الذى ساد سلطنة المماليك فى أواخر أيامها (١) . وحتى أنه يمكن القول أن هذه الفترة التى أعقبت وفاة السلطان قايتباى وحتى تولية السلطان الغورى عرش السلطنة كانت بداية النهاية بالنسبة لسلطنة المماليك ، وبخاصة أن هذه الاضطرابات الداخلية جاءت فى نفس الوقت الذى تمكن فيه البرتغاليون من الدوران حول أفريقيا ، والوصول الى الهند ، وبداية سيطرتهم على التجارة الشرقية ، وبالتالى بداية حرمان مصر من أهم مواردها المالية فى ذلك العصر (٢) .

ونجح أحد المماليك ، وهو طومان باى ، فى استغلال هذه الأوضاع ، نجح الى حد أنه استطاع أن يرفع اثنين من كبار الأمراء الى عرش السلطنة ثم يلى هو بعد ذلك العرش ، كل ذلك فى فترة وجيزة لم تتعد الأربع سنوات .

وطومان باى من المماليك الجراكسة ، اشتراه قانصوه اليحياوى ، نائب الشام (٣) ، وقدمه مع جملة من المماليك الى السلطان قايتباى ، ومن المرجح أن ذلك كان فى نيابة قانصوه اليحياوى الثانية لدمشق ، أى حوالى سنة ٨٩٣هـ/١٤٨٨ م ، وأقام طومان باى بطباق المماليك حتى أعتقه

---

(١) يرجع السبب الرئيسى فى اضطراب الاحوال الداخلية فى سلطنة المماليك الى ثورات الجلبان ومطالبهم ، والجلبان مماليك جرى شراؤهم كبارا ، ولم يقبسوا فى الطباق الا فترة قصيرة ، فكانوا عنصر اضطراب وفساد . للدراسة التفصيلية أنظر د . عبد العظيم خطاب : مرجع سابق ص ص ٤ — ٧ .

(٢) وصل فاسكودى جاما Vascode Gama الى قاليقوط Calicut فى شوال ٩٠٣ هـ / مايو ١٤٩٨ — انظر جيان : وثائق تاريخية ص ٢٠٩ ؛ جورج فاضلو حورانى: العرب والملاحة فى المحيط الهندى ص ٢٣٧ ؛ محمد عبد العال أحمد : اضواء جديدة على ملاح فاسكودى جاما — مجلة الدراسات الافريقية ١٩٧٦ — ص ١٥٧ .

(٣) تولى قانصوه اليحياوى نيابة دمشق مرتين فى عهد السلطان قايتباى الأولى من ربيع الأول ٨٨٤ الى رجب ٨٨٦ هـ ، والثانية من ذى الحجة ٨٩٢ هـ حتى وفاته فى شوال ٩٠٢ هـ ، ابن طولون : اعلام الدرى ص ٦٨ — ٦٩ — ٧٤ — ٧٥ — ومفاكهة الخلان جـ ١ ص ١٧٦ ؛ السخاوى : مصدر سابق جـ ٩ ص ١٩٦ .

السلطان قايتباى وأخرج له خيلا وقماشا ، وصار من جملة المماليك السلطانية جمدارا (١) ٠

أصبح طومان باى « أمير عشرة » فى عهد السلطان الناصر محمد ابن قايتباى ، فى رجب ٩٠٢ هـ/مارس ١٤٩٧ م ، ثم ترقى طومان باى الى « أمير طبلخاناه » وتقرر فى الدوادارية الثانية فى المحرم ٩٠٣هـ/سبتمبر ١٤٩٧ م (٢) ٠

ولم يلبث أن تغير طومان باى على السلطان محمد بن قايتباى ، رغم أن الناصر محمد هو الذى أمره ورقاه ، ويرجع ذلك الى أنه فى المحرم سنة ٩٠٤ هـ/سبتمبر ١٤٩٨ م ، وأثناء لعب السلطان بالكرة فى حوش القلعة مع الأفراد ، صار طومان باى يقتحم على أخذ الكرة من السلطان فحنق منه السلطان ، وضربه على ظهره بالصولنجان أكثر من مرة ، فكان ذلك من أسباب حنق طومان باى على السلطان ، حتى أن ابن اياس يرى أن ذلك كان من أسباب قتل طومان باى للسلطان (٣) ٠

ويبدو أن هذه الحادثة هى التى حملت السلطان على أن يأمر فى ربيع الأول ٩٠٤ هـ/نوفمبر ١٤٩٨ م ، طومان باى ، وأنصباى وغيرهما بأن يكتبوا وصية ويتوجهوا الى مكة عن طريق البحر ، فرفضوا تنفيذ أمر السلطان ، وأضمروا له السوء (٤) ، وكان بداية التقارب بين كل من طومان باى وأنصباى ٠

وبعد أيام قليلة صدر امر السلطان بخروج طومان باى على رأس تجريدة الى البحيرة للقضاء على ثورات العربان ٠ فخرج طومان باى الى بر الجيزة استعدادا للرحيل ، وفى اليوم التالى خرج السلطان الى الجيزة للهو ، وفى أثناء عودة السلطان مر على الطالبية حيث خيام طومان باى فأسرع طومان باى الى انتهاز الفرصة ، وعزم على السلطان أن ينزل عنده ولما رفض السلطان هذه الدعوة ، خرج طومان باى الى السلطان بجفنة

---

(١) يختار السلطان عددا من المماليك بعد تخرجهم من الطباق ، ويختص بهم لصفات بهم ، فيتدرجون قبل تأميرهم فى وظائف الجمدارية والسلحدارية .. الخ أنظر : ابن شاهين : مصدر سابق ص ١١٦ ، السيد الباز : المماليك ص ١٣٤ ، والجمدار : كلمة فارسية من شقين معناها ممسك الثياب ، والجمدار هو الموظف الذى يتصدى لالباس السلطان ثيابه ـ القلقشندى : مصدر سابق جـ ٥ ص ٤٥٩ ٠

(٢) ابن اياس : مصدر سابق جـ ٣ ص ٣٧٧ ، ٣٩١ ٠

(٣) ابن اياس : مصدر سابق جـ ٣ ص ٣٩٧)

(٤) نفس المصدر جـ ٣ ص ٣٩٩ ٠

فيها ابن فاخر ، فوقف السلطان ـ وهو راكب على فرسه ـ ليشرب من اللبن ، بينما أمسك طومان باى بلجام فرس السلطان ، وفى تلك الأثناء خرج كمين من الخيام من نحو خمسين مملوكا ، وقتلوا السلطان ، ومن معه من أولاد عمه (١) .

تم الاتفاق بين الأمراء على سلطنة قانصوه خال السلطان محمد ابن فايتباى ، وكان طومان باى ـ الدوادار قانصوه طومان باى فى الدوادارية الكبرى ـ بعد ان رقاه الى رتبة أمير مائة مقدم ألف ، وبعد أيام قليلة أضاف السلطان الى طومان باى الوزارة والاستادارية (٢) .

وهكذا مهد طومان باى المسلطان قانصوه وأجلسه على العرش ، وبذلك رفع طومان باى أول سلطان الى عرش السلطنة المملوكية .

نال طومان باى الحظوة عند السلطان قانصوه ، وبخاصة بعد انتصار طومان باى على عرب هوارة ، وعرب عزاله (٣) ، وأصبح طومان باى هو المتحكم فى كل شيء ، فلم يكن بمصر فى ذلك الوقت من هو أكبر من الأمير طومان باى .

بدأ طومان باى يمهد لنفسه للوصول الى العرش ، فعندما توفى الأتابكى أزبك من ططخ (٤) ، أمر السلطان قانصوه بحركة تنقلات بين كبار الأمراء ، وكان طومان باى الدور الاكبر فى ترتيب هذه الحركة فتعين جان بلاط أتابكا ، وقصروه نائبا بدمشق ، ودولات باى من أركماس ـ أخو طومان باى ـ نائبا بحلب (٥) .

وحتى يمهد طومان باى لنفسه للوصول الى العرش ، انتهز فرصة تمرد قصروه نائب الشام ، وتواطأ معه طومان باى ضد السلطان ، ولذلك انتشرت الاشاعات فى مصر بأن السلطان سوف يقبض على طومان باى ، ولكن السلطان قانصوه كان أضعف من أن يقضى على طومان باى ، ولذلك

---

(١) نفسه ص ٤٠٠ ، ٤٠١ ، ابن طولون : مفاكهة الخلان جـ ١ ص ٢٠٥ .

(٢) كانت ترقية طومان باى فى نفس يوم تونى قانصوه السلطنة فى ١٧ ربيع الاول ٩٠٤هـ ـ انظر ابن اياس : مصدر سابق جـ٣ ص٤٠٥ ، ٤٠٧ ، ابن طولون : مفاكهة الخلان جـ ١ ص ٢٠٥ .

(٣) ابن اياس : مصدر سابق جـ ٣ صفحات ٤٠٩ ، ٤١٠ ، ٤١٥ ، ٤١٦ .

(٤) توفى فى رمضان ٩٠٤ هـ/مايو ١٤٩٩ م ـ ابن اياس : مصدر سابق جـ ٣ ص ٤١١ وما بعدها ، السخاوى : مصدر سابق جـ ٢ ص ٢٧٠ ترجمة رقم ٨٤٤ .

(٥) ابن طولون : اعلام الدرى ص ٩١ ، مفاكهة الخلان جـ ١ ص ٢٠٥ .

خلع السلطان على طومان باى وأمره بالتوجه الى الوجه القبلى لمحاربة العربان، ومع ذلك استمرت هذه الاشاعات التى تعكس حقيقة الوضع بين السلطان وطومان باى ، واضطر السلطان أن يأمر بالمناداة فى القاهرة « أن أحدا لا يكثر كلاما فيما لا يعنيه ، وأن الأمير طومان باى الدوادار على عادته » ، ويعلق ابن اياس على ذلك الأمر بقوله : « وقد تأكد الأمر بذلك » (١) ٠

وعندما عاد طومان باى من الصعيد مكث فى الجيزة ، ولم يعبر النيل ، فتوجه اليه الأمير طراباى ومعه صورة يمين على لسان السلطان « أن لا يشوش عليه اذا قابله ولا يقبض عليه » ، فلم يثق طومان باى بهذا الحلف وأظهر العصيان ٠ (٢)

كان اظهار عصيان طومان باى معناه نهاية السلطان قانصوه ، فبعد أيام قليلة عبر طومان باى النيل بمن معه من القوات ، وتوجه الى الأزبكية حيث منزل الأتابكى جان بلاط ، وتم الاتفاق على خلع قانصوه ٠ (٣)

لم يجسر طومان باى أن يتسلطن ، وشريكه فى الانقلاب والحصار جان بلاط موجودا ، ورشح بعض الأمراء للسلطنة قانى بك ٠ ورشح آخرون جان بلاط ، فلم يرض العسكر بأيهما ، وهنا نجد ان طومان باى السلطنة فى ذى الحجة ٩٠٥ هـ / يولية ١٥٠٠ م (٤) ، وهذا هو ثانى سلطان يجلسه طومان باى على العرش ٠

خلع السلطان جان بلاط على الأمير طومان باى ، وقرره فى أمرة السلام ، مضافا الى ما بيده من الدوادارية الكبرى ، كما قرره أيضا فى الوزارة والاستادارية وكشوفية الكشاف « فعظم أمره جدا وصار صاحب الحل والعقد » ، و « تصرف فى أحوال المملكة كما يختار ، وصار الأشرف جان بلاط معه كالمحجور عليه لا يقضى أمرا دونه » (٥) ٠

ظل قصروه نائب الشام على عصيانه ، ولم يعترف بسلطنة جان بلاط ولم يقبل أن ينتقل من نيابة الشام الى منصب الأتابكية فى مصر (٦) ٠

---

(١) ابن اياس : مصدر سابق جـ ٣ ص ٤٣٣ ، ٤٣٤ ، ابن طولون : اعلام الدرى ص ١٠٦ ٠

(٢) ابن اياس : مصدر سابق جـ ٣ ص ٤٣٥ ٠

(٣) نفسه جـ ٣ ص ٤٣٥ ٠

(٤) ابن اياس : مصدر سابق جـ ٣ ص ٤٣٩ ، الغزى : مصدر سابق جـ ١ ص ١٧١ ، ابن طولون : مفاكهة الخلان جـ ١ ص ٢٢٩

(٥) ابن اياس : مصدر سابق جـ ٣ ص ٤٤٥ ، ٤٤٧ ٠

(٦) ابن طولون : أعلام الدرى ص ١١٦ ، مفاكهة الخلان جـ ١ ص ٢٢٩ ٠

وكان عصيان قصروه هو المشكلة الرئيسية التى واجهت السلطان جان بلاط ، والتى استغلها طومان باى للوثوب الى عرش السلطنة ، فقد ظل طومان باى على تواطئه مع قصروه نائب الشام .

بدأ طومان باى يدير لأمر سلطنته ، فأشار على جان بلاط أن يرسل تمرباى ـ دوادار طومان باى ـ الى قصروه من أجل الصلح بينهما ، كما اظهر دولات باى نائب حلب ـ أخو طومان باى ـ الطاعة لجان بلاط ، وأنه ليس مع قصروه ، و « كان هذا كله حيل وخداع ، وترتيب من الامير طومان باى » (١) .

ثم تم الاتفاق بين جان بلاط وطومان باى على ارسال قوة عسكرية للقضاء على تمرد قصروه . وكان على رأس هذه القوة طومان باى نفسه . وخرج معه كل من قانصوه الغورى ، وأنصباى ، وغيرهما من الأمراء (٢) .

ويبدو أن تمرباى ـ دوادار طومان باى ـ قد مهد لسيده عند قصروه فلم يكد يصل طومان باى الى دمشق حتى تم الاتفاق بين كبار الامراء على خلع جان بلاط وسلطنة طومان باى ، وتمت مبايعة طومان بالسلطنة وتلقب بالملك العادل أبو النصر ، وبدأ طومان باى يوزع المناصب الكبرى على الأمراء الذين تحالفوا معه ، فعين قصروه فى منصب الأتابكية بمصر ، وعين أخاه دولات باى فى نيابة الشام ، وقرر قانصوه الغورى فى الدوادارية الكبرى والوزارة والاستادارية وكشف الكشاف عوضا عن نفسه ، كما وزع باقى المناصب على الأمراء . (٣)

عاد طومان باى الى القاهرة على رأس قواته ، ونجح فى القبض على الأشرف جان بلاط (٤) ، فاعتقل بالقلعة حوالى ثمانية عشر يوما الى يوم الاثنين خامس رجب ٩٠٦هـ/٢٥ يناير ١٥٠١م حيث توجهوا به الى ثغر

---

(١) ابن اياس : مصدر سابق جـ ٣ ص ٤٤٨ .

(٢) ابن اياس : مصدر سابق جـ ٣ ص ٤٤٩ ، ٤٥١ ، ابن طولون : أعلام الورى ص ١٢١ ، الغزى : مصدر سابق جـ ١ ص ٢٩٥ .

(٣) ابن اياس : مصدر سابق جـ ٣ ص ٤٥٣ ، ابن طولون : أعلام الورى ص ١٢٥ ومابعدها .

(٤) تم القبض عليه فى ١٨ جمادى الآخرة ٩٠٦ هـ/٧ يناير ١٥٠١ م ـ ابن اياس : مصدر سابق جـ ٣ ص ٤٦١ ، ٤٦٢ ، السخاوى : مصدر سابق جـ ٣ ص ٦٢ ، ٦٣ ترجمة رقم ٢٥٣ ، ابن العماد : مصدر سابق جـ ٨ ص ٢٨ ، الغزى : مصدر سابق جـ ١ ص ١٧١ .

الاسكندرية ، وكان « المتسفر عليه » الأمير أنصباى من مصطفى (١) ، وبعد فترة قصيرة أرسل طومان باى مرسومه سرا الى نائب الاسكندرية بقتل جان بلاط ، فورد الخبر الى القاهرة فى ٤ شعبان بقتل الأشرف جان بلاط (٢) ، أى بعد حوالى شهر واحد من تاريخ نقله الى الاسكندرية ٠

واذا كان العادل طومان باى قد تخلص من الأتابك قصروه الذى سانده حتى ولى العرش (٣) ، فانه كافأ من عاونه في الوصول الى العرش وبخاصة قانصوه الغورى ، وأنصباى من مصطفى ، وقد رأينا أنه عين قانصوه الغورى فى مناصبه ، أما أنصباى فظل بلا وظيفة ، ولكنه أخذ نصيبه من الغنيمة فى التصرف مع الغورى فى أملاك جان بلاط ، وذلك حسبما تكشف عنه الوثيقة موضوع الدراسة ٠

كانت هذه هى الخلفية التاريخية لموضوع « التفويض » الصادر فى ١٢ رجب ٩٠٦هـ/أول فبراير ١٥٠١م من الأشرف جان بلاط ، أى بعد القبض عليه ، وبعد تسفيره الى الاسكندرية معتقلا بسبعة أيام ، وكان المتسفر عليه هو أنصباى من مصطفى ، ويدل هذا بوضوح على أن جان بلاط أجبر ، أو أنه أشهد عليه زورا بهذا التفويض الذى جعل بمقتضاه الحق لكل من قانصوه الغورى وأنصباى التصرف فى كل ما يملك أو ما يظهر من أملاك له ، وبعد أيام قليلة من تاريخه هذا التفويض صدرت أوامر السلطان العادل بقتل طومان باى ٠

ويبدو مما ذكره ابن اياس أن العادل طومان باى كان قد قرر أموالا على جان بلاط ، وأن جان بلاط ظل معتقلا بقلعة الجبل حتى أحضر هذه الأموال ، ثم نقل الى الاسكندرية ، وقد يكون فى هذا ما يفسر ما جاء بالوثيقة سطر ١٧ « وفوض لهما فى ذلك أتم تفويض بالنظر الشريف السلطانى العادلى » ، كما يفسر ما جاء بافتتاحية الوثيقة ٠

---

(١) ابن اياس : مصدر سابق ج ٣ ص ٤٦٢ ، ٤٦٩ ٠

(٢) نفسه ج ٣ ص ٤٧٢ ، ويبدو أنه قتل قبل ٢٥ رجب انظر ابن طولون : أعلام الورى ص ١٣٦ ٠

(٣) تم القبض على قصروه وخنقه فى أوائل رجب ٩٠٦ هـ — ابن اياس : مصدر سابق ج ٣ ص ٤٦٧ ، ابن طولون : أعلام الورى ص ١٣٥ ٠

فهرسة الوثيقة :

١ ــ الفهرسة الشكلية :

رقم الوثيقة : ٧٣٩ ج (جديد) ٠
مكان الوثيقة : محفوظات (دفتر خانة) وزارة الأوقاف بالقاهرة ٠
مادة الكتابة : ورق
شكل الوثيقة : ملف
شكل الدروج : واحد

أبعاد الوثيقة : ٢٩ × ٥ر٧٢ سم
حالة الوثيقة : بها آثار رطوبة ، وبها جزء ممزق يتضمن أواخر السطور من ٥ ــ ٩ ، ولكن معظم النص سليم ومكتوب على الوجه فقط ٠

٢ ــ الفهرسة الموضوعية :

موضوع التصرف : تفويض خاص
التاريخ : ١٢ رجب ٩٠٦ هـ ٠
تفويض صادر من : أبو النصر جان بلاط
الى : ١ ــ قانصوه الغورى ، أمير دوادار كبير ٠
٢ ــ السيفى أنصباى ، أحد أعيان السادة الأمراء ٠
المتصرف فيه : جميع أمور جان بلاط وتعلقاته بأسرها ٠

٣ ــ الاشهاد التوثيقى :

نوع الاسجال : حكمى
تاريخه : ١٢ رجب ٩٠٦ هـ ٠
القاضى الموثق : محمد بن جريح المالكى
علامته : الحمد لله وحده (سطر ٢٧)

٤ ــ ملاحظات :

يوجد بأول الوثيقة فى الهامش الأيمن ختم بيضاوى ، على يمين البسملة ، وهو غير مقروء ، ويبدو أنه باللغة التركية ٠

منهج التحقيق :

الوثيقة عبارة عن درج من الورق المائل الى الصفرة ، غليظ نوعا ما خشن الملمس ، وهى مكتوبة بخط ديوانى بحبر من السناج الأسود .

وجرى كاتب الوثيقة على ما كان سائدا فى ذلك العصر من كتابة متن الوثيقة فنلاحظ عليها :

١ ـ ترك الكاتب بياض فى الهامش الأيمن مقداره حوالى ٩ سم من أول الورق حتى بدء الكتابة ، بينما لم يترك أى بياض فى الهامش الايسر فوصلت الكتابة حتى نهاية الورق ، كما أن الكاتب لم يترك بياض فى أول الوثيقة سوى سنتيمتر واحد ، بينما نجد بياض فى نهاية الوثيقه طوله حوالى ١١سم .

٢ ـ لا توجد بالوثيقة أى من علامات الترقيم ، فلا نجد بين جملها نقطا أو فواصلا بين كل عبارة وأخرى ، أو بين كل موضوع والذى يليه .

٣ ـ الكاتب يصل حروف الكلمة الواحدة التى ليس من شأنها أن توصل ، وكذلك الكلمتين أو الثلاث .

٤ ـ حرص الكاتب على أن يضع حروف الشكل على بعض الكلمات مثل أسند (سطر ٧) ، ولكنه لم يلتزم بذلك .

٥ ـ حذف الكاتب الهمزة وبخاصة فى أخر الكلمات مثل « الفقها والعلما » .

وقد راعيت فى نشر الوثيقة المحافظة على أصل النص محافظة تامة وأبقيت عليه كما هو بحروفه وألفاظه وأخطائه دون تصحيح أو تعديل فى النص نفسه ، ليدل على أسلوب ولغة العصر . ولم أضف الى النص سوى وضع نقط لبعض الحروف ، أو الهمزات ، والفواصل بين الجمل حتى يسهل على القارىء الحديث متابعة النص ، وجعلت كل سطر فى الوثيقة سطرا مستقلا ، وأعطيت له رقما مسلسلا حسب ترتيبه فى متن الوثيقة .

بسم الله الرحمن الرحيم

ينظر مولانا المقام الشريف ذو الامانة والتشريف لل... المقام الاعظم الملك ...

المرابط المنصور المؤيد صاحب الرأي السديد والنصر المؤيد العالم العامل صاحب الثنا الجميل

والفضل الكامل كهف الفقرا والعلما والصالحين ملاذ الدولة ابو النصر وارث الملك سيد ملوك

العرب والعجم والترك ملك البرين والبحرين خادم الحرمين

طومان باي خلد الله ملكه وجعل ساير الاقطار ملكه ونصر نصراته

و... أشـ... مولانا المقام العالي المولوي

ليوالنهان بلاط لعن الله لو عاقبته وبلا ... ترشنبرت

لبو الاضرحان بلاط العز السلطاني عادتنا وبلغ برسم

المقام العالي المولوي الاميري الكبيري الاسدي الذخري النصري العوني الغياثي المؤيدي الظهيري كافل

قانصوه الغوري بردوادار كبير بالديار المصرية وما مع ذلك الكلي للوادي الى ان لو لم يد ما بيده واجراه

من ... ولمولانا المقر الاشرف العالي الكريم للمقام العالي المولوي الاميري الكبيري المرجحي المرابطي السيدي

السيدي الهمامي المالكي المخدومي الظهيري السيفي الصاحبي احد امراء الالوف

الالوف بالديار المصرية الكلي للوادي ... وما في غيره واقداره التكلم عنه

على جميع اموره كلها وتعلقاته باسرها قبل ... وحيث تكون بالديار المصرية وعمالها

اسنادا كليا تاما عاما موسعا مفوضا ... ومفترقين وفي قوله ...

اسناداً كاملاً تاماً عاماً موسعاً مفوضاً دعياً مجتمعين ومفترقين

ما حط والمصح والمراد له اقاربها في ذلك مقام نفسه الشريفة حرسها الله

بقولها وفعلها في ذلك وفوض لها في ذلك ان تعوض بما النظر الذي

المنوه باسمه الدين العلامة حل المسئلة وادلة عليه وذلك شهد بذلك مولانا الهمام الاشرف

المشار اليه العلامة على نفسه الشريفة امد الله بالجزيل السنية وهو احوج الانام

اليوم المبارك الثاني عشر شهر رجب الفرد عام سنة

على مولانا الهمام العالي المشار اليه

العبد الفقير الى الله

[illegible]

لدى سيدنا ومولانا العبد الفقير إلى الله تعالى الشيخ الإمام العالم العلامة الحبر الهمام شمس الدين شرف العلماء [illegible]

مفتي المسلمين صدر المدرسين أبي العباس محمد جبريل المالكي الصوفي [illegible] ولي عن خلفاء الحكم المذكور وسائر [illegible]

[illegible] أحكام والقول [illegible] ـــــــــ صح ما شرع [illegible] محرر

وعيا مولانا مستوفيا شرائط الدعوى عليه والشهود على [illegible] فشهد على [illegible]

أحكام والحكم وهو ما [illegible] القضاء والحكم بما فيه في التاريخ المعين [illegible] سعد [illegible]

[illegible] على [illegible] صحيح والحمد لله [illegible] في [illegible] والحمد لله [illegible]

شهد على مولانا العالم [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]

شهد على مولانا [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]

نص الوثيقة :

١ ــ بسم الله الرحمن الرحيم (١)

٢ ــ ينظر مولانا المقام الشريف ذو الأمانة والتشريف الـ....(٢) الامام الأعظم المالك الملك المعظم

٣ ــ المرابط المنصور المؤيد صاحب الرأى السديد والنصر المؤبد العالم العامل صاحب الثناء الجميل

٤ ــ والفضل الشامل كهف الفقهاء والعلماء والصالحين ، ملاذ الفقراء والمساكين ، وارث الملك ، سيد ملوك (٣)

٥ ــ العرب والعجم والترك ، ملك البرين والبحرين خادم الحرمين .... (٤)

٦ ــ طومان باى خلد الله ملكه (٥) ، وجعل سائر الأقطار ملكه ، ونصره نصرا عز (يزا) ...

٧ ــ فى البلاد تمكينا ، أسند مولانا المقام العالى المولوى (٦) ....

٨ ــ أبو النصر جان بلاط أحسن الله تعالى عاقبته ، وبلغه من خيرى ....

---

(١) هذه افتتاحية الوثيقة وقد وردت فى سطر مستقل، ودرج الكتاب فى العصور الوسطى على بدء الوثيقة بالبسملة ــ القلقشندى : صبح الاعشى جـ ٦ ص ٢١٩ .

(٢) موضع ثقب بالوثيقة ، ولعل الكلمة الناقصة (السلطان) ، وهذا اللقب ومايليه من القاب السلطان العادل طومان باى ، وهى القاب طوال منها تفخيم وتعظيم يناسب المقام السلطانى ، فقد شملت نحو خمسة أسطر من وثيقة عدد أسطرها ٣١ سطرا . وعن الالقاب أنظر القلقشندى : صبح الاعشى جـ ٦ ص ٥ ومابعدها ، و د. حسن الباشا : الالقاب الاسلامية فى التاريخ والوثائق والآثار (القسم الثانى : معجم الالقاب) ص ١١٨ ومابعدها .

(٣) حرف الكاف ممزق فى الوثيقة .

(٤) بداية تمزيق الهامش الايسر يستمر حتى سطر ٩ .

(٥) ولى طومان باى عرش السلطنة المملوكية فى الفترة ما ١٨ جمادى الأخرة حتى ٢٩ رمضان ٩٠٦ هـ ، أى نحو مائة يوم ــ ابن اياس : بدائع الزهور جـ ٣ ص ٤٦٥ ، ٤٧٧ .

(٦) يلاحظ قلة ألقاب جان بلاط ، ذلك أن الوثيقة كتبت أثناء احتقاله بالاسكندرية ــ قارن هذه الالقاب بما سبق من ألقاب طومان باى ، وبما يلى من ألقاب قانصوه الغورى وأنصباى .

٩ ـ العالى (١) المولوى الأميرى النبيرى العضدى الذخرى النصرى الغوثى الغياثى المقدمى الظهيرى السيدى) (٢)

١٠ ـ قانصوه الغورى أمير دوادار كبير بالديار المصرية وما مع ذلك الملكى العادلى أدام الله تأييده وأجزل له

١١ ـ من كل خير مريده ، ولمولانا (٣) المقر الأشرف الكريم العالى المولوى الأميرى الكبيرى المجاهدى المرابطى السيدى

١٢ ـ السندى الهمامى المالكى المخدومى المقدمى الظهيرى السيفى أنصباى (٤) أحد أعيان السادة الأمراء (مقدمى) (٥)

١٣ ـ الألوف بالديار المصرية الملكى العادلى ، أعز الله تعالى أنصاره، وضاعف عزه واقتداره ، التكلم عنه (٦)

١٤ ـ على جميع أموره كلها ، وتعلقاته بأسرها ، قبل من كانت ، وحيث تكون بالديار المصرية وغيرها

١٥ ـ اسنادا كليا تاما عاما موسعا مفوضا مرعيا ، مجتمعين ومفترقين وفى فعل ما يريا فعله

١٦ ـ بالخط والمصلحة والسداد له ، أقامهما فى ذلك مقام نفسه الشريفة حرسها الله تعالى ، ورضى

١٧ ـ بقولهما وفعلهما فى ذلك ، وفوض (٧) لهما فى ذلك أتم تفويض بالنظر الشريف السلطانى العادلى

---

(١) هذه بداية ألقاب قانصوه الغورى .

(٢) (سدي) موضع تمزيق بالوثيقة ، ولعلها السيدى ، أنظرى مايلى سطر ١١ .

(٣) هذه بداية ألقاب الامير انصباى من مصطفى ـ أنظر ماسبق فى الدراسة التاريخية .

(٤) هو انصب من مصطفى الذى ساند طومان بأى ضد جان بلاط ، وكان قد خرج معه الى الشام ، ويبدو أن تفويضه على أملاك جان بلاط جزء من نصيبه من الغنيمة ـ أنظر ما سبق فى الدراسة التاريخية .

ـ (٥) مقدمى : غير واضحة فى الوثيقة ، ولكنها تتفق وسياق الكلام وطبقا لمصطلحات العصر المملوكى .

(٦) هذا من قبيل الوكالة الشرعية ، وللدراسة التفصيلية أنظر الجزيرى : كتاب الفقه على المذاهب الاربعة ـ الجزء الثالث ص ١٦٧ وما بعدها .

(٧) فوض : فوض اليه الامر أى صيره له وجعله الحاكم فيه ، وفى حديث الدعاء فوضت أمرى اليك ، أى رددته اليك ، يقال فوض أمره اليه اذا رده اليه وجعله الحاكم فيه ـ ابن منظور : لسان العرب ـ مادة فوض .

١٨ ـ المنوه باسمه الشريف أعلاه ، خلد الله ملكه ، وأدام علاه ، وأشهد بذلك مولانا المقام الملك الأشرف .

١٩ ـ المشار اليه أعلاه على نفسه الشريفة أمدها الله بالخيرات المنيفة ، فشهد عليه به ، وهو بحال جواز الاشهاد بذلك عليه (١) بتاريخ

٢٠ ـ اليوم المبارك الثانى عشر شهر رجب الفرد عام ست وتسعمائة ولما تكاملت الشهادة بذلك

٢١ ـ على مولانا المقام العالى الملك الأشرف المشار اليه أعلاه ثبت اعرافه به (٢) بشهادة شهوده

٢ ـ لدى سيدنا العبد الفقير الى الله تعالى الشيخ الامام العالم العلامة الحجة الفهامة شمس الدين شرف العلماء وأحد الفضلاء

٢٣ ـ مفتى المسلمين ، صدر المدرسين أبى الفضل محمد بن جريج المالكى الصوفى الشاذلى عن خلفاء الحكم العزيز ومشايخ العلم

٢٤ ـ الشريف بالثغر المذكور (٣) ، أيد الله تعالى أحكامه ، وأحسن اليه ثبوتا (٤) صحيحا شرعيا تاما محررا

٢٥ ـ مرعيا مسئولا فيه مستوفيا شرائطه الشرعية (٥) وأشهد على نفسه الكريمة بذلك فشهد به عليه أيد الله تعالى

---

(١) حتى يكون التفويض قانونيا تنص الوثيقة على أن جان بلاط كان فى حال من الصحة تمكنه من التصرف بارادته ؛ وان لا علة به تمنع من صحة تصرفه ـ انظر السرخسى : المبسوط جـ ٢٤ ص ١٦١ .

(٢) لابد من الاقرار بمعرفة المتصرف فيما تصرف فيه حتى يكون تصرفه لازما نافذا ، ولذلك لابد من اثبات أنه يعرف ما تصرف به مما يجعل معرفته حجة عليه ويسقط حقه فى أبطال التصرف بدعوى عدم علمه .

(٣) المقصود هو ثغر الاسكندرية ، ويبدو وأنه ورد ذكره فى الجزء الممزق من الوثيقة ـ أنظر ما سبق فى الدراسة التاريخية .

(٤) الثبوت = لغة حصول أمر وتحققه عن طريق معرفته حق المعرفة ، واذا حكم بثبوت البينة امتنع على قاضى آخر ابطاله ، أنظر د . عبد اللطيف ابراهيم : التوثيقات الشرعية ص ٣٨٠ وما بعدها .

(٥) المقصود بذلك الضوابط التى تجب مراعاتها فى تحرير العقود والاشهادات ، والهدف منها الاحتياط والحذر ليكون العقد جديرا بالثقة ـ د . عبد اللطيف ابراهيم : مرجع سابق ص ٣٨٥ .

٢٦ ـ أحكامه ، وأحسن اليه ، وهو نافذ القضاء والحكم ماضيهما(١)
في التاريخ المعين أعلاه ، وحسبنا الله ونعم الوكيل (٢) .

٢٧ ـ فيه مصلح بين أسطره على كشط أسند صحيح ذلك معتد به
في محله (٣) والحمد لله وحده (٤) .

٢٨ ـ شهدت (٥) على مولانا المقام العالى	شهدت على مولانا المقام المشار اليه
٢٩ ـ المشار اليه أعلاه وعلى سيدنا الحاكم	أعلاه وعلى سيدنا الحاكم المشار
٣٠ ـ المشار اليه بما نسب لكل منهم أعلاه	المشار (٦) اليه فيه بما نسب لكل منهم أعلاه
٣١ ـ وكتبه (٧) عبد القادر بن عبد الباسط	وكتبه محمد العلائى الخطيب

---

(١) يؤكد كاتب الوثيقة أن القاضى الذي ثبت أمامه صحة التفويض كان مباشرا لعمله ليس معزولا عنه .

(٢) الحسبلة هى الدعاء الختامى فى وثائق العصور الوسطى ، واصطلح الكتاب على أن يكتبوا لفظ الحسبلة بصيغة الجمع باعتبار أن المتكلم يتكلم عن نفسه وعن غيره من الامة ، وتسبق الحسبلة ولو زائدة فلا علاقة بين الحسبلة وما قبلها ـ القلقشندى : صبح الاعشى جـ ٦ ص ٢٦٩ ـ ٢٧٠ .

(٣) تعقيب من كاتب الوثيقة على ما وقع منه من هنات .

(٤) علامة القاضى الموثق .

(٥) يلاحظ أن الشهادتين غير متطابقتين تماما فى الفاظها .

(٦) المشار : مكررة

(٧) « وكتبه » يدل هذا اللفظ على أن الشاهد وقع بخطه بعيدا أن قام بنفسه بكتابة عبارة الشهادة بألفاظها التى أداها فى مجلس الحكم ـ
القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٦ ص ٢٦٤ .

المصادر والمراجع

ابن اياس :

(محمد بن أحمد الحنفى ت ٩٣٠هـ/١٥٢٤ م) :

ـ بدائع الزهور فى وقائع الدهور

ج ٣ ، ٤ ، نشر محمد مصطفى ـ الطبعة الثانية ـ القاهرة ١٩٦٠ ـ ١٩٦٣ .

جورج فاضلو حورانى :

ـ العرب والملاحة فى المحيط الهندى

ترجمة د. يعقوب بكر ـ القاهرة ١٩٥٨ .

جيان :

ـ وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية عن أفريقية الشرقية .

ترجمة يوسف كمال ـ الطبعة الأولى ١٩٢٧ .

حسن الباشا :

ـ الألقاب الاسلامية

القاهرة ١٩٥٧

السخاوى :

(محمد بن عبد الرحمن ت ٩٠٢هـ/١٤٩٧م) :

ـ الضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع

١٢ جزء ـ مصر ١٣٥٣ ـ ١٣٥٥ هـ .

السرخسى :

(محمد بن أبى سهل ت حوالى ٥٠٠هـ/١١٠٦م) :

ـ المبسوط

٣٠ جزء مصر ١٣٣١ هـ .

السيد الباز العرينى :

ـ المماليك
بيروت ١٩٦٧ ٠

ابن شاهين :

(خليل بن شاهين الظاهرى ت ٨٧٢هـ/١٤٦٨م) :
زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك
نشر بولس راويس ـ باريس ١٨٩٤م ٠

ابن طالون :

(محمد بن على بن طولون ت ٩٥٣هـ/١٥٤٦م) :
ـ اعلام الورى بمن ولى نائبا من الاتراك بدمشق الشام الكبرى ـ
تحقيق عبد العظيم حامد خطاب ـ القاهرة ١٩٧٣
ـ مفاكهة الخلان فى حوادث الزمان
حـ١ تحقيق محمد مصطفى ـ القاهرة ١٩٦٢

عبد الرحمن الجزيرى :

ـ كتاب الفقه على المذاهب الأربعة
حـ ٣ قسم المعاملات ـ القاهرة ١٩٧٠

عبد العظيم حامد خطاب :

ـ قانصوه الغورى ونهاية الدولة المملوكية رسالة دكتوراه غير منشورة ـ كلية الآداب ـ جامعة عين شمس ١٩٧٣ ٠

عبد اللطيف ابراهيم :

ـ التوثيقات الشرعية والاشهادات فى ظهر وثيقة الغورى
(مجلة كلية الآداب) جامعة القاهرة ـ مجلد ١٩ ج ١ مايو ١٩٥٧م
القاهرة ١٩٦٠م ٠

ابن العماد الحنبلى :

(عبد الحى بن أحمد ت ١٠٨٩هـ/١٦٧٨م) :
شذرات الذهب فى أخبار من ذهب
١٠ أجزاء ـ القاهرة ١٣٥٠هـ ٠

القلقشندى :

(أحمد بن على ت ٨٢١هـ/١٤١٨م) :
ـ صبح الأعشى فى صناعة الانشا
١٤ جزء ـ القاهرة ١٩١٩ ـ ١٩٢٢ ٠

محمد عبد العال أحمد :

ـ أضواء جديدة على ملاح فاسكو دى جاما
مجلة الدراسات الأفريقية ـ العدد الخامس ١٩٧٦ ٠

محمد محمد أمين :

ـ فهرست وثائق القاهرة
القاهرة ١٩٨١ ٠

المقريزى :

(أحمد بن على ت ٨٤٥هـ/١٤٤٢م) :
ـ المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار
ط ٠ بولاق ١٢٧٠ هـ ٠

ابن منظور :

(محمد بن مكرم الانصارى ت ٧١١ هـ/١٣١١ م) :
ـ لسان العرب
٢٠ جزء ـ بولاق ١٣٠٠ ـ ١٣٠٨م ٠

دكتور
أحمد عبد الرزاق

كلية الآداب
جامعة عين شمس

أضواء على المسجد الأقصى
وبعض الكتابات الأثرية فيه

أضواء على المسجد الأقصى وبعض الكتابات الأثرية فيه

يفهم من بعض المصادر التاريخية أن المسجد الأقصى سمى بهذا الاسم لأنه أبعد المساجد التى تزار ويبتغى بها الأجر من المسجد الحرام ، وقيل: لأنه لم يكن وراءه موضع عبادة ، وقيل : لبعده عن الأقذار والخبائث(١)٠ ويفهم من هذه المصادر أيضا أن أول من شيده هو يعقوب بن اسحق بن ابراهيم ، ثم جدده بعد ذلك سليمان بن داود ، فقد جاء فى الصحيحين عن أبى ذر رضى الله عنه قال : « قلت : يا رسول الله أى المساجد وضع فى الأرض أولا ؟ قال المسجد الحرام (٢) ، قلت : ثم أى ، قال : المسجد الأقصى ، قلت : كم بينهما ؟ قال : أربعون عاما (٣) » ٠

نخلص من هذا بأن المسجد الأقصى قديم ووصفه القرآن الكريم بأنه مبارك (٤) ٠ ولكن السؤال الذى يتبادر الى الذهن هنا ، هل قصدت الآية الكريمة المسجد الأقصى بمعناه الحالى ؟ أم أنها كانت تعنى حرم بيت المقدس شأنها فى هذا شأن الحرم المكى ؟

للاجابة على هذا السؤال ينبغى علينا أن نتقصى أخبار هذا المسجد فى المصادر التاريخية وفى غيرها من مؤلفات العصور الوسطى التى وصلت الى أيدينا ٠ النظرة الفاحصة لهذه الكتب تبين بما لا يقبل الشك

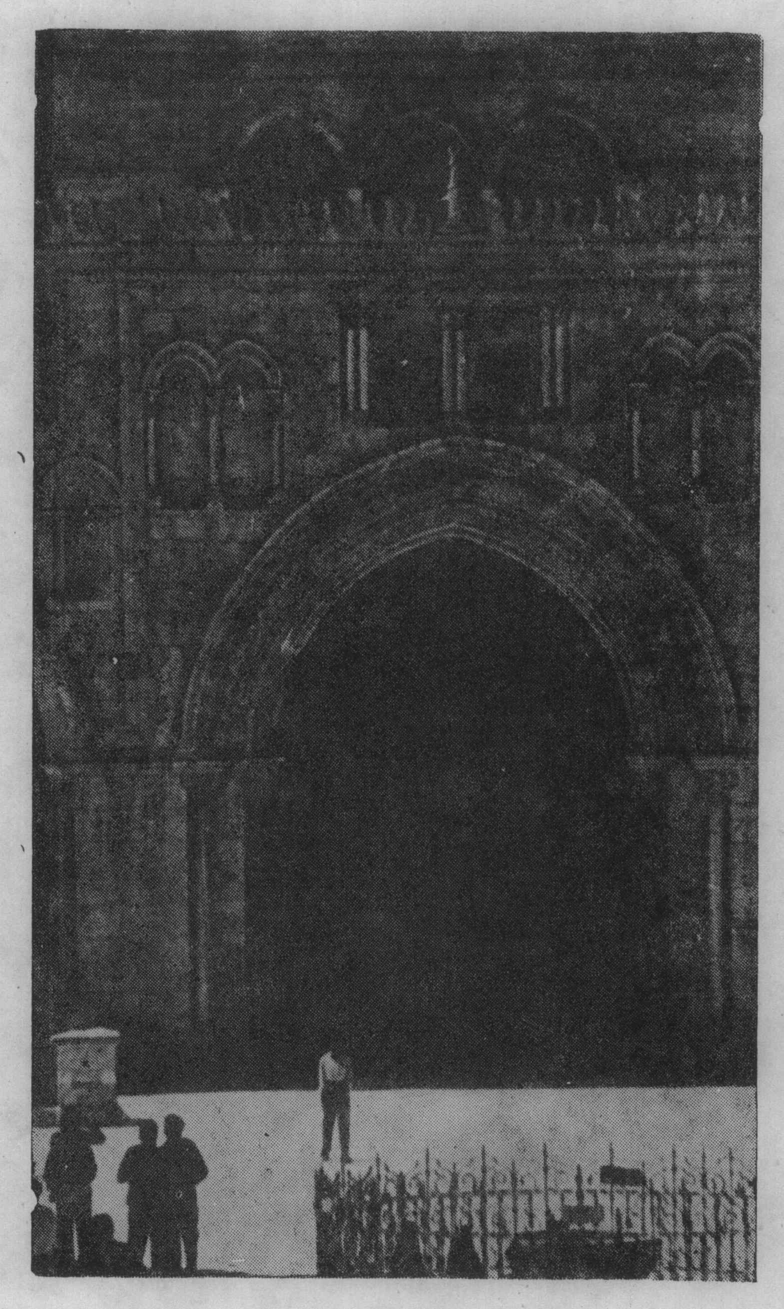
شكل رقم (١)

شكل رقم (٢)

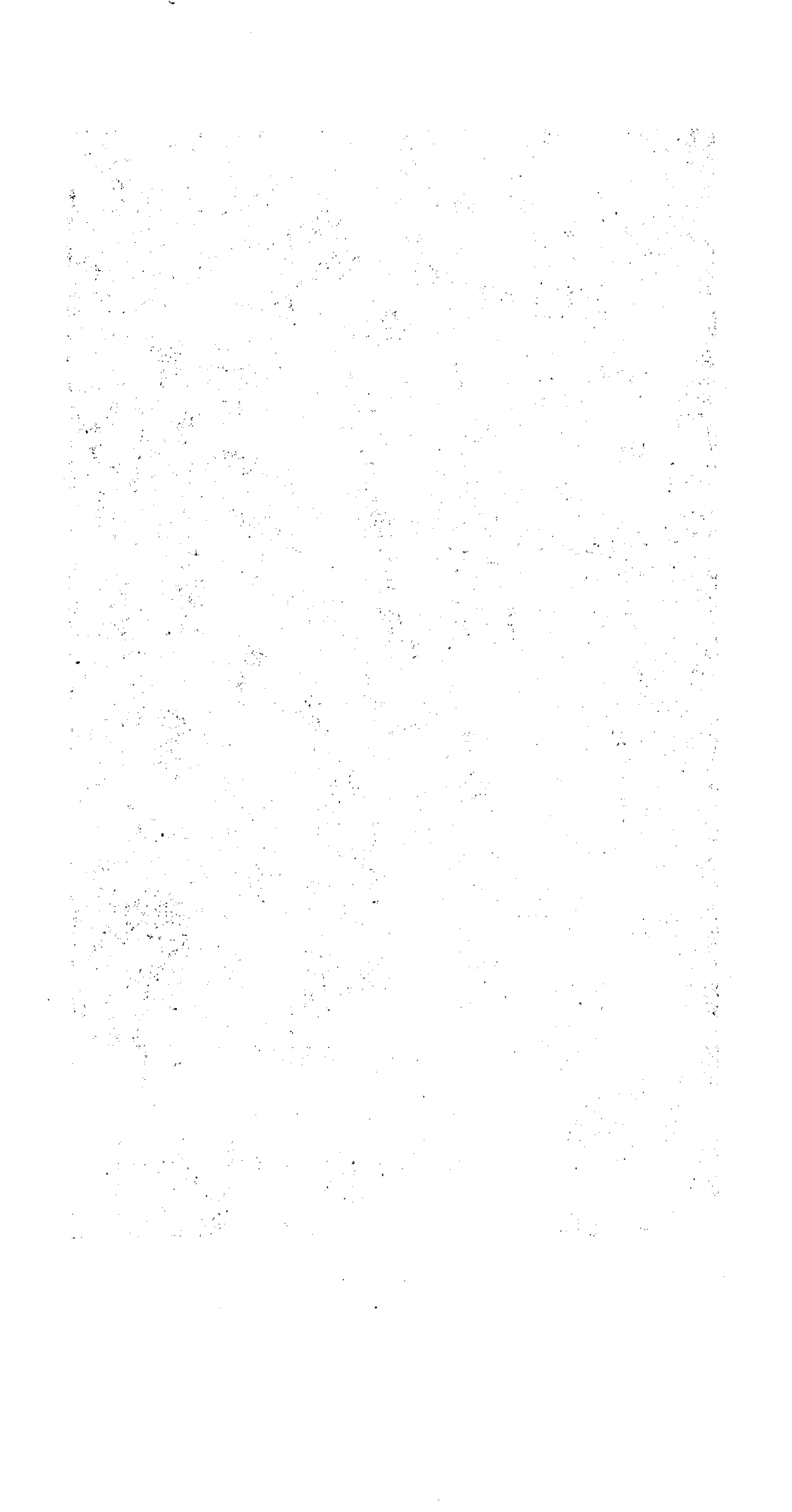
أن الكتاب كانوا يقصدون بالمسجد الأقصى أحيانا الجامع فقط ، وأحيانا الحرم بأكمله (٥)٠ وحسبنا دليلاعلى ذلك ماذكره الرحالة المغربى ابن بطوطه فى رحلته الى القدس عام ٧٢٦ هـ/١٣٢٦ م اذ يقول أثناء حديثه عن المسجد ما نصه : « والمسجد كله فضاء غير مسقوف الا المسجد الأقصى فهو مسقف فى النهاية » (٦) ٠ وأيضا ما ذكره الزركشى أحد كتاب القرن الثامن الهجرى/الرابع عشر الميلادى تحت اسم هذا المسجد من أن فتحه تم على يدى عمر بن الخطاب « صلحا لخمس خلون من ذى القعدة سنة ست عشرة من الهجرة بعد موت رسول الله صلى الله عليه وسلم بخمس سنين وأشهر » (٧) ٠ ولسنا هنا بحاجة الى التنويه بأن المقصود بهذا الفتح هو بيت المقدس وليس المسجد الأقصى موضوع هذا البحث٠ كذلك أشار تحت عنوان أسمائه أنه جمع منها سبعة عشر يتضح أن غالبها أسماء لمدينة القدس وليس للمسجد الأقصى منها سوى واحد فقط (٨) ٠

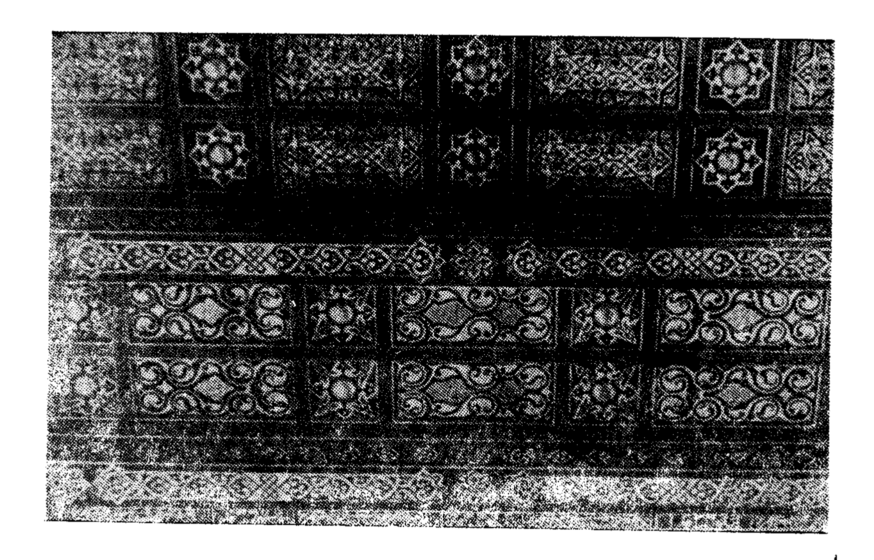
ويفهم كذلك مما ذكره مجير الدين صاحب كتاب الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل عن بناء داود عليه السلام لمسجد بيت المقدس أنه يعنى القدس دون المسجد (٩) ٠ وأيضا مما رواه عن صفة المسجد الأقصى وما كان زمن الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان حيث ذكر ما نصه « وفيه ٠٠٠ من السلاسل للقناديل أربعمائة سلسلة الا خمسة عشر منها مائتا سلسلة وثلاثون فى المسجد الأقصى ، والباقى فى قبة الصخرة الشريفة ٠٠٠ وفيه من القباب خمسة عشر قبة سوى قبة الصخرة ، وعلى سطح المسجد من شقف الرصاص سبعة آلاف شقفة وسبعمائة ٠٠٠ غير الذى بقبة الصخرة » (١٠) ٠

مجمل القول أن مجير الدين أراد بحديثه الحرم القدس ولم يقصد مجرد الجامع ، غير أنه يتضح لنا من سياق كلامه أنه على وعى لاطلاق الناس لاسم المسجد الأقصى على الجامع فقط اذ يقول : « اعلم وفقك الله أن المسجد الأقصى الشريف ٠٠٠ ليس له نظير تحت أديم السماء ، ولا بنى فى المساجد صفته ولا سعته ٠٠٠ وأما صفته فى هذا العصر

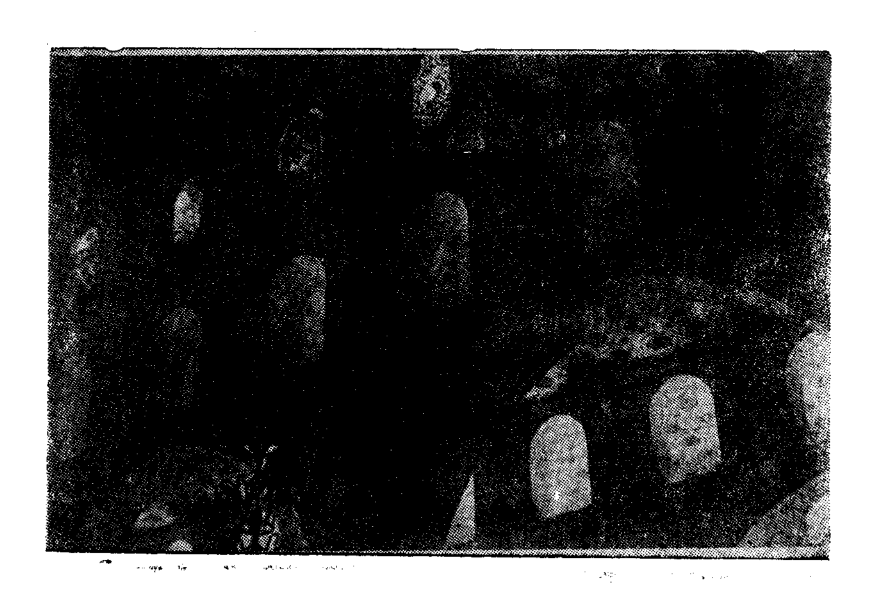


شكل رقم (٣)

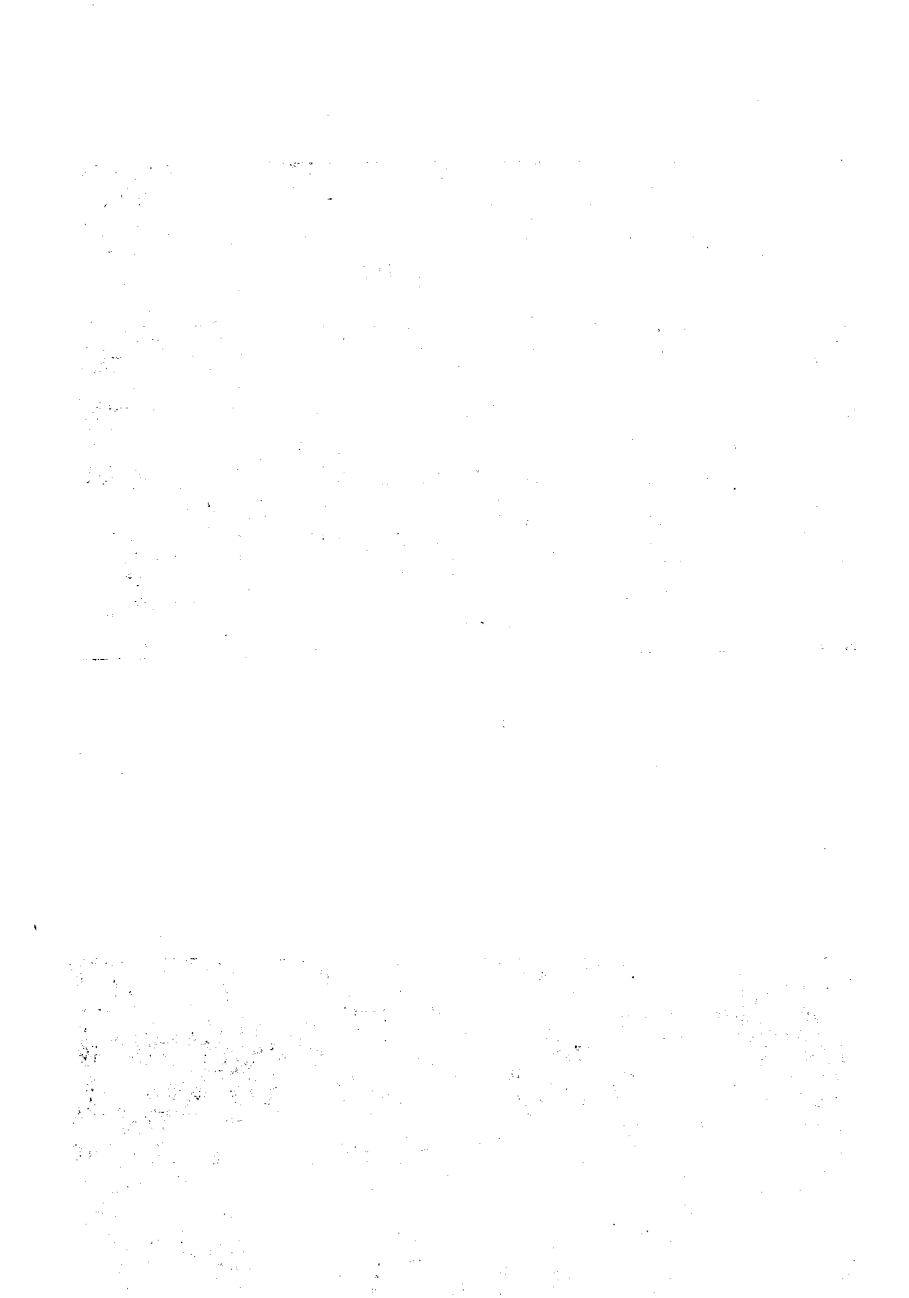




شكل رقم (٤)



شكل رقم (٥)



شكل رقم (٦)

شكل رقم (٧)





شكل رقم (٨)

فهى أيضا من الصفات العجيبة لحسن بنائه واتقانه ، فالجامع الذى هو فى صدره عند القبلة التى تقام منها الجمعة وهو المتعارف عند الناس أنه المسجد الأقصى ، يشتمل على بناء عظيم به قبه مرتفعة مزينة بالفصوص الملونة وتحت القبة المنبر والمحراب ... » . وفى موضع آخر قال : الأقصى ليس بجديد فقد سبقه اليه كل من مفضل بن ابى الفضائل الدى وعرضا ، فان البناء الموجود فى صدر المسجد وغيره من قبة الصخرة والأروقة وغيرها محدثة والمراد بالمسجد الأقصى هو جميع ما دار عليه السور (١١) » .

والواقع أن هذا التحديد الذى قدمه لنا مجير الدين للمسجد الأقصى ليس بجديد فقد سبقه اليه كل من مفضل بن أبى الفضائل الذى ذكر بأن « الجامع المعروف بالأقصى يعنى المسجد الأقصى الذى يقع فى مواجهة مسجد الصخرة (١٢) » . والعمرى صاحب كتاب مسالك الأبصار فى ممالك الذى أورد معنى قريبا من هذا (١٣) .

والجديد فى العبارات الأخيرة هو استعمال لفظة جامع ، تلك اللفظة التى حلت محل كلمة مسجد منذ القرون الأولى للهجرة للدلالة على المساجد الكبيرة التى كانت تقام فيها صلاة الجماعة والجمعة ، وهذه التسمية لم تطلق على المسجد الأقصى فى عصوره المبكرة ، أغلب الظن بسبب احترام الكتاب العرب ومحافظتهم على نص الآية القرآنية من سورة الاسراء التى نصت صراحة على لفظة مسجد (١٤) . تلك اللفظة التى كانت تعنى كما سبق أن نوهنا من قبل الحرم الذى اشتمل على المسجد ، كما اشتمل على غيره من المبانى الآخرى .

بيد أن المؤرخين العرب خرجوا فى النهاية على هذا التقليد واضطروا الى استخدام لفظة جامع بهدف التمييز بين المسجد الأقصى وبين الحرم . وأصبح واضحا الان أن عبارة المسجد الأقصى تعنى الحرم على حين أن عبارة الجامع الأقصى ، تعنى المسجد موضوع هذا البحث .

واذا تركنا هذا الخلط بين المسجد والحرم وعدنا الى تاريخ المسجد لوجدنا أيضا الاختلافات على أشدها بين المؤرخين والعلماء المحدثين بصدد تاريخ انشائه ، فمنهم من نسب تشييده الأول الى عمر بن الخطاب (١٥) عام ١٧ هـ / ٦٣٨ م . ومنهم من قال أنه الوليد بن عبد الملك الذى أعاد بناءه فى سنة ٨٧ هـ / ٧٠٦ م ويستدلون على صحة قولهم بما جاء فى الرسائل التى كتبها قرة بن شريك عامل الامويين على مصر فى عهد

الخليفة الوليد بن عبد الملك الى أحد حكام الصعيد فى سنة ٨٧ هـ ٧٠٦م، طالبا منه امداده بالصناع المهرة لمسجد بيت المقدس (١٦) ، وذلك على خلاف ما اتفق عليه جمهرة المؤرخين من أن عبد الملك بن مروان ، أبا الوليد هو الذى أعاد بناءه فى سنة ٦٥ هـ ٦٨٥ م (١٧) ومهما يكن من شىء فان المسجد القائم حاليا يختلف اختلافا كليا عن المسجد الذى أقامه عمر ، والذى أعيد تشييده فى صدر الدولة الأموية ، اذ يذكر المؤرخون ان زلزالا هدم سقف المسجد من جهتيه الشرقية والغربية «وطرحت المغطى» فى عام ١٣٠ هـ / ٧٤٧ م فأعيد بناؤه فى أيام الدولة العباسيه « أوثق وأغلظ صناعة » مما كان يأمر من الخليفة أبى جعفر المنصور ، الذى أوصى بنزع الصفائح الذهب والفضة التى كانت على الأبواب منذ أيام عبد الملك بن مروان ، حيث ضربت دنانير ودراهم أنفقت عليه حتى فرغ منه عام ١٤١ هـ / ٧٥٨ (١٨) ٠

وفى سنة ١٥٨ هـ ٧٧٤ م حدث زلزال آخر فوقع البناء الذى أقامه الخليفة أبو جعفر المنصور ، فأمر المهدى بتعميره قائلا : « رث هذا المسجد وطال وخلا من الرجال (أى أرجل العقود) ، انقصوا من طوله وزيدوا فى عرضه » ٠ فتم ذلك فى سنة ١٦٣ هـ / ٧٨٠ م (١٩) ٠

واستمر المسجد فى مسيرته التاريخية ورحلته الطويلة عبر السنين الى ان تعرض لزلزال جديد زعزع أركانه عام ٤٢٥ هـ ١٠٢٣ م ، فأصلحه الخليفة الفاطمى الظاهر لاعزاز دين الله سنة ٤٢٦ هـ/ ١٠٣٥ م ، ثم جدده المستنصر بالله فى سنة ٤٥٨ هـ / ١٠٦٥ م ، وقد أمكن الاستدلال على آثار فى المسجد ترجع الى عهد الخليفة الظاهر لاعزاز دين الله ، كما يسرت أعمال الحفر والاصلاح التى أجريت فيه منذ نصف قرن الكشف عن آثار من عهد الخليفة المهدى العباسى ، وعن بعض أسس جدران ودعامات (٢٠) ، من العصر الاموى ٠ وكان المقدسى قد وصف المسجد فى سنة ٣٧٥ هـ / ٩٨٥ م (٢١) ، وكذا الرحالة الفارسى ناصر خسرو كما شاهده حوالى سنة ٤٤٠ هـ / ١٠٤٨ م ، أى بعد اصلاحات الخليفة الظاهر الفاطمى (٢٢)٠ وعلى هذا كان فى الامكان اعادة رسم تخطيطه وتحديد مساحته ونظامه على عهد الخليفة المهدى ، اعتمادا على وصف المقدسى وعلى أبحاث هاملتون (٢٣) ٠

ويتضح من هذا الوصف ان رواق القبلة بالمسجد الأقصى ، كان يحتل فى أواخر القرن الثانى الهجرى/الثامن الميلادى ، مستطيلا فسيحا طول جدار القبلة فيه حوالى مائة متر ، وطول جوفه حوالى سبعين مترا ،

وأنه كان به ست عشرة بلاطة (٢٤) ، تجتاز خمس عشرة بلاطه ، وان سقفه كانت تستند على أعمدة من الرخام أحدثها عبد الله بن طاهر فى عهد الخليفة المأمون العباسى ، وأنه كانت به قبة حسنة ، وكان به أحد عشر بابا مفتوحة فى الجدار الشرقى ، وخمسة عشر بابا أخرى ، مفتوحة فى الجدار الشمالى ، كل باب منها أمام بلاطة من البلاطات ، فتكون جملة عدد أبواب المسجد ، كما ذكرها المقدسى ، ستة وعشرين بابا ، وكان للمسجد صحن مبلط ، ومؤخر مرصوف بالفسيفساء الكبار ٠

وقد وضع أحمد فكرى رسما اجتهاديا لتخطيط المسجد في العصر الأموى معتمدا على نتائج الحفائر التى أجريت فيه ملخصه ان رواق القبلة كان يشغل حينذاك مستطيلا طول جدار القبلة فيه ١٥ مترا ، وعرضه ٥٠ مترا ، وأنه كان ينقسم الى احدى عشرة بلاطة تقطع عشر بلاطات ، وان المحراب لم يكن يتوسط جدار القبلة بل كان يجاور الدعامة الرابعة من غرب هذا الجدار ، وان عمود المسجد كانت تمتد فى بوائك (٢٥) عمودية على جدار القبلة ٠ أما الدعامات التى اقيمت عليها فقد كانت صفوفا موازية لجدار القبلة ، وكان بالمسجد حينئذ واحد وعشرون بابا ، منها أحد عشر بابا فى الجدار الشرقى ، والباقية فى الجدار الشمالى (٢٦) ٠

كذلك وضع كريسول تخطيطا للمسجد الأقصى فى العصر العباسى ملخصه أن المسجد كان يتألف من خمس عشرة بلاطه عمودية على جدار القبلة يتوسطها بلاطة مركزية تبدو أكثر اتساعا عن بقية البلاطات الجانبية الأربع عشرة (٢٧) ٠ غير أن هاملتون يعترض على هذا التخطيط (٢٨) ٠ من حيث أن عمود المسجد كانت تقوم معظمها حينذاك على دعامات ، وكذا من حيث توزيع العمد على الرسم بصورة لا تتفق فى رسم كريسول مع نتائج الحفر الذى تم فى رواق القبلة ، وأيضا من حيث عدد البلاطات فى هذا الرسم خمس عشرة بلاطة فى حين أنها كانت فى عهد المهدى ست عشرة بلاطة ، منها احدى عشرة تنتهى بأبواب مفتوحة فى الجدار الشرقى ، وخمس لا أبواب لها ٠

ويفهم أيضا من أبحاث هاملتون أن المسجد الأقصى فى العصر الأموى لم يكن له بلاطة وسطى متسعة ، كتلك التى تظهر فى عصر المهدى ، وانما اتسعت هذه البلاطة عندما أراد ذلك الخليفة أن يشيد قبة أمام المحراب ، فتطلب ذلك الاستغناء عن صف الدعامات الذى كان يتوسط رواق القبلة (٢٩) ، وبالتالى لم يكن للمسجد فى العصر الأموى

قبة تتصدى بلاطة المحراب كما هي الآن ، اذ ترجع القبة الحالية الى عصر الظاهر لاعزاز دين الله الفاطمي كما هو واضح من الكتابة الفسيفسائية المذهبة بالخط الكوفي التي تزين واجهة أحد عقود القبة من جهة الشمال (٣٠) ٠

وفي زمن استيلاء الصليبيين على القدس حول قسم من المسجد الى كنيسة ، واتخذ قسم آخر مسكنا لفرسان الهيكل ، واستعمل باقي المسجد مستودعا ، كما أضيف الى البناء الاصلي بعض القناطر المعقودة ، وصار يطلق عليه اسم معبد سليمان ٠ واستمر الحال على هذا المنوال حتى استرد صلاح الدين الأيوبي القدس عام ٥٨٣ هـ/١١٨٧ م بعد انتصاره في موقعة حطين ، فأمر باصلاح المسجد « ونصب المنبر وأظهر المحراب ، ونفض ما أحدثوه (أى الصليبيون) من السوارى (٣١) ، وفرشوا تلك البسيطة بالبسط الرفيعة عوض الحصر والبوارى (٣٢) ، وعلقت القناديل (٣٣) » وكسا قبته بالفسيفساء وأزال كل أثر للصليبيين فيه وسجل ذلك في شريط من كتابه بالفسيفساء المذهبة نقشت فوق صدر المحراب ٠

وتحدثنا المصادر التاريخية عن اهتمام بنى أيوب بالمسجد بعد وفاء صلاح الدين ،وكيف كانوا يكنسونه بأيديهم ويغسلونه بماء الورد، ويخصون بالذكر الملك المعظم عيسى ، اذ أضاف اليه في غضون سنة ٦١٤ هـ/١٢١٧ م الرواق الذى يكون الواجهة الشمالية للمسجد ، وهو يتألف من سبعة عقود يقابل كل واحد منها بابا من أبواب المسجد السبعة ، كما تشهد بذلك اللوحة التأسيسية التى تزين واجهة الرواق الأوسط للمسجد (٣٤) ٠

ولم يكن اهتمام المماليك بالمسجد الأقصى أقل من بنى أيوب فقد أولوه عنايتهم كما تشهد بذلك المصادر التاريخية والوثائق الأثريه ، والسؤال الذى يفرض نفسه هنا هو كيف كان المسجد زمن سلاطين المماليك ؟

انفرد مجير الدين من بين مؤرخى العصر المملوكى باعطائنا وصفا ممتعا للمسجد أثناء القرن التاسع الهجرى (الخامس عشر الميلادى) يتفق مع المسجد بوضعه الحالى (٣٥) ، اذ لا زلنا نشاهد تخطيطا مستطيل الشكل يتألف من سبع بلاطات عمودية على جدار القبلة يغطيها سقف خشبى ذو زخارف بديعة (شكل رقم ٤) فيما عدا البلاطة الوسطى منها ، سقفها أعلى من باقى البلاطات الجانبية ويغطيها سقف جمالونى

الشكل (٣٦) ينتهى من جهته الجنوبية أمام المحراب الرئيسى بقيـة خشبية مغشاة من الخارج بصفائح من الرصاص ، ويزينها من الداخل زخارف فسيفسائية تتألف من عناصر نباتية مورقة ، هذا عدا بعض النصوص الكتابية بالخط النسخ (شكل رقم ٧) .

ويزين الرقبة ثماني نوافذ جصية منزله بشرائح زجاجية ملونة (شكل رقم ٦) . ويحمل سقف المسجد بائكات ترتكز على أعمدة رخامية ودعامات حجرية تتألف من ستة صفوف من العقود المدببة تمتد من الشمال الى الجنوب ، فى أعلاها نوافذ معقودة بعضها مزين بزخارف جصية مخرمة يملؤها زجاج ملون (شكل ٥) .

وملحق بالمسجد من جهته الجنوبية الغربية بناء مستطيل الشكل، يطلق عليه اسم جامع النساء ، ويرجعه مجير الدين الى العصر الفاطمى. وهو يتألف من بلاطتين ويرتكز سقفه على عشرة عقود مدببة تقوم على تسع دعامات حجرية . كذلك يتصل بالمسجد من الجهة الجنوبية الشرقية بناء آخر أصغر حجما يعرف بجامع عمر (٣٧) ، يتقدمه فى الشمال ايوان صغير به محراب يسمى محراب زكريا .

وبالجامع نفسه أربع محاريب أولها المحراب الرئيسى وهو اسفل القبة الحجرية ، ويقع على محور المدخل الرئيسى بالواجهة الشمالية للمسجد . ويفهم من الكتابة التى تعلوه أنه من تجديد السلطان صلاح الدين الأيوبى ، ويعرف خطأ باسم محراب داود أو محراب عمر (٣٨) .

والمحراب الثانى يقع الى الغرب من الأول بجوار المنبر وهو يعرف بمحراب معاوية ويمتاز بصغر حجمه . أما المحراب الثالث فيوجد بالقسم المعروف بجامع عمر . على حين يقع المحراب الرابع فى شرق المسجد ، شمالى جامع عمر ويعرف بمحراب زكريا ، وهو على مقربة من المدخل الشرقى للمسجد ، وقد سبقت الاشارة اليه .

والى الغرب من المحراب الصغير كان يوجد المنبر الخشبى الذى أمر بصنعه نور الدين زنكى خصيصا للمسجد الأقصى فى شهور أربع وستين وخمسمائة (شكل ٨) وقد أصابه الحريق الذى تعرض له المسجد عام ١٩٦٩ م ، شأنه فى هذا شأن كل من القبة والمحراب (٣٩) ، وفقدنا بذلك تحفة فنية فريدة لفن الأخشاب الأيوبية كانت مرصعة بالعاج والأبنوس وتحمل اسم صانعها سليمان بن معالى (٤٠) .

ويقابل المنبر دكة المؤذن ، وهي قائمة على أعمدة أربعة من الرخام في غاية الحسن ٠

ويتقدم المسجد من جهته الشمالية سقيفة ترتكز على سبعة عقود مدببة تسير بموازاة جدار القبلة (شكل ١) يفضى كل منها الى بلاطة من بلاطات المسجد السبع ، وتستند على دعامات حجرية ، يشتمل كل منها على عمودين ، ويزينها من أعلى شريط من الشرافات (٤١) المملوكية الطراز شكل (٣) ٠ وتشير المصادر التاريخية الى أنها من عمل الملك المعظم عيسى (٤٢) ، لكنها جددت في عصـــور تالية كمـــا يتضـــح من النصوص الكتابية التي تعلوها ٠

ويمتاز المسجد الاقصى بمداخله المتعددة حيث نشاهد سبعة مداخل معقودة بالواجهة الشمالية (شكل ١) ، يفضى كل منها الى بلاطة من بلاطات المسجد السبع كما سبق أن نوهنا من قبل ٠ المدخل الرئيسى منها يعلوه عقد ذو اطار مفصص (شكل ٣) ٠ هذا بالاضافة الى مدخل ثامن بالجدار الشرقي يقع داخل حينة ضحلة ويعلوه أيضا عقد مفصص (شكل ٢) ٠ واثنان آخران بالجدار الغربي ، أحدهما يدخل منه النساء في طريقهن الى الجامع المعروف بأسمهن ـ جامع النســـاء ٠ أما المـــدخل الحادى عشر فهو يقع بالجدار الجنوبي ، ويفضى الى زاوية صغيرة كانت في الأصل مدرسة (٤٣) ٠

وليس للمسجد الأقصى فناء أو مئذنة ، ومن المرجح أن مهندسه قد استغاص هنا بفناء الحرم الشريف الذى يفتح عليه المسجد من الجهة الشمالية وكذا بالمآذن الأربعة التي تقوم بساحة الحرم الشريف ٠ ومن الواضح أيضـــا أن المسجد زمن ســـلاطين المماليك قد تعرض للانكماش بدليل أنه أصبح يتألف من سبع بلاطات في مقابل ست عشرة بلاطة في عصر الخليفة المهـــدى العباسي ٠ وهذا يدفعنـــا الى التســـاؤل عما قام به سلاطين المماليك من أعمال بهذا المسجد ؟

في محاولتنا للاجابة على هـــذا السؤال يمكننا أن نعتمد بصـــفة أساسية على النصوص الأثرية التي عثر عليها منقوشة داخل المسجد والتي ترجع الى عصر سلاطين المماليك ٠ ويحتوى المسجد على أحد عشر نصا عربيا (٤٤) ، تسع منها من عصر المماليك البحرية ، واثنـــان من عصر المماليك الجراكســـة ، تسجل لنا هـــذه الكتابات الأثرية ما قام به سلاطين المماليك من أعمال التجديد والتعمير بهذا المسجد طيلة قرنين

ونصف من الزمان (٦٤٨ – ٩٢٣ هـ / ١٢٥٠ – ١٥١٧ م) ويرجع الفضل في الكشف عنها ولفت الأنظـــار اليها الى العلامة السويسرى ماكس فان برشم الذى قام بنشرها فى الجزء الذى خصصه لمدينة القدس من كتابه المعروف بجامع الكتابات العربية (٤٥) ٠ كما اعيد نشر بعضها فى ســـجل الكتابات العربية (٤٦) ٠ وقد رأينا من المفيـــد أعادة نشر تلك النصوص التاريخية مرة ثالثة لأرتباطها الوثيق ببحثنا هذا عن المسجد الأقصى ٠

النص الأول :

وهو عبارة عن شريط دائرى ضيق يتألف من سطر واحد منقوش داخل القبة التى تعلو المحراب بحروف كبيرة من الخط النسخ المملوكى ، بلون أبيض على أرضية خضراء ومقسم الى سبعة أجزاء بواسطة سبع جامات أى مناطق بها زخارف هندسية (شكل ٧) نصه :

١ – بسم الله الرحمن الرحيم جددت هذه القبة المباركة فى
٢ – أيام مولانا السلطان الملك الناصر العالم
٣ – العادل المجاهد المرابط المثاغر المؤيد
٤ – المنصور قاهر الخوارج والمتمردين محيى العدل فى
٥ – العالمين سلطان الاسلام محمد بن السلطان
٦ – الشهيد الملك المنصور قلاون الصالحى تغمده
٧ – الله برحمته فى شهور سنة ثمان وعشرين وستمائة ٠

من الملاحظ أن هذا النص يخلو من بعض الألقاب الخاصة بالسلطان الناصر محمد بن قلاوون بصفة خاصة وببقية سلاطين المماليك بصفه عامة ٠ اذ من المعروف ان المصطلح المملوكى لم يستخدم لقب « سلطان الاسلام » منفردا بل جرى العرف على استعمال لقب « سلطان الاسلام والمسلمين » ٠ كما أنه يخلو أيضا من لقب محمد بن قلاوون المضاف الى الدنيا والدين وهو « ناصر الدنيا والدين » (٤٧) ٠ ومن الملاحظ أيضا الخطأ الذى ورد فى نهاية النص بشأن التاريخ المذكور ، اذ نقرأ كلمة ستمائة ، وكان من المفروض أن تكون سبعمائة ، خاصـــة وان السنة المذكورة وهى ٦٢٨ هـ / ١٢٣٠ م لا توافق حكم السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، بل ولا تقع تحت حكم سلاطين المماليك الذى بدأ كمـــا نعلم عام ٦٤٨ هـ / ١٢٥٠ م ٠ ولعل مرجع هذا اللبس الذى حدث بالنص الى عملية الترميم التى أجريت للقبة فى عصر حديث ، الأمر الذى ترتب عليه بعض الحذف والاضافة فى سلسلة الألقاب الخاصة بالسلطان الناصر

بن قلاوون ، وأيضا التحريف فى التاريخ (٤٨) ، وان كنا نجهـــل فى الواقع متى تم ذلك ، أفى عصر السلطان محمود الثانى ، الذى قام بعملية تجديد المسجد عام ١٢٣٣ هـ / ١٨١٧ م (٤٩) ، أم فى عصر لاحق ٠ من الصعب الجزم هنا طالما أن المصادر التاريخيــة التى تحت أيدينا الآن لا تمدنا بمزيد من التفاصيل فى هذا الصدد ، وكل الذى نستطيع أن نؤكده هو تجديد الناصر محمد بن قلاوون لهذه القبة ، خاصة وقد أشار مجير الدين الى ذلك بما نصه « وجدد تذهيب القبتين : قبــة المسجد الأقصى ، وقبة الصخرة » (٥٠) ، وان كان لم يشر الى نوع الزخارف التى كانت تزينها ولا الى النص الذى كان يتوجها ٠ ولكننا لا نشك فى أنه شاهد القبة بالحالة التى كانت عليها بعد اصلاح السلطان الناصر محمد بن قلاوون لها فى سنة ٧٢٨ هـ / ١٣٢٨ م ٠

النص الثــانى :

وهو يتــألف من ســطرين بالخط النسخ المملوكى بحروف كبيرة بارزة ، نقشت باللون الأصفر فوق أرضية خضراء ، على لوحة خشبية كبيرة ، أبعادها ١٨٠ × ٣٠ سم ٢ مثبتة فوق العتب العلوى الذى يعلو النافذة اليسرى ، التى تقع شرقى المحراب الرئيسى ويقرأ :

١ ـ بسم الله الرحمن الرحيم جدد هذا الشباك والرخام المبارك فى أيام مولانا السلطان الملك الناصر

٢ ـ ناصر الدنيا والدين محمد بن قلاوون عز نصره بالاشارة العالية السـيفية تنكر النــاصرى فى شـــهور سنة أحد (كذا) وثلثين وسبعمائة (٥١) ٠

النص الثالث

وهو يختلف كثيرا من حيث التفاصيل عن النص الثانى ، اذ نشاهد أيضا لوحة خشبية لها نفس المقاييس السابقة ، مثبتة فوق العتب العلوى الذى يعلو النافذة اليمنى ، التى تقع الى الغرب من المحراب الرئيسى ، وتشتمل على سطرين من الخط النسخ المملوكى بحروف كبـيرة بارزة نقشت بلون أصفر على أرضية خضراء نصها :

١ ـ بسم الله الرحمن الرحيم جدد هذا الشباك والرخام المبارك فى أيام مولانا السلطان الملك الناصر ٠

٢ ـ ناصر الدنيا والدين محمد بن قلاوون الصالحى بالاشارة العالية السيفية تنكز الناصرى كافل الممالك الشريفة الشامية (٥٢) ٠

بدراسة هذين النصين يتضح لنا تنوع الالقاب الخاصة بالسلطان الناصر محمد بن قلاوون حيث استبدل الدعاء له «عزه نصره» «في النص الأول بلقب النسبة الى السلطان قلاوون» الصالحى (٥٣) « في النص الثانى ، الذى ورد بعد اسم السلطان مباشرة ، كما اشتمل النص الثانى على اللقب الوظيفى للأمير تنكز « كافل الممالك الشريفة الشامية (٥٤) » ، الذى حل محل التاريخ الوارد فى النص الأول ٠ أما فيما عدا ذلك فهو يتفق مع ما جاء في المصادر التاريخية ، اذ أشار مجير الدين الى تلك الأعمال في مواضع ثلاثة من كتابه : أولا عند حديثه عن مدرسه الامير تنكز بالحرم الشريف حيث قال : « ولواقفها مآثر خير فى المسجد وعمائر كثيرة منها الرخام الذى فى قبلة المسجد عند المحراب(٥٥)٠وثانيا عند ترجمته للناصر محمد بن قلاوون ذكر أنه « رخم صدر المسجد الاقصى ٠٠٠ باشارة تنكز نائب الشام ، وفتح بالمسجد الأقصى الشباكين اللذين عن يمين المحراب وشماله ، وكان فتحها فى سنة احدى وثلاثين وسبعمائة (٥٦) » ٠ وأشار فى موضع ثالث أثناء كلامه عن الأمير ناصر الدين مشد الاوقاف (٥٧) أنه « ولى نظر القدس والخليل فى المحرم سنة تسع وعشرين وسبعمائة فعمر عمارت كثيرة وفتح في المسجد الأقصى الشباكين اللذين عن يمين المحراب وشماله ، وعمل الرخام بصدر الجامع الأقصى بمرسوم الأمير تنكز ، نائب الشام فى سنة احدى وثلاثين وسبعمائة (٥٨) » ٠

بمقابلة النصيين السابقين بما ورد فى تاريخ مجير الدين ، يتضح لنا اطلاعه عليها فى المسجد الأقصى فى القرن التاسع الهجرى / الخامس عشر الميلادى ، ولكن من أين حصل مجير الدين على تلك المعلومات التى ذكرها بشأن الأمير ناصر الدين لاسيما وأن النصيين الثانى والثالث قد خلا تماما من الاشارة اليه ؟ أتراه قد استمدها من أحد المصادر المحلية الخاصة بمدينة القدس ، والتى لم تصل الى أيدينا حتى الآن ؟ أم تراه قد توصل اليها استنتاجا بعد معرفته بولاية الأمير ناصر الدين لنظارة الحرمين فى سنة ٧٢٩ هـ / ١٣٢٩ م ، الذى ولابد أن يكون الأمير تنكز نائب الشام قد عهد اليه بتنفيذ المطلوب ؟

من الصعب اعطاء اجابة قاطعة طالما أن المصادر المعاصرة قد وقفت صامتة ازاء هذا الموضوع فى الوقت الذى أشارت فيه الى بقية أعمال الأمير تنكز بمدينة القدس التى من أهمها الحمام والقناة التى دخلت الى

وسط المسجد الاقصى ، والبركة الرخام بين الصخرة والأقصى المعروفة حاليا باسم الكأس ، وكذا دار الحديث ، والمدرسة المشار اليها عاليا ، والخانقاه ،والرباط ، والسوق الذى أوقفه على المسجد الأقصى (٥٩) ٠

بقى أن نشير الى أن غالبيه الأعمال الخاصة بالترخيم ، والتى تمت بالمسجد الأقصى سنة ٧٣١ هـ / ١٣٣١ م ، لازالت باقية فى الجانب القبلى منه حيث تبدو بوضوح حول النوافذ (٦٠) وعلى الدعامات الحاملة للقبة الخشبية ، وفى المحرابين ، والى الشرق منهما (٦١) ٠

النص الرابع -

لوحة رخامية مقاييسها ٦٠ × ٩٠ سم٢ ، مثبته بأعلى الدعامة الثانية الغربية من دعامات الرواق الشمالى ، داخل حنية ضحلة يكتنفها عمودان صغيران ربما كانا من المخلفات الصليبية بالمسجد ٠ وتحتوى على تسعة أسطر بالخط النسخ المملوكى ، نقشت بلون أسود على أرضية بيضاء بحروف متوسطة يعلوها بعض علامات اعجام ، نصهما :

١ ـ بسم الله الرحمن الرحيم جدد هذ [ا] الجامع

٢ ـ المبارك المستجد والأبواب المستجدة

٣ ـ فى أيام مولانا السلطان العالم العامل

٤ ـ الملك الكامل سيف الدنيا والدين سلطان الاسلام

٥ ـ والمسلمين بن (كذا) مولانا السلطان الشهيد الملك أ

٦ ـ الناصر (كذا) محمد بن قلاوون الصالحى تغمده الله تعالى

٧ ـ بالرحمة بنظر العبد الفقير الى الله تعالى

٨ ـ أيبك المصرى ناظر الحرمين الشريفين

٩ ـ بتاريخ شهر رجب الفرد سنة ست وأربعين وسبعمائة (٦٢) ٠

مما يلفت النظر فى هذا النص هو استخدامه لكلمة جامع بدلا من لفظة مسجد ، ومن المعروف ان هذه الكلمة قد شاعت منذ القرن السابع الهجرى/الثالث عشر الميلادى لتمييز المسجد الأقصى عن الحرم الشريف كما سبق أن نوهنا من قبل ، أى قبل استعمالها هنا بحوالى قرن من الزمان ٠

ولكن السؤال الذى يقفز الى الذهن هنا ، ما هو المقصود بعبارة « الجامع ٠٠ المستجد » ؟ هل قصد بها هدم المسجد القديم واعادة تشييده من جديد ؟ أم قصد بها تجديد بعض الأجزاء المتهدمة فى المسجد القائم ؟

يبدو لنا أن المعنى الثانى هو أقرب الى الصواب · وحسبنا دليلا على ذلك احتفاظ المسجد الأقصى بالنصوص الخاصة بأعمال السلطان محمد بن قلاوون التى تسبق تاريخ هذا النص بعدة سنوات · وهذا ينطبق أيضا على عبارة « الأبواب المستجدة » التى لا شك فى أنها تعنى أبواب الرواق الشمالى للمسجد ، خاصة وان اثنين منها لا يزالان يحملان نصوصا باسم السلطان نفسه ، وسوف نتعرض لهما كل فى حينه ·

ويسترعى الانتباه فى هذا النص أيضا خلوه من اسم السلطان على الرغم من أن ألقابه قد وردت كاملة ، وواضح أنه السلطان الكامل شعبان الذى تولى السلطنة فى شوال ٧٤٦ هـ/١٣٤٥ م ، وعزل فى نفس الشهر من العام التالى وخلفه المظفر حاجى «٦١» · واغلب الظن ان هذا السهو قد حدث نتيجة لعدم دراية الصانع المنفذ بالقراءة ، خاصة وقد ورد بالنص بعد الأحرف الزائدة مثل الألف التى فى نهاية السطر الخامس ·

والملاحظة الأخيرة فى هذا النص هو كتابة اسم قلاوون بواوين بدلا من واو واحدة كما فى النصوص الثلاثة السابق الاشارة اليها ·

النص الخامس :

ويتألف من سطرين : الأول يتوج قمة مصراعى الباب الأول جهة الغرب من أبواب الرواق الشمالى ، والثانى داخل أربع حشوات أسفل السطر الأول ، وذلك بالخط النسخ المملوكى ، بحروف متوسطة ذات لون أخضر قاتم ، نصها :

(أ) [جـدد] هذا الباب المبارك فى أيام مولانا السلطان الملك الكامل سيف الدنيا والدين سلطان الاسلام ·

(ب) والمسلمين شعبان ابن مولانا السلطان الشهيد الملك الناصر تغمده الله بالرحمة وباشره العبد الفقير

١ ـ الى الله تعالى [أيبك]

٢ ـ [المصرى ناظر]

٣ ـ [الحرمين الشريفين]

٤ ـ وذلك بتاريخ سنة [ست و] أربعين وسبعمائة (٦٤) ·

النص السادس :

ويشمل أيضا على سطرين ، الأول يزين أعلى مصراعى الباب الثانى جهة الغرب ، من أبواب الرواق الشمالى ، يتلوه آخر داخل أربع حشوات مستطيلة بالخط النسخ المملوكى ، بحروف متوسطة ذات لون أخضر داكن ، نصهما :

(أ) جدد هذا الباب المبارك فى أ [يام] مولانا السلطان الملك الكامل العالم العادل

(ب) سلطان الاسلام والمسلمين سيف الدنيا والدين شعبان بن مولانا السلطان

١ ـ الملك الناصر

٢ ـ ابن قلاوون الصالحى

٣ ـ وذلك فى شهور سنة

٤ ـ ست وأربعين وسبعمائة (٦٥) ٠

وعلى الرغم من تشابه النصين من حيث الشكل والموضوع الا ان النص الأخير شأنه شأن النص الرابع قد انفرد بذكر بعض الالقاب الخاصة بالسلطان الكامل شعبان مثل لقبى « العالم والعادل » ، وهما من الألقاب التى كان يعتز بها الملوك والسلاطين (٦٦) ، كما حرص أيضا على الاشارة الى جد السلطان فى عبارة « ابن قلاوون الصالحى » ٠ بيد أنه جاء غفلا من اسم أيبك المصرى ناظر الحرمين الذى لم نتوصل الى ترجمة له فى كتب التراجم المعروفة لدينا ، والذى أهمل مجير الدين الاشارة اليه على الرغم من تلك القائمة التى حرص على تزويد كتابه بها عن نظار الحرمين ٠ ولو أنها قد ذكرت الكثير من هؤلاء النظار (٦٧) ٠ ويلاحظ أن مجير الدين قد نسب تجديد هذين البابين الى السلطان الأشرف شعبان الذى حكم فيما بين سنتى ٧٦٤ ـ ٧٧٨ هـ /١٣٦٣ ـ ١٣٧٧ م اذ يقول : « وفى أيامه ٠٠٠ جددت الأبواب الخشبية المركبة على أبواب الجامع الأقصى » (٦٨) ٠ وذلك على النقيض تماما مما جاء فى النصين السابقين ، ومن المحتمل أن تشابه الأسماء هو الذى أوقع مجير الدين فى هذا الخلط ٠

النص السابع :

لوحة رخامية مقاييسها ٩٠ × ٥٠ سم٢ ، مثبتة بأعلى الدعامة الثانية الشرقية من دعامات الرواق الشمالى ، داخل حنية ضحلة يكتنفها عمودان

صغيران ربما كانا من المخلفات الصليبية بالمسجد . وتشتمل على خمسه أسطر بالخط النسخ المملوكي نقشت بلون أسود على أرضيه بيضاء بحروف متوسطة يعلوها بعض علامات الاعجام ، نصه :

١ ـ بسم الله الرحمن الرحيم جدد هذا الجناح المبارك فى أيام مولانا

٢ ـ السلطان الملك الناصر ناصر الدنيا والدين حسن بن السلطان الملك

٣ ـ الناصر محمد بن قلاون خلد الله ملكه وذلك بالاشارة العالية الفارسية

٤ ـ نائب السلطنة المعظمة بالأعمال الساحلية والجبلية أعز الله أنصاره

٥ ـ بنظر الفقير الى الله تعالى عز الدين أيبك المصرى أثابه الله تعالى فى شهور سنة أحد (كذا) وخمسين وسبعمائة (٦٩) .

ربما كان أول ما يطالعنا في هذا النص كلمة « جناح » ، التى تعنى فيما يبدو بعض أجزاء الرواق الشمالى . وبما أن نص التجديد مثبت على احدى دعامات الجهة الغربية لهذا الرواق ، فمن المرجح أن المقصود بالجناح هو القسم الغربى منه ، لأنه لو فرضنا جدلا أن أعمال التجديد قد شملت الرواق بأكمله لاستخدمت كلمة رواق بدلا من لفظة جناح .

أما عن الشخص المقصود بعبارة « بالاشارة العالية الفارسية » فالمقصود به الأمير فارس الدين يلبكى ابن الأمير قطلو ملك بن عبد الله ، نائب السلطنة بالأعمال الساحلية والجبلية التى عرفت أيضا باسم الصفقة (٧٠) . ومن المعروف أن هذا الأمير عين نائبا لغزة عام ٧٥١ هـ / ١٣٥٠ م كما ورد فى المنهل الصافى لابن تغرى بردى (٧١) ، الأمر الذى يدل بما لا يقبل الشك على أن القدس كانت تابعة حينذاك لنيابة غزة التى كانت تتبع بدورها نيابة دمشق (٧٢) .

ومن المعروف أيضا أن الأمير فارس الدين هذا قد شيد مدرسة بداخل الحرم الشريف عرفت بالمدرسة الفارسية ، وأوقف عليها حصة من قرية طور كرم فى شعبان سنة ٧٥٥ هـ / ١٣٥٤ م (٧٣) . وواضح من النص أيضا أن تجديد هذا الجناح تم أثناء سلطنة الناصر حسن الأولى التى استمرت حتى سنة ٧٥٢ هـ / ١٣٥١ م .

النص الثامن :

سطر من الكتابه بالخط النسخ المملوكى محفور على اعلى مصراعى الباب الاول من جهه الشرق ، بحروف متوسطة وانيقة ذات لون احضر داكن ، ونصه :

(أ) جدد هذا الباب المبارك فى آيام مولانا السلطان الملك الصالح خلد الله ملكه بن مولانا

(ب) السلطان الملك الناصر تغمده الله برحمته بنظر الفقير الى الله تعالى أيبك المصرى سنة ثلثة (كذا) وخمسين وسبعمائة (٧٤) ٠

النص التاسع :

شطر من الكتابة بالخط النسخ المملوكى محفور على أعلى مصراعى الباب الثانى من جهة الشرق ، بحروف متوسطة أنيقة ذات لون أخضر داكن ، نصه :

(أ) جدد هذا الباب المبارك فى أيام مولانا السلطان الملك الصالح خلد الله ملكه بن مولانا

(ب) السلطان الملك الناصر تغمده الله برحمته بنظر الفقير الى الله تعالى أيبك المصرى سنة ثلثه (كذا) وخمسين وسبعمائه (٧٥) ٠

أغفل الكاتب هنا الاشارة الى اسم السلطان كما هو الحال فى النص الرابع ، لكننا نستطيع التوصل اليه بفضل الالقاب المذكورة ، وأيضا بمساعدة التاريخ الورد فى هذين النصين ، والمقصود به السلطان الصالح صالح (٧٦) ، الذى حكم فترة قصيرة فيما بين سنتى ٧٥٢ و ٧٥٥هـ / ١٣٥١ و ١٣٥٤ م ، ومن الملاحظ أن المصادر المعاصرة التى وصلتنا لم تشر الى أى أعمال له بالمسجد الأقصى ٠

أما عن أيبك المصرى ناظر الحرمين الشريفين فقد أصبح من الواضح الآن أنه كان يشغل هذه الوظيفة على أقل تقدير منذ عام ٧٤٦هـ/١٣٤٥م كما جاء فى النص الرابع ، واستمر يشغلها حتى سنة ٧٥٣ هـ/١٣٥٢ م كما ورد فى النصين الأخيرين ، ومن الواضح أيضا أنه عزل من وظيفته قبل سنة ٧٦٠ هـ / ١٣٥٩ م ، اذ يشير مجير الدين الى ناظر آخر يدعى الأمير أبا القاسم بن عثمان التميمى توفى فى ذى الحجة سنة ٧٦٠ هـ / ١٣٥٩ م ٠ وأغلب الظن أن الأمير أيبك المصرى قد شغل وظيفته بعد عزل الأمير سنجر الجاولى المتوفى فى رمضان سنة ٧٤٥ هـ / ١٣٤٤ م وكان قد ولى فى زمن السلطان الناصر بن قلاوون كل من نظر الحرمين الشريفين والنيابة بالقدس ، ونيابة غزة (٧٧) وذلك خلفا للأمير ناصر الدين المشار اليه سابقا ٠ ومما يرجح ذلك خلو النصوص الخاصة بأعمال السلطان الناصر محمد بالمسجد الأقصى من اسم أيبك المصرى ، على حين نصت عليه

صراحة النصوص الخاصة بكل من السلطان الكامل شعبان ، والسلطان الناصر حسن والسلطان الصالح صالح .

النص العاشر :

وهو عبارة عن لوح رخامي مقاييسه ١٠٠ × ٩٠ سم٢ مثبت فوق أعلى العقد الأوسط للرواق الشمالي ، داخل حنية ضحلة على كل جانب منها زوج من الأعمدة الصغيرة . ويشمل على أربعة أسطر من الخط النسخ المملوكي بحروف متوسطة نقشت باللون الأسود ويعلوها بعض علامات الاعجام ، ونصها :

١ ـ بسم الله الرحمن الرحيم جددت هذه الشراريف والطراز اللطيف

٢ ـ في أيام مولانا السلطان المالك الملك الأشرف أبو النصر قايتباى أيده

٣ ـ الله بنصره بنظر العبـــد الفقير الى الله تعــالى محمد ناظر الحرمين الشريفين

٤ ـ غفر الله له بتاريخ خامس عشر شهر الله المحرم سنة تسع وسبعين وثمانمائة (٧٨) .

يشير هذا النص الى تجديد السلطان الأشرف قايتباى للشرايف وهى الحليات الحجرية ، التى تزين أعلى واجهة الرواق الشمالى المطلة على ساحة الحرم الشريف ، ويقال شراريف أو شرافات جمع شرافة . وأشكالها هنا ليست بغريبة علينا ، فهى مألوفة فى عمائر عصر المماليك الجراكسة عامة ، وفى عمائر السلطان قايتباى خاصة (شكل ٣) .

ولكن ماذا تعنى عبارة « الطراز اللطيف » الواردة فى هذا النص ؟ من المعروف ان كلمــة طراز (٧٩) تعنى فى العمــارة الشريط الكتابى المنقوش على المبنى ســـواء من الداخل أو الخارج (٨٠) والمتضـمن عادة لنصوص قرآنية أو لعبارات تشير الى اسم المنشىء ، أو الى بعض التجديدات التى تمت فيه والمتأمل للرواق الشمالى من المسجد الأقصى يلاحظ خلوه من هذا النوع من الأشرطة التى يمكن اعتبارها طرازا ، ومن ثم فلم يعد أمامنا سوى التسليم بما ذهب اليه العلامة السويسرى فان برشـــم فى تفســيره لعبارة « الطــراز اللطيف » من أنها تعنى الشريط المزدوج من الزخارف الهندسية المسننة ، الذى يوجد أسفل الشراريف المشار اليها عاليا .

أما عن محمــد ناظــر الحرمين فهو الأمــير ناصر الدين محمــد بن النشاشيبى الذى شغل هذه الوظيفة فى الفترة الواقعة بين سنتى ٨٧٥ ، ٨٩٣ هـ / ١٤٧٠ ، ١٤٨٨ م كما جاء فى تاريخ مجير الدين(٨١) . ومن الملاحظ أن هذا المؤرخ قد أغفل الاشارة الى تلك الأعمال التى تمت باشرافه فى المسجد الأقصى عــام ٨٧٩ هـ/١٤٧٤ م ، فى الوقت الذى حرص فيه على ذكر ما قام به من تعمير للمسجد الأقصى فى سنة ٨٧٤هـ/ ١٤٦٩ م ، أى قبــل توليه منصب ناظر الحرمين بعام واحــد (٨٢) فضلا عما قام به من أعمال فى سنة ٨٨٤ هـ /١٤٨٠ م اذ يقول : « وفيها جدد عمل الرصاص على ظاهر الجامع الأقصى ، وفك الرصاص القديم ، ثم ركب ولم يكن كالأول فى حسن الصناعة والاتقان . وكان الصانع له ، رجلا من أهل الروم . ثم قصد ناظر الحرمين الأمير ناصر الدين بن النشاشيبى أن يفك الرصاص على ظاهر قبة الصخرة ويجدده كما فعل بالجامع الأقصى ، فمنعه الشيخ جمال الدين بن غانم شيخ الحرم وقام فى ذلك أعظم قيام . وكان توفيقا من الله ، فان الرصاص القديم الموجود الى الآن أولى وأحسن من المستجد الذى عمل بالأقصى » (٨٣) .

نخرج من هذا بأن هناك أعمالا ثلاثة تمت بالمسجد الأقصى زمن السلطان الأشرف قايتباى تحت اشراف ناظر الحرمين الأمير ناصر الدين محمد ابن النشاشيبى هى : أولا تعمير المسجد عام ٨٧٤ هـ/ ١٤٦٩ م وان كنا نجهل المقصود تماما بعبارة التعمير هذه ، ثانيا تجديد السَراريف والطراز عام ٨٧٩ هـ / ١٤٧٤ م ، ثالثا تجديد الأسقف الخارجية وكسوتها الرصاصية عام ٨٨٤ هـ/١٤٨٠ م وذلك على عكس ما ذهب اليه فان برشم اذ اعتبر الأعمال الأخيرة التى أشار اليها مجير الدين ، ما هى الا جزء من الأعمال الواردة فى النص العاشر (٨٤) .

النص الحادى عشر :

لوح من الرخام مقاييسه ٨٠ × ٥٠ سم٢ مثبت فى حائط الرواق الشمالى الى اليمين من المدخل الرئيسى على ارتفاع ثلاثة أمتار من الأرضية، يشتمل على سبعة أسطر بالخط النسخ المملوكى ، منقوش باللون الأبيض على مهاد خضراء ، تقرأ :

١ ــ بسم الله الرحمن الرحيم أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الأخر (٨٥) .

٢ ـ جددت عمارة المسجد الأقصى الشريف من اصلاح الرصاص بظاهره وبقبة

٣ ـ الصخرة الشريفة واملاح الفصوص وبياض الجدر ودهان الأبواب والترميم وغير ذلك

٤ ـ فى أيـا [م] مولانا السلطان (كذا) المالك الملك الأشرف أبى النصر قانصوه الغورى

٥ ـ عز نصره بنظر المقر الأشرف السيفى بكباى ناظر الحرمين الشريفين ونائب

٦ ـ السلطنة الشريفة بالقدس وأحد الأمراء الأربعينات يا

٧ ـ لديار المصرية أدام الله أيامه فى سنة خمس عشرة وتسعمائة (٨٦) ٠

أول ما يسترعى انتباهنا فى هذا النص هو استخدام عبارة المسجد الأقصى بمعنى الجامع وليس الحرم الشريف ، وذلك على الرغم من استعمال كلمة جامع فى أحد نصوص القرن الهجرى / الرابع عشر الميلادى ، وعلى النقيض أيضا من التحذيرات التى ساقها لنا مجير الدين فى القرن التالى بأن « المراد بالمسجد الأقصى هو جميع ما دار عليه السـور » ، أى الحـرم الشريف كما سبق أن نوهنا من قبل ، مما يدل على أن مصطلح المسـجد الأقصى كان يطلق على الجامع بمفرده فى مطلع القرن العاشر الهجـرى / السادس عشر الميلادى ، وربما نتيجة الرغبة فى استخدام العبارة الواردة فى القرآن الكريم ٠

أما عن اصلاح الرصاص بظاهر المسجد وبقبة الصخرة الشريفة فهو يذكرنا بما رواه مجير الدين فى أحداث سنة ٨٨٤ هـ / ١٤٨٠ م من استبدال الرصاص القديم للمسجد بآخر جديد على يد رجل من أهل الروم ، ومن أنه جاء اقل مرتبة من حيث الصناعة والاتقان ٠ وعلى هذا فنحن فى غنى عن أي تعليق لان تناول الرصاص بالاصـلاح ثانية فى عام ٩١٥هـ / ١٥١٠ م ، أى بعد مرور احدى وثلاثين سـنة قد ينهض دليلا على رداءة الأعمـال السابقة ، التى يمكننا أن نفسرها بتدهور الصناعات عامة فى أواخر الدولة المملوكية ، أو نتيجة لاهمال فى عملية الاشراف من قبل ناظر الحرمين لتحقيق بعض المكاسب المادية من وراء تجديد وصيانة المسجد الأقصى ، خاصة وقد أشار المؤرخ الى رغبته فى تجديد رصاص قبة الصخرة أيضا لولا أن عارضه الشيخ جمال الدين غانم ، شيخ الحرم الشريف ٠

ويفهم من النص أيضا أنه تم اصلاح الفصوص والمقصود بها الزخارف الفسيفسائية التى تزين المسجد ، واعادة طلاء الجدران ودهان الأبواب وترميمها ، هذا عدا أعمال أخرى أغفل النص تفصيلها ، ربما بهدف تبرير الأموال الطائلة التى كانت تنفق على مثل هذه الأعمال ٠

أما عن بكباى ، فيشير النص الى أنه كان يشغل وظيفة ناظر الحرمين وكذا وظيفة نائب السلطنة بالقدس ، على الأقل وقت القيام بهذه الأعمال، وأنه برتبة أمير طبلخاناه (٨٧) بالديار المصرية ، وذلك على النقيض تماما مما ذكره المؤرخ ابن اياس فى حوادث سنة ٩١٢ هـ/١٥٠٧ م من أن السلطان قد خلع على ملاج وأعاده الى نيابة القدس كما كان أولا وأضاف اليه نيابة الكرك والاشراف على مدينة اللد والرملة (٨٨) ٠ ويستشف أيضا مما رواه هذا المؤرخ فى رجب سنة ٩١٥ هـ/١٥١٠ م أن ملاج المذكور كان لا يزال يشغل وظيفة النيابة اذ يقول : « وفيه قرر نيابة الكرك يوسف من سيباى دوادار ملاج نائب القدس » (٨٩) ٠

ويتضح من ذلك أن ملاج كان يشغل وظيفة نيابة القدس قبل الاصلاحات المشار اليها فى النص وبعدها ٠ والسؤال الآن من هو بكباى المذكور ؟

من المؤسف حقا أن المصادر المعاصرة التى تحت أيدينا الآن لا تساعدنا على حل هذه المشكلة باستثناء اشارة بسيطة فى تاريخ ابن اياس يتحدث فيها عن أمير يدعى بكباى استقر فى مشيخة الحرم النبوى فى شوال سنة ٩٢٦ هـ / ١٥١٩ م (٩٠) ، لا يمكن أن يكون هو المقصود بما ورد فى النص كما رجح فان برشم (٩١) لسبب بسيط هو أنه كان أحد أمراء العشرات ، على حين أن بكباى المذكور فى النص كان أحد أمراء الأربعينات والرأى أن يكون ابن اياس اما قد استقى معلوماته بصدد اسم نائب القدس من مصدر غير موثوق به ، وهذا شىء بعيد الاحتمال لسبب بسيط هو أنه عايش تلك الفترة وعاصر الأحداث التى سجلها لنا أو أن بكباى قد شغل هذه الوظيفة لفترة قصيرة فات على المؤرخ ابن اياس تسجيلها ، خاصة وقد أعيد اليها ملاج من جديد مما أوقعنا فى هذا الحرج وهو أمر كثير الحدوث فى المصادر المعاصرة ٠

من هذه الدراسة يتضح لنا مدى العناية التى بذلها سلاطين المماليك للمحافظة على هذا الأثر الهام ، حقيقة أن عناية ملوك الدولة البحرية كانت أعظم بكثير من عناية سلاطين دولة الجراكسة فى مجال التجديدات واجراء

الاصلاحات اللازمة ، ولكن لا يغيب عن أذهاننا ما قام به بعض الجراكسة من اهداء مصاحف شريفة وقفوها على المسجد ، ورتبوا لها قراء ، خصصوا لهم بعض الأوقاف لينفق من ريعها عليهم كما حدث فى أيام السلطان الأشرف برسباى ، وعلى عهد السلطان الأشرف اينال (٩٢) ٠

وإذا كان سلاطين المماليك قد منحوا المسجد الأقصى شيئا من الرعاية والعناية فان المسجد الآن لا يزال فى حاجة الى المزيد من العناية والرعاية ٠

الحــواشي

١ ـ الزركشي ، اعلام الساجد بأحكام المساجد ، تحقيق أبو الوفا المراغي ، القاهرة ١٩٦٥ ، ص ٢٢٧ ، السيوطي ، اتحاف الاخصا بفضائل المسجد الآقصى ، مخطوط مصور بمركز البحث العلمي بجامعة الملك عبد العزيز بمكة المكرمة ، ورقة ٣٨ أ ، مجير الدين ، الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل ، بيروت ١٩٧٣ ، ج ١ ص ٦ ٠

٢ ـ قال تعالى : « ان أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا » ، سورة آل عمران ، آية رقم ٩٦ ٠

٣ ـ العمرى ، مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار ، القاهرة ١٩٢٤ ، ج ١ ، ٩٢ ، الزركشي ، اعلام الساجد ، ص ٢٩ ، ٢٨٠ ، مجير الدين ، الأنس الجليل ، ج ١ ، ص ٧ ، السيوطي ، اتحاف الاخصا ، ورقة ٤٠ب، عبد الغنى محمد عبد الله ، المسجد الأقصى، مجلة الوعى الاسلامى ، العدد ١٥١ ، يوليو ١٩٧٧ ، ص ٧٢ ٠

٤ ـ قال تعالى : « سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله » ، سورة الاسراء ، آية رقم ١ ٠

٥ ـ أشارت كتب السيرة الى أن الرسول عليه الصلاة والسلام قد أسرى به من بيت أم هانىء بنت أبى طالب وليس من الكعبة المشرفة كما يفهم من نص الآية ، أنظر العمرى ، مسالك الأبصار، ج ١ ، ص ١٠٩ ، الزركشي ، اعلام الساجد ، ص ٦٠ ، كذلك أشار الماوردى فى كتابه الجزية ان كل موضع ذكر الله فيه المسجد الحرام المراد به الحرم ، الا فى قوله تعالى : « فول وجهك شطر المسجد الحرام » فانه أراد به الكعبة ، سورة البقرة آية رقم ١٤٤٠

٦ ـ ابن بطوطة ، الرحلة ، باريس ١٩٦٨ ، ج ١ ، ص ١٢١ ـ ١٢٢ ٠

٧ ـ الزركشي ، اعلام الساجد ، ص ٢٧٥ ٠

٨ ـ الزركشي ، اعلام الساجد ، ص ٢٧٧ ـ ٢٧٩ ٠

٩ ـ مجير الدين ، الأنس الجليل ، ج ١ ، ص ١١٣ ٠

١٠ ـ مجير الدين ، الأنس الجليل ، ج ١ ، ص ٢٨٠ ٠

١١ ـ مجير الدين ، الأنس الجليل ، ج ٢ ص ١١ ، ومع ذلك فقد عاد الى الخلط من جديد بين الحرم الشريف وبين المسجد الأقصى في أكثر من موضع انظــر ج ٢ ، ص ٣٥ ، ٩٢ ، ٢٧١ ٠ والحق أنه قد سبق لكل من لسترنج وفان برشم ملاحظة هذا الخلط أنظر :

Le Strange, Palestine under the Moslems, p. 96; Sanctuary, p. 255; Van Barchem, CIA, Jérusalem II, p. 427, note (1).

١٢ ـ أبو الفضــائل ، النهج الســديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد ، باريس ١٩١١ ، ص ٣٣٠ ،

Van Berchem, CIA Jérusalem, II p. 427, note (2).

١٣ ـ العمرى ، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ، مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس تحت رقم ٢٣٢٥ ، ورقة ٢٢٣ ب ٠

١٤ ـ

MCIA, I' p.173, note (2); Schrieke et Horovitz, in Islam. VI, p. I; IX, p. 160; Van Berchem, CIA, Jérusalem, II, p. 426. note (3).

١٥ ـ ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ليدن ١٨٦٢ ـ ١٨٧٦ ، ج ٦ ، ص ٥ ، ابن الطقطقى ، الفخــرى في الآداب السلطانية والدول الاسلامية ، القــاهرة ١٩٢٣ ، ص ١٧٣ ، مجير الدين ، الأنس الجليل ، ج ١ ، ص ٢٥٥ ـ ٢٥٧ ، وذكر أيضا أن عمر هو الذى وسعه ، انظر ص ٢٦٠ ، أحمد فكرى ، مساجد القاهرة ومدارسها، المدخل ، القاهرة ١٩٦١ ، ص ٢٠٩ ، كمال الدين سامح ، العمارة في صدر الاسلام ، القاهرة ١٩٧١ ، ص ١١٠ ، عبد الغنى محمد عبد الله ، المسجد الأقصى ، مجلة الوعى الاسلامى ، العدد ١٥١ ، ص ٧٢ ٠

١٦ ـ ابن الأثير ، الكامل ، ج ٦ ، ص ٥ ، ابن الطقطقى ، الفخرى ، ص ١٧٣ ، عارف باشا العارف ، تاريخ القدس ، القاهرة ١٩٥١ ، ص ٢٩٤ ٠

١٧ ـ المقـدسى ، أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ، ليدن ١٨٧٧ ، ص ١٦٨ ـ ١٦٩ ، مجـير الدين ، الانس الجليـل ، ج ١ ، ص ٢٧٢ ـ ٢٧٣ ، حيث ذكر أنه « ابتـدأ ببناء قبـة الصخرة الشريفة وعمارة المسجد الأقصى الشريف فى سنة ست وستين هجرية » .

١٨ ـ المقـدسى ، أحسن التقاسيم ، ص ١٦٨ ، ١٦٩ ، مجير الدين ، الأنس الجليل ، ج ١ ، ص ١٨٢ .

١٩ ـ مجير الدين ، الأنس الجليـل ، ج ١ ، ص ٢٨٣ ، عارف باشا العارف ، تاريخ القدس ، ص ٢٩٦ ،

Le Strange, Palestine, p. 93

٢٠ ـ مفردها دعامة وهي عبارة عن كتلة معمارية تشيد من الطوب أو الأحجار وتتميز بمسقطها قائم الزوايا وتحل محل العمود فى حمل العقود .

٢١ ـ المقدسى ، أحسن التقاسيم ، ص ١٦٨ ـ ١٦٩ .

٢٢ ـ ناصر خسرو ، سفر نامة ، ترجمة يحيى الخشاب ، القاهرة ١٩٤٥، ص ٢١ ـ ٢٦ .

٢٣ ـ R. W. Hamiltion, The Structural History of the Aqsâ Mosque, London, 1949.

٢٤ ـ البلاطة هى المساحة المحصورة بين صفين من الأعمدة أو الدعامات، وتعرف أيضا فى بعض مراجع العمارة الاسلامية باسم اسكوب مفرد أساكيب ، أنظر أحمد فكرى ، مساجد القاهرة ومدارسها ، المدخل ، ص ٢١٢ .

٢٥ ـ مفردها بائكة وهي عبارة عن مجموعة من العقود المتتالية ترتكز فوق دعامات قائمة الزوايا أو فوق أعمدة اسطوانية الشكل .

٢٦ ـ أحمد فكرى ، مساجد القاهرة ومدارسها ، المدخل ، ص ٢١٢ ، شكل ٨٨ .

٢٧ ـ K. A. C. Creswell, A Short account of Early Muslim architecture, Penguin, Pelican Bioks, 1958, p. 211, fig. 41.

٢٨ ـ Hamilton, The Structural History of the Aqsâ Mosque, pp. 71 — 72.

٢٩ _ انظر القطاع AB من الرسم رقم ٣٠ من كتاب هاملتون .

٣٠ _ الهروى ، كتاب الاشارة الى معرفة الزيارات ، نشر وتحقيق جانين سورديل ، دمشق ١٩٥٣ ، ص ٢٥ _ ٢٦ ، عارف باشا العارف ، تاريخ القدس ، ص ٢٩٥ .

٣١ _ المقصود بها الأعمدة .

٣٢ _ نوع من الحصير المنسوج .

٣٣ _ العماد الأصفهانى ، الفتح القسى فى الفتح القدسى ، تحقيق محمد محمود صبح ، القاهرة (بدون تاريخ) ، ص ١٣٧ .

٣٤ _ Van Berchem, CIA, Jérusalem, II, n 281.

٣٥ _ مجير الدين ، الأنس الجليل ، ج ٢ ، ص ١١ _ ١٣ .

٣٦ _ أى سقف هرمى الشكل كما هو الحال فى رواق القبلة بالمسجد الأموى بدمشق .

٣٧ _ من الملاحظ أن البعض يطلق على الجامع كله اسم جامع عمر ، راجع الحاشية رقم ١٥ .

٣٨ _ A. Duncan, The noble sanctuary, London, 1972, p. 77.

كمال الدين سامح ، العمارة الاسلامية ، ص ١١٣ ، شكل ٥٥ .

٣٩ _ انظر وضع القدس والمسجد الأقصى فى ظل الاحتلال الصهيونى ، نشرة رقم ٤٣ من منشورات وزارة الأوقاف والشئون والمقدسات الاسلامية ، الأردن ١٩٧٦ ، ص ٧ .

٤٠ _ مجير الدين ، الأنس الجليل ، ج ١ ، ص ١٣ .

٤١ _ الشرافات هى عبارة عن الحليات الحجرية التى تزين أعلى جدران واجهات المبانى الأثرية ، وهى اما أن تكون على هيئة أوراق نباتية، أو على هيئة أشكال هرمية مدرجة أو ذات أشكال أخرى كما فى جامع أحمد بن طولون .

٤٢ _ عارف باشا العارف ، تاريخ القدس ، ص ٢٩٩ .

٤٣ _ خليل طوطح ، تاريخ القدس ، ٧٨ ، على حين ذكر مجير الدين أنه كان يحتوى على عشرة أبواب فقط ، انظر الأنس الجليل ، ج ٢ ، ص ١٣ .

٤٤ ـ يحتفظ المسجد بنقش آخر عبارة عن وقفية من المرجع أنها دخيلة على المسجد انظر :

Van Berchem, CIA Jérusalem, II, n 293; III, pl. LVIII; Répertoire chronologique d'épigraphie arabe, Le Caire, XVI, n 6117.

٤٥ ـ Van Berchem, CIA, Jérusalem, II, n s. 282, 283, 284, 285, 286, 287, 288, 289, 290, 291, 292.

٤٦ ـ Répertoire, XIV, n' 5559; XV, n's. 2606, 5607; XVI, n's 6008, 6009, 6010, 6155, 6182; J. Sourdel, Index géographique du Répertoire chronologique d'épigraphie arabe, Le Caire, 1975, p. 99.

٤٧ ـ Van Berchem, CIA. Jérusalem, II, p. 421, note (2).

٤٨ ـ De Vogüé, Temple, p. 102; Conder, Jérusalem, p. 323; Répertoire, XIV, p. 245.

الذين أشاروا الى التاريخ الصحيح دون ابداء أية ملاحظات .

٤٩ ـ Van Berchem, CIA, Jérusalem, II, p. 421.

٥٠ ـ مجير الدين ، الأنس الجليل ، ج ٢ ، ص ٩٢ .

٥١ ـ Van Berchem, CIA, Jérusalem, II, n'283; III, pl. LVIII; Répertoire, XV, n' 5606.

٥٢ ـ Van Berchem, CIA Jérusalem, II, n 284; Répertoire, XV, n' 5607.

٥٣ ـ عن هذا اللقب انظر : MCIA, I, p. 76.

٥٤ ـ عن هذا اللقب انظر حسن الباشا ، الفنون والوظائف على الآثار العربية ، القاهرة ١٩٦٦ ، ج ٢ ، ص ٩٣٣ ـ ٩٣٧ ، الألقاب الاسلامية ، القاهرة ١٩٥٧ ، ص ٤٣٤ ـ ٤٣٥ .

٥٥ ـ مجير الدين ، الأنس الجليل ، ج ٢ ، ص ٣٥ ، على حين أشار ابن كثير الى أنه فتح شباكا واحدا في المسجد ، انظر البداية والنهاية ، بيروت ١٩٦٦ ، ج ١٤ ، ص ١٨٧ .

٥٦ ـ مجير الدين ، الأنس الجليل ، ج ٢ ، ص ٩٢ .

٥٧ ـ هى احدى وظائف الشدود ومهمته التحدث على أوقاف المسلمين ، والعمل على اصلاحها وما فيه مصلحتها ، واستخدام عمالها وأرباب وظائفها ، ومراقبتهم والسعى فى جبـاية ريعه ، واستخراجه مما هو عنـده وفى جهتـه ، انظر القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ١٨٦ ، حسن الباشا ، الفنون والوظائف ، ج ٢ ، ص ٦١٠ .

٥٨ ـ مجير الدين ، الأنس الجليل ، ج ٢ ، ص ٢٧١ .

٥٩ ـ ابن كثير ، البـداية والنهـاية ، ج ١٤ ، ص ١٣٣ ، ١٨٧ ، مجير الدين ، الأنس الجليل ، ج ٢ ، ص ٣٥ ، ابن حجر ، الدرر الكامنة فى أعيان المئة الثامنة ، طبعة القاهرة ١٩٦٦ ، ج ٢ ، ص ٥٧ ، ٥٩ .

٦٠ ـ Van Berchem, CIA, Jérusalem, III, pl. LVII.

٦١ ـ Van Berchem, CIA, Jérusalem, II, pp. 424, 425.

٦٢ ـ SWP, Jérusalem, p. 81; De Vogué, Temple, p. 104; Van Berchem, CIA, Jérusalem, II, n° 285; III, pl. XLVI: Répertoire, XVI, n° 6008.

٦٣ ـ G. Wiet, Les biographies du Manhal sâfî, Le Caire, 1932, n° 1177.

٦٤ ـ Van Berchem, CIA, Jérusalem, II, n° 286; Répertoire, XVI, n° 6009.

٦٥ ـ Van Berchem, CIA, Jérusalem, II, n° 287.

٦٦ ـ انظر حسن الباشا ، الألقاب الاسلامية ، ص ٣٨٨ ـ ٣٩٠ .

٦٧ ـ Van Berchem, CIA, Jérusalem, II, p. 427, note (4).

مجير الدين ، الأنس الجليل ، ج ٢ ، ص ٢٧١ ـ ٢٨٠ .

٦٨ ـ مجير الدين ، الأنس الجليل ، ج ٢ ، ص ٩٣ ، وجاء فى طبعة سوفير أن ذلك حدث فى سنة ٧٧٧ هـ/١٣٧٦ م ، بيد أننا لم نعثر على تاريخ التجديد فى طبعتى بيروت والقاهرة .

٦٩ ـ Van Berchem, CIA Jérusalem, n° 288; III, pl. XLVI Répertoire, XVI, n° 6155.

٧٠ ـ العمرى ، مسالك الأبصار ، ورقة ٢١٣ ب ، الخالدى ، ديوان الانشاء ، مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس تحت رقم ٤٤٣٩ ، ورقة ٨٦ ب .

٧١ ـ ابن تغرى بردى ، المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى ، مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس تحت رقم ١٧٨٣ ، ورقة ٦٧ أ ، مجير الدين ، الأنس الجليل ، ج ٢ ، ص ٣٨ ، ابن حجر ، الدرر الكامنة ، ج ١ ، ص ٤٣٢ .

٧٢ ـ مع ملاحظة أن غزة صارت أحيانا نيابة قائمة بنفسها اى مستقلة عن نيابة دمشق ، انظر العمرى ، التعريف بالمصطلح الشريف ، ص ١٧٧ ، سعيد عاشور ، العصر المماليكى ، فى مصر والشام ، القاهرة ١٩٦٥ ، ص ١٩٩ .

٧٣ ـ مجير الدين ، الأنس الجليل ، ج ٢ ، ص ٣٣ ، ٣٨ .

٧٤ ـ Van Berchem, CIA, Jérusalem, II, n° 289; Répertoire, XVI, n 6182.

٧٥ ـ Van Berchem, CIA, Jérusalem, II, n 290; Repertoire, XVI, n 6182.

٧٦ ـ G. Wiet, Manhal, n 1199.

٧٧ ـ مجير الدين ، الأنس الجليل ، ج ٢ ، ص ٢٧١ ـ ٢٧٢ ، ابن حجر ، الدرر الكامنة ، ج ٢ ، ص ٢٦٧ .

٧٨ ـ Van Berchem, CIA, Jérusalem, II, n° 291.

٧٩ ـ عن الطراز انظر دائرة المعارف الاسلامية ، الترجمة العربية ، ج ١٥ ، ص ١٢١ .

٨٠ ـ المقريزى ، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، بولاق ١٢٧٠ هـ ، ج ٢ ، ص ٧٩ ، ٢١٢ ، ٤٠٧ .

٨١ ـ مجير الدين ، الأنس الجليل ، ج ٢ ، ص ٢٨٧ ، ٣٤١ .

٨٢ ـ مجير الدين ، الأنس الجليل ، ج ٢ ، ص ٢٨٦ ـ ٢٨٧ .

٨٣ ـ مجير الدين ، الأنس الجليل ، ج ٢ ، ص ٣٢١ .

٨٤ ـ Van Berchem, CIA, Jérusalem, II, p. 434.

٨٥ ـ سورة التوبة آية رقم ١٨ ٠

٨٦ ـ Van Berchem, CIA, Jerusalem, II, n° 292.

٨٧ ـ هى احـدى الرتب بالجيش المملوكى وتعنى الاشراف على أربعين جنديا ، انظر ، القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ١٣ ، حسن الباشا ، الفنون والوظائف ، ص ٢٣١ ـ ٢٣٦ ٠

٨٨ ـ ابن اياس ، بدائع الزهـور فى وقائع الدهـور ، طبعة محمـد مصطفى ، القاهرة ١٩٦٠ ، ج ٤ ، ص ٩٤ ٠

٨٩ ـ ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ٤ ، ص ١٦٢ ٠ ويبدو انه استمر يشغل هذه الوظيفة حتى سنة ٩٢٢ هـ/١٥١٥ م ، لأنه يذكر أن نائب غزة دولات باى قد أضيفت اليه نيابة القدس والكرك مع نيابة غزة فى هذه السنة ، انظر ، ج ٥ ، ص ٤ ٠

٩٠ ـ ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ٥ ، ص ٣٥٥ ، ٣٧٩ ٠

٩١ ـ Van Berchem, CIA, Jérusalem, II, p. 434, note (6).

٩٢ ـ مجير الدين ، الأنس الجليل ، ج ٢ ، ص ٩٦ ، ٩٨ ، ٩٩ ٠ ٠

الرقيق والجندية في نظر محمد علي

دكتور تمام همام تمام

معهد البحوث والدراسات الافريقية
جامعة القاهرة

ان الذى دفعنى الى كتابة هذا البحث (الرقيق والجندية فى نظر محمد على) عدة أسئلة ، كانت فى حاجة ماسة للاجابة عليها ٠٠ اجابة مجردة من أى عاطفة ٠٠ فمن خلال قراءتى عن تاريخ (محمد على) الذى تولى حكم مصر فى عام ١٨٠٥ ، لاحظت أن معظم الأجانب الذين عالجوا تاريخ وادى النيل فى عهده ، ذكروا أن هناك عوامل دفعته لفتح السودان فى سنتى ١٨٢٠/١٨٢١ ، وكان على رأس هذه العوامل ٠٠ الحصول على الرقيق ـ أى السود ـ لتجنيده فى الجيش المصرى الحديث ٠٠ ودونوا فى كتاباتهم ، أن الرجل ، كان يستغل الرقيق لمصـــلحته ، ويمارس التجارة فيه عن طريق حكامه فى السودان ، وأعطوا وصفا للمعاملة التى كان يلقاها الجنود السودانيون ، مايندى له الجبين ، بل وما يعتبر سبة لا فى تاريخ « محمد على » بل فى تاريخ مصر نفســها ٠٠ وذكروا أن الغزوات التى كان يوجهها حكام السودان لجلب الرقيق ، ترتب عليها هجرة الأهالى وخراب السودان نفسه ٠

وهذا ما يجعل القارىء أن يضع (محمد على) فى قائمة (المستعمرين) الذين لا يهمهم الا مصـــلحتهم فى المقام الأول ، ولا يهمهم كيفية اتخاذ الوسائل وتنفيذها ، طالما تحقق الغايات ٠٠

ومما زاد في الشك نحو (محمد على) أن هناك تقاريرا رسمية صادرة من حكومات أجنبية ، أيدت ما جاء فى كتابات هؤلاء الأجانب .

لذلك تساءل الباحث مع نفسه ، ألا توجد علاقات بين المصريين والسودانيين ؟ ولماذا لجأ محمد على الى تجنيد الرقيق السودانى بالذات. ولم يجند أبناء المصريين ؟ هل لأن الرق نظام معترف به فى السودان منذ القدم ، وأن السودانيين كانوا يتاجرون فيه ؟ أم أن هناك أسبابا أخرى دعته لذلك ؟ وهل هناك عوامل ملحة جعلته يتحمل المشقة والتكلفة لجلب السود ؟ وتجنيدهم فى الجيش المصرى ، هل تعتبر تجربة جديدة ؟ وكيف عامل السود وهو – أى محمد على – كما يقول بعض الأجانب ، معاملة سيئة ، ويريد فى الوقت نفسه انجاح هذا الجيش ! .

لم يجد الباحث اجابة مقنعة لتلك التساؤلات وغيرها ، نظرا لندرة المراجع المحايدة ، وما جاء من تلميحات عنها فى الكتب العربية .. لذلك صمم الباحث على أن يدرس تلك القضية الخطيرة ، دراسة وثائقية ، من خلال الوثائق التى كشفت عنها دار الوثائق القومية بالقلعة ، ويقارن بينها وبين ما جاء فى التقارير والكتب الأجنبية ، لعله يصل الى الحقيقة التاريخية التى تجيب على تلك التساؤلات ، وتقطع الشك باليقين ، أو تكون هذه الدراسة بداية لغيره من الباحثين لاستخراج المزيد من الحقائق التاريخية التى تنطق بها الوثائق الأصلية .

العلاقات بين مصر والسودان قبل محمد على :

يكاد يتفق كل من كتب عن تاريخ وادى النيل ، أن هناك علاقات وثيقة ، ربطت بين البلدين منذ أقدم العصور ، منها علاقات من نتاج الطبيعة ، علها لم تتوفر فى أى مكان مثلما توفرت فى بلدين كمصر والسودان ، ومنها علاقات أخرى من نتاج البشر ، ترتبت عليها وجود حضارة ، ان لم تكن واحدة ، فهى على الأقل متشابهة فى كثير من الوجوه ، .. فمنذ عرف المصريون السودان ، لم يدخروا وسعا فى نشر الحضارة المصرية فى تلك البلاد ، والتى مازالت شواهدها قائمة حتى اليوم ، تتمثل فى المعابد التى تحمل طابع العمارة المصرية مثل معبد (بوهين) بالغرب من وادى حلفا الى أقصى الجنوب من جبل برقال (١) .

---

(1) Fabunmi, L. A. : The Sudan in Anglo-Egyptian relations. pp. 22-23.

وكان ما يحدث فى مصر ، ينعكس بصورة أو بأخرى على السودان، فعندما بدأت مصر فى الاضمحلال منذ القرن العاشر قبل الميلاد ، ومن ثم لم تتمكن من بسط ادارتها على السودان ٠٠ انتهز السودانيون هذه الفرصة واستقلوا عنها ٠٠ وصاروا ملوكا على النوبة ، وزادت سلطتهم بالتدريج ، الى حد أن اعتبروا أنفسهم مسئولين عن البلاد الممتدة من البحر المتوسط الى وسط السودان (١) ٠

وظلت العلاقات مستمرة بين البلدين ، يؤثر كل منهما فى الآخر ، ويتأثر بما يجرى فيه ٠٠ لذلك عندما انتشرت المسيحية فى مصر ، انتقلت منها الديانة الجديدة الى السودان ، وتحولت البلاد من الوثنية الى المسيحية فى أواسط القرن السادس الميلادى (٢) ٠٠ وعندما امتد الاسلام الى مصر ، انتقل منها الى السودان أيضا (٣) ٠ ومن ثم انتشر الاسلام بين السودانيين (٤) ، مسيحيين ووثنيين (٥) ٠

وعلى ذلك تكونت منذ القرن السادس عشر ، ممالك وسلطنات اسلامية ، مثل سلطنة الفونج التى قامت فى سنار فى عام ١٥٠٤ ، واستمرت نحو ثلاثة قرون ، حتى تم فتحها فى عهد محمد على ، فقد وصلت فى أواخر عهدها الى حالة يرثى لها من الضعف والتفكك ، مما جعلها سهلة المنال للجيش المصرى الفاتح فى عام ١٨٢١ (٦) وسلطنة الفور فى دار فور ، التى كانت على علاقات وثيقة مع مصر ، وكان لها نشاط تجارى لا بأس به معها (٧) ، بالاضافة الى أن سلاطين دارفور كانوا يشجعون الطلاب للسفر الى القاهرة ، للتزود بالعلوم الدينية فى الأزهر الشريف ، وصار لهم مقر معروف باسم رواق دارفور (٨) ٠

---

(1) Henderson, K. D. D. : The Making of the Modern Sudan. p. 481.

(٢) د ٠ مكى شبيكه : تاريخ شعوب وادى النيل (مصر والسودان) ص ١٥٠ ٠

(٣) د ٠ حسن أحمد محمود : الاسلام والثقافة العربية فى افريقيا جـ ١ ص ٣١١

(٤) Trimingham. : Islam in the Sudan. pp. 60-61.

(٥) د ٠ شوقى الجمل : تاريخ سودان وادى النيل جـ ١ ص ١٩٩

(٦) د ٠ نعوم شقير : تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافيته جـ ٢ ص ٩٩

(٧) نسيم مقار : أحوال السودان الاقتصادية قبيل الفتح المصرى الأول (١٨٢٠/١٨٢١) رسالة ماجستير غير منشورة ـ جامعة القاهرة سنة ١٩٥٧ ٠

(٨) د٠ حسن أحمد محمود : مرجع سابق ص ٣٥٨ ـ ٣٦١

وفى غرب النيل جنوب كردفان ، قامت مملكة اســــلامية تعرف بمملكة (تقلى) فى منطقة جبال النوبا والسهول المحيطة بها منذ أواسط القــرن السادس عشر (١) • وكانت على علاقات مع مصر ، حيث توافد أبناؤها على الأزهر الشريف لتلقى العلوم الدينية ، وكانت ترسل الى مصر كمية من الذهب والرقيق (٢) •

علاوة على تلك السلطنات السابق الاشارة اليها ، والتى كانت على علاقات لا بأس بهــا مع مصر •• كانت توجد فى الأجزاء الأخرى من السودان ، سلطنات اما قبلية أو عصبيات أخرى ، تمكنت من أن تخضع لسيادتها السكان والقبائل فى مناطق محددة ، مثل حكوفة الكشــاف الأتراك فى اقليم النوبة من أسوان حتى وادى حلفا ، وخضعت سواكن ومصوع على البحر الأحمر للدولة العثمانية وكانت تلك الجهــات على علاقات أيضا مع مصر من النواحى التجارية والثقافية •

أما جنوب السودان وأعالى النيل ، فكانت فيه قبائل زنجية عاشت على الفطرة وان كانت تحددت فى نظام ملــكى متوارث ، كما نراه عند الشلك والدنكا والبارى والنوير (٣) •

ولعل تلك الممالك الزنجية كانت على علاقات اقتصادية ، بصورة أو بأخرى ، مع الممالك والسلنطات الســودانية المجــاورة لها ،والتى انعكست على العلاقات بينها وبين مصر (٤) •

هذه هى ملامح الصورة العــــامة للعلاقات التى كانت بين مصر والسودان من ناحية ، والوضع الذى كان عليه السودان ، قبيل الفتح وامتداد التنظيمات المصرية الحديثة اليه من ناحية أخرى ، والتى لم من المستطاع نشر تلك التنظيمات فى بلد كالسودان وهو على تلك الصورة الا بواسطة الفتح المسلح فى ذلك الوقت •

---

(١) د • عبد المجيد عابدين : تاريخ الثقافة العربية فى السودان ص ٤٠

(٢) Petherick, J. Travels in Central Africa. Vol. 11. p. 7.

(٣) د • شوقى الجمل : مرجع سابق جـ ١ ص ٣٢٨

(٤) ولعــل أهم تلك العــلاقات ، كانت اقتصــادية فى الدرجة الاولى ، تتمثل فى الرقيق والعاج ، ثم الحاصلات الافريقية الاخــرى ، ثم علاقات ثقافيــة ، وان كانت بشكل محدود ، تتمثل فى تسرب الاسلام بطريقة أو بأخرى بين تلك الممالك الزنجيــة الوثنية •

تغلغل تجارة الرقيق فى السودان قبيل الفتح المصرى (١٨٢٠/١٨٢١)

ان مسألة الرق والتجارة فى الرقيق ، من المسائل التي لها جذور ضاربة في أعماق المجتمعات البشرية ٠٠ سواء أكانت تلك المجتمعات في افريقيا وآســيا أو فى أوربا ثم بعد ذلك فى الأمريكتين ٠٠ فكثير من الأعمال التى تقوم بها الآن الآلات الصناعية والمكينة الزراعية ، كان يقوم بها الرقيق فيما مضى ، وكان لها أهميتها فى اقتصاديات تلك المجتمعات، ولذا كان الرق مصدر القوى العاملة فى كل مجال (١) ٠

وبالنسبة للسودان ، فقد عرف نظام الرق ـ كغيره من بلاد الشرق ـ منذ زمن بعيد ، وكان ركنا أساسيا من اقتصادياته ، بل وحجر الزاوية فى بنائه (٢) ويشتط الأستاذ (هيل) ويقول أن اقتصـــاديات المجتمع السودانى كانت تقوم أساسا على الرق (٣) ٠٠ كما أنه ـ أى الرق ـ أثر بصورة واضحة فى حياة السودانيين أنفســـهم من النواحى الاجتماعية والسياسية ٠

وقد ازدهرت تجارة الرقيق فى السودان منذ القرن السادس عشر فى ظل حكم سلطنتى الفونج ودارفور (٤) ٠٠ والمشيخات شبه المستقلة فى قرى شندى والمتمة وفازوغلى وغيرها (٥) ٠ اذ صار الأرقاء جزءا من العشـــور والجزية التى يدفعها الحـــكام والمشايخ لكبار الرؤساء والسلاطين (٦) ٠

فقد كان الرقيق من الأمور العادية ، والمعترف بها فى السودان . ولا غبار اطلاقا على استخدامه وممارسة التجارة فيه ٠٠ وكانت له أسواق معروفة ومشهورة فى سوبة وبربر وشندى وســـواكن وسنار وكوبى

---

(١) د . محمد البهى : الاسلام والرق ص ٧ ٠

وكان الأرقاء (البيض) يسمون مماليك ، والأرقاء (السود) يسمون عبيــدا ، وكان الخدم ينقسمون الى ثلاثة اقسام وهم : الأرقاء .. والخصيان .. والجوارى .

(٢) الشاطر بصيلى عبد الجليل : معالم تاريخ سودان وادى النيــل من القرن العاشر الى القرن التاسع عشر الميلادى ص ١٥٠ ٠

(٣) Hill, Richard. :Egypt in the Sudan. p. 102.

(٤) د . مكى شبيكة : تاريخ شعوب وادى النيل (مصر والسودان) ص ٣١٨ ٠

(٥) د. محمد فؤاد شكرى : الحكم المصرى فى السودان (١٨٢٠ ــ ١٨٨٥) ص ١٥٦

(٦) Browne, W. G. : Travels in Africa and Syria from the year (1792 to 1798). p. 277.

والفاشر وغيرها ، يبتاع فيها الرقيق ، ويصدر منها الى الأسواق المصرية فى القاهرة والاسكندرية واسنا وفرشوط وأسيوط (١) .

وكانت أسيوط بصفة خاصة ، من أكبر وأعظم أســــواق تجارة الرقيق فى مصر ، وظلت مفتوحة الى عهد (محمد على) ، اذ كانت تأتى اليها القوافل من دارفور وسنار كل عام ، ومعها ألوف من العبيد لتموين الأسواق المصرية ، وسد احتياجات أسواق الولايات العثمانية الأخرى فى الشام وتركيا وشمال افريقيا .

وكانت أهم جهة يجمع منها العبيد الذين تأتى بهم قوافل دارفور ، هى واحات (الفرتيت) ويجمع العبيد الذين تأتى بهم قوافل سنار من الواحات المختلفة ، كواحات (الشـــلك) و (تقلى) ، كما كان يؤتى بأخرين من العبيد من (الحفير) و (بندا) (٢) .

وكان السلاطين والحكام فى السودان ، يقومون بالغزوات بأنفسهم أو يعهدون بها الى من يقوم مقامهم ، لجلب الرقيق من الأماكن المجاورة لهم ، ثم يقومون بعرضهم فى الأسواق لبيعهم الى تجار الرقيق (٣) .

وكانت عمليتا البيع والشراء ، من الأمور العـــادية ، ولها تجارها المعروفون من السودانيين وغيرهم ـ سواء كانوا من مصر أو من أزمير أو من شمال افريقيا ـ وتجرى عملية الشراء فى الرقيق كأى سلعة أخرى مطروحة للبيع فى الأسواق (٤) .

ويلاحظ أن ما كان يصل الى مصر وبلاد العرب من الرقيق الأسود (العبيد) لا يشكل الا نسبة صغيرة بالنسبة لما يحتفظ به السودانيون أنفسهم ، للقيام بأعمال الزراعة ورعى الماشية والخدمة فى المنازل (٥) .

---

(١) بوركهارت (جون لويس) : رحلات بوركهارت فى بلاد النـوبة والسـودان ، تعريب فؤاد أندراوس) ص ٢٥٣ .

(٢) من تقرير بورنج : ترجمة د . محمد فؤاد شكرى وآخرين : بناء دولة مصر محمد على ص ٥٤٤

وقد حضر الدكتور بورنج الى مصر فى عام ١٨٣٧ وكتب تقريره المشهور عن مصر وكريت ، وحاول الباحث الحصول على النسخة الأصلية ، ولم يتمكن ، لذلك اعتمد على الترجمة الواردة فى الكتاب المذكور .

(٣) د . نعوم شقير : تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافيته ج ٢ ص ١٤٦

(٤) بوركهارت : مرجع سابق ص ٢٥٤

(٥) بوركهارت : مرجع سابق ص ٢٦٦

وكان الفائض من الرقيق عن الحاجة ، يعرض للبيع اما بالنقد ، أو بمبادلته بالمعادن والأقمشة والخرز وغيرها (١) .

وعلى هذا كان الرقيق أساسا من أسس الحياة الاقتصـــادية فى السودان ، ونظاما معترفا به فى المجتمع هناك ، ولا استنكار فى الحصول عليه ـ بطريقة أو بأخرى ـ وكان التجار يميزون بين عدة أنواع من الرقيق ، فاذا ما تناولنا أحد أسواق الرقيق المشهورة فى السودان ، وليكن سوق سنار كمثال على ذلك ، لوجدنا أن العبيد المجلوبين الى هذا السوق ، كانوا يقسمون حسب أعمارهم الى ثلاث فئات هى :

الخماسى : وهم دون العاشرة أو الحادية عشرة

السداسى : وهم فوق الحادية عشرة ودون الرابعة أو الخامسة عشرة

والبالغ : ويكون عمره من الخامسة عشرة فأكثر .

وكان أغلى هؤلاء العبيد عندهم من حيث الثمن هم السداسى (٢) .

وكان الجلابة يحرصون حين يبتاعون العبيد على التأكد من جنسهم فقد تعلموا بالتجربة ، أن أفراد الجنس الواحد ، لا يختلفون من حيث الطبع الا قليلا ، فعبيد (نوبا) المجلوبين من سنار كانت طباعهم دمثه ، ويأتون فى المرتبـــة بعد عبيد الحبش .. وأغلى الزنوج الغربيين عند الجلابة ، كان أهل (بندا) .. ويليهم العبيد الذين يجلبون الى دارفور من (برقو) ، ويقـــول الرحالة بوركهارت ، أن العبيد المجلوبين من (فرتيت) متوحشون ومحبون للثأر والانتقام ، ومن أكثر أنواع العبيد غلظة وفظاظة (٣) .

ويلاحظ أن التجارة فى الرقيق ، لم تكن قاصرة على الجلابين والتجار فقط ، بل كانت الحكومات فى الممالك والسلطنات ، تباشر نشاطا ملموسا فى هذه العملية ، لأنها ـ كما ذكرنا ـ كانت تمثل العمود الفقرى فى ثروة البلاد .. فكانت سلطنة الفور التى تعتبر مستودعا كبيرا للرق ، والذى كان يأتى لها عن طريق الغزوات والجلابة ، من المناطق المحـــاورة لها ، تمارس عملية التجارة فى الرقيق ، بجانب اســـتخدامه فى شتى

---

(1) Gray, Richard. : A History in the Southern Sudan. pp. 3-5.

(٢) بوركهارت : مرجع سابق ص ٢٥٢

(٣) بوركهارت : مرجع سابق ص ٢٥٥

المجالات ، حتى أن جيش السلطان نفسه كان مكونا من الرقيق المجلوب (١) ٠

وكان السلطان (سليمان صولون ١٦٤٠/١٦٧٠) يرسل بنفسه فى كل سنة محملا وصرة الى مكةالمكرمة عن طريق مصر ، مع كمية من الريش والصمغ وأعداد من الرقيق تباع فى مصر بواسطة وكيله (المعلم شنوده) من أسيوط (٢) ٠

هذا وقد قدر المعدل السنوى للرقيق الذى كانت تجلبه القوافل من دارفور ، ما بين خمسة وستة آلاف نسمة ، كان من بينهم فتيات يتخذن كحريم وخادمات يخدمن فى المنازل (٣) ٠

كذلك كان الرقيق من أهم السلع التى تصدر من مملكة الفونج (٤) ٠ فقد كانت سنار تصدر قبل أن توجه الحملات المصرية لفتح السودان ، ألفا وخمسمائة نسمة فى السنة الى الأسواق المصرية (٥) ٠

وكان سوق (دنقلة) يكتظ بالعبيد فى شهرى مايو ويونيو وكذلك فى شهرى أكتوبر ونوفمبر من كل سنة ، ومن (دنقلة) تسير القوافل قادمة من بلاد الفونج الى الأسواق المصرية لبيعه فيها أو تصديره الى الخارج ٠ وكانت (بربر) ملتقى تجار الرقيق القادمين من سنار ، والتجارة فيها رائجة ، وكان الغلام يباع فيها بمبلغ أربعة جنيهات ونصف، والفتاة بمبلغ خمسة الى ستة جنيهات انجليزية ٠٠ أما قوافل (كردفان) التي تعبر الصحراء الى (الدبه) فكانت تبدأ رحيلها فى فصل الخريف،

---

(١) د ٠ شوقى الجمل : تاريخ سودان وادى النيل جـ ١ ص ٣٢٣

(٢) د ٠ زاهر رياض : مصر وافريقيا ص ١٢٠

(٣) Cray, R. : op. cit., pp. 3-5.

(٤) كانت تسمى مملكة الفونج أو مملكة الفونج الزرقاء او مملكة سنار أو سلطنة سنار وقد تضاربت الآراء حول أصل الفونج ، الى حد أنهم نسبوا الى الشلك ، وهذا الرأى غير صحيح على الاطلاق ، لأن سلطنة الفونج تنطق بالعربية وتدين بالاسلام بينما نجد الشلك وثنيين ولهم لهجات افريقية ٠

للمزيد فى هذا الموضوع انظر : Crawford, O. G.S. : The Kingdom of Sennar, pp. 100-102.

وكذلك د٠ نعوم شقير : تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافية وغيرهما

(٥) Gray, R. : op. cit., pp. 3-5.

وذلك بسبب حاجتها الى مياه الأمطار الموسمية التى تتساقط فى تلك الفترة من السنة (١) ٠

وعلى هذا يتضح مما سبق ، أن الرقيق كان فى السودان من الأمور المألوفة ، ومن العادات المتأصلة فى المجتمع ، وأن نظامه من المسائل المتوارثة عن الآباء والأجداد ٠

فمن النادر مثلا أن نجد فى بربر أو شندى أو غيرهما من قرى السودان ، منزلا واحدا لا يقتنى واحدا أو اثنين من العبيد السود ، وهناك من يقتنى خمسة أو ستة يفلحون الأرض ويرعون الماشية ، ونجد النظام نفسه متبعا فى أعالى النيل حتى سنار ٠٠ وفى الغرب نجد قبائل البقارة فى كردفان تعيش فى مناطق السافانا مع قطعانهم الكبيرة من الماشية وعبيدهم من الرقيق (٢) ٠٠ وكذلك الحال فى دارفور ، بل كان ذلك النظام متبعا لدى قبائل البدو المحيطة بهذه الجهات ، فنرى تلك القبائل تقتنى العدد الكبير من الرقيق للأغراض السابق ذكرها (٣) ٠

تجنيد الرقيق فى الجيش المصرى الحديث :

لعل ما كان يحدث فى مصر ، كان ينعكس بصورة أو بأخرى على السودان ، لذلك ، فالوضع الذى كانت عليه مصر قبل أن يحكمها (محمد على) فى عام ١٨٠٥ ، كان شبيها بالوضع الذى كان عليه السودان (٤) ٠ خاصة بعد أن لجأ اليه الأمراء المماليك الذين تمكنوا من

---

(١) من تقرير بورنج : مرجع سابق ص ٥٥٥ ـ ٥٥٦

(٢) Gray, R. : op. cit., pp. 1-2.

(٣) بوركهارت : مرجع سابق ص ٢٦٦

(٤) عاشت مصر فى اواخر عهد الدولة المملوكية فترة من الفوضى والاضطراب ، بسبب تنافس البكوات المماليك وتشاحنهم مع الاتراك ، مما جعل البلاد سهلة المنال للحملة الفرنسية فى عام ١٧٩٨ ، وبعد اجلاء تلك الحملة عن البلاد فى عام ١٨٠١ ، تعرضت مصر لصراع حاد ومرير ، ممثلا فى بقايا المماليك والالبان والاتراك ، ومن ثم عاشت مصر فترة من الممكن أن نطلق عليها بفترة التخبط السياسى ، الذى أدى بدوره الى شدة تطلع القوى الاوربية ، خاصة بريطانيا ـ التى تفتحت عيونها الى مصر منذ قدوم الحملة الفرنسية ـ حتى تمكن الشعب المصرى عن طريق الزعامة الشعبية ورجال الدين من مساعدة (محمد على) والوقوف بجواره ، فخرج بالبلاد الى بر الامان ، ومن ثم أخذ يعد العدة لبناء دولة مصر الحديثة .

أما السودان ، فكان يعيش هو الآخر فى تفكك من حيث وضعه السياسى ، فقد كان مقسما الى عدة ممالك وسلطنات متشاحنة ، بل ان السلطنة الواحدة كانت ممزقة

الفرار الى الجنوب بعد مذبحة القلعة في سنة ١٨١١ ومذبحة اسنا في سنة ١٨١٢ وكونوا لهم ما يشبه الامارة في (دنقلة) ورحل جماعة منهم الى كردفان وسنار ، وأخذوا يغيرون على الأهالى ، ويكونون الجنود من الرقيق الأسود ، ويقطعون طرق القوافل (١) ومن ثم صاروا مصدر قلق وتهديد ضد محمد على نفسه (٢) ٠

على أية حال ، كان محمد على يخطط منذ اللحظة الأولى عند توليته الحكم في مصر لبناء دولة قوية ذات عز ومنعة (٣) ٠ وأن ينهض بالبلاد في مختلف المجالات الزراعية والصناعية والعمرانية ، واقامة نظام شبيه بنظام الحكومات الأوربية (٤) ٠٠ الأمر الذى جعـــل البعض يردد أن (محمد على) كانت تسول له نفسه بتوسيع رقعة البلاد بالاستيلاء على أملاك الدولة العثمانية نفسها (٥) ٠

وكان هذا الأمر يتطلب منه تكوين جيش منظم وقائم على الأساليب

بدورها الى عدة مشيخات وزعامات متنافسة ، كمـا كان حادثا في دولة الفـونج على سبيل المثال ، الامر الذى جعل الذين زاروا السودان قبيل الفتح المصرى يرددون أن البلاد مهيأة للتدخل الاجنبى ، بسبب الفوضى التى كانت تسود المجتمع ، بالاضافة الى تطلع الاحبـاش الى بعض مقاطعات ســـنار المتاخمة لهم د٠ الســـيد رجب حراز : المدخل الى تاريخ مصر الحديث ص ٢٤٩ ٠

لذلك دعا البعض الى ضرورة أن تتقدم مصر الى وضع يدها على السودان قبــل أن يسبقها غيرها الى تلك البلاد .

د . نسيم مقار : الرحالة في السودان فى النصف الاول من القرن التاسع عشر (الرحالة بران روليه) ص ٣٣ ــ ٣٥

وحيث أن مصر قد أنقذت فى ذلك الوقت من التيارات الســياســية المتصارعة التى كادت أن تعصف بهـــا ، فكان الســـودان هو الآخر فى حاجة الى من ينقذه من التفكك والوضع المتردى الذى وصل اليه ويعمل على وحدته في ظل نظام حكومة موحدة وقوية .

(١) Waddington, George. : Tawrnal of a visit to some parts of Ethiopia. p. 254.

(٢) د . السيد رجب حراز : مرجع سابق ص ٢٤٩ ــ ٢٥٠

(٣) د . مكى شبيكة : السودان فى قرن ص ١٢

(٤) د٠ راشد البراوى : مجموعة الوثائق السياسية ، المركز الدولى لمصر والسودان وقناة السويس ص ٩ ــ ١٠

(٥) Dodwell, H. : The Founder of Modern Egypt, A Study of Mohamed Ali. p. 50.

الأوربية لتأسيس الدولة الحديثة ، ولحمايتها والدفاع عنه من الأطماع الأجنبية (١) ٠

لذلك بعد أن تخلص من منافسيه فى الداخل بما فيهم قوة العلماء ورجال الدين التى أوصلته الى الحكم ٠٠ وبعد أن انتصر على الوهابيين فى شبه الجزيرة العربية ، ومن ثم انتقل اليه الاشراف على مناطق البحر الأحمر وسواكن ومصوع (٢) ٠٠ كانت فكرة فتح السودان قد نضجت واكتملت ، ومن ثم أملت الضرورة عليه فى ذلك الوقت بتنفيذها (٣) ٠

---

(١) يلاحظ أن محمد على حاول فى بادىء الأمر تطبيق النظم الحديثة على جنده من الالبان ولكنهم رفضوا ذلك النظام وثاروا عليه فى عام ١٨١٥ ، وكان هدفه تكوين عناصر القيادة – أى الضباط المدربين – ليقوموا بدورهم بتدريب الجيش الجديد ، واستعان فى هذه العملية بالضابط الفرنسى (سيف) ، « سليمان باشا الفرنساوى فيما بعد » لتكوين نواة من الضباط والمعلمين العسكريين للجيش النظامى الحديث .

د . عبد الرحمن زكى : أعلام الجيش والبحرية فى مصر فى القرن التاسع عشر ج ص ٣٥ – ٣٧

(٢) د . شوقى الجمل : تاريخ سودان وادى النيل ج ٢ ص ١٩ – ٢٠

(٣) يلاحظ ان حروب محمد على فى السودان تختلف عن حروبه الاخرى فى شبه الجزيرة العربية وفى اليونان ، فلم يطلب منه السلطان العثمانى تجريد الجيش لاخماد ثورة أو تمرد فى السودان ، كما حدث مثلا فى شبه الجزيرة العربية ، وانما استأذن محمد على نفسه من السلطان فى فتح السودان ، على اعتبار أن للسلطان صفوفا فى السيادة منذ القرن السادس عشر ، ليس على ولاية السودان فحسب ، بل وعلى ما أطلق العثمانيون عليه ايالة الحبشة أو الجيش التابعة لباشوية جدة أو الحجاز ، ووافق السلطان محمود الثانى على أن يفتح محمد على ما يشاء من قاليم السودان ، على أن يكون ذلك باسم السلطان العثمانى .

د . السيد رجب حراز : مرجع سابق ، ص ٢٥٠ – ٢٥١ ،

و د . عبد الرحمن زكى : التاريخ الحربى لعصر محمد على ، ص ٩٥ ٠)

ويشير الدكتور شوقى الجمل ، الى أنه لم يعثر فى وثائق عابدين على وثيقة واحدة تؤيد أن محمد على طلب موافقة السلطان واذنه فى فتح السودان ، وانه لا يدرى ، هل يوجد فى الارشيف التركى وثيقة بهذا الخصوص أم لا ؟

(د . شوقى الجمل : مرجع سابق ، ص ٢ ، ص ٢٣ ٠)

والواقع رغم ان الباحث لم يعثر هو الآخر ، على وثيقة تؤيد ذلك ، الا انه يرى ان محمد على لم يكن حتى ذلك الوقت (١٨٢٠) قد افصح عن نيته الدفينة فى اقتطاع بعض أملاك الدولة العثمانية لضمها الى مصر ، بل كان لايزال يظهر الولاء للسلطان ٠٠ ومن ناحية أخرى كان يهم الدولة العثمانية الا تقوم للماليك قوة فى السودان ، خاصة بعد تطلعهم الى الوهابيين للتحالف معهم ، أو تحالفهم – أى المماليك – وهم أصدقاء الانجليز بالامس – مع الاحباش ٠٠ لذلك نرى أن ثمة اتصالات تمت بين محمد على والسلطان ، وان الدولة العثمانية باركت هذا الفتح .

ورغم كثرة الآراء التي أثيرت حول دوافع الفتح ، فان الوثائق الرسمية تشير الى أن الحصول على الرقيق كان من بين الأسباب التى دفعت محمد على لذلك ، حتى يتمكن من تجنيدهم فى الجيش المصرى الجديد ، والاستفادة من بعضهم فى مشروعاته الاقتصادية والعمرانية المزمع تنفيذها ..

ولكن الحصول على الرقيق فى الواقع لم يكن هو الدافع الأول لعملية الفتح ، كما يشير الى ذلك بعض المؤرخين (١) .. فقد كان فى امكان محمد على أن يكون جيشا منظما من المصريين وبه عناصر من الرقيق الأسود ، وذلك عن طريق الشراء من سلطنة دارفور ، أو من سلاطين وزعماء سلطنة الفونج ، أو من التجار وأصحاب القوافل الذين كانوا يصدرون العديد من الرقيق الى الأسواق المصرية والمغربية والشامية والتركية وغيرها ، فقد بلغت تجارة الرقيق أوجها فى السودان قبيل الفتح المصرى ، وعظم نشاط الجلابة والنخاسين ، وازدهرت أسواق الرق بفعل الاضطراب الذى كان يسود البلاد ، وبفعل الركود الذى أصاب التجارة فى السلع الأخرى ، سواء كانت تلك التجارة تأتى عن طريق الوارد اليها من الحبشة أو الجهات المجاورة (٢) .

هذا وقد كان محمد على هو نفسه من بين الجنود الألبانيين ، وعاصر جيوش الدولة العثمانية ، التى كانت تتكون من عناصر مختلفة ، وتحرز النصر فى ميادين كثيرة لحساب الدولة ، كما أن جيشه - أى محمد على - الذى أرسله لاخماد الحركة الوهابية فى عام ١٨١١ - استجابة لطلب

---

(١) د . حسن أحمد ابراهيم : محمد على فى السودان ص ٢٤

ويذكر جورج يانج ان محمد على فتح السودان للحصول على المعادن الثمينة التى سمع عنها هناك

(جورج يانج : تاريخ مصر من عهد المماليك الى نهاية حكم اسماعيل (تعريب على أحمد شكرى) ص ١١٣)

ويقول دودويل ان الحصول على الرقيق والبحث عن المعادن كانا من أهم أسباب الفتح
Dodwell, H. : op. cit., p. 50.

ويقول الدكتور شوقى الجمل ، ان من أهم أسباب الفتح هو تأمين مصر نفسها من الجنوب وتنشيط التجارة فى البحر الاحمر واعادتها الى ما كانت عليه سابقا فى عهد المماليك .

(د . شوقى الجمل : مرجع سابق ، ج ٢ ، ص ٢٠ - ٢١

ويرى آخرون أن من بين أسباب الفتح ، تكوين وحدة سياسية من وادى النيل ، الى غير ذلك من الاسباب ، بهدف الصالح المشترك لمصر والسودان .

(٢) د . محمد فؤاد شكرى : مرجع سابق ص ١٠

السلطان ـ كان من ذلك النوع ، أى من الباشبوزق (المرتزقة) وتمكن ذلك الجيش من القضاء على تلك الحركة ، وتوسع فى شبه الجزيرة العربية ، حتى أطلت القوات على الخليج العربى وفتحت اليمن (١) .

ولكن نظرا لسعة أفق محمد على ، فانه كان يدرك مدى امكانية الافادة من الجيش النظامى ، فقد وقف ـ وهو رجل عسكرى ـ على أهمية الجيوش المنظمة ، التى أخذت بها أوربا بعد الثورة الفرنسية ، ولم يكن بعيدا كذلك عن أخبار قوات الحملة الفرنسية على مصر فى عام ١٧٩٨ .

لكل هذا ، رغب فى أن تـــكون الافادة كاملة من جيشه المنتظر تكوينه ، وأن يتحاشى ما كان يحـــدث من تذمر وصراعات بين الجنود المرتزقة ، وهجومهم من حين لآخر على القواد ، طالما أنه عقد العزم على تكوين دولة حديثة ، على غرار الدول الأوربية نفسها (٢) .

ومن ناحية أخرى ، فانه سمع الكثير عن قوة واحتمال وصبر وطاعة الجند السودانيين ، فقد اشتهروا منذ أيام الفراعنة بصلاحيتهم للجندية وشدة بأسهم فى الحروب (٣) .. وأنه من الممكن اســـتقدام الكثير من السود لتكوين الجيش الجديد (٤) لأن هناك فى جنوب السودان يوجد مستودع لا يفرغ من الزنوج الأفارقة الذين يمكن أن يمدوه بحاجته للعمل فى الجيش بل وفى الزراعة والصناعة (٥) .. وذلك بأقل تكلفة ممكنة ، مراعاة لظروف الخزينة المصرية حينذاك .. فكان عليه بجانب الانفاق على الحملات العسكرية والمشروعات الأخرى ، أن يدفع الجزية للسلطان العثمانى ، والهدايا والهبات للمسئولين فى الاستانة .

يضاف الى ذلك ، أن مصر نفسها شهدت فى أواخر عهد المماليك، فترة من الاضطرابات الداخلية ، بسبب تنافس الأمراء المماليك على كراسى الحكم وما أعقب ذلك من مواجهة الشعب المصرى للحملة الفرنسية (٦) .

وترتب على ذلك ، أن فقد الشعب المصرى الكثير من أبنائه ، ومن ثم

---

(١) د . السيد رجب حراز : مرجع سابق ، ص ٢٣٦ ـ ٢٤٨ .

(٢) د . راشد البراوى : مرجع سابق ، ص ٩ ـ ١٠ .

(٣) د . السيد رجب حراز : مرجع سابق ، ص ٢٥٠ .

(٤) عبد الرحمن الرافعى : عصر محمد على ، ص ١٦٩ .

(٥) Hill, R. : Egypt in the Sudan. p. 2.

(٦) كرستوفر هيرولد «ج» : بونابرت فى مصر (تعريب فؤاد اندراوس) ص ٢٦٠

حدثت خلخلة في المعمور السكاني ، ترتب عليها بوار الأرض وكساد الصناعة المحلية (١) ٠

ويبدو أن هذه العوامل مجتمعة ، مع الأخذ بعين الاعتبار الموقف الذى كانت عليه الدولة العثمانية في ذلك الوقت ، ومواقف الدول الأوربيه منها ، وجدت هوى فى نفس محمد على ، ومن ثم تشـــجع على الاقدام لتنفيذ فكرة تجنيد السودانيين في الجيش الحديث ، وأن يترك الفلاح المصرى للعمل فى مشروعات التنمية والتعمير ٠

ويلاحظ أن فكرة تجنيد السودانيين ـ بصفة عامة ـ في الجيش المصرى ، ليست جديدة ، فكما ذكرنا ، ان الروابط بين البلدين ، كانت تشجع حكام مصر على ضرورة النظر الى السودان ٠٠ لذلك كان بعض هؤلاء الحكام ، يستقدمون أبناء الجنوب لتجنيدهم فى الجيوش ، فقد بلغ عدد من استقدم من السودان وانخرط فى الجيش أربعين ألفا فى عهد أحمد بن طولون (٢) ، كذلك انتظم أبناء السودان فى جيش الاخشيديين خاصة فى عهد كافور (٣) ، ووصل عددهم حوالى خمسين ألفا فى عهد الفاطميين ، فقد كانت والدة المستنصر بالله ـ وهى سودانية الأصل ـ تشجعه على استقدام السودانيين وتجنيدهم فى الجيش (٤) لبسالتهم ، وتحملهم المشاق وطاعتهم للرؤساء ٠

ونظرا لشهرة الجندى السودانى والصفات الحميدة التى كان يتميز بها ، أغرت الجنرال نابليون بونابرت ، فأرسل ـ أثناء تواجد الحملة الفرنسية فى مصر الى الســـــلطان (عبد الرحمن الرشيد) سلطان دارفور (٥) ، يطلب منه ارسال ألفين من الرقيق الأشداء الذين تجاوزوا الستة عشر من العمر (٦) ٠

---

(١) د ٠ محمد فؤاد شكرى : مرجع سابق ص ١٥٩ ٠

(٢) د ٠ مصطفى محمد مسعد : الاسلام والنوبة فى العصور الوسطى ص ١٣٨ ٠

عن المقريزى : المواعظ والاعتبار جـ ١ ص ٩٥ ٠

(٣) د ٠ مصطفى محمد مسعد : المرجع نفسه ص ١٣٩ ٠

(٤) د ٠ مصطفى محمد مسعد : المرجع نفسه ص ١٣٩ ٠

(٥) يلاحظ ان السلطان العثمانى والذى أنعم على عبد الرحمن الدارفورى بلقب الرشيد وهذا يدل على حق الســـلطان فى الســيادة على أقاليم الســـودان وتعبير (الرشيد) له مغزاه الكبير فى تاريخ العالم الاسلامى ٠

د. حسن أحمد محمود : الاسلام والثقافة العربية فى افريقيا جـ١ ص ٣٥٨ـ٣٦١

(٦) د ٠ نعوم شقير : مرجع سابق جـ ٢ ص ١٢٣ ٠

وكذلك د ٠ محمد فؤاد شكرى : مرجع سابق ص ١٥٨ ٠

وعلى ذلك ، نرى أن نظرة محمد على الى تجنيد الرقيق فى الجيش الحديث ، ليست جديدة ، واذا كان الحصـــــول عليه من دوافع فتح السودان ، لاســتجلابه بأقل النفقـــات الممكنة ٠٠ فهذا أمر لا يجب أن يسوقنا ونتهم الفتح فى حد ذاته بأنه نوع من أنواع الاستعمار الحديث ، الذى مارسته الدول الأوربية فى افريقيا وغيرها (١) ٠٠ كما أنه ليس اجراء غريبا أو شائنا ، فكما أحضر محمد على الرقيق الى مصر لتكوين الجيش ، أرسل الفنيين والزراع ، والأنظمة الحديثة الى السودان ٠٠ طالما كانت نيته أن يجعل من البلدين وحدة سياسية واحدة ، يستفيد من مواردها الطبيعية والبشرية للنهوض بهما معا ٠

الأوامر الصادرة من محمد على للمسئولين فى السودان لارسال الرقيق :

ذكرنا أن عامل الحصول على الرقيق ، كان من دوافع فتح السودان، وان لم يكن العامل الرئيسى ٠٠ ونحن لا ننكر أن هذا العامل كان له من أهمية خاصة فى نظر محمد على ، لتجنيدهم فى الجيش الذى عقد عليه كل الآمال للوصول الى أهدافه (٢) ٠٠ وقد تطلب منه ذلك أن يكون الجيش منظما ومدربا على أحدث الأساليب العصرية وقتذاك (٣) ٠

لذلك كانت مسألة الحصول على الرقيق من المسائل الهامة التى كلف محمد على بها المسئولين فى السودان ٠٠ وتكاد معظم رسائله لحكام السودان لا تخلو من ضرورة جلب العبيد ، لأن ذلك هو غاية المراد ونتيجة المقصود ٠٠

فيقول الى ابنه (اسماعيل باشا) سر عسكر السودان ٠٠ « ان المقصود الأصلى من هذه التكلفات الكثيرة والمتاعب الشاقة ، ليس جمع المال ، كما كتبت اليكم ذلك مرة بعد أخرى ، بل الحصول على عدد كبير من العبيد الذين يصلحون لأعمالنا ويجدرون بقضاء مصالحنا » (٤) ٠٠

ويقول له كذلك ٠٠ « ان الغـــــرض من انتدابكم الى تلك الديار وتعزيزكم بسواد عظيم من الجنود والمهمــــات واللوازم العديدة ، هو للحصول على العبيد اللازم انتقاؤهم وفق المطلوب وايصالهم الى ثكنات

---

(١) د . شوقى الجمل : مرجع سابق جـ ٢ ص ٧ ٠

(٢) د . جلال يحيى : مصر الافريقية والاطماع الاستعمارية فى القرن ١٩ ص ٤٨٠

(٣) Sabry, M. : L'Empire Egyptien sous Mohamed Ali et la question d'Orient (1811-1849) p. 68.

(٤) دفتر ١٠ معيه تركى : ترجمة المكاتبة رقم ٣٢٥ بتاريخ ١٠ ذى القعدة ١٢٣٧ هـ

أسوان ، غير معرضين للضياع والتلف ، وليس فى نيتنا ولا فى نظرنا غاية أعز من هذا الأمل ٠٠ وأن قيمة العبيد الصالحين للعمل عندنا تعادل قيمة الجواهر ، نظرا لمقتضى الوقت والحال ، بل هى أعز من تلك وأجل كما هو بديهى وأظهر » (١) ٠

ويكتب لحاكم دنقلة ٠٠ « ان غرضنا الوحيد من انتداب نجلنا اسماعيل باشا الى ديار السودان ، وأيضا ولدنا البيك الدفتردار الى بلاد كردفان بهذه الاستعدادات والتكلفات الكثيرة معززين بكثير من المهمات ، هو الاهتداء الى طريقة جلب العبيد المطلوبين لدينا ، كما أن المقصود من ارسالكم الى دنقلة وارسال محو بك الى بربر ، هو رغبتنا فى اتيان العبيد المجموعين بمساعى المشار اليهما بدون أن يمسهم تلف ووصولهم الى أسوان سالمين » (٢) ٠

ويخاطب الدفتردار ٠٠ « لا تكون هذه المسائل والوسائل باعثا على اضاعة الوقت دون ايفاء مهمة جلب العبيد ، أو سببا للبطء والتكاسل فى صرف ما فى الطاقة فى سبيل تحقيق هذه المهمة » (٣) ٠

لذا نرى أنه منذ أوائل الفتح ، أرسل اسماعيل باشا سرية قوية الى جبل (تابى) قرب سنار ، بقيادة (قوجه أغا) أسرت ألفا وتسعمائه من الزنوج ما بين ذكور واناث ، واغتنمت السرية من عربان (رفاعة) ، مقدار ألفى جمل وألف رأس من البقر ، وألف وتسعمائة ونيف من الغنم ، وقد وزعت الأغنام على الجنود ، وأرسل الزنوج والجمال والبقر الى مصر مع (سليم أغا) فارتاح محمد على لهذا العمل كثيرا » (٤) ٠

هذا بينما كانت حملة الفتح الثانية التى يرأسها محمد بك الدفتردار ، لفتح كردفان ، تقوم هى الأخرى بتنفيذ أوامر محمد على ، بخصوص جلب الرقيق ٠٠ فبعد أن تمكن الدفتردار من هزيمة سلطان

---

(١) دفتر ١٠ معيه تركى : ترجمة المكاتبة رقم ٣٤٠ بتاريخ ١٩ ذى القعدة ١٢٣٧ هـ « ٢٨ يوليو ١٨٢٢ م »

(٢) دفتر ١٠ معية تركى : ترجمة المكاتبة رقم ٣٤٢ بتاريخ ١٩ ذى القعدة سنة ١٢٣٧ هـ (٢٨ يوليو ١٨٢٢ م)

(٣) دفتر ١٠ معيه تركى : ترجمة المكاتبة رقم ٣٤٠ بتاريخ ٣ صفر ١٢٣٧هـ (٢٩ اكتوبر ١٨٢١م ، ٠

(٤) دفتر ٦ معيه تركى : ترجمة المكاتبة رقم ٦٤٧ بتاريخ ١٤ ذى القعدة ١٢٣٦ هـ (١٤ يوليو ١٨٢١) ٠

دارفور (محمد الفضل) عند بلدة (بارة) شمال الأبيض ، وقتل (المقدوم مسلم) حاكم كردفان ، استولت الحملة المصرية على ما كان لدى الحاكم المقتول ، من رقيق وقدره ألف ومائتى عبد وجارية وعلى الفور تم ارسال ثمانمائة منهم الى دنقلة ليرسلوا من هناك الى مصر (١) ·

وقد طلبت الحملة من الرعايا الساكنين في اقليم كردفان ، نحو ثلاثة آلاف من العبيد ، وقد عبر محمد على عن ارتياحه لهذا الاجراء ·· وطالب الدفتردار بأن يزيد في جلب المقادير الكثيرة من العبيد ، ونصح بشد الرحال والتشمير عن سواعد الجد الى مهمة جلب السود ، وارسالهم بالتوالى الى مصر ، وطلب منه ، أن تذهب الحملة العسكرية الى كل صوب بمزيد من الاقدام ، والانقضاض والضرب وأخذ العبيد وارسال الصالحين منهم الى أسوان (٢) ·

وفى الوقت نفسه طلب محمد على من محمد بك الدفتردار ، ضرورة تنظيم الأمور ، فى اقليم كردفان (٣) · وفعلا شرع الدفتردار فى تنظيم شئون البلاد ، والبحث عن مناجم الذهب والمعادن الأخرى ، والاستمرار فى جمع الرقيق (٤) ·

وقد بلغ مجموع العبيد الذين أرسلهم الدفتردار الى دنقلة ، ليرسلوا من هناك الى مصر ، فى الفترة من جماد أول ١٢٣٩ حتى شوال ١٢٣٩ ، أربعة آلاف عبد (٥) ·

ويبدو أن محمد على شعر بأن ابنه (اسماعيل) لا يستطيع ــ لقلة خبرته ــ أن يدير الجهات المفتوحة فى السودان ، وأن يحقق ما هو مطلوب من العبيد ، فأرسل ابنه (ابراهيم باشا) الذى كان وقتذاك واليا

---

(١) دفتر ١٠ معيه تركى : ترجمة المكاتبة رقم ٤٩ بتاريخ ١٥ ربيع أول ١٢٣٧ هـ (١٠ ديسمبر ١٨٢١م) ·

(٢) دفتر ١٠ معيه تركى : ترجمة المكاتبة رقم ٤٩ بتاريخ ١٥ ربيع أول ١٢٣٧ هـ (١٠ ديسمبر ١٨٢١ م) ·

ويلاحظ أنه بعد أن خضعت كردفان لسلطة محمد على ، لم يحرك سلطان دارفور ساكنا لاسترجاع سلطته على كردفان ، بل آثر التريث حفاظا على سلطنته فى دارفور

(٣) دفتر ١٠ معيه تركى : ترجمة المكاتبة رقم ٢٢ بتاريخ ٣ صفر ١٢٣٧ هـ (٣٠ اكتوبر ١٨٢١م) ·

(٤) د · محمد فؤاد شكرى : مرجع سابق ص ٢٥ ·

(٥) دفتر ١٤ معيه تركى : ترجمة المكاتبة رقم ٤٢٤ بتاريخ ١٧ شوال ١٢٣٩ هـ (١٤ يوليو ١٨٢٤م) ·

على جدة بالحجاز ، وكان السلطان العثمانى قد منحها مكافأة له لانتصاره على الوهابيين ٠٠ بجانب ان له خبرة ودراية بشئون الحرب والادارة ، وعينه قائدا عاما للقوات المصرية فى سنار وكردفان ، وأن يتفق مع أخيه اسماعيل فى أفضل الطرق لارسال الغزوات وجلب السود الصالحين للجندية فى مصر ، وطلب محمد على من اسماعيل أن يستمع لأخيه وأن يطيع أوامره ، فقال له ٠٠ « وابذل كل سعى وجد فى اتباع رأى حضرة ولدنا صاحب العطوفة ابراهيم باشا والى جده ٠٠ خصوصا فى أمر جلب ما هو مأمول جلبه من السودانيين على الوجه المطلوب » (١) ٠

وعندما وصل ابراهيم باشا الى سنار فى ٢٣ أكتوبر سنة ١٨٢١ ، اتفق مع أخيه اسماعيل ، على القيام بحملتين عسكريتين ، احداهما بقيادة ابراهيم وتتجه نحو بلاد الدنكا والنيل الأبيض (٢) ٠ وكان الهدف منها الوصول الى منابعه ـ أى النيل الأبيض ـ والتأكد من الزعم القائل باتصال هذا النيل بنهر النيجر ، أو الزحف عن طريق كردفان على دارفور وبورنو ، واختراق الصحراء الغربية الى طرابلس ، ثم العودة منها الى مصر ، هذا بجانب جلب العبيد ، ويتولى اسماعيل قيادة الحملة الثانية ، وتتجه نحو جبال الصعيد ٠٠ وقد أرسل ابراهيم باشا يخبر والده بهذا الاتفاق ، ويأمل حين يتم النجاح ، ارسال حوالى عشرة آلاف من الذكور الصالحين للعسكرية فورا الى مصر ، على أن يعقب ذلك ارسال ما يتبقى من النساء والصبية ، وطلب محمد على من ابنه ابراهيم عدم المساس فى ذلك الوقت بالعبيد الذين فى سنار (٣) ٠٠ وأن يستمر الغزو لجمع أربعين ألفا من الزنوج ، الا أن ابراهيم لم يكد يصل الى جبل القرنين فى وسط الجزيرة ، حتى فاجأه المرض ، فاضطر الى العودة الى مصر (٤) ٠ مع طبيبه الايطالى ، تاركا القيادة العليا من جديد لأخيه اسماعيل (٥) بينما واصلت جنوده زحفها نحو بلاد الدنكا الواقعة على بعد مسيرة أربعة عشر يوما على النيل الأبيض ٠

---

(١) دفتر ١٠ معيه تركى : ترجمة المكاتبة رقم ٣٩ ص ٢٥ بتاريخ ٤ ربيع أول ٢٣٧ هـ (٢٩ نوفمبر ١٨٢٢) ٠

(٢) د ٠ شوقى الجمل : مرجع سابق جـ ٢ ص ٢٨ ٠

(٣) دفتر ١٠ معيه تركى : ترجمة المكاتبة رقم ٥٦ بتاريخ ٢٣ ربيع أول ١٢٣٧ هـ (١٨ نوفمبر ١٨٢١م ٠

(٤) دفتر ١٠ معيه تركى : ترجمة المكاتبة رقم ١٢٥ بتاريخ ١٤ جماد أول ١٢٣٧هـ ٦ فبراير ١٨٢٢ م) ٠

(٥) د ٠ شوقى الجمل : مرجع سابق جـ ٢ ص ٢٨ ٠

أما اسماعيل باشا فقد سار مع النيل الأزرق حتى بلغ فازوغلى ، ومر بأسطوله من غدير التومت الذى يصـــب فى النيل الأزرق ، حتى وصل الى بلدة سنجه ، ولكنه اضـــطر الى التقهقر وعاد بالجيش الى فازوغلى (١) ٠ ومعه ٤٧٧ عبدا صالحا للجندية (٢) ٠

فى ذلك الوقت طلب محمد على من حاكم دنقلة التحرك فى منطقة الشلك لكشفها والتوسع فيها عن طريق الغزو لجلب الرقيق ، وذكر له أنه سيرسل اليه عشرين صانعا ماهرا لصناعة عدد من السفن النيلية لتكون تحت تصرف الحملة فى الغزوات (٣) ٠

هذا ومما زاد فى طلبات محمد على لارســـال الرقيق ، وملاحقته المسئولين فى السودان بضرورة الاسراع فى جلب الأعداد الكثيرة من العبيد الصالحين للجندية ، بوادر العصيان والتمرد فى بلاد اليونان ، ضد الحكم التركى ، ومحاولة الثوار الحصول على استقلال بلادهم (٤) ٠

حدث ذلك فى وقت كانت فيه الدولة العثمانية ، تعتمد الى حد كبير على القوات المصرية لاخمـــاد الثورات ، والقضـــاء على الحركات الانفصالية ، بعد فشل حكام العراق ودمشق فى اداء مثل تلك الأمور ، كما حدث فى شبه الجزيرة العربية مثلا ٠٠

لذلك يبدو أن محمد على بحسه وذكائه ، تيقن أن السلطان لا بد والحالة هذه ، أن يستنجد به ، ويطلب منه ارسال الجيش المصرى الى بلاد اليونان الثائرة ، فطلب من المسئولين تكثيف الجهود فى تدريب الجنود لمواجهة ذلك الخطر الجديد ٠٠ فتشير الوثائق الرسمية ، أنه أمر حكام السودان ، وشدد عليهم ببـــذل كل الهمم لقنص العبيد ، وارسالهم الى أسوان ، ويقول لهم ٠٠ ان الاقدام والعناية فى أمر جلب

---

(١) د ٠ فردريك بنولا : مصر والجغرافيا (تعريب أحمد زكى) ص ١٤ ٠

(٢) د ٠ مكى شبيكة : السودان فى قرن ص ٣١ ٠

هذا وقد طلب اسماعيل من القاهرة فى فبراير ١٨٢٢ العودة الى مصر ، فأجيب الى طلبه فى أكتوبر ، لكن عندما اندلعت الثورة فى شندى والمتمه ، ذهب لاخضاعها: وبعد ان تمكن من القضاء عليها ، لقى حتفه فى شـــندى فى ينـــاير ١٨٢٣ عن طريق المؤامرة التى دبرها له الملك نمر ملك شندى وآخرون ، وقد انتقم الدفتردار من اهـــل سنار اشد الانتقام ٠

(٣) الدفتر ١٠ معيه تركى : ترجمة المكاتبة رقم ٢٨٣ بتـــاريخ ٩ شـــوال ١٢٣٧ هـ (٢٩ يونيو ١٨٢٢م) ٠

(٤) جورج يانج : مرجع سابق (تعريب على أحمد شكرى) ص ١١٦ ـ ١١٧ ٠

السودانيين المطلوبين بكثرة قد أصبحا ، في صورة الفرض ، بل لعلهما تجاوزا درجة الوجوب (١) • وأن السلطان العثماني يطلب المساعدة العسكرية لاخضاع هؤلاء الثوار المتمردين ضد الحكم هناك (٢) •

ولعل حاجة محمد علي الشديدة الى الرقيق ، جعلته يطلب ـ بجانب استمرار عمليات الغزو ـ اجراء تعداد قرى سنار وسكانها وتقسيمها الى أقسام ثلاثة (عالي ووسط وأدني) وأنه لا مانع من تحصيل ضريبة الفردة من الرقيق على أن يكونوا من الذكور البالغين الصالحين للجندية (٣) •

والواقع ان محمد علي اشترك اشتراكا فعليا في مساعدة السلطان ، في قمع الحركات الانفصالية التي كانت تنشب في الولايات العثمانية ، استجابة لأوامره ، لانه ـ أي محمد علي ـ كان حتى ذلك الوقت يطيع كل أوامر الدولة العثمانية ، ريثما يثبت أقدامه على أرض صلبة ، ومن ثم يجاهر بالعداء تمهيدا لتحقيق أغراضه (٤) •

لذلك ركز كل جهوده في تكوين الجيش والحصول على أكبر عدد من السود ، رغم أن الجيش المصري في ذلك الوقت ، كان لديه القدرة بما تقتضيه الأعمال الحربية والتجربة المشتركة لكبح جماح اليونانيين ، أكثر من الجيش والأسطول العثمانيين اللذين لم ينظما بعد تنظيما تاما (٥) ••

ولكن نظرا لعدم الاعتماد عليهما وكثرة المساعدات التي يطلبها السلطان من آن لآخر ، جعل محمد علي يتشدد مع حكام السودان لارسال الرقيق لمواجهة تلك الطلبات (٦) •

---

(١) دفتر ١٠ معيه تركي : ترجمة المكاتبة رقم ٣٩ بتاريخ ٤ ربيع أول ١٢٣٧ هـ (٢٩ نوفمبر ١٨٢١م) •

(٢) دفتر ١٠ معيه تركي : ترجمة المكاتبة رقم ٤٠ بتاريخ ٤ ربيع أول ١٢٣٧ هـ (٢٩ نوفمبر ١٨٢١م) •

(٣) دفتر ١٠ معيه تركي : ترجمة الامر رقم ٢٠٠ بتاريخ ١٥ رجب ١٢٣٧ هـ (٧ ابريل ١٨٢٢م) •

(٤) بعد هزيمة الاسطول المصري والتركي في نوارين (٢٠ أكتوبر ١٨٢٧) وخروج محمد علي من المعركة رغم رغبة السلطان ، بدأ محمد علي يجاهر بالعداء ضد الدولة العثمانية ، ويعمل على تحقيق أهدافه في تدعيم دولة مصر الحديثة وتوسيع رقعتها على حساب أملاك الدولة العثمانية في سوريا •

(٥) جورج يانج : مرجع سابق (تعريب علي احمد شكري) ص ١١٦ ـ ١١٧ •

(٦) دفتر ١٠ معيه تركي : ترجمة المكاتبة رقم ٦٤ بتاريخ ٢٣ ربيع أول ١٢٣٧ هـ (١٧ ديسمبر ١٨٢١م) •

ويلاحظ من الوثائق الرسمية ، أن محمد علي كان يستعد استعدادا تاما لخوض غمار الحرب في اليونان ، فعندما طلب ابراهيم باشا منه ، امدادات مصرية الى الحملة العسكرية بالسودان ، أفاده ، بأن الموقف الدولى متأزم ، فالاسطول المصرى يرابط مع الأسطول العثمانى في البحر المتوسط ، لقيام ثورة في بلاد اليونان ، وأن السلطان قد يستنجد بمصر من أجل اخماد هذه الثورة وتنظيم شئون جزيرة كريت ، وطلب منه أن يتصرف قادة الحملة بما يتناسب وأعداد الجنود المتوفرة لديهم ، حتى تنتهى هذه الأزمة (١) ٠

ولكن يبدو أن الحالة في السودان ، كانت هى الأخرى في حاجة الى امدادات عسكرية ، نظرا لمساحة البلاد الواسعة ، فأرسل محمد علي الى ابنه ابراهيم وقال له ٠٠ أن الرؤساء والجنود موجودون والحمد لله ، ونرسلهم حسب الاقتضاء ، ولكن المقصود هو الحصول والاستحواز على أولئك السود ، وقال له ، اذا أرسلتم من هناك - أى من السودان - ثلاثة آلاف أسود متماسك الأعضاء صالح للعمل ، نرسل لكم من هنا - أى من مصر - ألف جندى فى مقابلهم ، ويضيف بأن أمر العســاكر من جهتنا متوقف على ورود السودانيين ، ويذكره بأن لا يكون ارسال الألف جندى المذكورين مقصورا على مرة واحدة ، بل ممتدا ومتكررا (٢) ٠

وعندما اشتعلت نيران الثورة فى اليونان ، أرسل محمد على الى حاكم كردفان ، يطلب منه المزيد من الرقيق ، لأن الأروام من رعايا الدولة العثمانية فى حالة عصيان ، وأن الحرب مع العجم قد بدأت ، وأضطر - أى محمد على - الى ارسال ألفى جندى مع خمسة من القواد للمحافظة على جزيرة كريت تحت قيادة (صالح بك) وأخبره بأن (حسن باشا) كان على أهبة الاستعداد على رأس جيش قوامه أربعة أو خمسة آلاف من الجنود لتأديب العصاة فى تلك الجزيرة ٠٠ ولهذا فان الظروف فى مصر لا تسمح بارسال جنود الى السودان ٠٠ ولم يكتف محمد على بذلك ، بل طلب ارسال ألف من الرقيق لالحاقهم بمراكز التدريب ، وفى نظير ذلك يرسل الى السودان أربعمائة عسكرى مدرب بدلا منهم (٣) ٠

---

(١) دفتر ٧ معيه تركى : ترجمة الوثيقة رقم ٣٠٠ بتاريخ ١٩ ذى الحجة ١٢٣٦هـ (١٦ سبتمبر ١٨٢١م) ٠

(٢) دفتر ١٠ معيه تركى : ترجمة المكاتبة رقم ٦٤ بتاريخ ٢٣ ربيع أول ١٢٣٧ هـ (١٧ ديسمبر ١٨٢١م) ٠

(٣) دفتر ١٠ معيه تركى : ترجمة المكاتبة رقم ٢١٧ بتاريخ ٢٢ رجب ١٢٣٧ هـ (١٤ ابريل ١٨٢٢م ٠

هذا ولم يتوان محمد على لحظة واحدة فى اســــداء النصح الى المسئولين فى السودان ، فأرسل الى سر العسكر ، يرشده ، بأنه اذا اقتضى موسم الأمطار ... فالمأمول أن تقوموا باستعدادات قوية ، فتغزو الجهات التى يرجى وجود العبيد فيها ، وتستولوا على كثير منهم ، ويحثه بأن يبذل كل الجهود وألا يتوانى فى القيــام بالغزوات ، لكى يملأ ثكنات أسوان بالرقيق (١) .

ولم يدخر محمد على وسعا فى توفير كافة مســتلزمات الغزوات المسلحة من ذخيرة وجنود وفرسان ومشاه لجلب السود وارسالهم الى مصر (٢) .. لأن الضرورة كانت تحتم عليه فى ذلك الوقت أن يزيد من قواته لمواجهة الأخطار المحدقة بالدولة العثمانية من ناحية ، ولتحقيق أحلامه من ناحية أخرى : لذلك لم يتورع عن معاقبة أى مسئول يتهاون فى بذل الجهود لجلب الرقيق وتوفير مستلزمات الراحة لهم (٣) .

وكانت الغزوات تتم بطريقة منظمة ، حتى يمكن أن تأتى بالنتائج المرجوة منها ، ففى شهرى سبتمبر وأكتوبر من كل عام ، كانت ترسل حملتان أو ثلاث حملات الى جهات مختلفة من أقاليم السودان ، حيث كان الجنود المرابطون فى كردفان ، يبعث بهم عادة الى جبال (نوبا) ، وجنود سنار وواد مدنى ، يتوجهون الى جبل (فنج) أو الى بلاد الدنكا، أما الذين فى الخرطوم ، فيذهبون الى بلاد الشلك على النيل الأبيض أو تخوم الحبشة على نهر رهد (٤) .

وكانت الحملة المجهزة ، تتكون عادة من ألف الى ألفين من القوات المنظمة ، ومن أربعمائة الى ثمانمائة من المغاربة المسلحين بالبنادق ، وكان يصحبهم ثلاثمائة الى ألف من الأهالى المشاه المزودين بالدروع والسهام ومن ثلاثمائة الى خمسمائة آخرين مسلحين ويمتطون ظهور الدواب (٥) .

---

(١) دفتر معيه تركى : ترجمة المكاتبة رقم ٣٤٠ بتاريخ ١٩ ذى القعدة ١٢٣٧ هـ (٧ أغسطس ١٨٢٢م) .

(٢) دفتر ١٠ معيه تركى : ترجمة المكاتبة رقم ٤٨ ص ٣٠ بتاريخ ١٥ ربيع أول ١٢٣٧هـ (٩ ديسمبر ١٨٢١م) .

(٣) دفتر ١٠ معيه تركى : ترجمة المكاتبـــة رقم ١٩٥ بتاريخ ١٦ محرم ١٢٣٩ هـ (٢٢ سبتمبر ١٨٢٣م) .

(٤) من تقرير مستر هولرويد : ترجمة د . محمد فؤاد شكرى وآخرين : بنـاء دولة مصر محمد على ص ٥٥ وما بعدها .

(٥) Pallme, I. : Travels in Kordofan, p. 309.

وتشير الوثائق الرسمية الى استمرار حاكم مصر فى طلبه من المسئولين في السودان ، المزيد من الرقيق ، والحصول عليهم بكافة الطرق الممكنة ، لسد احتياجات الجيش من جنود باستمرار ، فعندما علم بأن حاكم دنقلة يمنع مرور قوافل العبيد القادمة من كردفان ، أمره بعدم ردهم ، وأرسل الى محمد بك ناظر مصالح أسوان وفرشوط ، أمرا مخصوصا بأن لا يرد الجلابين القادمين من الجنوب ، ويشترى منهم الذكور البالغين الصالحين للجندية ، ولا يتعرض الى من يتبقى معهم من الصبية والنساء ، وكذلك ما يحملون من بضائع مثل الصمغ والريش والعاج ويسمح لهم بالمرور الى القاهرة .. وفى الوقت نفسه أصدر الأمر الى (عبدى أغا) بعدم توقف الجلابة فى دنقلة ، ويسمح لهم بالمرور الى أسوان (١) .

كذلك تشير الوثائق الى أن حاكم مصر ، أمر سر عسكر كردفان ، بعدم رد الجلابة القادمين من دارفور على أعقابهم ، وطلب منه أن يشترى كل من معهم من العبيد البالغين الصالحين للعمل فى الجيش ، بالثمن أو بالجوارى ، وأن يسمح لهم وكل ما معهم من سلع تجارية بالنزول الى مصر ، لأن هذا العمل كما يقول محمد على (يوافق مصلحتنا) (٢) .

هذا ولم يقتصر العمل على كل ما سبق ذكره ، بل عقد محمد على ، اتفاقا مع سلطان دارفور ، بشأن جلب السود ، وعمل على تدعيم العلاقات معه ، حتى يتمكن من الحصول على أكبر عدد من الرقيق ، فكانت رسل السلطان تقابل فى مصر بالحفاوة والتكريم والترحاب (٣) .

وهكذا تشير الوثائق ، الى أن محمد على استغل كل الوسائل المتاحة أمامه ، بهدف الحصول على أكبر عدد من السود والحاقهم بالجيش الحديث .. فبجانب الغزوات المسلحة التى كان يرسلها حكام السودان لجلب الرقيق .. كان الكشاف ومشايخ البلاد يجمعون العبيد من ناحيتهم ويسلمونه الى رجال الحكومة (٤) .

---

(١) دفتر ١٠ معيه تركى : صورة ترجمة المكاتبة رقم ٢٢١ بتاريخ غرة رجب ١٢٣٧هـ (٢٤ مارس ١٨٢٢م) .

(٢) دفتر ١٠ معيه تركى : ترجمة المكاتبة رقم ٢١٩ بتاريخ ٢٢ رجب ١٢٣٧ هـ (١٤ ابريل ١٨٢٢م) .

(٣) دفتر ٧٢٤ ديوان خديوى تركى : ترجمة ملحق المكاتبة رقم ٢١١ ص ٧٦ بتاريخ ٦ رمضان ١٢٤٢هـ (٣ ابريل ١٨٢٧م) .

(٤) مخطوطة كاتب الشونة : (تحقيق) الشاطر بصيلى عبد الجليل ص ١١٨

ويلاحظ أن حاكم المديرية فى السودان ، كان عندما يرسل الحملة العسكرية للغزو ، يحرص على ألا يرسل كل مالديه من جنود ، خشية أن يحدث مالا يحمد عقباه ربما من حيث قيام تمرد من قبل الأهالى لسبب أو لآخر ، أو ربما أن تهزم الحملة من قبل الزنوج ٠٠ لذلك كان الحاكم يبقى بعض الجنود فى منطقته ، حفاظا على شـــئون الأمن من ناحية ، والاستعداد لارسال جنود الى حملة الغزو ، اذا استدعى الأمر من ناحية أخرى (١) ٠

والواقع أنه رغم التعليمات الصريحة من محمد على لكل الحكام فى السودان بالمحافظة على الرقيق (٢) ٠٠ فان عمليات الغزو ، كانت لا تخلو من اجراءات غير انسانية من قبل الجنود ، فمثلا ذكر (هو لرويد) أنه حين زيارته لحاكم كردفان (مصطفى بك) وكان عائدا من الغزوة التى قام بها فى جبل (نوبا) ومعه حوالى (٢١٧٨) أسيرا من الزنوج ما بين رجال ونســـاء وصبيان ، لم يجد طبيب الحملة من بينهم غير خمسين شخصا يصلحون للجندية ٠٠ وحتى هؤلاء الخمسون ، لم يصل منهم على قيد الحياة الى الخرطوم الا خمســـة وثلاثون فقط ، بسبب مالاقوه من تعذيب فى الطريق ، الأمر الذى جعل (خورشـــيد باشا) حكمدار السودان ، يلفت نظر (مصطفى بك) لهذا الحادث (٣) ٠٠ لأن تعليمات محمد على تقضى بالمحافظة على سلامة العبيد وارسالهم الى مصر بدون تلف أو ضياع (٤) ٠

وقد حاول الباحث أن يعثر على وثيقة تشير الى تلك الحادثة ، فلم يتمكن ، لأن رواية (هولرويد) على هذه الصورة ، ان كانت صحيحة ، تدل على أن نسبة الصالحين للجندية من بين السود هى ٣٥ الى ٢١٧٨ أى بنسبة ٦ر١٪ تقريبا ، وهذا أمر له من الخطورة بمكان ٠٠ لأن هذا يعنى أن حكومة محمد على أسرت كل سكان السودان وقدمتهم للجندية ٠٠ وهذا غير معقول من حيث المنطق ٠٠ وبالتالى فان رواية (هولرويد) هذه، تعكس وجهة نظر معينة ، وهى تشويه الحقيقة ٠

---

(١) دفتر ٧٨ معيه تركى : ترجمة الامر رقم ٣٤٧ بتاريخ ١٢ ربيع ثان ١٢٥٢ هـ (٢٧ يوليو ١٨٣٦م) ٠

(٢) سنشير الى ذلك بعد قليل

(٣) من تقرير هولرويد : ترجمه د ٠ محمد فؤاد شكرى وآخرين : مرجع سابق ص ٥٥٠ ـ ٥٥١ ٠

(٤) دفتر ١٠ معيه تركى : ترجمة المكاتبـة رقم ٣٤٠ بتـاريخ ٣ صفر ١٢٣٧ هـ (٣٠ أكتوبر ١٨٢١م) ٠

أوامر محمد علي بالعناية بالرقيق :

تنتقل بنا الوثائق الرسمية من أوامر محمد علي بخصوص ارسال الرقيق لتجنيدهم فى الجيش الحديث ، الى أوامره المتلاحقة الى المسئولين بالعناية بهم ، فتشير تلك الوثائق الى أن والى مصر ، حرص منذ البداية ، على تهيئة المناخ المناسب ، وتوفير كل مستلزمات الراحة لهؤلاء الجنود ، حتى يحصل على الثمرة المرجوة ، بعد تلك الجهود التى بذلها ، والتكاليف التى تحملتها الخزينة المصرية فى ذلك السبيل ٠

لذلك بعد أن وقع الاختيار على أسوان لتكون مركزا لتجنيد الجيش الجديد ، وذلك لبعدها عن القـــاهرة ومؤثراتها من ناحية ، وقربها من السودان من ناحية أخرى (١) ٠٠ أخذ محمد على يختار بنفسه المسئولين ممن تتوفر فيهم صفات الاخلاص والكفاءة ٠٠ فكان تعيين (محمد بك) مأمور جهات اسنا وأسوان ، مشرفا على هذا المعسكر الجديد ، دليلا على عزم الوالى ، على انجاح تجربة الرقيق فى تكوين الجيش الحديث (٢) ٠

هذا وقد زوده محمد على بكل السلطات اللازمة ، لتنفيذ التجربة ، وأمر جميع الضباط فى أسوان باطاعة أوامره وحذرهم من مخالفته (٣) ٠٠ وطلب من (الأغوات (فى أسوان ، التعاون معه من أجل راحة المجوبين من السودان (٤) ٠

وقد فطن محمد على الى أن انتقال الجنود السودانيين الفجائى من حياتهم البدائية التى كانوا يعيشونها ، الى حياة جديدة غير متعودين عليها ، ربما لا تجد هوى فى نفوسهم ، لذلك رأى أن يجذبهم الى تلك الحياة ، وأن يرغبهم فيها ، فأمر ناظرا مصلحتى أسوان وفرشوط ، باعداد الثكنات اللازمة فى أسوان لايواء هؤلاء الجنود المجلوبين ، وأن تتوفر فى تلك الثكنات الشروط الصحية ، وتتسع المنشآت لايواء أربعة آلاف فرد على الأقل (٥) ٠

---

(١) د ٠ السيد رجب حراز : مرجع سابق ص ٢٢٧ ٠

(٢) دفتر ٩ معيه تركى : ترجمة المكاتبة رقم ١٠٥ ص ٣٦ بتاريخ ٢٧ محرم ١٢٣٧ هـ (٢٤ أكتوبر ١٨٢١م) ٠

(٣) دفتر ٩ معيه تركى : ترجمة المكاتبة رقم ٣٠٧ ص ١٠٠ بتاريخ ٢٧ ذىالحجة ١٢٣٦ (٢٦ سبتمبر ١٨٢١م) ٠

(٤) دفتر ١٠ معيه تركى : ترجمة المكاتبة رقم ٣٢٤ بتاريخ ٢٧ رجب ١٢٣٧ هـ ٤ فبراير ١٨٢٢م) ٠

(٥) دفتر ١٠ معيه تركى : ترجمة المكاتبة رقم ٣٢٤ بتاريخ ٢٧ رجب ١٢٣٧ هـ (١٩ ابريل ١٨٢٢م) ٠

ولما كان تجهيز الثكنات العسكرية المطلوبة للجنود ، يستغرق بعض الوقت ، الأمر الذى يعرضهم لتقلبات الطقس ، لذلك خشى محمد على من أن يحدث بهم ضرر ، فأمر بارسال خمسمائة خيمة لايوائهم ، حتى يتم بناء الثكنات اللازمة لهم (١) .

وفى الوقت نفســـه طلب من حاكم دنقلة أن يرسل الأخشاب عن طريق النيل الى أسوان وأرسل له خمسة عشر نجارا ومائتا بلطة لقطع الأخشاب المطلوبة (٢) حتى يتمكن (محمد بك) المشرف على المعســـكر والمسئولون معه ، من الاسراع فى تجهيز الثكنات (٣) .

ومن ناحية أخرى ، أمر محمد على بتوفير الأغذية والملابس والأدوية للمجلوبين فأصدر أوامره الى متصرف جرجا بأن يوفر احتياجاتهم من الطعام ، وأن يقدم لهم وجبات ســـاخنة ، أى لحم وأرز ـ مرتين فى الأسبوع ، ويصرف لهم ثمانية قروش كل شهر (٤) .

وشدد محمد على بأن تكون ملابسهم أنيقة ولائقة بحياتهم العسكرية الجديدة .. فحين علم أن قماش البفته المستورد من أسيوط ، لا يصلح لصناعة قمصان الجنود (٥) .. أمر متصرف جرجا بأن يدقق بنفسه فى عروض البفته ، وأن ينعم النظر فيها ، فاذا كانت غير موافقة للمعدل ، وانها لن تتحمل وستبلى فى وقت قريب ، أمره بأن يوقع الجزاء على صانع تلك البفته ، ويؤدبه ويربيه بحسن الاقتضاء (٦) .

وفى الوقت نفسه أمر (محمد على) باعداد ألف قطعة أو أكثر من قماش الزعبوط المنسوج من الخيط المغزول من الصوف الأبيض ، وأن

---

(١) دفتر ٦ معيه تركى : ترجمة المكاتبة رقم ٧٦٨ ص ١١٣ بتاريخ ٢٧ ذى الحجة ١٢٣٦ هـ (٢٦ سبتمبر ١٨٢١ م) .

(٢) دفتر ١٠ معيه تركى : ترجمة المكاتبة رقم ١١ بتاريخ ١٢ محرم ١٢٣٧ هـ (١٠ أكتوبر ١٨٢١م) .

(٣) دفتر ٦ معيه تركى : ترجمة المكاتبة رقم ١٦ ص ٥ بتاريخ ٦ محرم ١٢٣٦ هـ (١٤ أكتوبر ١٨٢٠م) .

(٤) دفتر ١٠ معيه تركى : ترجمة المكاتبة رقم ١٧٤ بتاريخ ٢٥ جماد أول ١٢٣٧هـ (١٩ فبراير ١٨٢٢م) .

(٥) دفتر ١٠ معيه تركى : ترجمة المكاتبة رقم ١٢٣ بتاريخ ١٤ جماد أول ١٢٣٧هـ (٨ فبراير ١٨٢٢م) .

(٦) دفتر ١٠ معيه تركى : ترجمة المكاتبة رقم ١٢٤ بتاريخ جماد أول ١٢٣٧ هـ (٨ فبراير ١٨٢٢م) .

ترسل على الفور الى المشرف على المعسكر لتحاك منها قمصان الجنود (١) بالشكل الذى يتلاءم مع قوامهم وأبدانهم (٢) ٠٠ وأن يعين صانع أحديه وعدد من المساعدين لصناعتها وتوفيرها لهؤلاء المجلوبين بشـــكل يريح أقدامهم (٣) ٠

ومن الناحية الصحية ، فقد اهتم محمد على بهؤلاء الجنود اهتماما كبيرا ، فقبل أن يلحقوا بمعسكرات التدريب ، كان يجرى عليهم الكشف الطبى بدقة ، وكان محمد على لا يتسامح مع أى طبيب يتقاعس فى أداء عمله على أكمل وجه ٠٠ وظل يصدر الأوامر من حين لآخر للمســئولين ولحكام السودان بأن يعتنوا بصحة الجنود المجلوبين ٠٠ ويحثهم على طلب الأدوية اللازمة لهم ، وكان يعاقب كل من يتســبب فى اصابة الجنود بالأمراض ، بسبب الاهمال فى طلب الأدوية (٤) ٠٠ لذلك كان الأطباء والممرضون فى حالة تعبئة حين وصول الرقيق ، فيقومون بتطعيمهم ضد الجدرى ومعالجتهم من كافة الأمراض الأخرى (٥) ٠

هذا ولم تقتصر الوثائق على ما سبق ذكره ، بل تشير كذلك الى اهتمام محمد على بالرقيق ، اهتماما يدحض بالدليل المادى المطاعن التى وجهت اليه حول هذا الموضوع ، فتتوالى الرسائل منه الى حكام السودان، والى المسئولين فى مصر ، ببذل كافة الجهود لتوفير كل المستلزمات الخاصة براحة العبيد ، والمحافظة عليهم ، منذ بداية انتقالهم من مواطنهم ، لأنهم صاروا ــ فى نظره ــ خاضعين لحكمه ، ومن ثم فهو مسئول عنهم (٦) ٠

لذلك حين علم أن بعض الرقيق يتعرضون للهلاك ، بســبب طول الرحلة بين جهات السودان ومصر ، فى ذلك الوقت ، وما يعانونه من الظمأ ولفحات الشمس فى الطرق الصحراوية ٠٠ صدرت الأوامر فورا من القاهرة الى (محو بك) حاكم بربر وشندى ، بحفر الأبار فى صحراء

---

(١) دفتر ١٠ معيه تركى : ترجمة المكاتبــة رقم ٢٦٨ بتــاريخ ٨ رمضان ٢٣٧ هـ ٢٩ مايو ١٨٢٢م) ٠

(٢) دفتر ٦ معيه تركى : ترجمة المكاتبة رقم ٥٦٢ بتــاريخ ٢٧ شــوال ١٢٣٦ هـ ٢٠ نوفمبر ١٨٢٣ م) ٠

(٣) دفتر ٦ معيه تركى : ترجمة المكاتبــة رقم ٥٦٢ بتــاريخ ٧ شــوال ١٢٣٦ هـ (٢٦ يوليو ١٨٢١م) ٠

(٤) دفتر ٤٧ معيه تركى : ترجمة المكاتبة رقم ٥٧١ بتاريخ ٢٦ جماد ثان ١٢٤٩هـ (٢٠ نوفمبر ١٨٣٣م) ٠

(٥) دفتر ٩ معيه تركى : ترجمة المكاتبة رقم ٣٦٠ ص ١٢٤ بتاريخ ٦ جماد أول ١٢٣٧هـ (٢٩ يناير ١٨٢٢م) ٠

(٦) د ٠ جلال يحيى : مرجع سابق ص ٤٠ ٠

العتمور .. لتوفير ميــاه الشرب للرقيق المجلوبين من أعالي النيــل الأبيض (١) .

وقد نفذ (محو بك) تعليمات الوالي ، ودبر كل الوسائل الممكنة التي تكفل وصول أفراد الرقيق الى مصر سالمين ، وحتى لا يصيبهم اى ضرر من شأنه أن يعرض حياتهم للخطر (٢) .

هذا وقد أرســـل محمد على الى ابنه ابراهيم ، ليلفت نظر حكام الأقاليم بالسودان ، الى ضرورة الحفاظ على أرواح الزنوج ، واتخاذ كل الاجراءات لراحتهم ، (**اقتراح**) وقد اقترح (ابراهيم) صناعة نوع من النقورات (أى قوارب) لينقل عليها أفراد الرقيق ، من بربر الى وادى حلفا ، فأصدر محمد على الأمر لحاكم دنقلة ، بتعيين مأمور للاشراف على صناعة تلك النقورات (٣) . والبدء فورا في صناعتها (٤) .

وقد تعهد حاكم بربر من جهته ، بتنفيذ أوامر الوالي ، وصـــناعة النقورات المطلوبة ، اذا توفرت لديه الخامات اللازمة من أخشاب ومسامير وغيرها بالاضافة الى الآلات المطلوبة (٥) ..

وبدأ محمد على يعمل على توفير تلك الخامات ، فطلب من محافظ ابريم تدبير العمل والصناع المهرة اللازمين لصناعة النقورات (٦) ، وأن يقوم ناظر مصلحتى اسنا وأسوان ، بارسالهم فورا الى دنقلة ، مع صرف مرتبات شهرية لهم ، قدرها عشرون قرشا للصانع وعشرة قروش للعامل، لترغيبهم وتشجيعهم على القيـــام بهذا العمل ، وانجازه في أقل وقت ممكن (٧) .

---

(١) دفتر ١٠ معيه تركى : ترجمة الأمر رقم ٢٣٢ بتـاريخ ٢ شــعبان ١٢٣٧ هـ (٢٤ ابريل ١٨٢٢ م) .

(٢) دفتر ١٠ معيه تركى : ترجمة الأمر رقم ١٢ بتـــاريخ ٢٧ محـرم ١٢٣٧ هـ (٢٤ أكتوبر ١٨٢١ م)

(٣) دفتر ٩ معيه تركى : ترجمة المكاتبـة رقم ١٠٦ بتـاريخ ٨ محـرم ١٢٣٧ هـ (١٥ أكتوبر ١٨٢١ م) .

(٤) دفتر ٩ معيه تركى : ترجمة المكاتبة رقم ٨٨ ص ٣٢ بتاريخ ٢٦ محرم ١٢٣٧ هـ (٢٣ أكتوبر ١٨٢١ م) .

(٥) دفتر ٩ معيه تركى : ترجمة المكاتبة رقم ٢٦٥ بتاريخ ١٢ ربيع أول ١٢٣٧ هـ (٧ ديسمبر ١٨٢١ م) .

(٦) دفتر ٩ معيه تركى : ترجمة الأمر رقم ٩٤ ص ٣٤ بتاريخ ٢٧ محرم ١٢٣٧ هـ (٢٤ أكتوبر ١٨٢١ م) .

(٧) دفتر ١٠ معيه تركى : ترجمة الأمر رقم ١٦٤ بتاريخ ٦ جماد ثان ١٢٣٧ هـ (٢٨ فبراير ١٨٢٢ م) .

الخامات والآلات اللازمة لهذه الصناعة الى دنقلة ، محمولة على ظهور الجمال التى جمعت من الصعيد عن طريق متصرف جرجا (١) ٠

وبعد أن أتم حاكم دنقلة صناعة أربعين نقورة ، طلب محمد على منه أن يبدأ فى صناعة أربعين نقورة أخرى ، وأن يبذل الجهد فى صناعة غيرها ، على أن تستكمل فى أواخر شهر رمضان ١٢٣٧ هـ لأن البيك الدفتردار ، يرغب فى انزال الزنوج الذين يؤتى بهم من بلاد الشــلك القاطنين سواحل النيل الأبيض الى حلفاية بواسطة تلك النقورات (٢) ٠

هذا وقد تشدد حاكم مصر ، مع حاكم دنقلة ، فيقول له ٠٠ « انه لما كان وصول العبيد سالمين الى أسوان ، يتوقف على انشاء النقورات التى تصنع باشرافكم واستخدامها فى هذا الغرض ، فقد أكدنا عليكم غير مرة ، ووصيناكم وشددنا عليكم شحنها بواسطة مندوبكم ، وقد تبينتم من حقيقة رغبتنا من كل الوجوه ، ومع ذلك فان الظروف أوجبت تأكيد هذا الأمر الأهم واستعجاله ، فاجتهدوا فى اتمام صنع النقورات المطلوبة فى أقرب وقت ممكن واستعملوها فى جلب العبيد » (٣) ٠

وقد وزعت النقورات المجهزة على الشلالات الموجودة فى أقاليم بربر ورباطات وشندى لنقل الرقيق من جهات السودان الى وادى حلفا (٤) ٠٠

ومن وادى حلفا الى أسوان ، حيث مركز التدريب ــ كان الرقيق يجد كل مســـتلزماته مدبرة ومتوفرة ، فكان (عمر أغا) المشرف على شئون الرقيق بأسوان يعمل بكل همة لتوفير كافة احتياجات الزنوج من أغذية وأدوية وغيرها ٠٠ حتى لا يشعر أى فرد منهم بالغربة عن موطنه ولا يحس بالضيق والضجر ، ليصلوا الى مقر حيـــــاتهم الجديدة فى اطمئنان (٥) ٠ ومن ثم يقبلون على حياتهم العسكرية بقلوب مفتوحة ، تحقيقا لرغبات والى مصر ٠

---

(١) دفتر ٩ معيه تركى : ترجمة المكاتبة رقم ٢٦٥ بتاريخ ١٢ ربيع ثان ١٢٣٧ هـ (٦ يناير ١٨٢٢م) ٠

(٢) دفتر ١٠ معيه تركى : ترجمة صورة المكاتبة رقم ٢٢١ بتاريخ ٢٢ رجب ١٢٣٧ هـ (١٤ ابريل ١٨٢٢م) ٠

(٣) دفتر ١٠ معيه تركى : ترجمة المكاتبة رقم ٣٤٢ بتاريخ ١٩ ذى العقدة ١٢٣٧هـ (٧ أغسطس ١٨٢٢م) ٠

(٤) دفتر ١٠ معيه تركى : ترجمة الامر رقم ١٤ ص ٧ بتاريخ ٢٧ محرم ١٢٣٧ هـ (٢٤ اكتوبر ١٨٢٢م) ٠

(٥) دفتر ١٦ معيه تركى : ترجمة المكاتبة رقم ٥٧٢ بتاريخ ١٧ ربيع أول ١٢٤٠هـ (٩ نوفمبر ١٨٢٤م) ٠

فالواقع أن محمد على لم يدخر وسعا فى تذليل أى مشكلة للمحافظة والعناية بالرقيق ، فمثلا لما تكررت اعتداءات قبائل البقارة والكبابيش على قوافل العبيد المرسلين من السودان الى مصر ، وتستولى على الرقيق القادم من كردفان ، أمر محمد على بالتصدى لتلك القبائل حتى تقلع عن أساليب النهب وقطع الطرق التى كانت تمارسه قبل الفتح المصرى لتلك البلاد(١)٠ ولما قويت شوكة هذه القبـــائل وكثرت غاراتهم على القوافل الوافدة من كردفان من ناحية ، وتكرار غارات بعض قبائل البشاريين فى جهات بربر على القوافل القادمة من سنار من ناحية أخرى ٠٠ حيث هجموا على ألف وثلاثمائة فرد من الزنوج ، كان الدفتردار قد أرسلهم الى مصر ، وتمكنوا من الاستيلاء عليهم (٢) ، وأصدر والى مصر أوامره بزيادة القوة المسلحة لحراسة العبيد أثناء الرحلة من السودان الى مصر ، **تحت اشراف حاكم** دنقلة ، حتى يردع قطاع الطرق وينشر الأمن فى البلاد ٠

تقييم تجربة تجنيد الرقيق فى الجيش الحديث :

ذكرنا أن محمد على كان يرى أن تحقيق حلمه فى بنـــاء دولة مصر الحديثة ، يتوقف على نجاحه فى تكوين الجيش المدرب على الأســـاليب العسكرية الأوربية وقتذاك ، فقد طلب من ابنه (ابراهيم) اعداد قائمة بتحديد النظام الخاص لتقسيم الجيش الى آلايات وأورط وسرايا (٣) ٠

ومن ناحية أخرى ترك الفلاحين المصريين لفلاحة الأرض والتوسع فى زراعتها ، وسخر كل الامكانيات وذلل العقبات ، فى سبيل جلب الرقيق من السودان لتجنيدهم فى ذلك الجيش ٠

ولكن رغم كل الجهود التى بذلت من جانبه ومن جانب المسئولين فى حكومته ، من أجل انجاح تجربة تجنيد الرقيق ، فانها ــ بصفة عامة ــ باءت بالفشل ، ربما لعدم جلب العدد الكافى من الرقيق اللازم لتكوين الجيش ٠٠ وربما بسبب تغير البيئة والمناخ واصـــابتهم بالأمراض التى لم تفلح معها العقاقير وقتذاك ، الأمر الذى ترتب عليه أن تلقفهم الموت بكثرة ، أزعجت

---

(١) د ٠ محمد فؤاد شكرى : الحكم المصرى فى السودان ص ١١ ٠

(٢) دفتر ١٦ معيه تركى : ترجمة الوثيقة رقم ١٨٥ بتاريخ ١٩ جماد ثان ١٢٣٩هـ (٢٠ فبراير ١٨٢٤م) ٠

(٣) دفتر ١٠ معيه تركى : ترجمة الامر رقم ٢٠٩ بتـــاريخ ١٨ رجب ١٢٣٧ هـ (١٠ آبريل ١٨٢٢ م) ٠

محمد على نفسه ، ومن ثم خاب أمله فى امكان الاعتماد على الرقيق فى تكوين الجيش النظامى (١) ٠

لذلك غير محمد على وجهة نظره ، واتجه الى تجنيد المصريين ، الذين صاروا يؤلفون الجيش النظامى ، ووصل عدده فى سنة ١٨٢٤ الى أربعة وعشرين ألف جندى(٢) ، وصار الجيش من أحسن الجيوش فى الشرق(٣) ٠

وليس معنى ذلك أن الجيش المصرى كان خاليا من الجنود السودانيين، فقد ظل الجيش ، ينتظم فرقا من العبيد ، وكانت هناك بلوكات كاملة مكونة من أبناء السودان ، وفتح أمامهم باب الترقى الى درجة الضباط ٠٠ فقد وصل (آدم بك العريفى) وهو من الجنود الزنوج الى رتبة (أمير لاى) فى عام ١٨٦٧ ٠

فقد ترتب على صلات القربى بين البلدين ، واجب مشترك ، ربط بينهما فى ميادين القتال التى خاضها محمد على وخلفائه من بعده ، وان ظل المصريون يشكلون العنصر الأساسى فى الجيش النظامى ٠

ولا بأس من أن نعطى نماذج من أعمال الرقيق فى الجيش ، حتى نتمكن من تقييم عملهم ، ومن ثم الحكم عليها ٠٠ فنقول ، أنه بعد أن تم تدريب أول ست آلايات من المصريين والرقيق ، على النظام الحديث فى أسوان ، أرسل محمد على أربعة منها ضمن الجيش الذى أرسله بقيادة ابراهيم باشا ـ استجابة لطلب الدولة العثمانية ـ لاخماد ثورة اليونان ، والمحافظة عليها ، كما شارك الجنود السودانيون مع الجنود المصريين فى محاربة الحركة الوهابية ، التى كانت تطل برأسـها من آن لآخر ، ضد الوجود المصرى هناك ، فقد أرسل محمد على فى سنة ١٨٢٣ ، ألألاى الثانى من ألالايات الست التى سبق أن تم تدريبها بقيادة (محمد بك) ليعزز به القوات المصرية فى تلك الجهات (٤) ٠

---

(١) د٠ مكى شبيكة : تاريخ شعوب وادى النيل ص ٣٤٠ ٠

اذا كان الحصول على الرقيق الدافع الرئيسى لفتح السودان ٠٠ فبعد أن فشلت تجربة تجنيدهم فى الجيش ٠٠ كان فى امكان محمد على أن يتخلى عن البلاد. لكن هناك عوامل أخرى ـ كما ذكرنا ـ أهم من الرقيق ، جعلته يستمر فى مد التنظيمات المصرية الحديثة الى السودان ، كما طبقها فى مصر نفسها .

(٢) د٠ السيد ٠جب حراز : مرجع سابق ص ٢٢٨ ٠

(٣) Hill, R. : Op. Cit., pp. 108-113.

(٤) د٠ عبد الرحمن زكى : الجيش المصرى فى عهد محمد على ص ٣٧ ٠

هذا وكان محمد على قد أمر من قبل متصرف جرجا بسرعة ارسال السودانيين الى الحجاز للقيام بالعمل هناك (١) ٠٠ فقد تلاحظ أن الجنود الأتراك لا يستطيعون البقاء طويلا فى تلك البلاد ، نظرا لجوها الحار ، وأن السودانيين فى امكانهم سد الفراغ ، فى الجيش هناك ، نظرا لتشابه الطقس - الى حد ما - بطقس السودان ٠

وعندما اشتعلت الثورات فى الشام ضد حكومة محمد على ، بعد معاهدة (كوتاهية) التى عقدت بينه وبين السلطان العثمانى (٢) ٠٠ تشجع الوهابيون فى الحجاز ، وتشددوا فى معارضة الحكم المصرى فى عام ١٨٣٥ ، فأعد خورشيد باشا حكمدار السودان ، ألايا من الجنود ، هو ألالاى الرابع والعشرين لمعاونة القوات المصرية المنتشرة فى أرجاء الحجاز (٣) ٠

وفى السودان ، رأى محمد على ، أن يخفف من طلبات الحكام الخاصة بتزويدهم بقوات عسكرية مدربة ٠٠ وأن يستفيد من خدمات الرقيق الذى تم تدريبه مع المصريين فى أسوان ٠٠ فأرسل فى ٥ يناير ١٨٢٤ (عثمان بك) على رأس الآلاى الأول الى سنار وكردفان (٤) ، رغم أن محمد على كان فى حاجة الى ذلك ألالاى لارساله الى المورة للمشاركة فى اخماد الثورة هناك ضد الحكم التركى ٠

وبعد أن اشتد الخلاف بين السلطان العثمانى ومحمد على ، وبات من المتوقع قيام الحرب بينهما فى الشام ٠٠ وازاء استقرار الأحوال - الى حد ما - فى السودان ، بفضل ادارة خورشيد الحكيمة ، والحازمة فى الوقت نفسه ، فانه كان على والى مصر أن يكتل قواته فى الشام ، ويسهم الجنود السود فى حفظ الأمن والدفاع عن السودان ٠

لذلك كان محمد على يرسل المكاتبة تلو الأخرى الى حكام السودان ، يحثهم على القيام بمهـــامهم ، وأن يعملوا على تدعيم الحاميات بالجنود

---

(١) دفتر ١٠ معيه تركى : ترجمة المكاتبة رقم ١٤٥ بتاريخ ٢٥ جماد أول ١٢٣٧ هـ (١٧ فبراير ١٨٢٢م) ٠

(٢) تمت المعاهدة فى ٨ ابريل ١٨٣٣ ، وبمقتضاها تم تثبيت محمد على فى حكومة مصر والشام وكريت ، ولكن لم تلبث أن انفجرت الثورة فى الشام فى عام ١٨٣٤ بتحريض من الباب العالى ، رغم جهود الحكومة المصرية فى النهوض بالبلاد ٠

(٣) دفتر ٦٧ معيه تركى : ترجمة الأمر رقم ٢٨٦ بتـــاريخ ٨ شـــعبان ١٢٥١ هـ (٢٩ نوفمبر ١٨٣٥م) ٠

(٤) د٠ عبد الرحمن زكى : مرجع سابق ص ٢٧٠

السود ٠٠ ففى رسالة منه الى ناظر سنار ، ذكر أن الميرآلاى (رستم بك) حاكم كردفان ، أكمل النقص الذى عنده فى أورطة الجهادية من العبيد٠٠ ويقول له ٠٠ كتبت لكم أن تكملوا الأورطة التى هى فى جزيرة سنار بمعرفتكم من العبيد الذين هم فيها (١) ٠٠

وعلى ضوء تلك الأوامر ، استمر خورشيد باشا فى اكمال النقص فى الأورط العسكرية المرابطة فى السودان من الجنود السود ، لاستقرار الأمن والمحافظة على حدود البلاد من الاعتداءات الخارجية خاصة من جانب الأحباش ٠

والواقع أنه رغم تلك المشاركة التى قام بها الرقيق فى الجيش الحديث ، فانه لم يحقق الهدف الذى كان يتطلع اليه محمد على فى تكوين هذا الجيش ، وأن يستثمر المصريين فى الزراعة والصناعة ٠٠

لذلك ترتب على جلب الرقيق من السودان ، أن خسرت الخزينة المصرية الكثير من الأموال ، وان كانت تجربة تجنيدهم ، أفادت السودان نفسه ، حيث بدأت تتكون منهم نواة للقوات السودانية المدربة ، صارت تتزايد مع الأيام ، الى الحد الذى شاركت ، مع القوات المصرية ضد الاحتلال الانجليزى كما حدث فى عام ١٩٢٤ على سبيل المثال ٠

خاتمة : يتضح لنا من ذلك العرض السريع النقاط الآتية :

١ ـ كان الرق فى السودان من المسائل المتأصلة فى المجتمعات السودانية ، وكان من أهم الأركان فى بناء اقتصاديات تلك المجتمعات ، ومن ثم كان نظاما متوارثا عن الآباء والأجداد ٠

٢ ـ زادت التجارة فى الرقيق بشكل ملفت للأنظار قبيل الفتح المصرى للسودان ، بسبب الوضع السياسى المتردى الذى وصلت اليه ممالك ودويلات السودان ٠

٣ ـ لم يكن الحصول على الرقيق لتجنيدهم فى الجيش الحديث ، هو العامل الرئيسى لفتح السودان ، فقد كانت هناك عوامل أكثر أهمية من ذلك ٠

٤ ـ كانت نظرية محمد على ، أن جلب الرقيق فى ظل وجود الادارة

---

(١) دفتر ٣٦ معيه تركى : ترجمة المكاتبة رقم ٢١٢ بتاريخ ١٦ ربيع ثان ١٢٤٣ هـ (٦ نوفمبر ١٨٢٧) ٠

المصرية فى السودان ، يكلفه نفقات بسيطة بالقياس اذا قام بشرائه مباشرة من السلاطين والجلابة فى السودان قبل الفتح ٠

٥ ـ رأى محمد على أنه من أسس بناء الدولة الحديثة ، أن يستفيد من أبناء وادى النيل ، وذلك بأن يجند السـود فى الجيش ، نظرا لبسالتهم فى القتال وصبرهم واطاعتهم للرؤساء ، وأن يفلح المصريون الأرض ويتوسعون فى زراعتهـا نظرا لخبرتهم الطويلة فى ذلك الميدان ، وبمعنى آخر ، القاء مهمة الأعمـال الحربية على عاتق السودانيين ، والقاء مهمة الأعمـال فى المشروعات المدنية على عاتق المصريين ٠

٦ ـ تجنيد الرقيق السودانى فى الجيش الحديث ، ليست فكرة جديدة ، فقد سبق لحكام مصريين أن جندوا السود فى جيوشهم ٠

٧ ـ ترتب على قيام الثورة فى اليونان ـ ضد الحكم التركى ـ أن ازدادت طلبات محمد على من المسئولين فى السودان لجلب الأعداد الكثيرة من الرقيق لتجنيدهم فى الجيش ٠

٨ ـ أثبتت الوثائق الأصلية ، اهتمام محمد على بالرقيق ، من حيث توفير كل وسائل الراحة والمعيشـة لهم وفتح أبواب الترقى أمامهم فى الجيش ٠

٩ ـ رغم فشل تجربة تجنيد الرقيق ، والخسارة التى تحملتها الخزينة المصرية نتيجة النفقات عليهم ، فان التجربة أفادت السودان ذاته ، وذلك بأن تكونت نواة من القوات السودانية المحلية المدربة ٠

١٠ ـ ان الوعى الذى انتشر بين الرقيق السودانى فى العصر الحديث ، مرده أولا وأخيرا الى اختلاطهم بالقوات المصرية ٠٠

مصادر البحث

أولا : وثائق أصلية ٠

اعتمدت في هذا البحث على الوثائق الأصـــلية ، المحفوظة بالدفاتر والمحافظ الآتى أرقامها ٠٠ وهى مودعة بدار الوثائق القومية بالقلعة :

- دفاتر معية تركى : أرقام : ٦ ، ٧ ، ٩ ، ١٠ ، ١٤ ، ١٦ ، ٢٠ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٤٧ ، ٦٦ ٠
- دفاتر صادر المعية تركى : أرقام : ٧١ ، ٧٨
- دفاتر عابدين : أرقام : ٢٢١ ، ٢٢٣
- دفاتر صادر ديوان المعاونة : دفتر رقم ٣٠٦
- دفاتر صادر المعية السنية : دفتر رقم ٤١٣
- دفاتر ديوان خديوى تركى : أرقام : ٧٣٤ ، ٧٤٤ ، **٧٥٢**
- محافظ بحر برا : أرقام ٨ ، ١٩

ثانيا : وثائق منشورة :

١ ـ تقرير جون بورنج (John Bowring) الذى جاء الى مصر فى عام ١٨٣٧ من قبل حكومة انجلترا ، فكتب تقريرا عن حالة البلاد فى ذلك الوقت من النواحى الاقتصادية والادارية والعسكرية ، بجانب حديثه المشهور مع محمد على عن الرق والتجارة فيه ، وقد ترجم الدكتور محمد فؤاد شكرى وآخرين هذا التقرير فى كتاب : بناء دولة مصر محمد على « السياسة الداخلية » ٠

٢ ـ تقـريد أرثر هولرويد (Arther Holroyd) السـائح الانجليزى الذى زار السـودان ، ووقف على نظام الرق وتجارة الرقيق هناك ، وقد اعتمد بورنج فى كتابته عن الغزوات على أقوال هولرويد ، والتقرير مترجم ومنشور فى الكتاب السابق ذكره ٠

ثالثا : مراجع عربية ومعربة ٠

١ ـ د ٠ السيد رجب حراز :

المدخل الى تاريخ مصر الحديث القاهرة ١٩٧٠

٢ ـ **الشاطر بصيلي عبد الجليل :**
معالم تاريخ سودان وادى النيل من القرن العاشر الى القرن التاسع عشر — القاهرة ١٩٥٥

٣ ـ **الشاطر بصيلي عبد الجليل : :**
(محقق) مخطوط كاتب الشونة فى تاريخ السلطنة السنارية والادارة المصرية — القاهرة ١٩٦١

٤ ـ **انجلو ساماركو :**
رحلة محمد على الى السودان (تعريب طه فوزى) — القاهرة ١٩٤١

٥ ـ **بوركهارت (جون لويس) :**
رحلات بوركهارت فى بلاد النوبة والسودان (تعريب فؤاد أندراوس) — القاهرة ١٩٥٥

٦ ـ **د ٠ جلال يحيى :**
مصر الافريقية والأطمـــــاع الاستعمارية فى القرن التاسع عشر — القاهرة ١٩٦٧

٧ ـ **جورج يانج :**
تاريخ مصر بين عهد المماليك الى نهاية حكم اسماعيل (تعريب على أحمد شكرى) — القاهرة ١٩٣٧

٨ ـ **د٠ حسن أحمد ابراهيم :**
محمد على فى السودان — الخرطوم بدون تاريخ

٩ ـ **د ٠ حسن أحمد محمود :**
الاسلام والثقافة العربية فى افريقيا ج ١ — القاهرة ١٩٦٣

١٠ ـ **د راشد البراوى :**
مجموعة الوثائق السياسية — القاهرة ١٩٥٢

١١ ـ **د ٠ شوقى الجمل :**
تاريخ سودان وادى النيل جزءان — القاهرة ١٩٦٩

١٢ ـ **عبد الرحمن الرافعي :**
عصر محمد على — القاهرة ١٩٥١

١٣ ـ د • عبد الرحمن زكى :
التاريخ الحربى لعصر محمد على الكبير — القاهرة ١٩٥٠

١٤ ـ د • عبد الرحمن زكى :
أعلام الجيش والبحرية فى مصر فى القرن التاسع عشر ج ١ — القاهرة ١٩٤٧

١٥ ـ د • فردريك بنولا :
مصر والجغرافيا (تعريب أحمد زكى) — القاهرة ١٩٣٧

١٦ ـ د • محمد البهى :
الاسلام والرق — القاهرة ١٩٧٨

١٧ ـ د محمد صبرى :
الامبراطورية السودانية فى القرن التاسع عشر — القاهرة ١٩٤٩

١٨ ـ د • محمد فؤاد شكرى :
الحكم المصرى فى السودان — القاهرة ١٩٤٧

١٩ ـ د • محمد فؤاد شكرى وأخرين :
بناء دولة مصر محمد على — القاهرة ١٩٤٨

٢٠ ـ د • مصطفى محمد مسعد :
الاسلام والنوبة فى العصور الوسطى — القاهرة ١٩٦٠

٢١ ـ د • مكى شبيكه :
السودان فى قرن (١٨١٨ ـ ١٩١٩) — القاهرة ١٩٤٧

٢٢ ـ د • مكى شبيكه :
السودان عبر القرون — القاهرة ١٩٦٦

٢٣ ـ د • مكى شبيكه :
تاريخ شعوب وادىا لنيل (مصر والسودان فى القرن التاسع عشر) — القاهرة ١٩٦٥

٢٤ ـ د • نسيم مقار :
الرحالة فى السودان فى النصف الأول من القرن التاسع عشر (الرحالة جون باتريك) — القاهرة ١٩٦١

٢٥ ـ د • نسيم مقار :
الرحالة يران روليه — القاهرة ١٩٦١

٢٦ ـ د ٠ نسيم مقار :
الرحالة بالم القاهرة ١٩٦١
٢٧ ـ د ٠ نعوم شقير :
تاريخ السودان القديم وجغرافيته (ثلاث أجزاء) بيروت ١٩٦٧

رابعا مراجع أجنبية :

1 — Deherian, Hernri : Le sudan Egyptien sous Mehemet Ali. Vol II. (Paris 1898)

2 — Dodwell, H. The Founder of Modern Egypt, A study of Mohamed Ali. (Cambrige 1931)

3— Douin, G. : Histoire du Regne de Khedine Ismail. Tom III. (Le Caire 1936)

4 — Gray, Richard. : A. History of the Southern Sudan (1839 — 1889) (London1935)

6 — Hill, Richard. : On the Frontiers of Islam. (London 1959)

6 — Hill, Richard. : On the Frontiers of Islam. ((London 1970)

7 — Pallme, I. : Travels in Kardofan. Translated from the German) (London 1861)

8 — Petherick, J. : Egypt, the Sudan and Central Africa. (London 1861)

9 — Salry, M. L' Empire Egyptien sous Mohemed Ali. (Paris 1930)

10 — Shukry, M. F. : The Khedive Ismail and Slavery in the Sudan.
Sudan. (1863 — 1879) (Cairo 1938)

11 — Waddington, G. : Jaurnal of visit to some parts of Ethiopia (London 1822)

إمارة قطر قبيل الحرب العالمية الأولى

دكتور رأفت غنيمي الشيخ

كلية التربية ـ جامعة عين شمس

المجلة التاريخية المصرية ـ المجلة التاريخية المصرية ـ المجلة التاريخية المصرية ـ المجلة التاريخية

مقدمة :

تحتفل قطر كل عام بعيد استقلالها فى الاول من سبتمبر منذ عام ١٩٧١ ، عندما وجــه الشــيخ خليفة بن حمد آل ثانى أمير دولة قطر الحالى — وكان وقتها وليا للعهد ورئيسا لمجلس الوزراء — خطابا الى شعب قطر أعلن فيه استقلال قطر منهيا بذلك علاقاتها التعاهدية مع بريطــانيا وملغيا معاهدة سنة ١٩١٦ م ، ومبشرا بقيام دولة قطر ذات السيادة التامة والسلطان الكامل على كل مقدراتها فى الداخل والخارج على السـواء .

وقبل هذا الاعلان كانت هناك أحداث أوصلت قطر الى الاستقلال، من هذه الاحــداث بدء ظهور قطر كامارة ذات كيان ســياسى يحكمها أمراء من آل ثانى فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، وكانت هناك ارتباطات سياسية واقتصادية بين حكام قطر وكل من حكام نجد آل سعود وحكام البحرين آل خليفة بحكم ارتباط قطر بريا بالأرض السعودية وبحريا بمواجهة جزر البحرين ، الى جانب ترحيب القطرين — وفى مقـدمتهم آل ثانى — بالدعــوة الوهابية ، بالاضــافة الى أن الارتباط بين القبائل العربية فى شبه جزيرة قطر وفى جزر البحرين

ارتباط قربى وتعاون فى مجالات صيد اللؤلؤ والتجارة فيه وفى غيره من السلع .

وفى ظل آل ثانى اتجهت قطر فى سياستها الخارجية ـ خاصة فى عهد الشيخ محمد بن ثانى وابنه الشيخ قاسم ـ الى النزوع الى الاستقلال عن كل من حكومة الرياض وحكومة المنامة فى الوقت الذى أخذ فيه الصراع الانجليزى التركى يشتد حول النفوذ فى مناطق الخليج العربى ، فكان على آل ثانى اذن عمل التوازن المطلوب بين هذه القوى المختلفة سواء كانت الخليجية أو الخارجية من أجل تأكيد استقلال قطر .

ونتيجة لهذا التوازن فقد حصلت قطر بموجب اتفاقية ١٢ سبتمبر ١٨٦٨ م مع بريطانيا على اعتراف باستقلال قطر ، وان وجدت روابط اقتصادية جمعت القطرين العربيين ـ قطر والبحرين ـ بضمان بريطانيا ، وهو استقلال مبكر يتناسب فى شروطه مع ظروف ذلك العصر ، ويضع الأساس لارساء قواعد الأمن والاستقرار ليس فى قطر وحدها بل وفى كل الخليج العربى كله ..

كما أنه نتيجة لهذا التوازن أيضا فقد حصلت قطر بموجب الاتفاقية التركية البريطانية الموقعة بين الطرفين عام ١٩١٣ م على اعتراف القوتين المتنافستين على النفوذ فى منطقة الخليج العربى آنذاك باستقلال قطر تحت حكم آل ثانى ، ورغم أنه وقعت بعد ذلك فى نوفمبر ١٩١٦ م معاهدة الحماية البريطانية على قطر ، فان اعترافات بريطانيا فى معاهدة ١٩١٣ م مع تركيا باستقلال قطر بزعامة آل ثانى كانت نقطة كسبتها قطر وسبقت بها اعلان الاستقلال التام وانهاء معاهدة الحماية مع بريطانيا فى سبتمبر ١٩٧١ م .

وفى الصفحات التالية نسجل كيف أدى التوازن الذى عمل له الشيخ قاسم بن محمد آل ثانى على الاعتراف باستقلال قطر من جانب أكبر قوتين متنافستين على النفوذ فى منطقة الخليج العربى وأعنى كلا من انجلترا وتركيا . وهو الاستقلال الذى دفعنا الى ابراز دوره ودور صانعه فى تاريخ قطر الحديث والمعاصر .

استقلال قطر ومعاهدة ١٨٦٨ م

استفاد الشيخ محمد بن ثانى من الظروف المحيطة بقطر والأحداث الحربية التى تعرضت لها منطقة الخليج ، وأعنى بها الحرب

بين القطريين من ناحية وكل من حكام البحرين وأبو ظبى من ناحية أخرى عام ١٨٦٧ م ، فانضم الى السعوديين الذين ناصروه ، وفاوض المقيم البريطانى فى الخليج الكولونيل بيللى Billey باسم القطريين فى اجتماع عقد بمدينة الوكرة القطرية .

وقد تمت هذه المفاوضات بتدخل من الكولونيل بيللى ، وبموجب الصلاحيات المتعلقة بالأمن البحرى ، ومن ثم انشئت عبر هذا التدخل أول علاقة رسمية على شكل اتفاقية مع الشيخ محمد بن ثانى فى ١٢ سبتمبر ١٨٦٨ م ، كانت بمثابة اعتراف بريطانى بالشيخ محمد ابن ثانى احاكم يمثل قطر (١) . وقد ادخلت هذه المعاهدة قطر عضوا فى معاهدات الهدنة البحرية ، وكانت تقضى فى مجملها على الا يرتكب اهالى قطر أعمالا عدوانية فى البحر ، واعطت لقطر شخصيتها الكاملة، واعترف بعدها بآل ثانى حكاما لقطر حتى اليوم (٢) .

ومما هو جدير بالذكر ان قطر دخلت متأخرة فى معاهدات الهدنة البحرية عن غيرها من امارات الخليج العربى التى دخلت فى هذه المعاهدات منذ عام ١٨٢٠ م ، تلك المعاهدات التى التزمت فيها هذه الامارات العربية الخليجية - بعد معركة بريطانيا مع القواسم فى راس الخيمة عام ١٨٢٠ م - بنبذ الأعمال العدائية ضد بعضها البعض او ضد الغير فى مياه الخليج وقبول وساطة المقيم العام البريطانى فى الخليج فى اى نزاع يتعارض مع هذه المعاهدات . وهذا التأخير فى الانضمام لمعاهدات السلم البحرى قد جعل لقطر وضعا متميزا حتى عن البحرين التى وقعت معاهدة مماثلة مع بريطانيا عام ١٨٦١ م .

وقد تضمنت المعاهدة بين الشيخ محمد بن ثانى والكولونيل بيللى على وثيقتين : الوثيقة الاولى تعهد من الشيخ محمد بعدم خرق المعاهدة البحرية ، وهذا التعهد يتضمن خمسة بنود اهمها عودة الشيخ محمد وبقية القبائل القطرية المتحالفة الى سكن مدينة الدوحة وتعميرها بعد أن تركوها اثناء هجوم حكام البحرين وابو ظبى عليها ، وعدم القيام بأية اعمال حربية فى مياه الخليج ، ورفع امر اى نزاع ينشأ بين قطر واية امارة خليجية اخرى الى المقيم العام البريطانى ، وان تكون علاقة قطر بالبحرين طيبة وان يدفع الشيخ محمد بن ثانى قدرا من المال وقدره ٩,٠٠٠ قران (٣) لحاكم البحرين كل سنة وذلك عن طريق المقيم العام البريطانى ، ووقع هذا التعهد كل من

الشيخ محمد بن ثاني والكولونيل س. لويس بيللى فى ٢٤ جمادى الأولى ١٢٨٥ هـ الموافق ١٢ سبتمبر ١٨٦٨ م (٤) .

وأما الوثيقة الثانية التى أشتملت عليها معاهدة ١٨٦٨ م بين قطر ويمثلها حاكمها الشيخ محمد بن ثاني والمقيم السياسى البريطانى العام فى الخليج العربى الكولونيل بيللى فهى عبارة عن تعهد من زعماء القباءل القطرية بدفع مبلغ ١٥٫٠٠٠ قران سنوى متضامنين وعن طريق حاكم قطر الشيخ محمد بن ثانى الذى يسلمها للمقيم العام البريطانى الذى يسلمها بدوره لحاكم البحرين من آل خليفة .

وقد نصت هذه الوثيقة على مايلى :

نقر نحن شيوخ القبائل الموقعين على هذا والمقيمين مع قبائلنا فى الأرض القطرية ونوافق على أن ندفع للشيخ على بن خليفة حاكم البحرين المبالغ المالية التى كنا ندفعها سنويا من قبل لحكام البحرين، وهذه المبالغ كلها نسلمها للشيخ محمد بن ثانى شيخ الدوحة الذى يقوم بتسليمها للمقيم العام البريطانى الذى يقوم بدوره بتسليمها لوكيل حاكم البحرين فى بوشهر وهذه المبالغ موزعة على النحو التالى حسب نصيب كل قبيلة :

* قبيلة المهاندة تدفع ١٫٧٠٠ قران .
* قبيلتى البوعينين والنعيم تدفع ١٫٥٠٠ قران .
* قبيلة سميسمة (قبيلة البوكوارة التى تسكن فى سميسمة) وتدفع ٥٠٠ قران .
* قبيلة كليب وتدفع ٥٠٠ قران .
* قبيلة السودان وتدفع ١٫٥٠٠ قران .
* محمد بن ثانى (زعيم قبائل المعاضيد والمسلم) ويدفع ويدفع ٢٫٥٠٠ قران .
* قبيلة العمامرة وتدفع ٨٠٠ قران .

الجملة ٩٫٠٠٠ قران

واذ ندرك نحن الشيوخ المذكورين بأن ما يطالبنا به حاكم البحرين هو ١٥٫٠٠٠ قران سنويا وليس ٩٫٠٠٠ قران المتوزعين على القبائل أعلاه ، فاننا نوافق على دفع اى مبلغ اضافى بحيث لايتجاوز مجموع

مائدفعه ۰۰۰ر۱۵ قراز والذى يجب ان يصدر به المقيم السياسى البريطانى قرارا بعد دراسة الموضوع دراسة قانونية .

وقد تحرر هذا التعهد فى ٢٥ جمادى الأول ١٢٨٥ هـ الموافق ١٣ سبتمبر ١٨٦٨ م ، أى فى اليوم التالى لتوقيع الوثيقة الأولى .

ولم يكن هذا التساهل من جانب الشيخ محمد بن ثانى حاكم قطر الا تحقيقا لهدف أكبر وهو نيل الاستقلال ، وابعاد النفوذ التركى عن شبه جزيرة قطر وهو النفوذ الذى ظهر فجأة فى الأحساء والبحرين حتى يبعد وطنه عن الصراع الأكبر بين القوتين المتنافستين انجلترا وتركيا ، وهو يدرك أن قطر لا قبل لها بهذا الصراع ، ومن الخير لها عمل التوازن بين القوتين .

ومن ثم لانعجب أن نجد بريطانيا عن طريق معاهدة ١٨٦٨ م تسهم فى تاسيس مركز مستقل لقطر عن البحرين لأول مرة فى تاريخ شبه جزيرة قطر (٦) .

ولكن انجلترا رغم توقيعها معاهدة ١٨٦٨ م مع قطر فانها لم تنجح فى فرض نفوذها كاملا بالسرعة التى نجحت فيها فى البحرين بسبب امساك الشيخ قاسم بن محمد آل ثانى زمام الأمور فى شبه الجزيرة القطرية من والده الذى بلغ الثمانين من عمره ، وكان الشيخ قاسم فى الرابعة والأربعين من عمره عندما تسلم زعامة قطر عقب توقيع اتفاقية عام ١٨٦٨ م مع البريطانيين ، وقد عمل الشيخ قاسم على الاستفادة من مزايا تلك الاتفاقية والتخلص من مضارها عند أول فرصة سانحة . وقد سنحت الفرصة بحدوث غزو تركى لشبه جزيرة قطر عام ١٨٧١ م بعد توقيع الاتفاقية القطرية البريطانية لعام ١٨٦٨ م بثلاث سنوات حيث اعتبرت تركيا قطر قائمقامية عثمانية واختارت الشيخ قاسم بن محمد آل ثانى قائمقام لحكم قطر .

جاء تعيين الشيخ قاسم فى منصب القائمقام لحكم قطر اعتراف من تركيا بسلطة آل ثانى على قطر ذات الكيان السياسى ، وكان البريطانيون يعترفون بموجب معاهدة ١٨٦٨ م بسلطة آل ثانى على قطر المستقلة،وهنا وجد الشيخ قاسم الفرصة سانحة لكى يحقق استقلال شبه جزيرة قطر على طريقته هو عن طريق الاستفادة من القوتين المتنافستين فى التقرب الى قطر ، وذلك بعمل توازن فى علاقة قطر بين كل من انجلترا وتركيا . وفى ظل هذا التوازن بين الدولتين الكبيرتين فى المنطقة اخذ الشيخ قاسم يعمل على جمع سكان قطر جميعهم على هدف

واحد واشاعة السلام بينهم وتوحيدهم (٧)، أى تحقيق الوحدة الوطنية القطريه ركيزة الاستقلال انكامل المنشود والمحققة لاستمرار المحافظة على الاستقلال .

ولكن يبدو أن كلا من نركيا وبربطانيا لم تقبل بسياسة التوازن بين القوى التى لجأ اليها الشيخ قاسم بن محمد آل ثانى فى تعامله معها ، فرغم أن بريطانيا سلمت منذ البداية بامتداد السيادة العثمانية الى بعض أجزاء من شبه جزيرة قطر الا انها لم تلبث أن فطنت الى أغراض الاتراك التوسعية فى الخليج العربى فصارت تعارض فى امتداد النفوذ العثمانى الى قطر وتعمل فى نفس الوقت على تقوية علاقاتها بشيخ البحرين وساندته فى مواجهة الاخطار التى تحدق به (٨) .

وتعرض استقلال قطر الذى يحاول الشيخ قاسم صيانته لمؤامرات من قبل الانجليز والأتراك فبالنسبة للانجليز فقد انتهزوا تعاون الشيخ قاسم مع العثمانيين بقبول منصب قائمقام قطر وحرضت البحرين لاثارة المشاكل مع قطر بخصوص مسألة السيادة على مدينة الزبارة وعلى قطر بأكملها استنادا الى أن مدينة الزبارة هى الأرض التى خرج منها آل خليفة وفتحوا جزر البحرين فهى موطن أجدادهم ، وقد نسوا أن الشيخ ثانى الذى تنتسب اليه أسرة آل ثانى قد ولد فى الزبارة واشتغل بالتجارة هناك وعن طريقه وصلت تلك الأسرة الى ماوصلت اليه الان ، كما أن قطر توقفت عن دفع الأموال السنوية التى كانت تدفعها للبحرين بموجب معاهدة ١٨٦٨ م والتى كانت تنتقص من استقلال قطر الكامل ، توقف دفع هذه الأمور عقب ظهور الأتراك فى المنطقة أى عام ١٨٧٠ م (٩) .

واستطاع الشيخ قاسم بن محمد آل ثانى المحافظة على استقلال قطر باستمرار تقوية علاقته بالأتراك ، ولكن الأتراك ما لبثوا أن رأوا فى رفضه لبسط سيطرتهم على قطر نزعة استقلالية منه ، ومن ثم عولوا على محاربته ، ولم تفلح الحرب التى وقعت عام ١٨٩٢ م لأن الأتراك هزموا فيها على الارض القطرية، ممادفع السلطان العثمانى عبد الحميد الثانى الى الكتابة الى الشيخ قاسم بن محمد آل ثانى برسالة يطلب منه تسوية الامور بين الطرفين واطلاق سراح الاسرى الاتراك والاعتذار عن أن والى البصرة محمد حافظ باشا دبر هذا الهجوم دون علم السلطان ، ومن ثم عزلة السلطان من ولاية البصرة ارضاء الشيخ قاسم، ولاشك أن هذا تعزيز لا ستقلال قطر .

ولكن اخطر نتائج هذا الصدام بين قطر وتركيا كان اتجاه الشيخ قاسم بن محمد آل ثانى الى التعاون مع الانجليز الذين ابدوا استعدادهم بعد صدام الشيخ قاسم مع الاتراك لعقد معاهدة حماية مع الشيخ قاسم ولكنه رفض هذا العرض ، (١٠) وعندما عقدت بريطانيا معاهدات محلية فى الخليج لتحريم تجارة الاسلحة عام ١٨٨١ مع شاه ايران وعام ١٨٩٨ مع حاكم البحرين ، وعام ١٩٠٠ مع حاكم الكويت وعام ١٩٠٢
١٨٩٨ مع حاكم البحرين ، وعام ١٩٠٠ مع حاكم الكويت وعام ١٩٠٢م
مع شيوخ ساحل عمان — لم يستثن من عقد مثل هذه المعاهدات سوى قطر فى عهد الشيخ قاسم التى استطاعت أن تحتفظ بحريتها فىهذا المجال الى مابعد اندلاع الحرب العالمية الاولى ، وهذا مظهر آخر لاستقلال قطر . (١١)

الصراع التركى الانجليزى
واستقلال قطر

أثارت محاولات الدولة العثمانية أواخر القرن التاسع عشر توطيد سيطرتها فى الخليج العربى معارضة عند الحكومة البريطانية ، ورغم تعدد هذه المحاولات فى عهد السلطان عبد الحميد الثانى (١٨٧٦ — ١٩٠٨ م) الا أنها لم تكن ذات تأثير كبير نظرا لانشغال الدولة بأمور اخرى داخل استانبول وفى اجنحة الدولة أوروبيا وأفريقيا كثورات اليونانيين وتوسع الاستعمار الفرنسى من الجزائر الى تونس عام ١٨٨١ ، والاحتلال البريطانى لمصر عام ١٨٨٢ م .

ولكن الدرلة العثمانية عادت فى السنوات الاولى من القرن العشرين الى الاهتمام بأقطار الخليج العربى، ولعل هذا مرده فى الدرجة الاولى الى الانقلاب الذى حدث عام ١٩٠٨ م ضد السلطان عبد الحميد ، والذى تزعمه ضباط يتشيعون الى الافكار الالمانية وينتمون لما عرف بجماعة الاتحاد والترقى أو تركيا الفتاة ذات الاتجاه التعصبى باعتبار الاتراك جنسا أرقى وأعلى من بقية الاجناس الداخلة تحت السيادة العثمانية ومنها العرب ، وقامت سياسة جماعة الاتحاد والترقى بالنسبة لمنطقة الخليج على تقوية السيطرة العثمانية هناك ، وكانت خططها فى العمل تقوم على اضعاف سلطة حكام امارات الخليج وانضوائهم الى فكرة الجامعة الاسلامية التى أخذوها عن السلطان عبد الحميد ، كما تقوم على استعمال الشدة والعنف ضد القبائل

العربية الخليجية ، وارغام شيوخ المنطقة بالقوة على اعلان ولائهم للدولة العثمانية عن طريق فرض الضرائب عليهم وتجنيدهم فى الجيش العثمانى . (١٢)

وكان حماس الموظفين الاتراك فى تحقيق مخططات الحكومة العثمانية فى منطقة الخليج العربى يعنى من ناحية أخرى تجدد الصراع بين الحكومتين البريطانية والعثمانية ، على أن الخلاف بين الطرفين لم يتخذ صورة اجرائية الا فى شهر يوليو ١٩٠٨ م حينما أرسلت السلطات العثمانية فى البصرة فرقة من الجنود لاحتلال جزيرة « الزخنونية » وهى جزيرة صغيرة تقع فى الجنوب الشرقى من ميناء العقير على مسافة عشر أميال من الساحل الغربى لخليج سلوى .

وعندما وصلت الفرقة العثمانية الى جزيرة «الزخنونية» قامت برفع الراية العثمانية على الجزيرة ، وازاء ذلك سارع المسئولون البريطانيون فى الخليج بالاحتجاج استنادا الى انهم رأوا فى احتلال الأتراك للجزيرة خطوة لفرض السيطرة التركية على ساحل شبه جزيرة قطر الغربى وربما على امارات الساحل العمانى المهادن . وقد اكد السفير البريطانى فى احتجاج حكومته الى الحكومة التركية بأن جزيرة الزخنونية تقع الى الجنوب من ميناء العقير الذى يعتبر الحد الأقصى للسيادة العثمانية فى الاحساء طبقا لاعتراف الحكومة البريطانية بموجب التفاهم بين الطرفين البريطانى والعثمانى على النفوذ فى الخليج، واضاف لوثر Lowther السفير البريطانى فى الآستانة فى احتجاجه الى الحكومة التركية ، بأن محاولة الدولة العثمانية التقدم فيما وراء هذه المناطق يؤدى الى تأزم الموقف بين الدولتين . (١٣)

ولكن الدولة العثمانية لم تعبأ باعتراضات الحكومة البريطانية اذا استمر والى البصرة يفرز الحامية العسكرية التركية بجزيرة الزخنونية باعتبارها أرضا عثمانية ، وانكر على القنصل البريطانى فى البصرة حقه فى ان يناقش معه هذه المشكلة رسميا أو شخصيا . وان كانت الحكومة العثمانية قد ردت على مذكرة الاحتجاج البريطانية بان وجود الجند العثمانيين فى جزيرة الزخنونية أمر ضرورى لحفظ الامن بين قباعل الدواسر الذين يترددون على الجزيرة .

ولكن يبدو ان الحكومة التركية قد استجابت للضغط البريطانى، خاصة أن تركيا كانت تعانى متاعب فى البلقان ومع روسيا ، فرأى رجال الدولة العثمانية ضرورة أن تسوى الدولة مشاكلها مع بريطانيا

أملا فى الحصول على تأيد الحكومة البريطانية ازاء ماتصادفه الدولة العثمانية من مشكلات . وكان حقى باشا وزير الخارجية العثمانية على رأس القائلين بضرورة التسوية السلمية للخلافات القائمة للوصول الى اتفاق مع بريطانيا وغيرها من الدول (١٤) ، ومن ثم يبرق وكيل الوزارة لشئون الهند الى زميله وكيل وزارة الخارجية البريطانية بنص برقية نائب الملك فى الهند التى تضمنت أن الوكيل السياسى البريطانى فى البحرين أبلغه بجلاء القوات العسكرية التركية من جزيرة «الزخنونية» ولم يعد هناك جند عثمانيون فى الجزيرة (١٥) .

وكان جلاء الاتراك عن جزيرة الزخنونية كسب لوجهة النظر البريطانية التى كسبت هذه الجولة فى صراعها على النفوذ مع الدولة العثمانية فى الخليج العربى وهى فى نفس الوقت كسب لقطر اذ فى هذا الجلاء أعتراف ضمنى من جانب الاتراك بوجهة النظر القائلة بأن جزيرة الزخنونية جزء من قطر التى يحمكها آل ثانى .

ولكن هل ينتهى الصراع العثمانى البريطانى فى قطر وفى الخليج عامة ؟ ان الاجابة على هذا السؤال تبدأ من اقتناع الطرفين بضرورة التوصل الى اتفاق يحدد مناطق النفوذ السياسى لكل منهما فى الخليج منعا للتصادم ، ومع هذا الاقتناع كانت هناك تصريحات واجراءات اعتبرت عراقيل فى سبيل التفاهم ، من ذلك ماصرح به اللورد هاردنج الحاكم العام البريطانى للهند من أن وجود العثمانيين فى الخليج أشد خطورة من روسيا أو فرنسا لان لهم — العثمانيين — تأثيرا على بعض الحكام العرب تحت ستار الجامعة الاسلامية ، ولذلك ذهب الى المطالبة باسقاط سيادتهم عن الكويت (١٦) .

وفى نفس الوقت الذى جرت فيه المفاوضات بين بريطانيا والدولة العثمانية والتى استمرت سنتين (١٩١١ — ١٩١٣ م) فقد ظهرت مواقف تفاهم ومواقف تصادم ، اذ بينما تساهل العثمانيون فى التنازل عن قطر وعن البحرين ، وموافقة بريطانيا على بقاء الكويت تحت السيادة العثمانية التى تمتد حتى ميناء العقير بالاحساء ولاتمتد أبعد منه ، وحتى بعد توقيع الاتفاقية فى ٢٩ مايو ١٩١٣ م سعت تركيا الى التمسك باحتلال شبه جزيرة قطر خلال شهر يونيو ١٩١٣ م رغم مانصت عليه الاتفاقية من اقرار تركيا بالتخلى عن قطر .

وتفصيل ذلك أن السفير البريطاني في استانبول بعث الى السير ادوارد جراى وزير الخارجية البريطانية في ١٦ يونيو ١٩١٣ م بأن السلطات المسئولة في البصرة قد أبلغت السلطات العسكرية في بغداد بأنهم أرسلوا الى قطر ٧٥ جنديا على رأسهم ضابط تركى واحد يستقلون سفينة تجارية عربية تسمى «بدر» (١٧) .

وعندما ابلغت الحكومة البريطانية حكومة الهند لمتابعة موضوع نزول القوات التركية التي خرجت من البصرة الى قطر ، ردت حكومة الهند على وزارة الخارجية البريطانية في ٢٤ يونيو ١٩١٣ م ، بأن هذا الاجراء التركى مثير للاضطراب ويدعو الى القلق ومن ثم فلايمكن احتماله . (١٨) لأنه في رأى تلك الحكومة يخالف ماتعهدت به الدولة العثمانية في الاتفاقية التي وقعتها مع بريطانيا قبل أقل من شهر واحد .

ولعل هذه العقبات هي التي ـ الى جانب عوامل أخرى ـ كانت سببا في عدم التصديق على المعاهدة العثمانية البريطانية رغم التوقيع عليها من ممثلي الطرفين ومايهمنا هنا هو مناقشة مانصت عليه تلك الاتفاقية من بنود قررت استقلال قطر باعتراف كل من تركيا وانجلترا اعترافا رسميا .

وقد شهد شهرى أبريل ومايو ١٩١٣ م مواقف حاسمة في المفاوضات العثمانية البريطانية حتى تم التوقيع على الاتفاقية بين الطرفين في آخر شهر مايو لأن المفاوضات تناولت عديدا من موضوعات الخلاف بين البلدين منها مسألة الرسوم الجمركية ، وخط حديد بغداد ، ومناطق النفوذ في الخليج العربي ، ومسألة شط العرب (١٩) .

وفي هذا المقام بعثت حكومة الهند الى وزارة الخارجية البريطانية في ١٧ أبريل ١٩١٣ م برسالة تعبر عن رأى حكومة الهند بشأن مشروع الاتفاق الجارى اعداده بين الحكومتين البريطانية والتركية وخاصة فيما يتعلق بتمسك العثمانيين بجزيرة الزخنونية . اذ ترى حكومة الهند أنه على الرغم من الخوف من ان اعتراف بريطانيا بالسيادة التركية على جزيرة الزخنونية والساحل ـ ساحل الاحساء ـ الواقع بين « العقير » ونقطة تواجه تلك الجزيرة قد يؤدى الى بعض الخلاف أو الاحتكاك في المستقبل بين البريطانيين والأتراك ، فان حكومة الهند على استعداد للموافقة على مشروع الاتفاق الانجليزى التركى بما

احتواه البند المشار اليه بخصوص جزيرة الزخنونية وفى اطار الشروط التى عرضتها حكومة الهنـد والتى وافقت عليهـا جميعا الحـكومة التركية (٢٠) .

وهذا يعنى تنازل بريطانيا عن شيء تمسكت به من قبل لصالح قطر وهو جزيرة الزخنونية فى سبيل اعتراف تركيا بإنهاء سيادتها على قطر واستقلال قطر عن البحرين .

وقد تضمنت مذكرة الهند الى وزارة الخارجية البريطانية عدة ملاحق كان الملحق الاول عبارة عن برقية من الماركيز كرو Crewe المفاوض البريطانى موجهة الى حكومة الهند البريطانية تفيد انه بالنسبة لقطر فى مجال المفاوضات التركية البريطانية فسوف تبقى مستقلة وذات كيان سياسى ولن تتبع البحرين ، وذلك فى اطار ماعبرت عنه الحكومة التركية من رغبتهـا فى الجلاء الكامل من شـبه جزيرة قطر . ويأمل الأتراك أن توافق بريطانيا على بقاء سيادتهم على ساحل الاحساء بحيث تمتد من الشمال حتى نقطة فى الجنوب تواجه جزيرة الزخنونية الراغبين فى اخضاعها أيضا لسيطرتهم (٢١) .

واحتوى الملحق الثانى على شروط حكومة الهند لاقرار اتفاق مع تركيا على الاسس السابق الاشارة اليها ـ واعنى انسحابها من قطر والاعتراف باستقلالها تحت حكم آل ثانى ، وعدم تبعية قطر للبحرين ، فى مقـابل امتـداد النفوذ التركى حتى جزيرة الزخنونية ونقطة على ساحل الاحساء تواجهها ـ وان حكومة الهند ترى الموافقة على الاتفاقية اذا وافق الاتراك على شروط الهند وهى :ـ

١ ـ بخصوص استقلال قطر ، فيجب ان تتخلى تركيا تماما عن كل ادعاءاتها السابقة بالسيادة على شبه الجزيرة القطرية ، فى الوقت الذى تعترف فيه تركيا بأن بريطانيا الحرية فى أن تدخل مع شـعب قطر فى اتفاقيات تتعلق بمسـألة تجارة الاسـلحة او تأمين السـلم البحرى .

٢ ـ انه بالنسبة لمطالب حاكم البحرين بجزيرة الزخنونية فيمكن تخليه عنها بتقديم تعويض مادى محدود له .

٣ ـ كفالة السماح باسـتمرار اقامة بعض رجال القبـائل من البحرين على جزيرة الزخنونية كالعادة من أجل صيد الاسماك خلال

شهور الشتاء ، وانهم لن يخضعوا لاية مضايقات أو تفرض عليهم أية ضرائب من أى شكل .

٤ ـ بقاء جزيرتى « لبينات السفلية » و « لبينات العالية » فى حوزة حاكم البحرين . (٢٢)

وحدد الملحق الثالث مبلغ التعويض الذى يقترح منحه لحاكم البحرين فى مقابل تنازله عن مطالبته بجزيرة الزخنونية ، اذ أجاب المقيم البريطانى العام فى الخليج بأنه تم اقتراح تعويض لحاكم البحرين مبلغ ١٠٠٠ جنيه ، وانه لكى يكون الاقتراح مقبولا تماما من حاكم البحرين فى نظير رفع يده عن مطلبه بجزيرة الزنونية لصالح الاتراك ، فأن على الاتراك بدورهم تقديم هدية مناسبة من جانبهم الى حاكم البحرين لانهاء كل دعاءاته ، وهذه الهدية لن تتجاوز المبلغ المقترح عاليه كتعويض . (٢٣) وتكون الهدية فى صورة قارب بخارى .

وأخيرا تم الاتفاق على تسوية شاملة للمشكلات التى تعترض سبيل العلاقات التركية البريطانية ، حبث وقع كل من ابراهيم حقى باشا وزير خارجية الدولة العثمانية والسير ادوارد جراى وزير الخارجية البريطانية اتفاقبات هذه التسوية وهى تشمل ما يلى : (٢٤)

١ ـ اعلان عام تمهيدى لمشروع المعاهدة . (٢٥)

٢ ـ مشروع اتفاق يتعلق بخط حديدى فى آسيا الصغرى (٢٦) ويتكون من ١٢ مادة ..

٣ ـ مشروع اتفاق يتعلق بالخليج « الفارسى » وهو يتعلق بكل من الكويت وقطر والبحرين وأمور الخليج (٢٧) وتشكيل لجنة لتعيين الحدود وهذا الاتفاق احتوى على بنود تتعلق باستقلال قطر وهو موضوع بحثنا .

كما احتوى على اربعة ملاحق تتعلق باتفاقات بريطانية كويتية لاعوام ١٨٩٩ م و ١٩٠٠ م ، و ١٩٠٤ م ورسالة السير ادوارد جراى الى توفيق باشا رئيس وزراء تركيا فى ٢٤ اكتوبر ١٩١٣ م .

٤ ـ مشروع اتفاق يتعلق بتشكيل لجنة من أجل تحسين الملاحة فى شط العرب ، وهو يحتوى على ٢١ مادة وله ملحق . (٢٨)

وبالنسبة لقطر فقد نصت المادة رقم (١٠) والمادة رقم (١١) من مشروع

الاتفاق البريطاني العثماني بشأن الخليج على اقرار مستقبل قطر على النحو التالي : ـ

نصت المادة رقم (١٠) على أن تتنـاول الدولة العثمانية تنـازلا نهائيا عن كل ادعاء لها بالسيادة على شبه جزيرة قطر ، على أن يتولى حكم شبه الجزيرة آل ثاني حكما وراثيا وتعهدت الحكومة البريطانية بمنع حاكم البحرين من محاولة ضم قطر الى سلطته .

كما نصت المادة رقم (١١) من الاتفاق المذكور على السماح لاهل البحرين بالنزول الى جزيرة الزخنونية من أجـل صيد اللؤلؤ ، علما بأن تلك الجزيرة صارت جزءا من الاحساء التركى .

وعلى الرغم من أن بريطانيا لم تلزم نفسها فى هذا الاتفاق بالاعتراف مسبقا باستقلال قطر استقلالا تاما بعد انتهاء السيادة العثمانية ، وانها أعطت لنفسها الحرية فى عقد معاهدات مع حكام قطر من آل ثانى بشأن تجارة الاسلحة أو السلم البحرى فى الخليج ، فان النص على انتهاء السيادة العثمانية على قطر اعلان باستقلال شبه الجزيرة القطرية ولم يكن الامر يستدعى تنازلا مماثلا من بريطانيا لانه لم تكن لها أية ادعاءات بالسيادة على شبه الجزيرة القطرية ، هذا على الرغم من ان هذا النص على انتهاء السيادة العثمانية على قطر جاء نتيجة مفاوضات بريطانية عثمانية ولم يأت نتيجة مفاوضـات قطرية عثمانية ، وهـذا فرضته طبيعة الصراع فى الخليج الذى كان صراعا بريطانيا عثمانيا .

وازاء اتجاه الامير عبد العزيز بن سـعود بأنظـاره الى قطر بعد استيلائه على الاحساء قبل توقيع الاتفاق العثمانى البريطانى بحوالى شهرين ، فقد اتخذت السلطات البريطانية موقفا محذرا بعدم اتخاذ أى موقف يغير من الوضع القـائم ، أو خلق أى اضطراب بين الامارات العربية التى يدخل حكامها فى اتفـاقات مع الحكومة البريطانية ، بما فيها امارة قطر المستقلة تحت حكم المرحوم الشيخ قاسم آل ثانى وأبناؤه من بعده ، والتى تم الاعتراف بها من جانب كل من الحكومتين البريطانية والعثمانية ، وأن الحكومة البريطانية حريصة على اسـتمرار علاقات الصداقة التى لها جذور بعيدة فى الماضى (٢٩) .

توفى الشيخ قاسم بن محمد آل ثانى فى ١٧ يوليو ١٩١٣ م الموافق لعام ١٣٣١ هـ (٣٠) فخلفه فى حكم قطر ابنه الشيخ عبد الله ، وجاء ذلك فى ظل المعاهدة العثمانية البريطانية ، وفى ظل علاقات حسنة بين

آل ثاني وآل سعود خاصة عندما تعهد الامير عبد العزيز بن سعود أمام المندوبين البريطانيين ، والمعتمد البريطاني في الكويت ، والمعتمد البريطاني في البحرين بعدم الاعتداء على قطر (٣١) .

وتحقيقا للاتفاقية البريطانية العثمانية والخاصة بانسحاب تركيا من قطر ، فقد أظهر الامير عبد العزيز آل سعود اهتماما بموضوع جلاء الاتراك عن قطر ومن ثم سعى لمقابلة المسئولين البريطانيين لبحث مستقبل قطر وبقية مناطق الخليج العربي التي سيجلوا عنها العثمانيون ، وقد أبدت حكومة الهند رغبتها الملحة في ضمان جلاء سريع للقوات التركية من قطر ، ولكن طالما انه لم يتم التصديق على الاتفاقية العثمانية البريطانية ، فانه من الصعب ممارسة ضغط على الحكومة التركية لكي تسرع في الجلاء ، وان أبدت الحكومة البريطانية تفاؤلا بأن التصديق على تلك الاتفاقية لن يتأخر طويلا (٣٢) .

واثار المقيم العام السياسي البريطاني في الخليج العربي موضوع اللقاء الذي طلب تدبيره معه الامير عبد العزيز بن سعود برسالة منه في ٢٧ سبتمبر تشير الى أن الامير سيكون على استعداد لمقابلة المقيم العام البريطاني في الاسبوع الثاني من شهر نوفمبر ، وأنه تعهد بعدم مناقشة أية موضوعات أو يتخذ موقفا يتعارض مع سياسة الحكومة البريطانية . وفي هذا المقام فقد ألح المقيم العام على حكومته لكي تمارس ضغطا على الحكومة التركية لكي تجلي قواتها العسكرية عن الارض القطرية وأنه يجب عدم الاعتماد على حسن نية السلطات العثمانية بالبصرة بخصوص جلاء الاتراك عن شبه جزيرة قطر ، وأنه اذا لم تنسحب الحامية العثمانية من قطر قبل الموعد المقترح بين كل من الامير عبد العزيز بن سعود والمقيم العام البريطاني في الخليج فسوف تكون الامور في غاية الحرج والصعوبة سواء للمقيم السياسي البريطاني أو للشيخ عبد الله بن قاسم آل ثاني (٣٣) .

وقامت الحرب العالمية الاولى في صيف ١٩١٤ م وكانت القوات التركية ما تزال موجودة على الأرض القطرية . وكان عدد هذه القوات ٢٧٥ جنديا وضابطا ، ولم يكن بوسع الشيخ عبد الله بن قاسم آل ثاني طرد الحامية التركية دون مساعدة قوية من بريطانيا بدون اراقة الدماء ، وكانت أحوال هذه القوات سيئة ، ومن ثم انتهزت بريطانيا الفرصة وأرسلت قوة عسكرية بحرية بريطانية لاجلاء الحامية التركية عن قطر ، وذلك في ١٩ أغسطس ١٩١٥ م وطلبت بريطانيا من

الشيخ عبد الله ابلاغ الجند الأتراك بتسليم أنفسهم وأسلحتهم ، وقد استطاع الشيخ عبد الله اقناعهم فسلموا ورحلوا الى البحرين على سفينة حربية بريطانية ، وقامت بريطانيا بعد ذلك بمصادرة أسلحتهم وذخائرهم الموجودة فى القلعة المحصنة بالدوحة وأسدل الستار على آخر وجود تركى فى قطر .

« الهوامش »

١ ـ ابراهيم ابو ناب : قطر قصة بناء دولة (ص ٧١) .

٢ ـ د. عبد العزيز المنصور : التطور السياسى لقطر (١٩١٦ ـ ١٩٤٩ م ; (ص ١٢٨) .

٣ ـ يذكر د. احمد ابو حاكمة فى كتابه : تاريخ شرقى الجزيرة العربية نقلا عن تقرير المستر واردن Warden ان «القران» عملة ضربت فى فارس وهى تعادل فى قيمتها الريال الحجازى .

٤ ـ د. عبد العزيز المنصور : التطور السياسى لقطر (١٨٦٨ ـ ١٩١٦ م ; (ص ٢١١) .

٥ ـ F. O. 424, Confidential (10376), Part X. : No. 238, Piece No. 492 : India Office, to Foreign Office, India Office, June 28, 1913. Inclosure 2 in No. 492 : Extract from « Aitchison's Treaties » 4 th edition, Vol. XII, P. 148.

٦ ـ د. جمال زكريا : الخليج العربى (١٨٤٠ ـ ١٩١٤ م) ص ١٦٠ .

٧ ـ ابراهيم ابو ناب : المرجع السابق (ص ٧٢) .

٨ ـ محمود شكرى الالوسى : تاريخ نجد (٣٩) .

٩ ـ د. عبد العزيز المنصور : التطور السياسى لقطر (١٨٦٨ ـ ١٩١٦ م) (ص ٤٩) .

١٠ ـ ابراهيم ابو ناب : المرجع السابق ص ٧٣ .

١١ ـ نفس المرجع (ص ٧٤) .

١٢ ـ د. جمال زكريا : المرجع السابق (ص ٣٢٤) .

١٣ — F. O. 424, Confidential (9482), No. 217 :
Further correspondence respecting the Affairs of Asiatic Turky and Arabia, Piece No. 68 : Sir Gerad Lowther, to Sir Erward Grey Constantinople, November 20, 1908.

١٤ — ساطع الحصرى : البلاد العربية والدولة العثمانية (ص ٢٠١).

١٥ — F. O. 424, No. 221 Futher Correspondence respecting the Affairs of Asiatic Turkey and Arabia.
Piece 97 : India Office to Foreign Office, Doven November 27, 1909 Inclosure in No. 97 : Government of India to Viscount Morley (Telegraphic,). November 26, 1909.

١٦ — د. صلاح العقــاد : التيـــارات السياسية فى الخليج العربى (ص ١٦٥) .

١٧ — F. O. 424, Confidential (10376) No. 238
Ibid. Piece No. 387 : Sir Gerld Lowther to Sir Edward Grey. Constantinople June 16, 1913, (Telegraphic), No. 281.

١٨ — Ibid : India Office to Foreign Office. June 24, 1913, Piece No. 451.

١٩ — د . صلاح العقاد : المرجع السابق (١٩٤ — ١٩٥) .

٢٠ — Ibid : India Office to Foreign Office, No. 52, India Office, April 17, 1913.

٢١ — Ibid : Enclosure I in No. 52 ; The Marquess ofCrewe to Government of India, India Office, April 7, 1913.

٢٢ — Ibid : Inclosure 2 inNo. 52 : Government of India to the Marquess of Crewe, April 14, 1913.

٢٣ — Ibid : Inclosure 3 No. 52 : Government of India to The Marquess of Crewe, April 15, 1913.

٢٤ — FO. O. 424, 238 : Ibid, No. 144 : sir Edward Grey to sir G. Lowther, Foreign Office, May 8 1913,

٢٥ — Ibid, Enclosure I in No. 144 : Draft Declaration.

٢٦ — Ibid, Enclosure 2 in No. 144 : Draft Convention respecting Railways in Asia Minor.

٢٧ — Ibid, Enclosure 3 in No. 144 : Draft. Convention Respecting the Persian Gulf, & C.

٢٨ — Ibid, Enclosure : in No. 144 : Draft Convention respecting the Creation of a Commission for improving Navigation in the Chatt-el-Arab.

٢٩ — F. O. 424, 240 : Ibid : Piece 39, India Office to Foreign Office, India Office, October 15, 1913.

Enclosure 2 in No. 39 : Lieutenant-Colonel Sir P. Cox to Abdul Aziz — bin — Saud. Bushire, September II, 1913.

٣٠ — د. عبد العزيز المنصور : التطور السياسى لقطر (١٨٦٨ — ١٩١٦ م) (ص ٢٦) .

٣١ — نفس المرجع السابق (ص ١٢٠) .

٣٢ — Ibid : Piece No. 76 : India Office to Foreign Office, India Office, October 29, 1913.

٣٣ — Ibid : Inclosure in No. 76 : Government of India to Marquess of Crewe, October 26, 1913.

(المصـــادر)

أولا : الوثائق غير المنشورة :

١ــ F. O. 424, Further Correspondence respecting. the Affairs of Asiatic Turkey and Arabia. Vol No. 217.

٢ــ F. O. 424, Further Correspondence respecting. the Affairs of Asiatic Turkey and Arabia. Vol No. 221.

٣ــ F. O. 424, Further Correspondence respecting the Affairs of Asiatic Turkey and Arabia. Vol No. 238.

٤ــ F. O. 424, Further Correspondence respecting the Affairs of Asiatic Turkey and Arabia. Vol No. 240.

ثانيا : المؤلفـــات :

١ ــ ابراهيم أبو ناب : (قطر قصة بناء ودولة) الدوحة بدون تاريخ

٢ ــ د. جمال زكريا قاسم : الخليج العربى ــ دراسة لتاريخ الامارات العربية (١٨٤٠ – ١٩١٤) القاهرة ١٩٦٦ م .

٣ ــ د. صلاح العقاد : التيارات السياسية فى الخليج العــربى ــ القاهرة (١٩٧٤ م .

٤ ــ د. عبد العزيز المنصور : (التطور السياسى لقطر) (١٨٦٨ ــ ١٩١٦) الكويت (١٩٧٥ م) .

٥ ــ د. عبد العزيز المنصور : (التطور الســـياسى لقطر) (١٩١٦ ــ ١٩٤٩) . الكويت (١٩٧٩ م) .

٦ ــ ساطع الحصرى : البــلاد العربية والدولة العثمــانية (بيروت ١٩٦٠ م) .

٧ ــ محمود شكرى الالوسى : (تاريخ نجد) القاهرة (١٣٤٧ هـ) .



فلسطين فى العلاقات الأمريكية التركية حتى قيام الحرب العالمية الأولى

دكتور محمد عبد الرءوف سليم
كلية البنات – جامعة عين شمس

المجلة التاريخية المصرية – المجلة التاريخية المصرية – المجلة التاريخية المصرية – المجلة التاريخية المصرية

فلسطين فى العلاقات الأمريكية التركية
حتى قيام الحرب العالمية الأولى

من الواضح أن فلسطين كانت لا تمثل اهتماما يعتد به عند القائمين على وضع أسس السياسة الخارجية الأمريكية قبل الحرب العالمية الأولى. ثم تبين للحكومة الأمريكية من بعد ، أن عليها أن تدخل فى مناقشات تتركز حول تدبير وضع فلسطين على القاعدة التى سارت عليها السياسة الخارجية الأمريكية القائمة على عدم التورط فى الصراعات الداخلية الأوربية ، ذات التأثير على مستقبل الشرق الأوسط السياسى أو الاقتصادى ورغم ذلك ، فان الاتصالات الأمريكية مع القسطنطينية اهتمت بصفة رئيسية بمصالح الرعايا الأمريكيين (١) ، ومن بينهم اليهود .

وكانت للدول الأوربية مصالح فى أملاك الدولة العثمانية ، لا سيما فى منطقة الشرق العربى . أما الولايات المتحدة الأمريكية ، فلم يكن لها مصالح ظاهرة يتخوف منها المسئولون الأتراك ، ولذلك شجعت تلك المكانة التى تمتعت بها أمريكا القناصل الأمريكيين فى فلسطين على كتابة التقارير الى حكومتهم ، تضمنت التوصية بمساعدة يهود فلسطين .

وكانت لجنة الخدمات الكهنوتية الأمريكية الأجنبية » قد تأسست فى مطلع القرن التاسع عشر فى الامبراطورية العثمانية . (٢) ثم وصنت

البعثة التبشيرية الانجيلية فى عام ١٨٢١ الى الشرق العربى ، وبدأت تمارس نشاطها • غير ان القائمين على أمر حركة التبسير الامريكيـة فى المنطقة ، وان كانوا قد وضعوا فى اذهانهم مبدأ استغلال يهود فلسطين فى انعاش حركتهم ، الا أنهم لم ينظروا بعين العطف تجاه الفكرة الصهيونية • فمن الطبيعى ألا يسنقيم ذلك العطف مع سعيهم نحو التبشير بالمسيحية بين اليهود •

ورغم أن العديد من المستوطنات اليهودية كانت قد أنشئت خلال القرن التاسع عشر فى فلسطين بأموال يهودية أمريكية ، الا أن عدد الأمريكيين العاملين فيها كان قليلا ، بالدرجة التى لم تصلح لأن تخلق تعلة لتدخل أمريكى مباشر عى شئون الحكم فى فلسطين •

كذلك كانت جهود الأثريين الأمريكيين أمثال الأستاذ ادوارد روبنسون الذى أجرى مسحا لفلسطين فى الفترة الممتدة بين عامى ١٨٣٨ و ١٨٥٢ ، غير ذات مضمون دينى أو سياسى • نفس الشىء كان بالنسبة للأعمال التجارية الأمريكية فى الشرق العربى • ذلك أن السلع الصناعية الأمريكية كانت تصل الى تلك المنطقة العربية من خلال مصدرين أوربيين ، ولم تكن هناك أعمال تجارية مباشرة قبل عام ١٩١١ ، ذلك العام الذى شهد تشكيل « المجلس التجارى الأمريكى فى المقاطعات التركية من أجل الاشراف على عمليات التبادل التجارى بين الولايات المتحدة وتركيا ، وتنظيمها • (٣)

غير أن جهود المبشرين والأثريين والتجار ، خلقت اهتمامات أمريكية بمنطقة الشرق الأدنى • ويسجل التاريخ أن الحكومة الأمريكية بدأت تولى اهتماما بالمنطقة ، بدليل أنها رفضت التنازل عن شىء من امتيازاتهـا فى المنطقة ، تلك الامتيازات التى حصلت عليهـا بموجب اتفاقية ١٨٣٠ التجارية مع الدولة العثمانية ، رغم الضغوط التركية الهادفة الى الغاء هذه الامتيازات • وكان السلطان عبد الحميد يشعر بالمرارة من جراء ذلك الرفض ، اذ رأى فيه عقبة كبيرة فى سبيل محاولاته التقليل من حجم النفوذ الأجنبى فى امبراطوريته • وكان ذلك الرفض بمثابة نافذة أطلت منها الأطماع الصهيونية الأمريكية على فلسطين ، الأمر الذى أوجد مشاكل سياسية بين العثمانيين والأمريكيين ، استمرت طوال العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين (٤) • وقد بدأت تلك المشاكل السياسية منذ أن وافق السلطان العثمانى على رفع التمثيل الدبلوماسى

الأمريكي فى العاصمة التركية الى درجة سفارة ،وعلى انشاء قنصلية أمريكية فى القدس تشمل يافا ، وأخرى فى بيروت يمتد نفوذها الى حيفا والجليل(٥)

وقد بدأ القناصل الأمريكيون فى القدس يحيطون أعدادا كبيرة من يهود المدينة بحمايتهم بموجب نظام الامتيازات ، كما أن الممثلين الأمريكيين دخلوا فى « صراع » مع قوانين التفرقة ضد اليهود ، بدعوى أنها أثرت على أوضاع مئات قليلة من اليهود الأمريكيين ، الذين كانوا يقيمون وقتئذ فى فلسطين (٦) .

ولما نشبت الحرب التركية الروسية فى عام ١٨٧٧ ، أرغم المجتمع اليهودى الأمريكى على التورط فى شئون أبناء دينهم فى فلسطين . وبطبيعة الحال طلب من القناصل الأمريكيين فى مدن الشام تقديم الحماية اللازمة « للاجئين » اليهود ، وايوائهم فى فلسطين . وكان هؤلاء قد عمدوا الى الهجرة من روسيا فرارا من الخدمة العسكرية فيها ، ولجأوا الى فلسطين متمتعين بالجنسية الروسية ، وكانت روسيا وقتئذ تدعى لنفسها حق حماية المسيحيين الأرثوذكس فى الامبراطورية العثمانية . ولما قامت الحرب المذكورة ، رفعت الحماية الروسية عن اليهود المتمتعين بالجنسية الروسية اللاجئين الى فلسطين بصفة رسمية . وبالتالى ، صاروا هدفا لأن يكونوا مواطنين عثمانيين ، تسرى عليهم قوانين الخدمة العسكرية العثمانية . . فدفعهم خوفهم من التجنيد فى صفوف الجيوش العثمانية الى اللجوء الى القنصلية الأمريكية بالقدس ، مطالبين بالحماية .

وكان دى هاس — القنصل الأمريكى العام فى المدينة — على بينة من أن حكومته تتحاشى التدخل فى أمور كهذه ، وبالتالى ترفض مبدأ تجنيس هؤلاء اللاجئين بالجنسية الأمريكية . الا أنه عمد الى اصدار وثائق حماية لمائة يهودى ، بدعوى أنهم أمريكيو المولد ، أو على علاقة بالولايات المتحدة الأمريكية . وعندما وجهت السلطات الأمريكية تعليمات لوزير أمريكا المفوض فى العاصمة العثمانية ، تقضى بحماية يهود رومانيا ، خلال فترة الحرب الروسية التركية ، اتخذ دى هاس من تلك التعليمات ذريعة لاصدار وثائق حماية للراغبين من يهود فلسطين . ولما ترامت الى أسماع الخارجية الأمريكية أنباء عن تصرفات دى هاس ، بادرت الى توجيه تعليمات مشددة الى ممثليها فى استنبول ، تقضى بقصر الحماية الأمريكية على اليهود الأمريكيين دون سواهم ، وأمرت السلطات الأمريكية بعزل دى هاس من منصبه ، وتعيين قنصل عام أمريكى آخر فى القدس هو جون ويلسون .وفضلا عن ذلك ،أذعنت الخارجية الأمريكية للاحتجاجات التركية

وأصدرت في فبراير ١٨٧٨ تعليماتها الى جون ويلسون • بالغاء وثائق الحماية التى وزعت على اليهود الروس اللاجئين الى فلسطين ، بل وحذف أسماء اليهود غير الأمريكيين من سجلات القنصلية الأمريكية فى القدس(٧)

غير أن مسألة الشرق الأدنى ـ وفلسطين بشكل خاص ـ ما لبثت أن أضحت محل نقاش فى انجلترا والولايات المتحدة الأمريكية ، اذ ارتفعت أصوات عديدة تنادى بحماية انجليزية أمريكية لفلسطين ، وازاله الحكم التركى عنها • وكانت هناك أصداء لتلك الدعوة ، تمثلت فى انطلاق شائعات ترددت فى الولايات المتحدة الأمريكية فى أواخر السبعينات من القرن الماضى ، مفادها أن البريطانيين كانوا يفكرون فى « اعادة » اليهود لفلسطين • على أن هذه الشائعات برزت عاملا على ظهور بيانات قوية معارضة من ـجانب الربابنة الاصلاحيين عامة ، والربى اسحق ماير وايز خاصة • وقد تبلور ذلك الموقف السلبى من قبل وايز ورفاقه كرد فعل للتقدم النسبى الذى أحرزته جماعة أحباء صهيون فى الولايات المتحدة الأمريكية • (٨)

وحقيقة الأمر أن السلطات الأمريكية شغلت نفسها خلال العقدين الأخيرين من القرن الماضى بمسألة تتصل بالقانون العثمانى ، الذى حرم على اليهود امتلاك الأراضى فى فلسطين • ولما كانت الحكومة الأمريكية لا تفرق بين الأمريكى المسيحى والأمريكى اليهودى ، فقد وجدت أنه ليس من حق العثمانيين السماع للمسيحى بامتلاك أراضى فى فلسطين ، وتحريم ذلك على اليهودى الأمريكى •

ثم تشدد الموقف الأمريكى بالنسبة لهذه المسألة نتيجة عاملين : يتمثل أولهما فى تعيين أوسكار ستراوس ـ ذلك اليهودى الأمريكى الذى شارك فى تأسيس « اللجنة اليهودية الأمريكية » ـ وزيرا أمريكيا مفوضا فى استنبول ، بينما نشأ العامل الثانى نتيجة اضطهاد اليهود فى روسيا وشرق أوربا بعد مقتل اسكندر الثانى ، وما نجم عن ذلك من ازدياد حجم الهجرة اليهودية الى فلسطين •

وكان طبيعيا أن يتحمس ستراوس لأبناء دينه ، رغم أن القنصل الأمريكى فى القدس ـ سيلا ميريل ـ ضج من مشاكل اليهود التى تفاقمت فى فلسطين نتيجة الازدياد المفاجىء فى أعدادهم • (٩)

وفى نهاية الأمر ، تولى القناصل والدبلوماسيون الأمريكيون صيانة حقوق الرعايا الأمريكيى الجنسية فى مواجهة المحاولات المتتابعة من قبل

النظام الحاكم التركي ، في سبيل ايقاف نشاط المدارس التبشيرية ،ومنع اليهود الأمريكيين من استيطان فلسطين ، أو شراء الأراضي بها ، وان كان الاهتمام الرسمي الأمريكي بهـــذه المسألة الأخيرة ، اعتراه الكثـــير من التردد ٠ (١٠)

وكانت جماعة أحباء صهيون في الولايات المتحدة وراء جهود « لورانس أوليفانت » بعـد زار فلســطين في عام ١٨٧٦ (١١) ، ووقع اختيـاره على منطقة تقع الى الشرق من نهر الاردن ، واقترح تنظيم شركه يهوديه على غرار شركة الهند الشرقية البريطانية ، تتولى شراء الأراضي من الحكومة العثمانية لتأسيس مستعمرة في المنطقة التى وقع اختياره عليها ، يقطنها بشكل خاص هؤلاء اليهود القادمون من تركيا نفسها وغاليسيا ورومانيـــا والصرب ٠ وبناء على اقتراح أوليفانت ،يصبح من حق المستعمرين أن يتمتعوا بالرعوية العثمانية ، ولكن تظللهم حماية الشركة المقترح اقامتها ، في ظل ميثاق يمكنهم من أن يحققوا قدرا من الحكم الذاتي ٠ (١٢)

غير أن السلطان العثماني رفض مشروع أوليفانت ، فرأس وفدا من يهود رومانيا لعرض المشروع على جنرال والاس ــ السفـــير الامريكى فى استنبول ــ وكان بروتستانتيا درس التوراة ، وقد أذنت وزارة الخارجية الأمريكية لوالاس بالتوسط لدى الباب العالى بالنسبة لمشروع أوليفانت غير أن السلطات العثمانية كررت رفضها فى عام ١٨٨١ ، وصرف النظـر نهائيا عن المشروع ، لتنشب خلافات جديدة بين الولايات المتحدة الأمريكية وتركيا ، وكانت تدور أيضا حول توطين اليهود فى فلسطين ٠ كان ذلك بسبب نشاط آدم روزنبرج ــ الوكيل المفوض من قبل جماعة أحبـــاء صهيون فى الولايات المتحدة ، لامداد فلسطين بالأموال الأمريكية ٠ وقد ركز روزنبرج جهوده فى محاولات شــــراء الأراضى فى فلسطين ، وحبذ ارسال وفد يضمه الى فلسطين لتحقيق هذا الغرض ٠ ورغم معارضــــة زملائه بسبب ارتفاع أسعار الأراضى فى فلسطين ، والصعوبات التى تعترض النشاط الصهيونى بها ، الا أن روزنبرج وصل فلسطين فى أكتوبر عـام ١٨٩١ ٠ وقد وجد روزنبرج أن السلطات العثمـــانية فرضت قيودا على التوطن اليهودى فى فلسطين منذ عام ١٨٨٨ تحرم على جماعات اليهـــود الأجانب شراء الأراضى فى فلسطين ٠ غير أن أحد الربابنة اليهـــود فى فلسطين (١٣) ، أرسل معلومات الى روزنبرج تفيد بأن اميل فرانك ٠ ذلك اليهودى الصهيونى الذى كان يقيم فى بيروت ، ويتمتع بالجنســـية التركية ، منح اذناً بتسجيل أراضى بأسماء أفراد يقومون بشرائها ٠

وقد وجد روزنبرج في ذلك فرصة لتوطين اليهود الأمريكيين في فلسطين كأفراد وليس كجماعات · غير أن الأمور سارت على عكس ما كان روزنبرج يرجوه · ذلك الان السفارة التركية في واشنطن بدأت منذ نهاية عام ١٨٩٣ تمنح تأشيرات لليهود الأمريكيين تسمح بدخولهم فلسطين كسائحين بالبلاد ولمدة لا تزيد على تسعة أيام ، بغض النظر عما اذا كانوا كأفراد أو كجماعات · (١٤) ·

وكان وكلاء البارون ادموند دى روتشيلد يحاولون في خلال عام ١٨٩٤ ، الحصول على اذن من السلطات التركيه بنقل وثائق ملكيه الارض لجماعات من « الأمريكيين » في الجولان وليس في فلسطين ، وبدا أن جهودهم سوف تثمر · غير أن أنباء وصلت الى العاصمة التركية في ديسمبر من نفس العام أحدثت تحولا في موقف السلطات التركية · ففي ذلك الشهر عقد الشبان اليهود في مدينتي ميلووكي وونسكونسن الأمريكيتين اجتماعا ناقشوا فيه مشروعات استعمار اليهود لفلسطين ،وقد غطت احدى الصحف اليهودية الصادرة في الولايات المتحدة أخبار ذلك الاجتماع تحت عنوان « اليهود سوف يمتلكون فلسطين » · وقدمت قصاصة من تلك الصحيفة الى القنصل الروسى في نيويورك ، وقد حولها بدوره الى السفير الروسى في القسطنطينية ، فأمر بترجمتها الى الفرنسية والتركية ، وقدمت بعد ذلك للسلطان في وقت كانت المباحثات فيه تجرى بين وكلاء روتشيلد والمسئولين الأتراك حول حيازة الأمريكيين لأراضى في الجولان ، فرفضت طلبات روتشيلد في الحال ، اذ وجد الأتراك فيما نشر عن اجتماع الشبان اليهود دليلا على صحة تخوفهم من استمرار التوطين اليهودى في فلسطين بصفة قانونية · (١٥) وأخيرا لجأ روزنبرج الى الزعيم الصهيونى الأمريكى ايشتاين ، الذى نصح بالاتصال بالمسئولين الأتراك ودفعهم – عن طريق الرشوة – الى التغاضى عن النشاط الاستيطانى اليهودى في فلسطين · ويقول ايشتاين : « لقد ضحك روزنبرج من كلامى ··· اذ كان يعول كثيرا على امكانياته كمحام من جهة ، وكمواطن أمريكى من جهة أخرى ، وأعتقد أن هذه الامكانيات يمكن أن تكون أكثر فائدة من استمالة المسئولين الأتراك عن طريق البقشيش · وبدا أنه كان متأكدا من أن الحكومة الأمريكية سوف ترسل في الحال سفنا حربية أمريكية لمحاربة تركيا من أجل خطط الفاشلة · » وذهبت نصائح ايشتاين سدى ، وتوجه روزنبرج الى الجولان، وبدأ عمله حتى أخرجه الموظفون الأتراك من الأرض ومعه رجاله في يونيو عام ١٨٩٦ ·

بل ان الحكومة التركية أمرت - بسبب نشاط روزنبرج - بترحيل كل اليهود والمستعمرين من الجولان · وقد تدخل روتشيلد فى الامر ، واستخدم نفوذه حتى ألغت السلطات التركية أوامرها ، الا أنه لم ينجح فى دفع الحكومة التركية فى الغاء القيود التى سبق أن فرضتها ، والتى تقضى بتحريم انشاء اى مستعمرات يهودية جديدة فى الجولان · وهنا طلب روزنبرج الى روتشيلد أن يحول وثائق ملكيـــة أراضى المستعمرات التى أنشأها فى الجولان الى ملاك من اليهود الأمريكيين ، وكان يعتقد أن القنصلية الأمريكية فى بيروت سوف تقف الى جانبه · غير أن روتشيلد رفض هذا المطلب متعللا بأن هذا التحويل سوف يثير الحكومة التركية ·ثم لجأ روزنبرج الى القنصل الأمريكى ، غير أن جهوده فى هذا المضمار لم تحقق نجاحا · (١٦)

والحق أن الدبلوماسية الأمريكية لم تقم بدور ايجابى بالنسبة لجهود روزنبرج ، الا أن مسألة مدة اقامة المسافرين اليهود الى فلسطين ،وحيازتهم أراضيها ، ظلت محل خلاف بين الحكومتين التركية والأمريكية ·

ذلك لأن قانون الهجرة الصادر عن الحكومة التركية عام ١٨٨٧ ، نص على عدم السماح لليهود الاجانب بالبقاء فى فلسطين أكثر من شهر ، وعمدت السلطات العثمانية الى طرد اليهود الذين دخلوا بطرق غيرمشروعة وفى تلك الاثناء عين أوسكار ستراوس وزيرا أمريكيا مفوضا فى استنبول فحاول - بدافع من تحمسه لأبناء دينه ، الضغط على سعيد باشا - الصدر الأعظم - حتى يوقف طرد اليهود الذين دخلوا فلسطين بطرق غير مشروعة واستجاب الصدر الأعظم وسمح ببقاء السائحين اليهود فى فلسطين لمدة ثلاثة شهور بدلا من شهر واحد · ثم انتقل ستراوس الى يافا مســـتغلا نفوذه فى اطلاق سراح أربعمائة يهودى دخلوا فلسطين بطرق غير مشروعة وسجنوا فى يافا - بعد اكتشاف أمرهم - توطئة لترحيلهم من فلسطين(١٧)

وكانت مسألة التوطين اليهودى فى فلسطين محل مداولة بين ستراوس وسعيد باشا · وقد برر الصدر الاعظم تحريم حكومته للاستيطان اليهودى المستمر فى فلسطين على أساس أن التعصب الدينى من قبل المسيحيين ربما يؤدى الى نشوب انتفاضات ضد اليهود ، الى جانب ، كان يرد الى حكومته من تقارير مفادها أن اليهود خططوا لتقوية ركيزتهم فى القدس وما حولها بهدف تكوين مملكة يهودية · وبينما رفض ستراوس توجس المســئولين الأتراك خيفة من تزايد الوجود اليهودى فى فلسطين ، فانه أصر على امكان تجنب أخطار التعصب الدينى من قبل المسيحيين ضد اليهود بالاستعـانة

بوحدة بوليسية قوية ، وأكد الوزير الامريكي أن الولايات المتحدة لاتسمح بفـرض أى تفـرقة بين المواطنين الامريكيين ، تقوم على أساس دينى أو عرقى • (١٨) •

على أن الاتفاق بين ستراوس وسعيد باشا على بقاء اليهودى الزائـر فى فلسطين ثلاثة شهور بدلا من شهر واحد ، جاء نتيجة جهود شاركت فيها الحكومة الأمريكية بعد ضغوط صهيونية ، منذ أن وصلت السفير التركى فى الولايات المتحدة الأمريكية تعليمـــــات فى عام ١٨٨٨ بأن يوضح فى جوازات السفر الممنوحة لليهود الأمريكيين أنهم لن يقيموا فى فلسطين اقامة دائمة ، أو يشتركوا فى النشاط التجارى فيها • وطالما كان ذلك يتطلب اعلانا من جانب الرعايا الأمريكيين الحاصلين على تأشيرة بدخول فلسطين أنهم مسيحيون ، الأمر الذى تعافه الروح الديمقراطية تماما ، فقد رفض وزير الخارجية الأمريكية بايارو المسألة فى الحال •

وقد عاد ستراوس الى فلسطين فى ربيع ١٨٨٨ ، ليعيد تأكيد الموقف الأمريكى بالنسبة لهذا الاجراء من جانب الحكومة التركية • وقد طلب عدد من اليهود الوقوف الى جانبهم ، الا أن ستراوس استنكر اللجوء الى الضغط فى ذلك الوقت ، ونصح بالكتابة فى الموضـــوع للحكومة الأمريكية • (١٩)

ولما طلبت الحكومة الامريكية استيضاح الأمر ، رد الجانب التركى بأن هذا الاجراء اتخذ فقط ضد الجماعات التى تحاول الاستعمار وليس ضد الافراد • ثم عمدت السفارة التركية فى الولايات المتحدة الأمريكية الى اصدار تأشيرات دخول فلسطين لليهود والأمريكيين فى حدود تسعة أيام فقط ، بغض النظر عما اذا كانوا ذاهبين أفرادا أو جماعات • يضاف الى ذلك أنه كان على الامريكيين أن يواجهوا صعوبات أخرى ، منها دفع مبالغ معينة للسلطات الجمركية المحلية فى ميناء يافا كضمان لرحيلهـم فى المدن المحددة • ورغم أن المسئولين الاتراك المحليين سمحوا ـ عن طريق الرشوة ـ ببقاء الزائرين ثلاثين يوما بدلا من تسعة أيام ، الا أن رئيس جمعية المؤلفين اليهود الأمريكيين ـ شكا الى الحكومة الأمريكية فى ٢٥ نوفمبر عام ١٨٩٨ ، معترضا على عدم السماح لبعض السائحين الأمريكيين بالرسو الى الشاطىء لأنهم رفضوا تقديم الضمان المطلوب • وأجاب داود هل ـ مساعد وزير الخـارجية فى ٢٣ من الشـــهر التالى (ديسمبر) بالعزم على دراسة الموضوع وتقصى الحقيقة •

وحدثت مشاحنات دبلوماسية دس فيها ستراوس أنفه وحاول إشراك جون هاى – وزير الخارجية وجون ميريل – القنصل الامريكى فى القدس ، لدفع الحكومة الامريكية على اتخاذ موقف ٠

ونظرا لأن ميريل لم يكن يشعر بتعاطف مع اليهود الأمريكيي الجنسية الذين يبقون فى فلسطين بدون اذن ، فقد أرسل الى الخارجية الأمريكية موضحا أنه سيكون عملا غير ودى من جانب الولايات المتحدة الامريكية ، لو صممت على ازالة القيود المفروضة على دخول فلسطين ، لأنها بذلك تقدم المساعدة للصهيونية ٠ غير أن ستراوس عارض بحماسه الاذعان للاجراءات التركية « التعسفية » القاضية بتحديد مدة وجود الزائرين اليهود فى فلسطين بتسعة أيام ، وندد بما يتضمنه ذلك من فرض تفرقة « فظيعة » ضد الامريكيين من اليهود ٠ ورغم ذلك، أذن جون هاى – وزير الخارجية الأمريكية – بأن يتولى الموظفون الامريكيون بأنفسهم الصاق الطابع الخاص بالاقامة تسعة أيام على جوازات سفر اليهود الأمريكيين ، مما قلص النشاط الاستعمارى اليهودى فى فلسطين لفترة طويلة ٠

وقد أبرق على بك فروج – السفير التركى فى العاصمة الأمريكية – إلى الباب العالى مؤكدا أن موقف ستراوس المتشدد جاء نتيجة ضعف وزير الخارجية التركى ٠ ثم نشر على بك فروج بعد ذلك بأيام بيانا (٢٠) حول اقتراح « بيع فلسطين لليهود » جاء فيه :

« يبدو أن هناك فكرة سائدة فى هذا البلد (الولايات المتحدة) تقول بأن العوامل المالية فقط هى التى وضعت أساس الخطة التى تثار بين الدوائر العبرية العليا ، عن اقتراح وضع اليد على فلسطين ٠

« لقد لاحظت أن كل البيانات الصحفية أمعنت فى الحقيقة القائلة بأن العبريين قادرون على رصد ملايين لا نهاية لها ٠٠ وبهذه الملايين يتأكد بيع فلسطين ٠

« ويمكننى أن أؤكد للشعب الأمريكى أن المسألة ليست بهذه الصورة ٠ ذلك أن الباب العالى لا يرغب فى بيع أى جزء من البلاد العربية التابعة له ، ولن يتبدل هذا التصميم مهما كان حجم الملايين من الذهب ٠ ان هذا البيان هو الاجابة الرسمية الواردة من القسطنطينية الى أعضاء البعثة الدبلوماسية

التركية الذين طلب منهم جس نبض حكومتهم فى هذا الشأن ٠

« ويبدو أن هناك فكرة تموج فى الرأى العام الأمريكى مؤداها أن حكومتنا فى حاجة الى مساعدة مالية ٠ ان فى ذلك خطأ محزن ٠ اذ تناقصت ديوننا العامة عاما بعد عام ولم يبق سوى قدر ضئيل ٠ ان دخلنا يتزايد بسرعة ، حتى أوشكنا على احداث تغيير فى نظمنا المالية ، حتى تلتقى مع متطلبات النمو ٠

« ومن هنا فان مسألة حيازة فلسطين ، أصبحت مسألة سياسية ، وليست احداث انتفاخ فى خزائننا ٠ ان الهياج السائد حاليا حول فكرة تأسيس موطن حر للعنصر العبرى ، داخل الحدود القديمة لأرض الميعاد ، الارث التاريخى لابراهيم ، يبدو لى وهما ٠ ولست أدرى ، لماذا يتذمر اليهود الخاضعون للسيادة التركية بشكل أكبر من ضجرهم فى بلاد أخرى ٠

« أعلم أن اليهود يعتقدون أنهم يضطهدون ويتعرضون للضغوط فى بعض الأماكن ، الا أن الحال ليس كذلك فى بلادنا ٠ ذلك أن الشعب اليهودى يعيش سعيدا قانعا فى ظل سيادة السلطان ٠ كما أن عشرات من اليهود يشغلون مناصب هامة ، ولم يتعرض هؤلاء لأية متاعب فى ممارسة أعمالهم ٠

« ولا ترى الحكومة التركية أن من الحكمة أن تبدل هذه الأوضاع ٠ وليس فى مقدور المرء أن يخطىء فيحدث ارتباكا سياسيا أو خللا اقتصاديا ٠ ولا يجب أن يكون هناك اعتقاد بأنى شخصيا أقف موقفا معاديا ، فانى فقط أعلن البيان الرسمى الصادر عن القسطنطينية ٠ ولكن أشعر أنه ليس من العدل فى شىء أن أشجع ، عن طريق الصمت ، آمالا زائفة ، يؤدى تحقيقها الى احداث ارباك ومتاعب ، لأمة لم يحدث أن اضطهدت العنصر العبرى ٠ ولو أن واضعى الخطة التفتوا الى تلك النصيحة ، بأن فى ذلك انقاذا لأبناء دينهم فى أوربا وآسيا من جعلهم عرضة للمتاعب فى المستقبل (٢١) ٠

وربما يشعر قارىء بيان على بك فروج ، أن السفير التركى أفرغ ما فى جعبته عله يقنع القائمين على أن امر النشاط الصهيونى فى الولايات المتحدة الأمريكية ، ومشايعيهم فى وزارة الخارجية الامريكيه ، بموقف بلاده . غير أن ذلك البيان لم يكن أول التصريحات العامة الصادرة عنه حول الأطماع الصهيونية ، ولا آخرها . وقد نشرت الصحف الأمريكية فى أغسطس عام ١٨٩٨ ، تقارير عن لقاء له بمراسل صحفى أمريكى ، حذر فيه على بك يهود العالم ، وبخاصة الأمريكيين منهم ، من أن تسىء الدعاية الصهيونية توجيههم بالنسبة لمسألة «استعادة» وطن لهم فى فلسطين .

وكان على بك فروج على اتصال بكل الأطراف اليهودية الأمريكية المؤيدة للصهيونية والمعارضة لها .

وقد تسلم السفير التركى عديدا من المراسلات وجهها اليه صهيونيون أمريكيون توضح هدف الصهيونية ، كما أن بعض الربيين الاصلاحيين الأمريكيين وجهوا بدورهم مراسلات اليه ، توضح وجهات نظرهم فى الصهيونية . يضاف الى ذلك أن على بك وجه الى أحدهم كتابا ، يطلب اليه تزويده باطار حقيقى للأهداف الصهيونية ، طالما أن بيانات مؤيدى الصهيونية ومعارضيها أصابته بالحيرة .

وقد أقر على فروج بأن مفاهيمه عن الصهيونية صححت ، رغم أنه كان صديقا لليهود ، شأنه فى ذلك شأن والده . وأكد أن آراءه فى الصهيونية لم تعكس بالضرورة وجهة نظر الحكومة التركية . وكان واضحا أن عداء السفير التركى للصهيونية كان أصيلا ، وأن الجهود الصهيونية الأمريكية الرامية الى استمالته ذهبت أدراج الرياح . بل ان على بك عمد الى تقوية عضد اليهودية الأمريكية المعارضة للصهيونية من خلال بياناته واتصالاته ، فى وقت كانت الدعاية الصهيونية فيه على أشدها ، ليس فى الولايات المتحدة الأمريكية فقط ، وانما فى العالم بأسره .

وكان موقفه من محاولات الصهيونية الأمريكية النيل من سيادة بلاده على فلسطين من العنف والقوة لدرجة أدت الى اعفاء ستراوس من منصبه .

وكان السفير التركى لا يشعر بالود تجاه أوسكار ستراوس ، ربما بسبب يهوديته . كما أن برقية تهنئة بعث بها الى السلطان فى تلك

الظروف ، حملت فى أحشائها دسيسة ضد السفير اليهودى الأمريكي فى القسطنطينية • وفى الوقت الذى أنهى فيه ستراوس عمله فى العاصمة العثمانية وتأهب للعودة الى بلاده ، تحدثت الصحف عن أن على فروج ، اتهم ستراوس أثناء زيارته الأخيرة الى القسطنطينية ، بالعمل على افساد واجبه ، فى سبيل الحصول على اذن سلطانى بتوطين اليهود فى فلسطين وسوريا • وكان ذلك كفيلا باثارة عبد الحميد الثانى ضد ستراوس ، فأجبره على مغادرة العاصمة التركية •

وأكثر من هذا ، قيل وقتئذ أن ستراوس أشاع حينذاك سقوط فروج • غير أن هناك من برأ ساحة ستراوس ، اذ أنه لم يكن صهيونيا ، ولم يكن لينحط الى هذا الدرك ، فيسلك مثل هذا السلوك • وهناك من أكد هذا القول استنادا الى أن ستراوس عارض الصهيونية رسميا ، رغم تعاطفه معهـــا • ذلك أنه أحس أن الصهيونية لم يتبعوا الوســـائل الدبلوماسية اللائقة ، فى سبيل تهدئة مخاوف السلطان العثمانى من أن تهدد الصهيونية سلطانه • ومن هنا نصح ستراوس باصدار بيان يوضح أهداف هؤلاء الذين يرغبون فى استعمار أراض فى فلسطين ، ويؤكدون ولاء أغراضهم السلمية للسلطة العثمانية على ذلك البلد العربى • وقد أوصى السفير الأمريكى السابق بأن يوقع عـــدد من القيادات اليهودية الأمريكية على هذا البيان ، وأن ينقـــل الى السلطان العثمانى عن طريق الحكومة الأمريكية ، مشفوعا بالحرص الأمريكى على سيادة السلطان على فلسطين • وقد اعتقد ستراوس أن يقين السلطان من الأهداف السلمية من شأنه أن يقو من آثار التحذيرات التى تضمنتها التقـارير التى رفعت اليه فى هذا الشأن (٢٢) •

والحق أن ستراوس كان يهوديا اندماجيا محافظا ، وقد أسلفنا أنه شارك فى تأسيس اللجنة اليهودية الأمريكية ، وعلى ذلك فمن الخطأ أن يوضع أسمه فى قائمة الصهيونيين الأمريكيين •

ويؤكد فابنشتاين أنه فى الوقت الذى كانت الحركة الصهيونية فيه تتعرض لضغوط قوية تستهدف تقليص نشاطها ، كانت أخبـار الموقف التركى المتشدد من المسألة الصهيونية ، التى روج لها سيمون وولف وعلى فروج وسيروس أدلو وأوسكار ستراوس وغيرهم من العناصر المعادية للصهيونية ، قد لعبت دورا فى كبح جماح الحماس الصهيونى ، وجعلت تفت فى عنصر الصهيونيين الأمريكيين (٢٣) •

وكان ستراوس نموذجا لليهودي العقلاني • اذ كان ينشد مساعدة ابناء دينه، ولكن دون ان يلحق بالغدر ايا من الاطراف المتشابكة مصالحها ، مع حل المشكلة اليهوديه • ونقصد بهم السلطان العثماني من جهة واليهود الارثوذكس والاصلاحيين من جهة أخرى ، واليهود الاندماجيين الذين انتمى اليهم ستراوس من جهة ثالثة • وكان الحـــل الذي يرضي هذه الأطراف ويسهم في حـــل المشكلة اليهودية في نظر ستراوس يتاتي بطريقين : بتحقق أولهما من خلال السعي لأقناع الدول التي يضطهد فيها اليهود ، بوجوب تمتع اليهودي بحقوق المواطنه الكاملة فيها ، وكان يرى أن اليهود يتعرضون للمتاعب في روسيا وشرق أوربا ، وفي الاصرار العثماني على ابعاد النشاط الاستيطاني اليهودي عن فلسطين ، مع السماح بممارسة هذا النشاط في أي من بقاع الشرق العربي عدا فلسطين ، بينما يتحقق الطريق الثاني من خلال ايجاد موطن لليهود المهاجرين من روسيا وشرق أوربا ، وسوف نرى في السطور القادمة كيف حصر ستراوس همه في تحقيق هذين الغرضين •

لقد شارك ستراوس في نشاط اللجنة اليهودية الأمريكية ، وكان له فيها باع طويل • وكانت اللجنة تولي اهتمامها الأكبر برفع الظـــلم عن اليهود في روسيا وشرق أوربا • وكم ســـعت لأن يتمتعوا هناك بحقوق المواطنه الكاملة ، بينما نأت اللجنة اليهودية الأمريكيـــة بنشـــاطها عن فلسطين • بل ان قيادة اللجنة ، بعد أن أعيتها الحيل مـــع الامبراطورية الروسية ، حاولت أن تتلمس تعلة لخلق المشاكل الدبلوماسية مع الحكومة الروسية ، واستشعرت تحقيق بغيتها بحس يهودي مرهف ، في دعوى التفرقة بـــين الرعايا الأمريكيين المسيحيين واليهـــود • واستغلت قيادة اللجنة اليهودية الأمريكية حـــركة الاضطهاد التي ظهرت في روسيا في الثمانينات من القرن الماضي ، فأرسلت « اللجنة القومية لاغاثة المتضررين من المذابح الروسية » مليون وربع مليون دولار لمساعدة الضحايا ، وعقدت اجتماعات في نحو خمسين ولاية أمريكية ، وقدمت عريضة ضد المذابح حملت توقيعات ١٢٫٥٤٤ من بين اليهود وغير اليهود • وبالرغم من جهود الرئيس الأمريكي ثيـودور روزفلت ، ووزير خارجيتـه ـ جون هاي ، رفضت السلطات الروسية العريضة ، وأحجمت حتى عن مناقشتها ، على اعتبـــار أنها تدور حول موضـــــوعي يختص بالأمور الداخليـــة في روسيا (٢٤) •

واستغلت « اللجنة اليهودية الأمريكية » فشل الرئيس الأمريكي

فى علاج الموقف ، وأثارت مسألة عدم السماح للامريكيين اليهود بدخول روسيا مع اقرانهم من الامريكيين المسيحيين بمقتضى الاتفاقيه التجاريه المعقودة بين روسيا والولايات المتحدة الأمريكية عام ١٨٣٢ • ونجحت اللجنه في جعل هذه المسألة مثار اهتمام وزارة الخارجية الامريكية مدة طويلة حتى اذا أقيم حفل غداء في البيت الأبيض فى ١٥ فبراير عام ١٩١١ لممثلي اللجنة اليهودية الأمريكية واتحاد الطوائف العبرية حضره الرئيس تافت أثيرت المسألة من جديد • وظهرت علامات التردد على الرئيس فى مناقشة المسألة ، وذكر الحاضرين بأن الحكومة الأمريكية عجزت عن عمل شيء • غير أن الضغوط اليهودية استمرت حتى وجه الرئيس تافت مذكرة الى الحكومة الروسية مقترحا الغاء اتفاقية عام ١٨٣٢ ، وصادق الكونجرس الأمريكى على مرسوم بالالغاء ، وألغيت الاتفاقية فى يناير عام ١٩١٣ (٢٥) •

وهكذا أحسنت اللجنة اليهودية الأمريكية ــ التى ينتمى أوسكار ستراوس اليها ــ استخدام نفوذها فى الدوائر الرسمية الأمريكية فى الغاء تلك الاتفاقية ، كانتقام على المعاملة الروسية القائمة على التفرقة بين الأمريكيين المسيحيين والأمريكيين اليهود (٢٦) •

والحق أن هرتسل فشل فى كسب جانب السفير ستراوس • ففى السادس من مارس عام ١٩٠٠ ، كتب رئيس المنظمة الصهيونية العالمية الى جوتهيل ــ الرجل البارز فى الاتحاد الصهيونى الأمريكى ، طالبا الاعداد للقاء يجمع بينه وبين السفير الأمريكى ، وكان موجودا بالعاصمة الأمريكية • وقد شارك جوتهيل ستيفن وايز فى نقل رغبة هرتسل الى السفير ، واقترحا أن يتم اللقاء أثناء عودة ستراوس الى العاصمة العثمانية •

ولم يكن لدى ستراوس مانعا من لقاء هرتسل ، ولكنه حسم الموقف مقدما • فرغم أنه « لا يعادى » الصهيونية ، الا أنه « لن يتمكن » من أن يلعب دورا بالنسبة للمسألة الصهيونية ، خوفا من أن يعرض مثل هذا النشاط ، موقفه كسفير أمريكي للخطر • وعندما التقى الرجلان فى أواخر نفس العام ، أكد ستراوس ، الذى حاول هرتسل تجنيد مساعدته للحركة الصهيونية ، أكد أنه كدبلوماسي أمريكي ، لن يكون له رأى فى الصهيونية، حتى لا يعرض مركزه لأي حساسية بسبب يهوديته • وأسر الى هرتسل أنه لم يحدث له أن فاتح السلطان في الأمور الصهيونية ، اذ أنها لم تكن أمورا أمريكية • بل ان السفير الأمريكي اليهودى ، انتقد الاستراتيجية

الصهيونية ، بشدة ، وقدر انه لانجاز أى عمل فى تركيا • فان على هرتسل أن يتوجه الى القسطنطينية بنفسه ، وألا يعول كثيرا على التأكيدات التى صدرت عن المسئولين الاتراك الذين اتصل بهم هرتسل • وهكذا تنصل ستراوس من استغلال مركزه الدبلوماسى فى مساعدة الصهيونيين • ورغم أنه شجع هرتسل على الاتجاه الى العاصمة العثمانية ، الا أنه بدأ من ناحيه أخرى ، يبذر بذور الشك فى نجاح المشروع الصهيونى • فانتقد اتجاه هرتسل نحو الحصول على اعتراف بشركة تحمل براءة قانونية ، اذ وجد فيها شيئا لا قيمة له ، طالما أمكن الغاؤها بنزوة سلطانية ، هذا فضلا عن أن ستراوس عبر عن شكوكه فى تنفيذ البرنامج الصهيونى عمليا بسبب معارضة المسيحيين الكاثوليك والبروتستنت • وبعد أن أثار مسألة الصعوبات المالية التى يعانى منها المستوطنون اليهود فى فلسطين ، أوصى بدراسة مسألة توطين اليهود فى العراق أو قبرص ، حتى ينصرف هرتسل من التفكير فى تكوين دولة يهودية ، وفى نفس الوقت أخفى عليه أنه سلم تريتش خطاب من الحكومة الأمريكية الى المندوب السامى البريطانى فى قبرص ، عله يساعده فى مشروعه الرامى الى انشاء مستوطنات يهودية فى الجزيرة • وقد عمد استراوس الى اخفاء هذا الأمر عن هرتسل ، حتى لا يشك فى أنه يعمل على تفتيت الجهد الصهيونى ، وأحدث تفرقة بين الأطراف الصهيونية • والحق أنه لم يكن لدى ستراوس انطباع بأن هرتسل يمتلك من المقومات ما يجعله أهلا للقيادة ، بل ان ستراوس ذهب الى الاعتقاد فى أن رئيس المنظمة الصهيونية العالمية كان شخصا غير ناضج ، تسيطر على عقله أحلام من صنع الخيال (٢٧) •

وبحماس اليائس ، لجأ هرتسل مرة أخرى فى مارس ١٩٠١ الى جوتهيل طالبا اليه استخدام نفوذه فى حث الحكومة الأمريكية على التدخل لصالح اليهود الأتراك الذين ساءت معاملتهم فى تلك الأثناء • فبادر جوتهيل الى الاتصال بالسيناتور سيمون - نائب ولاية أوريجون - ولكن محاولته فشلت ، رغم أن سيمون سبق له أن عرض مساعدته على جوتهيل قبلئذ • على أن الربى ستيفن وايز نجح فى اعداد لقاء يجمع بين جوتهيل ووزير الخارجية الأمريكية - جون هاى • وقد عرج جوتهيل على ستراوس قبل التقائه بوزير الخارجية ، ملتمسا نصيحته فى التعرف على أقرب طريق للاقتراب من عقل مستر هاى ، الذى استقبله بود ، واقترح أن يعد جوتهيل التماسا مكتوبا لعرضه على الرئيس ماك كنلى • ولا يوجد أثر لهذه الوثيقة ، ولم يشر اليها فى أى مرجع • غير أن جوتهيل التقى بعد ذلك

بالسفير التركى – على بك فروج – الذى احسن استقباله ، واقترح عليه أن يحيطه علما بالخطة الصهيونية مفصلة ٠

وطلب جوتهيل تعليمات هرتسل ، ويبدو أن رئيس المنظمة الصهيونية وافق اذ التقى جوتهيل مرة أخرى بالسفير التركى ، وعرض عايه بيانا عن الصهيونية نقله على بك الى تركيا واقترح أن يزور جوتهيل العاصمة العثمانية ليعرض الأمر بنفسه على المسئولين الأتراك ٠ على أن جوتهيل لم يشعر بالميل للاستجابة لاقتراح على فروج ، وكتب الى هرتسل أن المسئولين الأتراك يتوجسون خيفة من احتمال أن يمثل اليهود فى الامبراطورية العثمانية رأس جسر لنفوذ سياسى أوربى جديد فى الامبراطورية ٠ (٢٨)

وكتب هرتسل فى تلك الأثناء (يونيو ١٩٠١) يخاطب اليهود الأمريكيين فقال : « يمر تاريخ اليهود الآن بلحظة حاسمة ٠ هل تفوتهم الفرصة التى لا نظير لها للقذف بشبح المشكلة اليهودية ، ووضع حد لمأساة اليهودى التائه ؟ هل ينسى اليهود الأمريكيون بصفة خاصة ، فى غمرة سعادتهم فى الأرض العظيمة للحرية ، ثقل العبودية التى يعيش اخوانهم فى ظلها » ؟

غير أن ما يمكن أن يرى فيه الصهيونيون فرصة لا نظير لها ، استقبله اليهود الأمريكيون بنفور واسع النطاق ٠ ويرى هالبرين أن ذلك راجع الى أن العالم الجديد ، كان جديدا على أغلب الجماهير اليهودية القادمة من شرق أوربا ، ومحيرا لهم ، فالصراع من أجل الاستمرار الاقتصادى كان شاقا ٠ وكانت الدعوة الصهيونية قد انحصرت وقتئذ فى قلة ضئيلة من المتعصبين الذين كونوا « خميرة الحركة الصهيونية فى الولايات المتحدة الامريكية ، حافظين شرارة الفكر الصهيونى فى حالة توهج » (٢٩) لذلك لجأ هرتسل الى السلطان عبد الحميد منفردا ، ودون مساعدة أمريكية ٠

على أن عمل ستراوس كسفير أمريكى لم يخل من مسحة صهيونية يوم أن عمد الى محاباة بنى دينه بالشكل السابق الاشارة اليه،فأزال الستر عن تعاطفه مع الفكرة الصهيونية ، وكان نصيبه السقوط ٠ وقد اتضح منذ قليل كيف كان هرتسل يحاول الاستفادة من امكانيات ستراوس كسفير أمريكى لدى الباب العالى ٠

وكان سقوط ستراوس بمثابة هزيمة ثقيلة للجانب الصهيونى ٠فقد كان ستراوس يعمل سفيرا ، وقت أن اتجه هرتسل الى فلسطين على رأس

وفد مكون من خمسة من القيادات الصهيونية الألمانيه ، منتهزا فرصـــه زيارة الامبراطور الالماني ولهلم الثاني للقدس في خريف ١٨٦٨ • أى بعد أن أنهى المؤتمر الصهيوني الثاني أعماله • ومنى الوفد بالفشل الذريع ، اذ بعد التقائه بالامبراطور ، ألقى هذا الأخير ببيان ربط فيه بين الجهـــود اليهودية للنهوض بزراعة فلسطين ، ورفاهية الدولة العثمانية ، وتأكيد احترام سيادتها على فلسطين • (٣٠)

وكان هذا الفشل عاملا دفع هرتسل الى الاتصال بنفر من الزعمـاء العرب ، فوجه كتابا الى يوسف ضياء الدين الخالدى ، وكان كبير النواب العرب في مجلس المبعوثان ، محاولا اغراءه بقبول الدعوة الصهيونية بما تلوح به من منافع مادية • (٣١)

وقد اعترض النواب العرب الأعضاء فى البرلمان العثمانى على طلب اليهود امتلاك مساحات من الأرض فى سهل مرج بن عامر، مؤكدين أن الحركة الصهيونية تخفى وراءها خطرا وشيكا • (٣٢)

ومن سوء طالع الصهيونية أيضا ، أن سقوط ستراوس ، حــدث وقت أن اتصل هرتسل بعبد الحميد الثانى ، وبدأت المباحثات التى انتهت عام ١٩٠٢ بالفشل ، يوم أن اشـــترطت الحكومة العثمانية أن يتجنس المهاجرون اليهود بالجنسية العثمانية ، وأن يقضوا مدة التجنيد الاجبارى فى الجيش العثمانى ، وأن يوزعوا على جميع الولايات العثمانية فى آسيا ، ماعدا فلسطين • وأنى أن تتحقق الفكرة الصهيونية مع تطبيق مثل هذه الشروط ، فأصيب هرتسل باليأس ، واضطر الى الاتجاه نحو المشروعات الاستيطانية الأخرى الخاصة باستعمار قبرص والعريش وسيناء • (٣٣)

الحواشي

1. Oder, Irwin, The United states and the Palestine Mendate, 1920 — 1948. Astudy of the Impact of Interest Groups on Foreign policy. Doctoral Dissertations Publication No. 19, 258. University Micrcfilms. Avn Arbor, Michgan. 1956. pp. 9 — 10.

2. Feinstein, Marnin; The first twenty five years or Zionism in the United States, 1882 -- 1906. Adissertation submitted in partial fulfillment of the requirements for the degree of Doctor of Philosophy in the Faculty of Political Science, Colombia University, 1963. p. 28.

3. Oder; op. cit. p. 10.

4. Feinstein, op. cit. p. 29.

5. Denis, Alfred L. P. ; Adventures in American diplomacy (1896 — 1906). New York, N. D. pp. 464 — 465.

6. Safran ,Nadav; The United States and Israel. Harvan University Press, Cambridge, 1963 p. 36.

٧ ـ مانويل ، فرانك أ : بين أمريكا وفلسطين · تأليف فرانك أ · مانويل ، ترجمة يوسف حنا ، عمان ، ١٩٦٧ · ص ص ٢١ ـ ٢٢ ·

8. Feinstein; op. cit. p. 13.

٩ ـ مانويل : مرجع سبق ذكره · ص ٢٣ ·

10. Oder; op. cit. pp. 15 — 16.

11. Feinstein, op. cit. pp. 23 — 28.

12. Andrews, Fannie Fern; The Holy Land under Mandate. Baston, 1931. Vol. I. p. 20.

١٣ ـالربي زوداك كاهن

14. Feinstein; op. cit. p. 107.

15. Ibid. pp. 108 — 109.

16. Ibid. pp. 108 — 110.

١٧ ـ مانويل : مرجع سبق ذكره · ص ٢٨ ·

18. Feinstein; op. cit. p. 38.

19. Ibid. pp. 37 — 38.

٢٠ ـ نشر فى : The American Hebrew LXV, May 5, 1899. p. 9.

21. Feinstein; op. cit. pp. 176 — 179.

22. Ibid. 179 — 180.

23. Ibid. p. 181.

24. Urofsky, Melvin I. ; American Zionism from Herzl to The Holocaust. Anchor Press, New York, 1975. pp. 54 — 75.

25. Max L. Margolis and Alexander Marx; Ahistory of the Jewish People Philadelphia, Jewish Publication Society of America, 1927. pp. 265—266.

26. Halperin, Samuel ; American Zionism : The Bulding of Political Group. Adissertation presented to the Graduate Board of Washington University in partial fulfillment of the requirments for the degree of Doctor of Philorphy; August, 1956. Xerox University Mecrofilms, Ann Arbor Michgan, U. S. A. p. 129.

27. Feinstein; o. cit. p. 218.

28. Ibid. p. 239.

29. Halperin; op. cit. pp. 35 — 36.

٣٠ ـ محمد عبد الرءوف سليم : تاريخ الحركة الصهيونية الحديثة (١٨٩٧ ـ ١٩١٨) · القسم الأول ، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ، ١٩٧٤ · ص ص ٢٨ ـ ٢٩ ·

٣١ ـ أحمد الشقيرى : محاضرات فى قضية فلسطين · معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ، ١٩٥٤ · ص ص ٢٤ ـ ٢٥ ·

23. Akran Zau'iter; The Palestein Question. Translated by : Mora G. Khuri, Damascus, 1958. p. 35.

٣٣ ـ محمد عبد الرءوف سليم : مرجع سبق ذكره · ص ٢٩ ·

الوطنيون العرب ونشاطهم السياسى والصحفى فى ألمانيا حتى نهاية الحرب العالمية الأولى

دكتور فرنر أنده - دكتور بيتر هاينه

بجامعة هامبورج - بجامعة مونستر

الوطنيون العرب ونشاطهم السياسي والصحفي في المانيا حتى نهاية الحرب العالمية الأولى

في عام ألف وتسعمائة وأربعة وثلاثين ألف المستشرق الفرنسى هنرى بيريس (HenriPéres) فهرسا تناول فيه الرحالة العرب الذين قاموا بزيارات الى أوربا في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، وقد طبع هذا الفهرس في القاهرة بعد الانتهاء من تأليفه ببضع سنوات • واذا ألقينا نظرة على هذا الفهرس فسوف نجد أن عدد العرب الذين كتبوا عن ألمانيا كان ضئيلا ، وخاصة في القرن التاسع عشر • ولهذه الظاهرة أسباب عديدة ، منها أن ألمانيا لم يكن لها كيان سياسى متكامل حتى عام ١٨٧١ ، بل وحتى مملكة بروسيا وهى التي تمثل جزءا كبيرا من الدولة الالمانية بعد اتحادها لم يكن لها آنذاك علاقات تذكر بدول حوض البحر الأبيض المتوسط سواء كان ذلك من الناحية السياسية أو الناحية الاقتصادية وكان ذلك هو السبب في عدم تشجيع الرحالة العرب الى التوجه الى ألمانيا اذا ما قورن ذلك برحلاتهم الى أسبانيا أو فرنسا أو انجلترا • ويلاحظ أن اهتمام الكتاب والسياسيين والصحفيين العرب بشئون ألمانيا قد بدأ يزداد بعد وحدة ألمانيا في عام ١٨٧١ وخاصة في الربع الأخير من القرن التاسع عشر •

ونذكر على سبيل المثال الرحالة التونسى محمد بيرم التونسى (الخامس)

الذى تعرض فى كتابه « صفوة الاعتبار » للكتابة عن برلين ، وكذلك العالم المصرى محمد امين فكرى الذى وصف أيضا مدينة برلين فى كتابه « ارشاد الألباء الى محاسن أوربا » وما زال هذا الكاتبان معروفين حتى الان ·

وعلى العكس من هذين الكاتبين فقد أهمل المؤخون ذكر حسن توفيق المصرى الذى كان يقوم بتدريس اللغة العربية فى معهد الاستشراق بجامعة برلين فى الفترة من ١٨٨٧ حتى ١٨٨٩ · وله كتاب اسمه « رحلة حسن افندى توفيق او الرحلة البرلينيه » وكان فى ثلاثه عشر جزءا صغيرا نشرت تباعا فى مصر فى الفترة من عام ١٣٠٥ حتى عام ١٣٠٧ من الهجرة (يوافق ١٨٨٧ حتى ١٨٨٩ ميلادية) ، الا أن معظم أجزاء هذا الكتاب قد فقدت على ما يبدو ، ولم نعثر منها الا على جزء واحد فى أرشيف عائلة بسمارك (Bismarck) بالقرب من مدينة هامبورج · وقد تناول المؤلف فى هذا الجزء شيئا عن حياة بسمارك وعن تاريخ امارته · وللمؤلف أيضا كتاب آخر بعنوان « رسائل البشرى فى السياحة بألمانيا وسويسرا » وقد طبع فى مطابع بولاق سنة ١٨٩١ وقد بحثنا عن هذا الكتاب ولكننا لم نعثر عليه حتى الآن ·

أما عن رواد حركة استقلال مصر فقد اتخذوا باريس وسويسرا مقرا لهم ومنطلقا لكفاحهم ، وكانت لهم اتصالات بألمانيا فى نهاية القرن التاسع عشر ، وزار الزعيم مصطفى كامل مؤسس الحزب الوطنى ألمانيا لهذا الغرض وفى عام ١٨٩٥ أشار مصطفى كامل وهو فى باريس على الخديوى أن يمده ببعض النقود للتأثير بها على بعض الصحف الألمانية لتقوم ، بالدعاية لمصر لمساعدتها فى نيل استقلالها من الاحتلال البريطانى ، ولكن الخديوى لم يستجب لهذا المطلب ·

وقد بدا للوطنيين المصريين أنهم يستطيعون استغلال سياسة التقارب السياسى بين ألمانيا والدولة العثمانية للتخلص من الانجليز ، لأن تركيا هى الأخرى كانت تود التخلص من الانجليز على أمل أن تعود لها سيادتها على مصر ·

أما فيما يتعلق بالسياسة الألمانية آنذاك فتتضح من تلك الواقعة : عندما قام القيصر غليوم الثانى عام ١٨٩٨ بزيارته للأستانه ودمشق والقدس أظهر تعاطفه مع المسلمين فى كل العالم ، وكان فى أثناء خطاباته ومناقشاته يعمد الى ابراز تلويحات واشارات رمزية أثارت لدى بعض العرب والمسلمين أوهاما توحى بأن ألمانيا تعمل من أجل مصالح المسلمين وشعوبها التى كانت ترزح تحت وطأة الاستعمار الانجليزى والفرنسى

والروسي . نقول هنا أوهاما لأن الواقع الذى لا يحتاج الى أى ايضاح أن الدولة الألمانية فى ذلك الوقت كانت دولة عظمى وكانت هى الاخرى لها مستعمراتها وأهدافها الاستعمارية ، ولكن الذى ساعد على قبول السياسة الألمانية آنذاك أن الدول التي وقعت تحت الاحتلال الالمانى كانت بعيدة عن الدول الاسلامية وكان عدو المسلمين الذين يقطنون تلك البلاد ضئيلا .

ولقد تحفظت دولة ألمانيا فترة طويلة تجاه تقديمها المساعدة للوطنيين المصريين فى كفاحهم لتحرير مصر ، حرصا منها على علاقاتها الطيبه مع بريطانيا التى كانت معرضة للنقد الشديد من قبل فرنسا بسبب احتلالها لمصر .

ومن جانب آخر فكانت دولة ألمانيا حريصة على مصالح خليفتها تركيا فى حقها الشرعى فى السيادة على مصر ، وكانت نرى أن أى تقارب مع الحركة الداعية الى استقلال مصر كان سيؤدى الى اغضاب تركيا . الا أن هذا التحفظ من جانب ألمانيا أخذ بمرور الزمن يتغير رويدا رويدا وخاصة عندما تم التفاهم بين انجلترا وفرنسا عام ١٨٩٩ على عدم المساس بمصالح فرنسا فى المغرب العربى، وبالذات عام ١٩٠٤ عندما عقدت بينهما الاتفاقية المسماة « بالجلف القلبى » (Enteute Cordiale) والتى تقضى باعتراف فرنسا باحتلال انجلترا لمصر . فمن قبل ، كانت ألمانيا تساعد انجلترا ضد فرنسا فى احتلالها لمصر ، أما وقد اتفقت انجلترا مع فرنسا على الاحتلال فكان من الطبيعى أن أصبحت انجلترا فى غنى عن مساعدة ألمانيا لها ، وقد أدى ذلك الى أن تقلب ألمانيا لانجلترا ظهر المجن وتمد يد المساعدة للوطنيين المصريين وان كان هذا التقارب قد ظل يأخذ سمة الحذر حتى لا تثير ألمانيا بذلك غضب تركيا ومطامعها فى مصر .

وقد أدى نشوب الحرب العالمية الأولى أن تقوم السياسة الألمانية بدور ايجابى فى مساندة الحركات التحررية فى كل من مصر والمغرب العربى وفى الهند ، وكانت ألمانيا تهدف من وراء ذلك الى تحقيق ما يلى :

أن الحكومة الألمانية والقادة العسكريين بها اذا استطاعوا تحريض الحركات التحررية فى كل من مصر والمغرب العربى والهند على الثورة فسوف تضطر كل من انجلترا وفرنسا على سحب أجزاء كبيرة من قواتها العسكرية وأساطيلها المرابطة فى أوربا ، وارسالها الى مناطق الاضطرابات لاخماد الثورات بها فيسهل ، بذلك التحالف « ألمانيا والنمسا وتركيا » تحقيق النصر على انجلترا وفرنسا فى أوربا .

وفى الخريف عام ١٩١٤ كتب السياسى والمستشرق الألمانى البارون ماكس فون اوبنهايم (Max von Oppenheim) الذى كان يعمل فى وزارة الخارجية قسم الشئون الشرقية ، كتب تقريرا بعنوان « اثارة المنــاطق الاسلامية ضد أعدائنا » .. ومما جعل فكرة اثارة الشعوب هذه اقرب الى القبول ان تركيا كانت تطالب بان يكون سلطانها خليفة على العالم الاسلامى كله . وقد تطلب هذا الهدف الاستراتيجي جمع معلومات دقيقة عن هــذه الدول الاسلامية وبناء عليها توضع خطة ذكية للدعـــاية التى تؤدى الى التحريض على الثورة ، ورأت الحكومة الالمانية لتحقيق هذا الهدف أن تجلب الى ألمانيا بعض الوطنيين العرب ، وتجلب بالاضافة الى ذلك مكافحين من أجل الحرية من ايران والهند وغيرها .

وعلى أى فان العربى الذى استطاع أن يلفت أنظار الرأى العـــام اليه عند زيارته لألمانيا لم يكن من المغرب ، ولم يكن من مصر بل كان من لبنان ، ذلك العربى هو الأمير شكيب أرسلان الذى ولد عام ١٨٦٩ وتوفى عام ١٩٤٦ :

سافر الأمير شكيب أرسلان فى صيف عام ١٩١٧ الى ألمانيا فى زيارة رسمية ، ثم سافر اليها مرة ثانية عام ١٩١٨ بصفته نائبا فى مجلس الأمة العثمانى مبعوثا من الحكومة التركية . وكان عليه فى الرحلة الاولى أن يدرس الحالة السياسية والاجتماعية فى ألمانيا وذلك بتكليف من وزير الحرب التركى أنور باشا ، أما الرحلة الثانية فكانت تهدف الى تقريب وجهـــات النظر بين الحكومتين التركية والالمانية بشأن سياسة تركيا فى القوقاز . ومما يلفت النظر أن وزير الحرب التركى أنور باشـــا قد اختار لمهمـة الوساطة بين الحكومتين التركية والألمانية رجلا عربى الأصل ، مفضـــلا اياه على أن يكلف أحد الأتراك للقيام بهذه المهمة .

ولقد استقبل شكيب أرسلان فى ألمانيا استقبالا حافلا وعومل معاملة خاصة ، وسبب ذلك أن الحكومة الالمانية قد رأت على ما يبدو فى شكيب أرسلان عنصرا عربيا هاما لمساندة وتقوية السياسة التركية تجاه الدول والشعوب العربية . ولقد كانت ألمانيا تود توطيد علاقتها بخليفتها تركيـا ورأت ما يتمتع به الأمير من صلة وثيقة بالحكومة التركية فكان هذا الاستقبال والحفاوة البالغة ، هذا بالاضافة الى الصداقة المتينة التى كانت تربط شكيب بأنور باشا ، فعومل لذلك أحسن المعاملة حتى ينقل عن ألمانيا صــــورة حسنة لأنور باشا عن لقائه به مرة ثانية .

أما البارون اوبنهايم الذى كان صديقا للأمير شكيب أرسلان مدة عشرين عاماً فقد استغل هو الآخر نفوذه بالتمهيد لاستقبال شكيب أرسلان استقبالا حسنا أينما حل فى ألمانيا ، سواء كان ذلك فى برلين أو فى المدن الأخرى أو فى مناطق الاحتلال الالمانى كبلجيكا وفرنسا . وقد نقلت الصحافة الألمانية أنباء تنقلاته فى عام ١٩١٧ كما نشرت خطبه ومقالاته . ويحدثنا شكيب أرسلان فى مذكراته التى طبعت أخيرا فى بيروت سنة ١٩٦٩ تحت عنوان « سيرة ذاتية » يحدثنا فيها عن انطباعاته وهو فى ألمانيا . ولكن شكيب للأسف لم يشر فى مذكراته الا الى عدد ضئيل جدا من السياسيين الالمان والموظفين والعلماء الذين اجتمع بهم خلال رحلاته ومما تجدر ملاحظته أن بين الأعداد الضئيلة التى كتب عنها شكيب أرسلان فى مذكراته يوجد اسم رئيس بلدية كولونيا آنذاك ، ذلك الرجل الذى عين بعد ثلاثين عاما من لقائه به مستشارا لجمهورية ألمانيا الاتحادية ، ألا وهو الدكتور كونراد أديناور (Konrad Adenauer) .

وكما سبق أن ذكرنا فقد جاء شكيب الى ألمانيا بصفته نائبا فى مجلس الأمة التركى ، ورغم ذلك فيمكننا أن نعد شكيب أرسلان من الوطنيين العرب الذين كانوا يعملون من أجل القضية العربية ، والسبب فى ذلك ما يلى :

أن شكيب قد أصبح فيما بعد من المكافحين البارزين من أجل الوحدة والاستقلال العربى ، وكفاحه من أجل المغرب العربى معروف للجميع ومما تجدر الاشارة اليه أن شكيب فى محادثاته الخاصة والعامةوفى مقالاته التى نشرتها له الصحف الالمانية لم يخف موقفه على أنه وطنى عربى . صحيح أن شكيب قد دعا آنذاك العرب الذين كانوا يعيشون داخل نفوذ الدولة العثمانية وخارجه دعاهم جميعا للدفاع عن هذه الدولة العثمانية ، وصحيح أيضا أنه وجه نقدا شديدا الى أنصار القومية العربية فى الحجاز الا أنه ليس من العدل أن يوصف موقف شكيب هذا على أنه خيانة للقضية العربية . فلشكيب أرسلان الفضل فى لفت أنظار الرأى العام فى ألمانيا لأول مرة على مسألة القومية العربية من جانب ، وعلى الأخطار التى تكمن وراء قيام الشوفنية التركية (أى التغالى فى العنصرية التركية) من جانب آخر ، وقد أتاحت له اقامته فى ألمانيا أن يبرز هذه المسألة بوضوح ، ولم

تكن الفرصة مهيأة له من قبل للأعراب عن وجهة النظر هذه وهو في
اسطنبول • ونستطيع ان نلمس هذا الموقف واضحا من المقال الذى وجد
قبولا كبيرا في المانيا والذى نشر عام ١٩١٧ في مجلة « الشرق الجديد »
(Der Neus Orient) التي كانت تهتم بوجه خاص بتطورات
الموقف في كل من اسيا وشمال افريقيا ، تلك المجلة التي كان يشرف
عليها مكتب خاص تابع لوزارة الخارجيه ، الالمانيه وكان هذا المقال بعنوان
« ماذا تنتظره سوريا من الحرب » • وقد اشار شكيب في هذا المقال الى ان
غالبيه الشعب السورى (واعنى به منطقه الشام التي كانت تضم سوريا
ولبنان وفلسطين والاردن) يتمنون أن تظل هذه المنطقة تحت النفوذ
العثماني ، ولكن ليس تحت الشروط الحالية . بل تحت شروط تكفل
احياء العروبة واللغة العربية • ولقد تبنى وجهه النظر هذه أيضا المتحمسون
جدا لبقاء التحالف العربى مع تركيا ،والفرق بينهم وبين الداعين الى الانفصال
نهائيا عن تركيا أن الأخيرين كانوا يعملون على بذر بذور الكراهية والحقد
ضد الأتراك • وكانت الكلمات التي يلقيها اتباع الشوفانية التورانية
التركية (أى أتباع العقيدة التركية النورانية) في اسطنبول والتي كانت
تشيد بأمجاد جنكيز خان وتيمور لانك كانت تجسم في الدول العربية
صورة الاستعمار البغيض ، وقد مد ذلك لانجلترا وفرنسا الطريق لكسب
الكثير من الأصدقاء في الدول العربية •

وفي المجلة السالفة الذكر أوضح شكيب أرسلان فى فبراير ١٩١٨
أنه رغم تحمسه لبقاء التحالف التركى العربى الا انه مع ذلك ليس عميلا
للأتراك ولا للألمان وليس تابعا لأى جهة ، ويبدو أيضا أن شكيب أرسلان
قد أطلع الساسة الألمان على الاجراءات الطاغية التي يمارسها جمال باشا
الحاكم التركى فى سوريا • وكان ينبغى من وراء ذلك أن يستعمل الألمان
نفوذهم لدى الأتراك لتخفيف وطأة هذه الاجراءات •

أما الوطنيون المصريون والمغاربة الذين أقاموا في ألمانيا فى ذلك
الوقت ، طالت مدة اقامتهم فيها أم قصرت ، فكانوا يساندون وجهة النظر
الألمانية التركية بالتحريض على الثورة فى المحميات والمستعمرات الانجليزية
والفرنسية •

ولقد كانت ألمانيا قبل الحرب العالمية الأولى هدفا لزيارة الوطنيين
العرب •

وعلى سبيل المثال فقد عاش الدكتور لبيب محرم ، رفيق مصطفى
كامل في الكفاح ، في برلين لاجئا سياسيا وتوفى بها فى سبتمبر
سنة ١٩١٣ •

ولكن لا يفوتنا ان نذكر أن معظم الوطنيين المصريين الذين طلبوا اللجوء السياسي قد اتخذوا سويسرا مقاما لهم ومن هنـــاك شنوا ، أثناء الحرب ، حملاتهم في الصحافه من اجل استقلال مصر . وقد فضلوا الاقامة في سويسرا لعاملين هامين : الاول موقف سويسرا المحايد . والعامـــل الثاني هو وجود صحافه سويسرية حرة باللغتين الالمانية والفرنسية ، وكانت هذه الصحافة توزع على نطاق واسع فى كل أنحاء أوربا . بل ووجد بعض هؤلاء الوطنيين مساعدة خاصة من فؤاد سليم الحجازى المصرى الذى كان صديقا لمصطفى كامل قبل وفاته والذى كان يعمل سفيرا لتركيا في برن ، وبهذه المساعدات تمكن المكافح التونسى محمد باش حانبة من سنة ١٩١٦ حتى نهاية الحرب سنة ١٩١٨ وهو فى جنيف من اصدار مجلة المغرب (Revue du Maghreb) باللغة الفرنسية . ومن يود أن يتتبع النشاط الصحفي والسياسى للوطنيين العرب وخاصة المصريين منهم فسوف يلمس ذلك بوضـوح من سيل الرسائل المتبادل بـــين الوطنيين العرب وزملائهم فى كل من سويسرا وألمانيا وكذلك فى الزيارات المتبادلة والتنقلات المستمرة بين البلدين . ولقد ظهر على سبيل المثال فى مجلة الشرق الجديد Der Veue orieut سالفة الذكر والخاضـــعة لاشراف وزارة الخارجية الألمانية عدد هائل من رسائل القراء ومن المقالات لهؤلاء الوطنيين العرب الذين كانوا يعيشون فى سويسرا .

وكثيرا ما كان يصعب معرفة الشخصيات الحقيقية التى كانت تحرر هذه الرسائل والمقالات ، لأنها كثيرا ما كانت تحمل أسماء مستعارة وأحيانا ما كانت توقع بأسماء غير حقيقية كابن طولون أو المغربى وهكذا .

وجاء فى بعض هذه الرسائل كثير من الهجوم على الشاعر المصرى على الغاياتى الذى كان قد كتب قصيدة بعنوان « وطنيتى » ونفى على أثرها من مصر حيث لجـــأ الى جنيف وأقام بها ، وكانت هذه الرسائل تتهمه بأنه قد أصبح وهو فى سويسرا عميلا لدول التحالف انجلترا وفرنسا . وفى هذه الرســائل ما يفيد بالمتاعب الكثيرة التى كانت تخلقها الســـفارة البريطانية فى سويسرا للوطنيين المصريين المقيمين بها بسبب عدم تجديد جوازات سفرهم ومنع وصول الأموال اليهم من ذويهم فى مصر . ويجدر بهذه المناسبة الاشارة الى كتاب حديث ظهر عام ١٩٧٠ لكاتب سويسرى اسمه مارك تريفتسجر Marc trfz ger يتحدث فيه عن الحركات الوطنية المصرية فى مرآة الرأى العام السويسرى .

واذا أردنا أن نفهم موقف الوطنيين المصريين فعلينا مراعاة ما يلى :

في نوفمبر سنة ١٩١٤ دخلت تركيا الحرب متحالفة في ذلك مع ألمانيا ، وردا على هذا الاجراء أعلن الانجليز خلع الخديوى عباس الثانى الذى كان يقوم فى هذا الوقت بزيارة للأستانة ونصبوا بدلا منه عمه حسين كامل سلطانا على مصر ، وأعلنوا بالاضافة الى ذلك فرض الحماية على مصر ٠

وقد أدى هذا الاجراء من جانب انجلترا الى حدوث تقارب جديد بين الحزب الوطنى وبين الخديوى عباس الثانى بعد أن كانت العلاقه بين الخديوى وبين الحزب الوطنى قد ساءت عقب موت الزعيم مصطفى كامل ٠

أما عباس الثانى فقد ترك الأستانة واتجه شطر فينا ومن هنا سافر الى برلين للزيارة ٠

ورغم هذا التقارب الجديد فلم يكن هناك تفاهم تام بين الخديوى والوطنيين المصريين وخاصة من الجناح المتطرف الذى كان يتزعمه الدكتور منصور رفعت ٠ ولكن السياسة الجديدة كانت تقضى بأن يعلن الوطنيون العرب من حيث الظاهر فقط اتفاقهم مع الخديوى ، وأن مصر ستظل جزءا من الخلافة العثمانية بعد انسحاب الانجليز منها ٠

وقد تركز النشاط السياسى بالطبيعة على برلين ، فأنشأت احدى اللجان الوطنية لحزب مصر الفتاة ناديا فى برلين ، ويسرت الحكومة الألمانية بالتالى لهؤلاء الوطنيين سبيل الحصول على حجرات كبيرة وصالات فى بعض الفنادق لاقامة حفلاتهم . كما وضع النادى العثمانى أيضا تحت تصرفهم ٠ وفيما يلى عرض سريع لأبرز هؤلاء الأعلام :

١ ـ محمد فريد ، وقد خلف مصطفى كامل بعد وفاته فى قيادته للحزب الوطنى ٠

كان محمد فريد يقيم فى أوربا منذ عام ١٩١٢ ، وكانت معظم اقامته فى سويسرا ، وكثيرا ما زار ألمانيا وأقام فيها لفترات طويلة ، وكان وهو فى برلين يلقى خطبه ويصدر تصريحاته المناوئة للحكومة الانجليزية ٠

٢ ـ منصور رفعت ، كان شعلة من النشاط ، وأسس فى سويسرا ناديا للوطنيين المصريين ، وكان فى بعض مواقفه السياسية أكثر تطرفا من محمد فريد ٠ طرد فى نوفمبر ١٩١٤ من سويسرا وأرسل الى ألمانيا ٠ وكتب وهو فى ألمانيا مقالات عديدة ضد الانجليز ، وكان يسانده فى ذلك مكتب خاص للدعاية الألمانية ٠ ويؤكد بعض الألمان الذين كانوا يعملون مع منصور رفعت أنه كان رجلا صعب المراس ، لم يقتصر شجاره مع زملائه

الألمــان بل كان في صراع وشجار دائم مــع رفاقه الوطنيين المصريين . وأحيانا ما كان يدعي بأنه يحمل الجنسية الأمريكية .

٣ ـ محمد فهمي : كان لا يقل نشاطا وشهرة عن زملائه ابتداء من عام ١٩٠٠ وأسس هناك اللجنة الدائمة للشباب المصرى فى أوربا . وفى يناير ١٩١٥ فاوض في برلين مع ممثلين من الحكومة الألمانية لتحديد موقفهم وموقف تركيا تجاه استقلال مصر ، الا أن الرد الألماني لم يكن كافيا لتحقيق أهدافه وقد أدى ذلك الى فتور علاقته بالساسة الألمان .

٤ ـ عبد الملك حمزة . كان يختلف في موقفه كثيرا عن محمد فهمى حيث قرر العمل مــع مكاتب الدعاية الألمانية ، ومثله فى ذلك الشـــيخ عبد العزيز جاويش التالى ذكره بعد هذا .. أصدر عبد الملك حمزة مجلة « العالم الاسلامي » Die Islamisch Weit باللغة الالمانية ، وقد هيأ له مركز رئيس تحرير هذه المجلة الفرصة للاتصال بكبار الساسة الألمان ، ومن ذلك أنه استطاع أن يعرض وجهة نظر الحزب الوطني آنذاك فى أن يكون الاشراف على قناة السويس اشرافا دوليا ، على جمعية من السياسيين الألمان والأساتذة وغيرهم من الشخصيات البارزة فى المجتمع كان يطلق عليها اسم « جمعية الخميس » .

٥ ـ الشيخ عبد العزيز جاويش : حاز على شهرة أوسع من عبد الملك حمزة ، وعرف جدا في ألمانيا . كان وهو فى مصر محررا لمجلة اللواء .

غادر مصر عام ١٩١٢ واتجـــه الى اسطنبول وهناك التحق بجمعية « الاتحـــاد والترقى » ، وقيل انه كان وهو فى مصر على علاقة بالوكالة الألمانية . ثم غادر تركيا عـــام ١٩١٦ متجها الى ألمانيا ، فقدم للصحافة الألمانية على أنه مدير جامعة المدينة المنورة التى أسسها الأتراك عام ١٩١٤ . وفى الحقيقة ان الشيخ جاويش لم يسافر الى المدينة المنورة الا لوضع حجر أساس هذه الجامعة مع شكيب أرسلان ، وعلاوة على ذلك قدم أيضا على أنه عميد لكلية صلاح الدين فى القدس . والدافع الحقيقى الذى يكمن وراء رحلته الى ألمانيا لم يكن كما أعلن هو الاطلاع على نظام الجامعـــات الألمانية وانما كان للاعداد لاصدار مجلة العالم الاسلامى باللغـــة الألمانية ولالقاء محاضرات فى ألمانيا ولتقديم النصائح الى الخبراء الألمـــان فيما يختص بالدعاية التى تهم مصالح العالم الاسلامى .

وقد ظهرت مجلة العالم الاسلامى باللغة العربية فى اسطنبول ابتداء من ٦ مايو سنة ١٩١٦ ، وظهر العدد الأول منها فى برلين باللغة الألمانية

فى ١٩ نوفمبر سـنة ١٩١٦ ، وكانت هذه المجـلة تضم عددا كبيرا من المقالات للشيخ جاويش ولكبار المسلمين من العـرب والأتراك والايرانيين والهنود وغيرهم ، كما كانت تضم أيضا مقالات للعلماء الألمان والصحفيين والسياسيين وهكذا • ولم يكتف التسيخ جاويش بالكتابة فى هذه المجلة بل كان يكتب أيضا فى جرائد ومجلات ألمانية أخرى • وقد ظهر له على سـبيل المثال مقال عن اللغة العربية وتاريخها عام ١٩١٦ فى « المجلة البروسية » (Preussische Jahrbuecher) التى كانت تصدره مرة واحدة كل عام وهى مجلة تاريخية ثقافية هامة جدا •

وبجانب الوطنيين المصريين نجد أيضا فى ألمانيا مكافحين آخرين كانوا يعملون من أجل تحرير المغرب العربى • ويعد الشيخ عبد العزيز جاويش أيضا ضمن هؤلاء المكافحين رغم أنه ولد فى الاسكندرية حيث كان لأبوين تونسيين • وقد اسـتطاع هؤلاء الوطنيون أن يحصـلوا على وعود من الدبلوماسيين الألمان والنمساويين أثنـاء محادثاتهم معهم تقضى بالعمل لانشاء جمهورية مستقلة فى شمال افريقيا • ومن أشهر الوطنيين المغاربة الذين كانوا فى ألمانيا أثناء الحرب العالمية الأولى والذين ما زالت شهرته باقية حتى الآن هو الشيخ محمد الخضر حسين التونسى الذى رحـل الى مصر بعد الحـرب العالمية الأولى وعاش بها ، وقد عين فى عـام ١٩٥٢ شيخا للأزهر :

كان الشيخ الخضر حسين يعيش فى دمشق منذ عام ١٩١٢ ثم رحل منها الى اسطنبول ، ومن هناك رحل الى ألمانيا أثناء الحرب العالمية الأولى ليكتب مقالات فى الصحف للتأثير بها على الأسرى المسلمين الذين وقعوا فى قبضة الألمان والذين كانوا قبل ذلك يعملون فى الجيوش الانجليزية والفرنسية والروسية • ولكن الشيخ الخضر حسين لم يحظ لدى الرأى العام الألمانى بتلك الشهرة التى كان يتمتع بها الشيخ صالـح الشريف التونسى •

كان الشيخ صالح الشريف التونسى يعمل أستاذا فى جامعة الزيتونة، ثم انتقل قبل اندلاع الحرب العالمية الأولى الى اسطنبول حيث عاش بها ، وقيل أنه كان يقوم بتدريس اللغة العربية لأنور باشا وزير الحـرب ، ثم توجه الى ألمانيا فى نوفمبر أو ديسمبر سنة ١٩١٤ •

أما عن نشاطه فى ألمانيا فيحدثنا عن ذلك الدبلوماسى الألمانى البارون شابنجر Schabinger فى مذكراته التى لم تطبع حتى الآن • كان شابنجر يجيد اللغة العربية ، وعمـل مترجما فى القنصلية الألمانية فى

طنجة لبضع سنوات ، وترجم أثناء الحرب العالمية الأولى الى اللغة الألمانية كتيبا للشيخ صالح الشريف عن الجهاد فى الاسلام وظهر هذا الكتاب فى برلين عام ١٩١٥ .

رافق شابنجر الشيخ صالح الشريف الى الجبهة الغربية حيث وجه الشيخ صالح عن طريق مكبر الصوت نداء الى الجنود والضباط المسلمين وحثهم فيه على الهروب واللجوء الى الألمان . وفى برلين القى الشيخ صالح الشريف مرة محاضرة أمام جمهور منتخب من الألمان ، ومرة أخرى أمام دبلوماسيين أجانب . ويبدو أن المحادثات التى أجراها الشيخ صالح مع الصحفيين والساسة الألمان عن أهداف ألمانيا تجاه المغرب العربى لم تجد القبول الذى كان يبغيه فأحس بشىء من خيبة الأمل ، كما لم يحقق اللقاء مع القيصر الألمانى أى نجاح لأن السفير التركى كان حاضرا أثناء هذا اللقاء وقد عمد القيصر على التحدث باللغة الألمانية مع السفير التركى ولم يعر الآخرين اهتماما وكان من بينهم الشيخ صالح الشريف والأمير على ابن المجاهد الكبير عبد القادر الجزائرى .

كان الشيخ صالح الشريف قد جاء الى ألمانيا وكله أمل أن تحقق مساعيه بالنجاح . وصرح أمام المستشرق الألمانى مارتين هارتمان (Martin Hartmann) بضرورة العمل على انشاء جامعة اسلامية فى ألمانيا يقوم بالتدريس فيها أساتذة مسلمون ولكن شيئا من ذلك لم يتحقق . ومع ذلك فقد كان سعيدا راضيا بحضوره لافتتاح مسجد أقيم للأسرى المسلمين الذين جمعوا فى مكان أطلق عليه معسكر الهلال وسوف يأتى الحديث عن هذا المعسكر .

أما عن شعوره بخيبة الأمل فى جهوده التى بذلها مع الألمان تجاه استقلال المغرب فقد ظل كما هو لم يتغير . وفى أوائل عام ١٩١٧ أرسل رسالة الى القيصر يطلب منه فيها أن يقوم بتصفية كل مستعمراته الألمانية حتى يستطيع أن يقدم الى العالم الدليل على حسن نواياه ، ويبدو أن القيصر لم يرد على هذه الرسالة .

وكما نرى فقد تبين للشيخ صالح وكذلك لزملائه الوطنيين الذين كانوا ينشدون مساندة ألمانيا آنذاك تبين لهم أن التعاون مع ألمانيا له حدود لا يمكن تخطيها . وقد اتضحت هذه الحقيقة أيضا للعالم المغربى محمد العتابى فلم يستطع أثناء مناقشاته مع الألمان أن يخفى تخوفه من ألمانيا قد تحل محل فرنسا فى احتلال المغرب .

ومما يلفت النظر أنه كتب مقالا عن القضية المغربية تجنب فيه أي اشادة أو مدح لألمانيا ولسياستها ، وقد نشر هذا المقال في يناير سنة ١٩١٨ ، بل وزيادة على ذلك فقد ناشد العتابي في هذا المقال الشعوب الأوربية جميعها على العمل على مساندة المغرب في نضالها من أجل الحرية والاستقلال ٠

وهناك من المغاربة من كانوا أقل شهرة ولكنهم على عكس العتابي قدموا قدرا اكبر من التعاون مع الالمان ، وأبرز هذه الشخصيات رجل جزائري الجنسية كان يعمل في الجيش الفرنسي برتبة ملازم ثان ، ثم فر منه هاربا الى صفوف الجيش الألماني ووضع نفسه تحت خدمة الدعاية الألمانية ٠ جاء هذا الجزائري الى ألمانيا يحمل اسم الحاج عبد الله وكان قد أصدر وهو في سويسرا كتيبا باللغة الفرنسية بعنوان « الاسلام في الجيش الفرنساوي » L'Islam dans l'Armée Française وقد ظهر هذا الكتيب عام ١٩١٧ يحمل اسما للمؤلف هو « رياح بوكسبويا » ٠

وممن قام بزيارة ألمانيا أيضا الأمير علي ابن المجاهد الكبير عبد القادر الجزائري ولكن نشاطه في ألمانيا لا يعد شيئا يذكر اذ قورن بالمجهود الصحفي الذي قام به الحاج عبد الله أي ان هذه الزيارة لا أهمية لها ولا تخرج عن كونها شيئا رمزيا ٠

وكانت ألمانيا تعمد دائما على اطلاع الضيوف العرب أمثال الأمير علي بن عبد القادر الجزائري وغيره على معسكر الهلال للأسرى المسلمين الذي انشيء في « ونسدورف » Wunsdorf على مقربة من برلين ٠ وقد جلب الى هذا المعسكر الأسرى المسلمون الذين كانوا يعملون في صفوف الأعداء والذين كانوا قد وزعوا في باديء الأمر على معسكرات مختلفة في شتى أنحاء ألمانيا مع غيرهم من الأسرى الانجليز والفرنسيين والروس ، ثم نقلوا الى المعسكر السالف الذكر والذى أطلق عليه معسكر الهلال ٠ وكان يوجد في هذا المعسكر مسلمون من العرب والتتار ومسلمو بعض الدول الأخرى ٠

وكان يقوم بالرقابة في هذه المعسكرات بعض الضباط الألمان الذين يعرفون اللغات الشرقية ومنهم من كان يتفاهم مع الأسرى العرب باللغة العربية ٠

وكان الهدف من وراء جمع المسلمين في معسكر واحد بهذا الشكل هو تيسير مهمة نشر الدعاية بينهم لقبول الأهداف الألمانية التركية ٠

وفي سبيل ذلك أنشئت مجلة أطلق عليها « الجهاد » وقد ظهرت هذه المجلة لأول مرة فى برلين فى شهر مارس ١٩١٥ وطلع من هذه المجلة ١٥ ألف نسخة ، وقد صدرت بلغات شرقية مختلفة ومنها اللغة العربية ، ولم يكن المقصود باصدار هذه المجلة توزيعها على الجبهة أو فى الدول الأجنبية بل كان توزيعها قاصرا على الأسرى المسلمين فقط ٠

وممن كتب فى هذه المجلة الحاج عبد الله الجزائرى والشيخ محمد الخضر حسين ٠ وكانت ألمانيا تنتهز أيضا فرصة حلول الأعياد الدينية لاقامة احتفالات تلقى فيها الخطب للتأثر بها على الجنود ، ومن بين الذى ألقوا كلمات فى هذه الاحتفالات محمد فريد المصرى وضباط وسياسيون أتراك وآخرون ٠ وكانت هذه الخطب تهدف الى التأثير على الأسرى المسلمون للقتال فى جانب تركيا ٠

وقبل اشتراك تركيا فى الحرب (أى قبل نوفمبر سنة ١٩١٤) جلب شابنجر بعض الأسرى من معسكر بالقرب من يادربورن Paderborn وذهب بهم الى اسطنبول لكى يدعوا الناس هناك الى الجهاد ٠ وهؤلاء الأسرى كانوا عبارة عن خمسة من المراكشيين واثنين من الجزائريين وسبعة من التونسيين ٠ وقد أرسل هؤلاء الأسرى تحت ستار أنهم سيرك متحرك وذلك للتغطية على جواسيس العدو ٠

وفى شتاء عامى ١٩١٧ و ١٩١٨ وضعت تركيا خطة تقضى بأن يجمع أسرى المغرب العربى الذين كانوا فى المعسكرات الألمانية والتركية والذين كانوا على استعداد للاشتراك فى الحرب بجانب الأتراك ثم يرسلوا فى غواصات الى ليبيا بقيادة المجاهد التونسى على باش حانبة للاشتراك هناك فى الحرب الدائرة ضد الاحتلال الايطالى الا أن هذه الخطة قد باءت بالفشل بسبب التدهور السريع لحالة تركيا العسكرية وبسبب مرض على باش حانبة الذى مات على أثره قبل انتهاء الحرب العالمية الأولى ٠ وبهذه المناسبة أود أن أذكر أن هناك غواصات كانت قد أرسلت الى سواحل ليبيا لمساندة الحركة السنوسية وأخرى الى سواحل المغرب الأقصى لمساندة الحركة التحررية بها ، وهذا موضوع يحتاج الى محاضرة مستقلة لعلاجه ٠

أما عن استعداد الأسرى المسلمين للاشتراك فى الحرب بجانب الأتراك فلم يلق قبولا ملحوظا ولم يظهر كثير منهم استعدادهم للاشتراك فى القتال بدليل أن بعضهم قد هرب الى الجيش الانجليزى عند ما أتيحت لهم الفرصة وهم فى العراق ٠ ويمكننا القول أن مهمة معسكر الهلال كان دعاية للسياسة الألمانية التركية أكثر منه عملا عسكريا ٠

فى صيف عام ١٩١٧ أقيم فى استوكهولم بالسويد المؤتمر الاشتراكى الدولى ، كما أقيم هناك فى شهرى أكتوبر ونوفمبر من نفس العام مؤتمر الشعوب الاسلامية ، وقد اشـــترك فى هذين المؤتمرين بعض الوطنيين العرب الذين كانوا يقيمون فى ألمانيا . أما ما يتعلق بالمؤتمر الاشتراكى فمن الواضح أن غالبية الوطنيين العرب الذين زاروه لم يكونوا اشتراكيين وهذا ما أعرب عنه محمـــد فريد المصرى رسميا للصـــحافة السويسرية بعد رجوعه من استوكهولم باسمه وباسم الحزب الوطنى . ومن المؤكد ان محمد فريد وغيره من أعضاء الوفود العربية قد انتهزوا فرصة عقد المؤتمر لعرض القضية العربية على أعضاء المؤتمر الاشتراكى العالمى .

أما عن مؤتمر الشعوب الاسلامية فقد ساهمت فيـــه مصر بنصيب كبير ، وكان يمثل المغرب فى المؤتمر الشيخ اسماعيل الصفائحى القاضى الحنفى الســـابق بتونس ، ومعـــه الشيخ صـــالح الشريف ســـالف الذكر ، وكان يمثل ليبيا يوسف شتوان النائب السابق لطرابلس الغرب فى مجلس الأمة العثمانى ومعه الشيخ محمد بن صالح الشريف البنغازى وكان يمثل المغرب الأقصى الشيخ محمد العتابى المشار اليه سابقا .

وبعض الوطنيين العرب الذين ورد ذكرهم فى هذه المحاضرة قـــد عاصروا نهاية الحرب وهم فى ألمانيا ، وفى ١٩ ديسمبر سنة ١٩١٨ اجتمع فى برلين ممثلون عن الحـــزب الوطنى المصرى وأصـــدروا قرارات كثيرة يؤكدون فيها انهم سوف يواصلون النضال من أجل تحرير بلادهم وجاء فى هذه القرارات الاعراب عن شكرهم للصحافة الألمانية لمساندتهم للقضية المصرية .

أما فيما يتعلق بالتطورات الأخرى التى حدثت فى مصر فمن الواضح أنه قد برزت شخصيات أخـــرى على رأس الثورة التى اندلعت بعد ذلك بعام قادت الحزب الوطنى ، ولم يكن لمحمد فريد فى هذه التطورات الأخيرة أى تأثير لأنه كان بعيدا عن مصر ووافته منيته وهـــو فى برلين فى ١٥ نوفمبر سنة ١٩١٩ .

وبعض هؤلاء الوطنيين الذين كانوا فى ألمانيا أثناء الحرب من رحلوا منها الى تركيا وعاصروا نهاية الحرب هناك وعند ما رأوا أساطيل الحلفاء تمر فى مضيق البوسفور هربوا منهـــا الى ألمانيا وفيهم الشيخ جاويش وصالح الشريف التونسى والشيخ محمد الخضر حسين ، وذلك عن طريق روسيا فألمانيا ومنها الى سويسرا ، وانضم اليهم فى الطريق الأمير شكيب

أرسلان . ورغم اقامة شكيب أرسلان فى سويسرا بعد ذلك فقد ظل على علاقة وطيدة مع ألمانيا ، ويعتبر شكيب أرسلان من أوائل الذين اهتموا بالادب الألمانى وبشعر جوته (Goethe)

وقد جعلت هزيمة ألمانيا فى الحرب العالمية الأولى هـؤلاء الوطنيين العرب الذين كانوا يتعاونون مـع ألمانيا وينشدون مساعدتها فى حـل قضاياهم قد جعلتهم أمام التاريخ يوصمون أيضا بالهزيمة ، ولعل فى ذلك بعض الصحة ، ولكن مما لا شك فيه أن الأيام قد أثبتت صـحة تنبؤات شكيب أرسلان ومحمد فريد وغيرهما وما كانوا يصرحون به من أهداف الحلفاء وخططتهم والتى وضحت بعد نهاية الحرب .

ولقد تعرض هؤلاء الوطنيون للهجوم حتى من أتباع حركة التحرير العربية فى الحجاز الذين كانوا يصفون هؤلاء الوطنيين بأنهم حلفاء للأتراك اللادينيين الذين يحتقرون العرب والاسلام والذين كان لا ينتظر منهم اطلاقا أن يمنحوا مصر حريتها لو أنهم كانوا قد انتصروا فى الحرب ، مع أن أنصـار حركة التحرير العربية فى الحجـاز قد تحققوا فيما بعد من عدم تمسك الحلفاء بوعودهم التى أخذوها على أنفسم أثناء الحرب . وربما كانوا على حق فى اتهامهم هذا الا انهم يغفلون تماما الظروف الصعبة والحـالة القاسية التى كان يمر بها هؤلاء الوطنيون أثناء الحرب وهم فى أوربا .
صحيح أنهم أخطأوا أحيانا فى بعض تصوراتهم وصحيح أنهم ـ كأى سياسيين آخرين ـ قد لجأوا الى الحلول الوسط فى بعض المشاكل . الا أن المصادر الألمانية تؤكد ـ وهذا من وجهة نظرنا ـ أن الوطنيين العرب لـم يكونوا عملاء لا للألمان ولا للأتراك . وهناك أدلة تؤكد على أن محمد فريد كان يعارض صراحه فى محادثاته مع الدبلوماسيين الألمان أى سيطرة لتركيا على حكم مصر فى حال انتصارها فى الحرب . صحيح أن محمد فريد كان لأسباب سياسية يصرح بموافقته على تبعية مصر لتركيا بعد الحرب ولكنه كان فى محادثاته الخاصـة ومعظم محادثاته العامة يؤكد عـلى ضرورة استقلال مصر .

وكلمة أخيرة نود أن نوجهها للسادة القراء قبل انهاء هذا المقال فانا نرجو من كل من يود الكتابة عن هذا الموضوع أن يكون عادلا منصفا فى حكمه وأ لايكون متسرعا فى الحكم على هؤلاء الوطنيين ، لأن تاريخهم ما زال به كثير من المستندات ولم ينشر كله .

وقد أردنا بهذا المقـال لفت النظر الى ضرورة البحث والتقصى عن الحقيقة قبل اصدار أى حكم ، حتى لا يغمطهم التاريخ حقهم .

النشاط التبشيرى الأمريكى في البلاد العربية حتى عام ١٩٢٣

دكتور نبيل عبد الحميد سيد أحمد

كلية الآداب ـ جامعة المنيا

المجلة التاريخية المصرية ـ المجلة التاريخية المصرية ـ المجلة التاريخية المصرية ـ المجلة التاريخية المصر

النشاط التبشيرى الأمريكى
فى البلاد العربية حتى عام ١٩٢٣

ان دراسة موضوع النشاط التبشيرى ، الذى كان سمه واضحة لبداية اتصال الولايات المتحدة الامريكية بعد استقلالها بالوطن العربى يقتضى منا من البداية أن نقدم لهذه الدراسة بنظام الامتيازات الأجنبية فى الدولة العثمانية ، وذلك لأن الامتيازات كانت هى السند الاول الذى ارتكز عليه المبشرون الامريكيون فى كثير من الوان نشاطهم غير المشروع فى الولايات العربية العثمانية ٠

يرجع ظهور الامتيازات الاجنبية فى البلاد العربية الى تاريخ حكم الدولة العثمانية للعالم العربى ٠ والمعروف ان العالم العربى فى اطاره الجغرافى الممتد من الخليج العربى الى المحيط الاطلنطى قد ادت به ظروفه التاريخية الى الخضوع لحكم الدولة العثمانية منذ القرن السادس عشر وخلال فترة امتدت الى أربعة قرون متعاقبة.(١) وذلك باستثناء المغرب الأقصى (مراكش) الذى كاد أن ينضم اليها لولا وجود عوامل خاصة فى هذا القطر منعت من السير فى هذا الطريق (٢) واعتبرت البلاد

---

(١) محمد فرج ، الأمة العربية ، ص ١٣

(٢) جلال يحى (الدكتور) العالم الغربى الحديث جـ ١ (المدخل) ص ٣٦ ٠

العربية خلال تلك الفترة الطويلة من الحكم العثمانى ولايات عثمانية واستمرت على هذا الوضع الى أن تنازلت تركيا رسميا عن حكم الولايات العربية فى مؤتمر لوزان سنة ١٩٢٣ ٠ وبالتالى كان معنى خضوع الولايات العربية لحكم العثمانيين أن تطبق عليها بالضرورة كافة الانظمة والاتفاقيات والمعاهدات التى تطبقها وتقرها الادارة الحاكمة فى تركيا ٠

ومن هذه المعاهدات التى رأت تركيا تطبيقها فى سائر الولايات العربية التابعة لها معاهدات الامتيازات الاجنبية التى أخذت فى التوقيع عليها واقرارها منذ بداية القرن السادس عشر ٠

وقبل أن نبدأ الحديث عن الدول التى منحت هذه الامتيازات ، وموقف الولايات المتحدة منها ، نذكر أولا الدوافع التى أدت الى ظهورها ٠

ومن هذه الدوافع أن الدولة العثمانية أرادت أن تمنح الاوربيين المقيمين بسائر ولاياتها العربية امتيازات تميزهم عن سكان هذه الولايات وبالتالى تحدد وضعهم الاجتماعى فى مواجهة ظروف اختلاف جنسياتهم وأديانهم والسنتهم عن العرب العثمانيين ٠ وكل ما كانت تنص عليه معاهدات الامتيازات الأصلية من هذه الناحية ، لم يكن يعدو التعهد بضمان حرية المجىء والاقامة والانتقال لهؤلاء الاجانب ومنحهم مسكنا يعيشون فيه وفقا لعاداتهم وأديانهم (١) كما كانت هذه الامتيازات تعمل على حمايتهم من ضروب الحيف والجور فى مسائل الضرائب والرسوم (٢)

فكان الأصل من الامتيازات الأجنبية اذن تمكين هؤلاء الاجانب المسيحين من المتاجرة والسكنى فى الولايات العربية ووقايتهم من الظلم والعسف الذى قد يلحق بهم لكونهم غرباء ويدينون بدين آخر (٣) بالاضافة الى دافع المصلحة الاقتصادية الذى رأت الدولة تحقيق فوائد تجارية بتوطيد العلاقات الاقتصادية بين الدول الأوربية المختلفة ٠

---

(١) نبيل عبد الحميد الأجانب وأثرهم فى المجتمع المصرى من سنة ١٨٨٢ الى سنة ١٩٢٢ ص ٩ ، ١٠

« وهى رسالة ماجستير غير منشورة فى التاريخ الحديث قدمت سنة ١٩٧٦ الى كلية الآداب جامعة عين شمس تحت اشراف الاستاذ الدكتور جمال زكريا عميد الكلية » ٠

(٢) وثائق مؤتمر الغاء الامتيازات الأجنبية بمونترو من ٢٢ ابريل الى ٨ مايو سنة ١٩٣٧ ص ١٥

(٣) تقرير لجنة ملنر (هامش) ص ٦١ ، ٦٢

ويرى بعض الباحثين أن تركيا لم تكن هي أول من اسس نظام الامتيازات الاجنبية في الشرق ، بل أن هذا النظام كان موجودا قبل ذلك وطبقت مبادئه بالشكل الذى عرف في الدولة العثمانية ، وكل ما فعله العثمانيون هو اعترافهم بالمؤسسات العامة التي كانت موجودة في ذلك الحين وقبولها ، خاصة لو عرفنا أن هذا ينسجم مع السياسة العثمانية التى عملت على المحافظة على ما كان قائما أو موجودا ٠ وقول آخر يفيد أن الدافع فى ظهور الامتيازات فى الدولة العثمانية ، لم يكن يرجع الى رغبة العثمانيين فى تطبيقها ومنحها للأجانب بل يرجع الى عدم قابليتهم فى المحافظة على حقوق رعايا الدول المسيحية ٠ وهذا هو ما جعل الدول الأجنبية تعمل على تأسيسها للمحافظة على حقوق رعاياها (١) ٠

ومما تجدر الاشارة اليه أن بعض الباحثين قد ركزوا على أن الدين الاسلامي كان السبب الاول في ظهور الامتيازات الأجنبيـــة فى الدولة العثمانية ٠ (٢)

وفى اعتقادنا أن الاسلام لم يكن هو الدافع فى ظهور الامتيازات ، بدليل أن الامتيازات ظاهرة عرفت فى دول أجنبية اخرى تدين بدين آخر غير الاسلام ، ومع هذا فلابد من الاعتراف بنأ اختلاف الاديان قد شجع على نمو النظام وبقائه فى الدولة العثمانية بينما كان قد الغى فى بقية الدول المسيحية الغربية (٣) ٠

وكان لابد للدولة العثمانية من منح هـــذه الامتيازات ، فذكرى الحروب الصليبية لاتزال قريبة الى الاذهان مما كان من شأنه عدم توافر الثقة بين المسلمين وغير المسلمين ٠ فكان امام الدولة اما ان تغلق أبواب

---

(١) عبد العزيز محمد عوض الادارة العثمانية فى ولاية ســوريا سنة ١٨٦٤ الى سنة ١٩١٤ (هامش) ص ٣٢٠ ، ٣٢١

(٢) تادرس ميخائيل تادرس القانون المقارن فى الأحوال الشــخصية للأجانب فى مصر ص ٢٢

(٣) عبد العزيز عوض المصدر السابق ص ٣٢١

وللرد على هؤلاء الباحثين الذين يركزون على أن الاسلام هو السبب فى ظهور نظام الامتيازات الأجنبية أنظر فى ذلك :

(أ) عز الدين عبد الله القانون الدولى الخاص المصرى جـ ١ فى الجنســية والمواطن ص ١٤٩ ، ١٥٠

(ب) تادرس ميخائل المصدر السابق ص ٢٣

ولاياتهم في وجه الأجانب ، واما ان تمنحهم بعض المزايا والحقوق لاجتذابهم اليها والافادة من نشاطهم • ففضلت الامر الثاني رعاية لمصالحها (١) •

وكانت أولى هذه المعاهدات هي تلك التي عقدها فرنسوا الأول ملك فرنسا مع السلطان سليمان القانوني في سنة ١٥٣٥ (٢) وعلى مدى السنوات المائة التالية تقريبا ، ابرمت معاهدات أخرى على نفس الاسس مع معظم الدول الأوروبية ، وكان من الضرورى أن تجدد هذه المعاهدات مع تولى كل سلطان جديد • وهذا ما جرت به العادة ، وكان يضاف احيانا مواد لتوسيع مضمونها ، ولكن المواد الاساسية في جميع هذه المعاهدات كانت تنص على حرية الملاحة في المياه العثمانية وحرية الدخول والخروج من الموانى العثمانية وحرية السفر في الاراضى العثمانية وتحديد الرسوم الجمركية والضرائب على البضائع واختصاص المحاكم القنصلية بالنظر في الدعاوى المدنية بين الأوروبيين وضرورة حضور ممثل عن قنصل المدعى عليه في الجرائم التي تجرى محاكمتها امام المحاكم العثمانية هذا الى جانب الاعفاء من الضرائب العثمانية والخدمة العسكرية الالزامية للأوروبيين الذى مضى على اقامتهم في الولايات العثمانية اقل من عشر سنوات متصلة ، وحرية العبادة وآداء الشعائر الدينية وضرورة حضور مندوب القنصل عند اجراء القبض على أى أوربى أو تفتيش محل اقامته بمعرفة السلطات العثمانية (٣) •

وكان أهم ما في هذه الامتيازات هو أن هؤلاء الاجانب فوق قانون هذه الولايات فهم لا يخضعون للقوانين والمحاكم وجهات الادارة المحلية ولكن لقوانين ومحاكم بلادهم (٤) أى احتكامهم في قضاياهم الى سلطة غير السلطة القضائية في الولايات العثمانية (٥)

ومع مرور الزمن أخذت الدولة العثمانية تضعف شيئا فشيئا ، وأخذ حكمها يتقلص بالتدريج عن ولاياتها الى أن غدت الدولة العثمانية تعرف باسم « الرجل المريض » واستوجب هذا الضعف زيادة عدم الثقة

---

(١) حبيب المصرى (باشا) ضرائب المدخل في مصر ج ١ ص ٩

(٢) محمد رفعت تاريخ حوض البحر المتوسط وتياراته السياسية ص٢٣٣ ، ٢٣٤

(٣) جون‌مارلو تاريخ النهب الاستعمار لمصر ١٧٩٨ ، ١٨٨٢ « ترجمة الدكتور عبد العظيم رمضان » ص ٩٨ ، ٩٩

(٤) محمد عبد البارى الامتيازات الأجنبية ص ٤

(٥) جميل خانكي : الاحوال الشخصية للأجانب في مصر ص ٦

فى محاكم الدولة العثمانية وولاياتها العربية فأدى ذلك بالتالى الى زيادة الامتيازات الأجنبية وتوسيعها الى ابعد مما ذكرناه وكان ذلك على الأخص فى ولاية مصر (١) ٠

وبعد ان استقرت فكرة أقليمية سيادة الدولة حسب مبادىء القانون الدولى العام ، صار ينظر الى امتيازات الأجانب بوصفها تقرر خروجا على هذه السيادة وعدوانا عليها ٠ ولذلك فقد حاول الباب العالى فى مؤتمر باريس سنة ١٨٥٦ التخلص من الامتيازات ولكنه لم يوفق فظلت قائمة الى ان افلحت تركيا فى الغائها نهائيا بالنسبة لها بمعاهدة لوزان سنة ١٩٢٣ (٢) وهو نفس التاريخ الذى تنازلت فيه عن حكم الولايات العربية وبالتالى فانها تكون قد سقطت ايضا من بقية الولايات العربية ، مع ضرورة ان نضع فى الاعتبار ظروف الحرب العالمية الاولى وما أحدثته عن تغير كبير فى ظروف هذه الولايات ودخول الكثير منها بعد انتهاء الحرب تحت الانتداب واحتلال الدول الأوروبية لها ، مما جعل هذه الدول المختلفة والمنتدبه بالتالى تؤثر على أوضاع هذه الولايات وبالتالى امتيازات الدول الأجنبية الاخرى بها ولكن ليس معنى هذا زوال امتيازات الدول الاجنبية بصفة نهائية من هذه الولايات فقد استمر بعض من اشكالها بصورة أو بأخرى حتى سنة ١٩٢٣ وفى البعض الآخر لم تلغ هذه الامتيازات نهائيا الا فى سنة ١٩٣٧ كمصر وهى أكبر واكثر هذه الولايات التى عانت من ضراوة هذه الامتيازات وشدتها ٠ (٣)

بداية حصول الولايات المتحدة على الامتيازات الأجنبية

اما عن موقف الولايات المتحدة ورعاياها فى الولايات العربية العثمانية من هذه الامتيازات ، فاننا نجد انه اذا كانت الولايات المتحدة قد حصلت على هذه الامتيازات فانها قد حصلت عليها فى فترة متأخرة ومن آخر الدول التى نالتها أيضا ٠

---

(١) فردريك م٠ كودنى القانون الدولى والملى الخاص فى فلسطين والشرق الأدنى ص ١٠٠ « تعريب حسن صدقى وصلاح الدين العباسى »

(٢) عز الدين عبد الله المصدر السابق ص ٤٠٠

« قريب حسن صدقى وصلاح الدين العباسى »

(٣) فردريك كودنى المصدر السابق ص ١٠٥ ، ١٣١

أنظر أيضا . وثائق مؤتمر الغاء الامتيازات الأجنبية بمونترو سنة ١٩٣٧ ٠

فكانت فرنسا هي أول الدول التى حصلت على هذه الامتيازات فى سنة ١٥٣٥ يليها انجلترا سنة ١٥٨٣ وهولندا سنة ١٦١٣ والنمسا سنة ١٦١٥ والدنمارك سنة ١٧٥٦ وبروسيا سنة ١٧٦١ وأسبانيا سنة ١٧٨٢ وروسيا سنة ١٧٨٣ ثم الولايات المتحدة الامريكية سنة ١٨٣٠ وبلجيكا سنة ١٨٣٩ والبرتغال سنة ١٨٤٣ واليونان سنة ١٨٥٥ (١) ٠

فتاريخ الامتيازات التى حصلت عليها الولايات المتحدة اذن يرجع الى عهد قريب فى نهاية العقد الثالث من القرن التاسع عشر بعد أن استفحل أمر الامتيازات واصبحت خطرا كبيرا فى ارجاء الدولة العثمانية ٠

ومن الواضح أن تأخر حصول الولايات المتحدة على امتيازات لها فى الولايات العربية العثمانية يرجع الى حداثة التاريخ الامريكى ٠ ففى البداية كانت الولايات المتحدة مستعمرات انجليزية شأنها شأن المستعمرات الانجليزية الاخرى لم تسمح لها انجلترا بالتصرف فى شئونها الخاصة سواء ما يتعلق منها بالشئون الداخلية أو الخارجية ، وكل ما كان لهذه الولايات من أثر فى سياسة انجلترا الخارجية هو مراعاة مصالح الولايات الخاصة فى الصلات والمعاهدات التى كانت تعقدها انجلترا مع الدول الاخرى ، واستمر وضع الولايات الامريكية على هذا الحال الى ان تمكنت من الثورة على انجلترا ونجحت فيها وحصلت على الاستقلال فى ٤ يوليو سنة ١٧٧٦م (٢) ٠

وبحصول هذه الولايات على استقلالها اعلن عن مولد دولة جديدة هى الولايات المتحدة الأمريكية التى اعلنت عن فلسفتها السياسية فى اعلان يؤكد حقوق البشر فى الحياة والحرية والمساواة والسعى لتحقيق السعادة (٣) ٠

واستمرت الولايات المتحدة بعد حصولها على الاستقلال تعمل على وضع سياسة خارجية تحقق لها المصلحة ، واتضحت خطوط هذه السياسة باعلان مبدأ مونرو سنة ١٨٢٣ الذى تقرر بموجبه اتباع أمريكا سياسة العزلة عن العالم الخارجى من وجهة النظر الأوروبية (٤) ومن وجهة

---

(١) جميل خانكى المصدر السابق ص ٧ ٠

(٢) محمد محمود السروجى (الدكتور) سياسة الولايات المتحدة الخارجية ص ٩

(٣) موجز التاريخ الأمريكى ، مركز الاستعلامات الأمريكى بالقاهرة ص ٤٩

(٤) سمعان بطرس فرج الله (الدكتور) العلاقات السياسية الدولية فى القرن العشرين ص ٦٦

النظر الأمريكية عدم التدخل فى الشئون الداخلية لدول أوربا فى مقابل أنه لا يجوز للدول الأجنبية ان تقحم نفسها أو تتدخل فى شئون الولايات المتحدة والعالم الجديد . واذا حدث شيء من هذا فسوف لا تتـــوانى الولايات المتحدة عن دخول الحرب (١) .

فمختصر مضمون مبدأ مونرو أذن لا يختلف فى وجهة النظر الأمريكيه عن الأوروبية فى انه انعزال وانكماش فى الداخل .

وكان اتجاه ساسة امريكا من اتباع هذه السياسة هو التفرغ للبناء الداخلى ، الى أن اصبحت الولايات المتحدة مؤهلة فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين لأن تكون دولة كبرى عالمية (٢) .

وتطلعت الولايات المتحدة لنشر نفوذها التجارى فى كل مناطق العالم وأدركت أهمية القوة البحرية فى التاريخ وكان هذا مناخا ثقافيا وخروجا عن مبدأ مونرو الذى عزل القارة الأمريكية ، فى نفس الوقت الذى أعطى الاستعمار الأوروبى فرصة السيطرة والتوسع بقوة لم يكن قد وصل اليها من قبل فى أخريات القرن التاسع عشر واوائل القرن العشرين (٣).

واذا كانت الولايات المتحدة قد رسمت لنفسها سياسة العزلة منذ اعلان استقلالها فى أواخر القرن الثامن عشر ، الا أن هذه العزلة لم يكن معناها الانغلاق الشديد عن العالم الخارجى . بل هى بمعنى ادق عـــدم المشاركة فى أحداث أوربا والمشاكل الدولية وبالتالى التورط فى تفريعات ومزالق عده ، تبعد اهتمامها عما هو اهم من البناء الداخلى واستكمال دعائم القوة والنفوذ بدليل انها سارعت وحصلت على الامتيازات الأجنبية فى الدولة العثمانية سنة ١٨٣٠ بقصد الحصول على الامتيازات الثقافية والتعليمية والتجارية والدينية المختلفة فى كافة الولايات العثمانية حفاظا على مصالحها وحقوق رعاياها .

نتناول فيما يلى بالدراسة كيف استغلت الولايات المتحدة هـــذه الامتيازات ونبدأ بالمشرق العربى الذى فتحت فيه الامتيازات الأجنبيـــة ابوابا واسعة أمام نشاط ارســاليات التبشــير الأمريكيــة بوســائلها المختلفة .

---

(١) ستيفن فنسنت أمريكا ترجمة عبد العزيز عبد المجيد ص ٩٥ ، ٩٨.
(٢) عبد العزيز سليمان نوار (الدكتور) التاريخ المعاصر ـ أوربا ص ١٨٦ ، ١٨٧
(٣) بيير نوفان تاريخ العلاقات الدولية ١٨١٥ ـ ١٩١٤ ص ٥١٩ ، ٥٢١
« تعريب الدكتور جلال يحى »

ارساليات التبشير الأمريكية فى المشرق العربى

(١) بلاد الشام : بداية وفود الارساليات الأمريكية

لم يكن للولايات المتحدة الأمريكية اطماع سياسية فى المشرق العربى وتركت هذه الاطماع السياسية لدول أوروبية أخرى وعلى رأسها انجلترا وفرنسا ، بينما تركزت اهتمامات امريكا بالمنطقة فى صورة أخرى وهى صورة البعثات التبشيرية التى اتخذت من بلاد الشام اهم واكبر هذه المناطق لممارسة نشاطها •

والولايات المتحدة فى ذلك قد استفادت من امتيازاتها الاجنبية والتى لولاها لما مارست هذا النشاط بالصورة الكبيرة التى وصل اليها •

ويرجع بداية هذا النشاط وعلى وجه التحديد الى سنة ١٨٢٠ ، عندما وصلت الى مدينة بيروت أول ارسالية امريكية تتبع الكنيسة المشيخيين البريسبتيرين ثم تطوع للعمل فى الخارج فأرسل أولا الى البعثات التبشيرية فى الخارج ، وقد اسس هذا المجلس مركزا له فى مالطه ، ثم احس بعد ذلك أن من واجبه الذى انشىء من اجله أن يمد هذا النشاط الى الشرق العثمانى ، فوقع الاختيار على مدينة بيروت لتكون قاعدة لذلك (١) وفى البداية اصطدمت البعثة ببعض العقبات • منها موقف أهالى بيروت المسلمين الذين واجهوا الأمريكيين بالعداء بعد اتضاح صفتهم التبشيرية ، كما أن الدولة العثمانية صاحبة السلطة الشرعية فى البلاد لم تعترف بالبعثة وعملت على معارضتها فقد رأت فيها بوادر تسلل استعمارى بالاضافة الى خطرها الدينى (٢) اما العقبة الثانية فهى اصطدام البعثة بالكاثوليك والأرثوذكس عندما أرادت تحويلهم الى البروتستانتية ، ومن ثم ونتيجة لعداء الأهالى انحصرت مجهوداتهم فى دوائر محددة صغيرة ، واقتصر عمل المبشرين الأمريكيين داخل اسوار مدينة بيروت التى لم يزد عدد سكانها عن ٩ آلاف نسمة (٣) اما العقبة الثالثة فهى أن الارسالية الامريكية لم تصل الى بيروت لتجد الأرض بكرا لها بل كانت هناك ارساليات اجنبية أخرى لم تقتصر على بيروت فقط بل شملت كل بلاد الشام ، ويرجع

---

(١) جورج أنطونيوس يقظة العرب ص ٩٨

(٢) عبد الكريم غرايبه (الدكتور) سوريه فى القرن التاسع عشر ١٨٤٠ ـ ١٨٧٦ ص ١٢٣

(٣) جلال يحى (الدكتور) العالم العربى الحديث ج ١ (المدخل) ص ١٦٤

تاريخ هذه الارساليات الى فترة مبكرة بدأت سنة ١٦٢٥ وشملت الرهبان الكاثوليك من اليسوعيين الذين قاموا بنشاط واسع فى تأسيس الأديرة كم العبوا دورا هاما فى حياة البلاد الدينية والثقافية ، واستمرت هذه الارساليات الأجنبية تمارس نشاطها فى بر الشام الى أن تعطلت جمعياتهم الدينية فأغلقت مؤسساتهم فى سنة ١٧٧٣م وعهد بأعمالها الى الرهبان العازاريين (١) ·

وبعد أن بدأت الأرسالية الامريكية اعمالها مالبثت أن حركت مشاعر وحماس هذه الأرساليات المعطلة ، فعادت لتستأنف عملها من جديد بعد أن رأت من نشاط الأرساليات الأمريكية فى تحويل الطوائف الدينية التى تتبعها الى المذهب البروتستانتى وبالتالى عاودت عملها فى سنة ١٨٣١ فى مواجهة الارسالية الأمريكية (٢) ·

ونتج عن ذلك أن أصبحت هناك مراكز تبشيرية متعارضة كان على البعثة الأمريكية ان تواجهها وتدخل معها فى منافسة شديدة للسيطرة وفتح المجالات أمام اعمالها · وتمكنت البعثة رغم هذه الظروف من مواصلة نشاطها وذلك بفضل مبشريها الاوائل الذين اظهروا نشاطا كبيرا · ومن امثال هؤلاء « ايلى سميث » وهو امريكى شاب وصل الى بيروت وهو فى السادسة والعشرين من عمره ، وكان مؤهلا للعمل التبشيرى الذى رسمه لنفسه بعد أن أتم دراسته فالتحق بالكهنوت وبعد ذلك انضم للمبشرين المشيخيين (البريسبتيريين) ثم تطوع للعمل فى الخارج فأرسل أولا الى مالطه ليشرف على مطبعة البعثة هناك ومن مالطة الى بيروت سنة ١٨٢٧ ووقف حياته بعد ذلك على التبشير فى بلاد الشام وكان فى عمله التبشيرى لا يكل أو يتوانى عن نشر افكاره ومذهبه واستمر على هذا النشاط الى ان توفى فى بيروت سنة ١٨٥٧ (٣) ·

واذا كانت الدولة العثمانية صاحبة السيادة الشرعية على بلاد الشام قد عارضت الارسالية الامريكية ، فان الحكم المصرى منذ البداية لم يكن معارضا للبعثات التبشيرية بل فتح المجال أمامها فزادت اعدادها وجاء عدد آخر من المبشرين الامريكيين فى سنة ١٨٣٤ لينضموا الى البعثة الاولى (٤) وكان للسياسة الدينية التى اتبعها ابراهيم باشا الفضل فى

(١) عبد الكريم غرايبه (الدكتور) المصدر السابق ص ١٢٢
(٢) جورج أنطونيوس المصدر السابق ص ٩٧ ، ٩٨
(٣) نفس المصدر ص ٩٨ ، ٩٩ (هامش)
(٤) جلال يحى (الدكتور) هامش ص ١٦٤ ، ١٦٥

ذلك فقد اقام سياسته وحكمه على مبـــدأ التسامح الدينى واعـــدل والمساواة (١) ٠

وفى سنة ١٨٥٠ اعترفت تركيا رســـميا بالطائفة البروتستانتية وفتح ذلك مجال العمل امام البعثة الامريكية التى سارعت بمد نشاطها الى دمشق وحلب وحمص وحماه وجبل النصيرية (٢) ٠

والجدير بالذكر أن الولايات المتحدة عندما بدأت نشاطها التبشيرى بهذه الصورة فى بلاد الشام فانها لم تكن قد بدأته دون سابق اعداد ، بل استعدت لذلك بدرجة كافية ، فالى جانب المجلس الامريكى لمراقبة البعثات السابق الاشارة اليه ، فانها قد دخلت دائرة الاستشراق واغلب المبشرين الأمريكيين الذين جاءوا الى بلاد الشام من المستشرقين الذين استعدوا لهذا العمل بالبحث والدراسة ، ومن هؤلاء « فان ديك Van Dyck والدكتور جورج بوست G. Post ووليم بوبر W. Drum والدكتور هارفى بورتر H. Porter ووليم بوبر W. Poper» وغيرهم ٠ (٣)

وقد عمل هؤلاء المبشرون من المستشرقين على التجهيز للعمل التبشيرى ونشر الدعوة لدينهم فى بلاد الشام والعالم العـــربى بالتجهيز العلمى والدراسى ، فقاموا بشرح كتبهم الدينية ، بما فيها من تطورات جديدة ادت الى حركة الاصلاح فأدى بهم ذلك الى الدراسات العبرانية وهـذه ادت بهم الى الدراسات العربية والاسلامية لان الاخيرة كانت ضرورية لفهم الاولى وخاصة ما كان منها متعلقا بالجانب اللغوى (٤) ٠

وفى سنة ١٨٤٢ حذت أمريكا حذو انجلترا فأنشأت جمعية آسيوية بدأت عملها بطبع مجلة لها فى بوسطن (٥) وأعد الدارسين المستشرقون الامريكيون مجلة أخرى تعرف باسم « مجلة الدراسات الشرقية » وكانت

---

(١) عبد الرحمن زكى (البكباشى) حملة الشـــام الاولى والثانية ص ٣٦٢ ، ٣٦٣ « ذكرى البطل الفاتح ابراهيم باشا ١٨٤٨ ، ١٩٤٨ ، الجمعية المصرية للدراســـات التاريخية »

(٢) عبد الكريم غرايبه (الدكتور) المصدر السابق ص ١٢٣

(٣) نجيب العقيقى المستشرقون ص ١٧٠ ، ١٧٥

(٤) محمد البهى (الدكتور) الفكر الاسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى ص ٥٢٢

(٥) نجيب العقيقى المصدر السابق ص ١٧٠

تصدر من مدينة جامبير بولاية أوهايو • غير أن اخطر المجـــلات التى اصدرها المستشرقون الامريكيون هى مجلة « العالم الاسلامى اليوم » التى انشأها صـــــمويل زويمر والتى انتشرت فى الشام والعالم العربى والاسلامى انتشارا واسعا (١) •

والى جانب التأسيس العلمى لهذه الارساليات فان الولايات المتحدة واصلت مد حمايتها ومتابعتها لنشاطها بعد مجيئها الى بلاد الشام ، فأسست القنصليات وأوفدت الدبلوماسيين وذلك لحماية الارساليات من ناحية وتدعيم نظام الامتيازات من ناحية ثانيــة • ويرجع هذا على وجه التحديد الى سنة ١٨٢٤ وهو العام الذى يمثل بداية للتمثيل القنصلى والدبلوماسى بين الولايات المتحدة وتركيا (٢) ويتبع ذلك بالتالى اقامه العلاقات القنصلية فى بلاد الشام ، فبدأت القنصليات الامريكية بفتــح ابوابها فى دمشق وبيروت وحلب (٣) كما ظهرت قنصليات أمريكية أخرى يديرها نواب قناصل بعضهم سوريون فى يافا والرملة والقدس ، كما استخدم القناصل الامريكيون ايضا نوابا لهم من اليهود وعلى سبيل المثال أن القنصل الامريكى فى بيروت المستر شاسيور استخدم نائبا له مـن اليهود السوريين (٤) •

وفى سنة ١٨٦٣ اصدرت الدولة العثمانية نظام الادارة الخارجية الذى يطبق على القنصليات الامريكية والاجنبية ، وقد صيغ هذا النظام فى ثلاثة عشر بندا وملحقا ، واستهدف تنظيم اســتخدام الموظفين من رعايا الدولة العثمانية الذين يعملون فى السلك القنصلى الامريكى والاجنبى ، وبموجب هذا النظام سمحت الدولة لهذه القنصليات باستخدام عدد معين من رعاياها ، فاذا كان رئيس القنصلية الموجودة فى مركز الولاية برتبة « قنصل عام » فيحق له استخدام اربعة مترجمين واربعة مرافقين • أما القنصليات الفرعية فى مراكز الولاية فيحق لها استخدام ثلاثة مترجمين ومثلهم من المرافقين ، وحدد لوكيل القنصل مترجمان ومرافقان (٥) •

---

(١) محمد البهى (الدكتور) المصدر السابق ص ٥٢٥

(٢) السروجى (الدكتور) المصدر السابق ص ٢٦٧

(٣) زين نور الدين زين الصراع الدولى فى الشرق الأوسط وولادة دولتى سوريا ولبنان ص ١٥١

(٤) عبد الكريم غرايبه (الدكتور) المصدر السابق ص ١٣٠

(٥) عبد العزيز عوض المصدر السابق ص ٣٢٤ ، ٣٢٥

ـ مدارس الأرساليات الأمريكية واثرها

أدركت الارساليات الأمريكية البروتستانتية المتحمسة لنشر دينهـا تحمسا كبيرا أن احسن ميادين العمل التبشيرى ، هو ميدان التعليم وهذا هو ما اقرته أيضا ارساليات تبشيرية أخرى منذ فترة طويلة ·

وتأتى اهمية التعليم فى العمل التبشيرى فى أن حاجة النـاس الى التعليم لا تنقطع ، كما أن التعليم يضمن تنشئة اجيال صبغوا على ايدى معلميهم بالصبغة التى يريدونها ، فطريق التعليم اذن هو اخطر الطـرق فى توجيه أفكار الطلاب وفق تخطيط التبشير وبرامجه (١) ·

ومن هنا فان الارساليات الامريكية قد اقبلت على ميـدان التعليم ومولته بالأموال الكثيرة وزودته بالمبشرين المتحمسين · الذين يعترفون أنفسهم باتجاهات واهداف هذه المدارس التبشيرية ، فيقول احدهم : « ان أهداف المدارس والكليات التى تشرف عليها هذه البعثات هى التنصير حتى أن الموضوعات الدنيوية التى تعلم فيها كالجغرافيا والتاريخ تحمل معها الآراء النصرانية » وقال آخر «ان التعليم أنفع وسيلة يستغلها المبشرون لتنصير المسلمين » ومن هنا وباقتناع من هؤلاء المبشرين الامريكيين فان مدارس ارسالياتهم قد انتشرت فى بلاد الشام المختلفة انتشارا كبيرا (٢) وكان أول ما أسسوه منها فى بيروت وبيت المقدس وجبل لبنان (٣) وقد بدأت الأرساليات الأمريكية فى وضع هذا الأساس التعليمى منذ سـنة ١٨٣٣ (٤) فافتتحوا مدرسة فى « عينطورة » سنة ١٨٣٤ ، ولما وفد على لبنان الدكتور فانديك المبشر الامريكى رأى أن البلاد فى حاجة للمدارس العليا فأنشأ مدرسة « عبيه » سنة ١٨٤٧ (٥) لتدريس الرياضـيات والطبيعة على المستوى الجامعى (٦) ·

ومدرسة أخرى لتخريج المعلمين والواعظين (المبشرين) · وفى سنة ١٨٥٩ اسس البروتستانت الامريكيون ايضا أول مدرسة للبنـات

---

(١) محمود محمد شاكر أباطيل وأسمار ج ١ ، ٢ ص ١٨٥

(٢) أحمد أمين فيض الخاطر ج ١٠ ص ١٥٢ ، ١٥٣

(٣) شمس الدين الرفاعى (الدكتور) تاريخ الصحافة السورية ج ١ الصحافة السورية فى العهد العثمانى ص ٣٦

(٤) أحمد عبد الرحيم مصطفى (الدكتور) الولايات المتحدة والمشرق العربى ص ٥

(٥) عمر الدسوقى (الدكتور) فى الأدب الحديث ج ١ الطبعة الخامسة ص ١٠٩

(٦) عبد الكريم غرايبه (الدكتور) المصدر السابق ص ١٧١

فى بلدة « عبيه » (١) وكان اهتمـام المبشرين الأمريكيين كبيرا بمدارس تعليم البنات ومن اجل ذلك فانهم طالبوا الحكومة الامريكية سنة ١٨٧٥ بمبلغ ثلاثين ألف دولار لبناء مدرسة دينية للبنات فى مدينة بيروت وعللوا طلبهم هذا بقيمة المرأة فى الحياة المنزلية ، وأن تلك المدرسـة ستساعد على تنصير سوريا فى المستقبل (٢) وكانت درة اعمال المبشرين الامريكيين فى الحقل التعليمى تأسيس الكلية السـورية البروتستانتية (التى أصبحت فيما بعد الجامعة الامريكية) فى بيروت سنة ١٨٦٦ (٣) والتى ظلت وبحق احد اعمدة التعليم العالى فى بلاد الشام (٤) ٠

واستمرت الأرسالية الامريكية التبشيرية فى فتح مدارسها ببلاد الشام حتى بلغت فى سنة ١٩٠٩ « ١٧٤ » مدرسة منتشرة فى كافة المدن والقرى (٥) ٠

أما عن جامعة بيروت الامريكية فترجع فكرتهـا عند المبشرين الامريكيين عندما ناقشوا مشكلة التعليم العالى وعدم وجود مراكز أمريكية لائقة بهذا النوع من التعليم ، ومن ثم اتخذوا قرارهم بالاسراع فى تأسيس كلية أمريكية فى بيروت وفى سنة١٨٦٢ عهد الى أحد المبشرين الأمريكيين وهو القس « دانيال بلس » بالسفر الى انجلترا ثم الولايات المتحدة ليجمع ما يتطلبه هذا المشروع من عون مالى (٦) وفى سنة ١٨٦٣ وصل « دانيال بلس » الى الولايات المتحدة ، وهناك خطب فى الكنيسة المشيخية بنيويورك فأكد حاجة الشرق الاولى الى تعليم دينى ووضع كتب مسيحية تساعد على الاتصال بملايين الناس فى آسيا وفى أفريقيا ٠ وبعد أن عاد « دانيال بلس » من الولايات المتحدة انعقد اجتماع فى منزل الدكتور فانديك حضره فورد وجب وهرتر وهم من الارساليات الأمريكية ، كما حضره ايضـا

---

(١) عمر فروخ (الدكتور) ومصطفى خالدى (الدكتور) التبشير والاسـتعمار فى البلاد العربية ص ٨٠

(٢) نفس المصدر ص ٨٧

(٣) أحمد عبد الرحيم مصطفى (الدكتور) المصدر السابق ص ٥

(٤) البرت حورانى مستقبل الجامعات الأجنبية فى الشرق الأدنى ص ٢٥ ، ٢٦ « مجلة الفكر ــ عدد خاص ــ دور الجامعة فى المجتمع ، السنة الخامسة ، العدد الأول ، اكتوبر سنه ١٩٥٩ »

(٥) عمر فروخ (الدكتور) المصدر السابق ص ٧٨

(٦) جورج أنطونيوس المصدر السابق ص ١٠٦ ، ١٠٧

« جونسون » قنصل الولايات المتحدة فى بيروت ، وقد قرر المجتمعون فى هذا الاجتماع ، اتجاه الكلية فقالوا :

« نحن نصر على الطابع التبشيرى للكلية وعلى أن يكون كل استاذ فيها مبشرا مسيحيا » (١) ٠

وهكذا ولدت الكلية السورية فى بيروت (الجامعة الأمريكية) منذ بدايتها فى احضان البعثة التبشيرية الامريكية والتى حددت اهدافها التبشيرية منذ البداية ، وهى فى ذلك محتمية بالامتيازات الأجنبية التى جعلت أمر التدخل فى هذه المؤسسات الأجنبية امر صعب وغير مشروع ٠

وعندما افتتحت الكلية سنة ١٨٦٦ اختير اكبر المتحمسين للفكرة والداعين لها « دانيال بلس » ليكون أول رئيس للكلية ٠ ودانيال بلس مؤهل لذلك فهو دكتور فى اللاهوت ، وترجع اقامته ونشاطه التبشيرى فى بيروت الى سنة ١٨٥٦ ، واستمر رئيسا للكلية حتى سنة ١٩٠٢ وخلفه ابنه « هوارد بلس » (٢) ٠

وفى أول الأمر عملت الكلية على كتمان جهودها التبشيرية تجنبا لسخط الحكومة العثمانية ، وفى ذلك يقول دانيال بلس : « ان السنوات الأولى التى شهدت تطور الكلية قضت ان تسير الكلية فى برامجها بهدوء قدر الامكان فلا تلفت اليها نظر رجال الحكم قبل ان تثبت وجودها » وبعد أن استقرت الكلية تركت طابع التستر واصبح لها اجتماعات دينية ظاهرة ، فأجبرت جميع الطلاب على حضور الصلوات فى الكنيسة كل يوم ، وأجبرت الطلاب الداخليين خاصة على أن يحضروا صلاة يوم الأحد أيضا (٣) واستمرت الكلية الأمريكية تسير على هذا الطابع التبشيرى منذ انشائها وحتى بداية القرن العشرين ٠ ففى سنة ١٩٠٨ اقسم عدد من الطلاب غير المسيحيين بأنهم لن يحضروا دروس الدين المسيحى وكذلك لن يدخلوا الكنيسة ٠ وعجزت الكلية عن ان تطردهم لان عددهم كان مائة وستين طالبا ، فاضطرب الى ان تعفيهم من حضور دروس التوراة وعن دخول الكنيسة معا ، وبعد ذلك أصدر مدير الكلية قرارا باعفاء الطلاب غير النصارى من دخول الكنيسة ولكنهم غير معفيين من حضور دروس التوراة، وفى سنة ١٩١٢ كان على جميع الطلاب أن يحضروا قداس الوعظ

---

(١) عمر فروخ (الدكتور) المصدر السابق ص ٩٦ ، ٩٧

(٢) جورج أنطونيوس المصدر السابق ص ١٠٦

(٣) عمر فروخ (الدكتور) المصدر السابق ص ٩٧

يوم الأحد ، كما كان على بعض الطلاب ضرورة حضور اجتماعات دينية محدده ، وحتى سنة ١٩٢٢ كانت الجامعة الأمريكية لا تزال تصر على تعليم التوراه في صفوفها ، وكانت تخير طلابها بين ان يحضروا دروس التوراه أو أن يحضروا دروسا في الاخلاق مأخوذة من أخبار القديسين (١) أما عن كليات هذه الجامعة ونوعية الدراسة بها • فنجد أنه فى عامها الاول اقتصرت على كلية واحدة هى كلية العلوم ، ثم افتتحت بعد عام كلية للطب سنة ١٨٦٧ وتخرج منها عام ١٨٧٠ الفوج الأول الذى تألف من خمسة اشخاص •

ولبس الأساتذة والطلاب الزى الغربى ، كما كانت اللغة العربية لغة التدريس • وتمت الجامعة واتسعت وارتقت بسرعة ، فانشئت كلية للصيدلة عام ١٨٧١ وانتقلت الى بنائها الجديد سنة ١٨٧٣ (٢) •

وانشأت كليات أخرى للفنون والطب والتمريض والهندسة والزراعة (٣) •

ثم بعد ذلك انشأت كليتين هما كلية التجارة سنة ١٩٠٠ وكلية طب الأسنان سنة ١٩١٠ (٤) •

وبمرور الوقت اتسع نطاق هذه الكليات والدراسات وارتفع مستواها ، وتدرجت الكلية منذ انشائها فى مراحل التقدم بخطوات ثابتة حتى أصبحت فى مستوى ارحلة الجامعية (٥) فغيرت اسمها فى عام ١٩٢٠ من الكلية السورية الانجيلية الى الجامعة الامريكية فى بيروت ، وتزايد عدد طلابها وعدد خريجيها ، وبعد ان كانت مقتصرة على كلية واحدة وثلاثة اساتذة وخمسة عشر طالبا عام ١٨٦٦ ارتفع الرقم الى عدد كبير من الاساتذة والطلاب والكليات (٦) •

واذا كانت هذه الارساليات الأجنبية وعلى رأسها الجامعة الامريكية قد استغلت الامتيازات الأجنبية التى حمت الرعايا الاجانب والامريكيين

(١) نفس المصدر ص ٨١ ، ٨٢

(٢) عبد الكريم غرايبه (الدكتور) المصدر السابق ص ١٧٢ ، ١٧٣

(٣) فيليب حتى (الدكتور) مختصر تاريخ لبنان ص ٢٢٨

(٤) عبد الكريم غرايبه (الدكتور) المصدر السابق ص ١٧٢

(٥) جورج أنطونيوس المصدر السابق ص ١٠٧

(٦) عبد الكريم غرايبه (الدكتور) المصدر السابق ص ١٧٢

واصبحت مبررا لعمل كافة الاجراءات والتصرفات الغير مشروعة فى بلاد الشام ، وكان التبشير اساس سلوكها التعليمى والهدف الأول لأساتذتها ومعلميها الأميريكيين . اذا كان الامر كذلك الا أنه من ناحية ثانية فان هذه الارساليات قد لعبت دورا ثقافيا وتعليميا لا ينكر فى حياة المنطقة وتركت اثرا كبيرا على ثقافات وافكار وسلوك الشباب العرب والمسيحيين فى المشرق العربى بأجمعه .

فالجامعة الأمريكية اعتبرت اهم المراكز التعليمية المعروفة ، وقدمت كافة التسهيلات لمختلف مستويات التعليم وفتحت الابواب فجذبت الى صفوفها ليس السوريون فقط ، بل انضم الى مراحل تعليمها بمستوياته ونوعياته المختلفة طلاب فلسطينيون ، وعرب آخرون اغلبهم من المسيحيين وذلك للاعداد والتعليم والتدريب (١)وكذلك طلاب من غربى آسيا وشرقى أفريقيا من مختلف الجنسيات (٢) .

وكان تفوق طلابها فى بيروت شيئا واضحا وملحوظا ، وقد جاء فى أحد التقارير عن هذا التفوق ما يلى :

« لقد اتيحت لى الفرصة لرؤية كثير من شباب الشام الذين يتعلمون فى مدرسة البعثة التبشيرية الأمريكية فوجدتهم يتفوقون على جميع اقرانهم فهم جميعا يدرسون اللغة الانجليزية ، وتتراوح نفقات هذه المنشأة بين ٦٠٠ و ٧٠٠ دولار فى العام تجمع كلها من التبرعات العامة فى الولايات المتحدة ، وقد أنشأ هؤلاء المبشرون فى أزمان مختلفة مدارس للبنات ، وكانت النتيجة ان نسبة الذين يعرفون القراءة والكتابة من السكان النصارى فى بيروت تفوق نسبتهم فى أى بلد آخر من بلاد الشام » (٣) .

ولم يكن تفوق طلاب الأرساليات الأمريكية فى بيروت فقط بل تفوق جميع طلابها فى مدارسها المختلفة ببلاد الشام . كما كان تفوقهم فى المنطقة ككل علامة بارزة تفوق كافة مستويات التلاميذ والطلاب بنوعيات التعليم الاخرى فى البلاد العربية المجاورة .

وما ان انتهى القرن التاسع عشر حتى كانت شبكة المؤسسات

---

(١) S. Greenberg Education in Palestine p. 132.

(٢) فيليب حتى المصدر السابق ص ٢٢٨

(٣) جورج أنطونيوس المصدر السابق (هامش) ص ٩
« من تقرير الدكتور باورنج الى بالمرستون »

التعليمية الامريكية ، وقد غطت الشرق الأدنى ، وكان خريجوها يحتلون مكانة بارزة فى الحياة العامة ، وكان لهم دورهم فى ادخال الثقافة الغربية ومساندة المجموعات الساخطة فى داخل الدولة العثمانية المتداعية (١) وقد كان للبنان دور كبير فى العمل على اثراء هذا النوع من التعليم لخلق مجتمعات مسيحية مثقفة ، وكان أيضا لاتصالة الكبير مع العالم الخارجى وما ادى اليه ذلك من حب استطلاع للنفاذ لحضارة وعلوم الغرب دور فى ذلك • وعلى هذا الاساس وفدت الارساليات التعليمية والأجنبية ووجدت المناخ المناسب للنمو والانتشار (٢) •

ولم يكن لبنان وسوريا هما اللذان شجعا فقط الارساليات الأمريكية والأجنبية الاخرى بل أن كافة الظروف أوجبت المناخ المناسب ، فعلاوة على الامتيازات الاجنبية التى كما ذكرنا كانت الركيزة الاولى للنشاط الأمريكى والأجنبى الآخر • فاننا نجد أن الدولة العثمانية نفسها قد ابدت اعجابها بهذا التعليم واسست عددا من المدارس على النمط العربى ، وأرسلت البعثات الى البلاد الغربية لتعلم ما يحتاجونه اليه من العلوم والمعارف والصنائع والآداب وكل ما يسمونه تمدنا (٣) •

ومن هنا نتجت هذه الظروف وفسرت هذا الانتشار الكبير لمدارس الارساليات الأمريكية والاجنبية ليس فى بلاد الشام فقط بل فى مناطق أخرى من العالم العربى ، واذا كانت قد اتجهت بالدرجة الأولى الى المسيحيين فانها ايضا قد افتتحت ابوابها لعدد قليل من الطلاب المسلمين (٤) •

ولعب خريجو مدارس الارساليات الأمريكية دورا كبيرا فى حياة بلاد الشام السياسية فظهر منهم المفكرون ذوى الآراء التى تنادى بفكرة سوريا وذلك بفعل عوامل شبيهة بتلك التى أدت الى بروز فكرة مصر ، وفى ذلك يقول البرت حورانى « منذ سنة ١٨٦١ آخذ اسم سوريا يستعمل على نطاق واسع محفوفا بشعور الاعتزاز واثبات الذات ، وذلك بفعل عوامل شبيهة بالتى أدت الى بروز فكرة مصر وكانت فكرة سوريا منتشرة بنوع خاص بين متخرجى مدارس الارساليات الأمريكية » (٥) •

---

(١) أحمد عبد الرحيم مصطفى (الدكتور) المصدر السابق ص ٥
(٢) البرت حورانى المصدر السابق ، مجلة الفكر ١٩٥٩/١٠/١ ص ٢٥
(٣) محمد محمد حسين (الدكتور) الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر ج ١ الطبعة الثانية ص ٥٥
(٤) S. Greenberg. Op. Cit., p. 133
(٥) البرت حورانى الفكر العربى فى عصر النهضة ١٧٩٨ ـ ١٩٣٩ ص ٣٢٩ ، ٣٣٠

وكان هذا الاتجاه عند خريجي مدارس الارساليات الامريكيه في مواجهة انتشار الثقافة الفرنسية ونفوذ الحكومة الفرنسية واستقلال لبنان وفي تفسير هذا الاتجاه عند خريجي الارساليات الامريكية يقول البرت حوراني أيضا : « لعله من السهل معرفة سبب ذلك اذ كان معظم الخريجيين من المسيحيين الارثوذكس والانجيليين ، وفيما بعد من المسلمين والدروز فكان استقلال لبنان يعني لهم سيطرة الموازنة والثقافة الفرنسية وانتشار نفوذ الحكومة الفرنسية ، بينما كانت فكرة سوريا تبدو لهم كوسيلة للتخلص من وضع الاقلية دون الوقوع تحت سيطرة أخرى » (١) .

واذا كانت قد ظهرت فكرة سوريا عند خريجي مدارس الارساليات الأمريكية ، وفكرة مصر عند أفكار تبشيرية أخرى فان هذه افكار غربية استعمارية في مواجهة العالم العربي والاسلامي لتجزأته وتقسيمه وفي ذلك يقول الدكتور محمد البهي « لم تكن الحركة التبشيرية تغلق نفسها على طابع ديني بحت بل هي تخفي في ثناياها التسلل الاستعماري الغربي بغية السيطرة الاقتصادية والسياسية على شئون العالم العربي . ولهذه الغاية نفسها فاننا نجد هؤلاء المبشرين يثيرون النزعات الشعوبية » (٢) وهي دعوات اقليمية ترفض اية محاولة مقبلة لاتحاد العرب ايثارا لوطنيات ضيقة (٣) .

والمبشر الأمريكي صموائيل زويمر يعمق من هذه الفكرة عند الأرسالية الأمريكية فيقول : ان تباعد العالم الاسلامي وعدم تنسيق سياسته تجاه هدف واحد مكسب كبير للتبشير والمبشرين ، وأن أحد خطط التبشير واتجاهاته هي المحافظة على هذا التباعد بين الأقطار العربية الاسلامية » (٤) .

ولتعميق نفس هذا الاتجاه فان الدعوات التبشيرية كانت تجند نشر اللغة العامية واللهجات العربية المحلية بدلا من الفصحى وابرز ممن تولوا هذا الاتجاه هو القس زويمر نفسه ، فكتب في جريدة العالم الاسلامي يقول « يجب ان تكون اللغة الرسمية عند السوريين هي اللغة

(١) البرت حوراني المصدر السابق ص ٣٣٠

(٢) محمد البهي (الدكتور) المصدر السابق ص ٥١٨

(٣) أحمد موسى سالم الاسلام وقضايانا المعاصرة ص ٦٢

(٤) The Moslem World No. 2 Vol. XXVI

العامية بدلا من الفصـــــحى وكذلك المصريين والعراقيين وكافة الاقطار الاسلامية التى تتحدث باللغة العربية » (١) ·

وجاء تفسير زويمر فى ذلك ضعيفا للغاية ، فيقول « ان العامية يجب أن تكون هى الرسمية لأن اللغة الفصحى لا تنتشر الا بين فئــات قليلة جدا من سكان الأقطار العربية الاسلامية » (٢) ·

وزويمر فى ذلك يحمل على لغة القرآن ، والقرآن هو الملتقى الاول لأقطار البلاد العربية الاسلامية · وبما أن القرآن قائم ودائم على مـر التاريخ والعصور ، فالفصحى وهى لغة القرآن اذن قائمة وأبدية فالأصح أن الفصحى هى الاساس والرباط الوثيق الذى يربط بين الأقطار العربية والاسلامية لانها لغة القرآن الدائم الخالد ·

ويعتبر زويمر بذلك من أخطر أفــراد البعثـــة التبشـــيرية الأمريكية فهو مستشرق مبشر ، اشتهر بعدائه الشديد للاســلام وقد أسس مجلة « العالم الاسلامى » الأمريكيــة التبشيرية والف كتاب « الاســـلام تحد لعقيدة » (٣) وعمل رئيسا لأرسالية التبشير العربية بالبحرين (٤) وفى سنة ١٨٩٣ انتقل للعمل فى مسقط (٥) ولم يكن نشاطه قاصرا على الخليج والشــام فقط بل انتقـل الى مصر ورأس مؤتمـر القــاهرة النبشــيرى سنة ١٩٠٦ (٦) وتقديرا لجهوده فى خدمة الأرساليات التبشيرية الأمريكية، فان الأمريكيين قد انشأوا وقفا باســـمه على دراســـة اللاهوت واعداد المبشرين (٧) ·

فالارساليات الأمريكية اذن فى بلاد الشــــام والمنطقة العربية قد ساهمت بدور فعال الى جانب الأرساليات الأخرى فى بث وتعميق الجذور

---

(١) Ibid. p. 158-160.

(٢) Ibid.

(٣) محمد البهى (الدكتور) المصدر السابق ص ٥٤٥

(٤) نبيل عبد الحميد المصدر السابق (هامش) ص ١٦١

(٥) جمال زكريا قاسم (الدكتور) الخليج العربى · دراســـة لتاريخ الامارات العربية (١٨٤٠ ـ ١٩١٤) ص ٣٨٥

« وهى رسالة دكتوراه تحت اشراف أ·د· أحمد عزت عبد الكريم ، ومطبوعة على نفقة جامعة عين شمس سنة ١٩٦٦ »

(٦) Methods of Mission Work Among Moslems p. 7.

(٧) محمد البهى المصدر السابق ص ٥٤٥

الانفصالية والدعوات القومية الضيقة بين الاقطار العربية وذلك من خلال مدارسهم ومجلاتهم ومختلف الوسائل التبشيرية الأخرى ، وهى دعوات وان كان لها بعض الصدى الا انها دعوات مكشوفة ، أظهرت خطط التبشير الأمريكى وأهدافه . وفى كل هـــذا تقف الامتيازات التى منحت للرعايا الأمريكيين حاميا وسدا منيعا فى مواجهة السلطة وفوق قانون البلاد .

نشر الكتب المقدسة والدعاية الى الأنجيل :

ومن أبرز أنشطة الأرسالية الأمريكية أيضا فى بلاد الشـــام نقــل مطبعة البعثة من مالطة الى بيروت فى سنة ١٨٣٤ (١) وكان الغرض منها نشر الكتب المقدسة والدعاية الى الانجيل والمسيح فى هذا الشرق القريب بين ســكان البلاد العربية (٢) وكذلك أرادوا من هذه المطبعة نشر وبيع الكتب التى تتلائم وتراث بلاد الشام ، فقاموا بتأليف كتب باللغة العربية وكتب أخرى مدرسية مختصرة ، وكان لايلى سميث وزملائه من الأمريكيين الفضل الكبير فى ذلك ، فقد عكفوا على تعلم اللغة العربية خلال الزمن الذى استغرقه نقل مطبعتهم من مالطة الى بيروت ، ولم تمض ســـوى سنوات قليلة حتى استطاعوا بما طبعوه من كتب أن يسدوا حاجة مدارس الأرسالية ، بل لقد زودوا مدارس أخرى غير مدارسهم بهذه الكتب (٣)

وتأتى أهمية مطبعة الارسالية الأمريكية فى كونها أول مطبعة عرفتها البلاد بالمعنى الحديث وبالحروف المتعارف عليها ، واستمرت ولفترة طويلة بعــــد ذلك من أعظم مطبعة فى بيروت الى جانب مطبعة أخــــرى أسستها الأرسالية اليسوعية سنة ١٨٤٨ (٤) .

وبعد ذلك أخذ ايلى سميث يعمل على تطوير هذه المطبعة بعمل اضافات جديدة الى تجهيزاتها تمكنت المطبعة بواسطتها من توسيع أعمالها فأخذت على عاتقها طبع عدد من الكتب العــربية ، وكان من أعمــالها التى كلفتها عناءا كبيرا اصدار طبعة جديدة للأنجيل (٥) .

وأول عمل خطير قامت به المطبعة الأمريكية ، هو ترجمة التوراة الى

(١) جورج أنطونيوس المصدر السابق ص ١٠٠
(٢) محمد كرد على خطط الشام ج ٤ ص ٩٥
(٣) جورج أنطونيوس المصدر السابق ص ١٠٥
(٤) محمد كرد على المصدر السابق ص ٩٥
(٥) شمس الدين (الدكتور) المصدر السابق ص ٣٦

لغة عربية سهله وصحيحه والاهم ذلك هو أنها وزعت الكتب المقدسة بعد ترجمتها مجانا ، أو بيعها بسعر زهيد ٠ وكانت النسخ الأولى التى وزعت آنذاك مترجمة عن النص الذى صدر فى روما سنة ١٦٧١ ، وصار سفر المزامير الكتـــاب المقدس لتعليم التلاميذ القراءة ٠ وقد ترجمت التوراة عن اللغات الأصـــلية ولكنها لم تختلف فى عباراتها عن النص القديم الا لأسباب تستدعى ذلك ، وصدر العهد الجديد فى سنة ١٨٦٠ ، وصدر العهد القديم بعده بخمس سنوات وقد قام بالترجمة ايلى سميث وأمريكى آخر هو كورنيليوس فان ديك ، وكان يساعدهم فى هـــذا المشروع ثلاثة من العلماء اللبنانيين وهـــم بطرس البستانى وناصيف اليازجى ويوسف الاسير ، ووضع بطرس البستانى المسـودة الأولى عن اللغة العبرية (١) ٠

ولم يقتصر نشاط مطبعة الأرسالية على نشر الكتب المقدسة فقط باللغة العربية بل تمكنوا وبمعاونة تلاميذهم وأصدقائهم من المسيحيين العرب من التنقيب عن كتب الأدب العربى التى كانت مهملة فى زوايا الأديرة والكنائس وفى مكتبات بعض الأمراء ، فأحيوها وأعادوا طبعها ونشرها (٢) وهكذا وسعت مطابعهم من أعمالها بطبع عدد كبير من الكتب العربية (٣) ٠

وحركة احياء التراث العربى التى تزعمتها الأرسالية الأمريكية فى بلاد الشام تعتبر خطوة طيبة على طريق احياء النهضة الفكرية ، هـــذا بالاضافة أن مدارس الأرسالية الأمريكية أيضا كانت تجعل اللغة العربية فى مكان الصدارة فقد كانت لغة التدريس (٤) واستمرت على ذلك حتى سنة ١٨٨٠ على وجه التقريب ، اذ أخذت هذه المدارس تعمل على احلال اللغة الانجليزية محل اللغة العربية فى التدريس والتفاهم ، وقد صارت المدارس الأمريكية فى ذلك على منهج المدارس الأجنبية الأخرى التى رأت أن اللغات الاجنبية أيسر عن اللغة العربية فى تعليم العلوم الحديثـــة ومصطلحاتها الفنية والتى تعتبر جديدة على العرب (٥) ٠

---

(١) فيليب حتى المصدر السابق ص ١٣٧

(٢) محمد رفعت المصدر السابق ص ٢١٤

(٣) أحمد عبد الرحيم مصطفى (الدكتور) المصدر السابق ص ٥

(٤) جورج أنطونيوس المصدر السابق ص ١٠٧

(٥) جورج أنطونيوس المصدر السابق ص ١٦٦ ، ١٦٧

كما اهتمت الأرساليات الأمريكية أيضا بالمكتبات فوجدت بالجامعه الأمريكية مكتبة كبيرة حوت ما يقرب من عشرين ألف مجلد (١) واهتمت هذه المكتبة بجمع وطبع كافة ما يتعلق بالأصول العربية لتاريخ سوريا وخاصة فى عهد محمد على ، واشرف على جمع هـــذه الأوراق السياسية أساتذة متخصصين فى التاريخ الشرقى بالجامعة الأمريكية ببيروت مثل الدكتور اسد رستم ، وهذه الأوراق تتعلق بكافة الأمور التى تخص النواحى السياسية والاقتصادية والاجتماعية (٢) ٠

ـ الجمعية العلمية السورية والصحف والمجلات :

ويرجع لبعض من كبار رجال الأرسالية الأمريكية الفضل الاكبر فى تأسيس أول جمعية علمية سورية وهؤلاء الأمريكيون هم : ايلى سميث وكورنيليوس فان ديك ، وعدد آخر من الأمريكيين (٣) وكانت بدايتها سنة ١٨٤٧ كناد أمريكى فى بيروت أسسه المبشرون قبل افتتاح أى من المدارس الكبيرة المعروفة ثم سميت بالجمعية العلمية السورية (٤) ٠

وكان الفضل فى تأسيسها أيضا يعود الى بعض من مسيحى الشام الذين كان لهم ارتباط كبير بأعضاء البعثة التبشيرية الأمريكية ، فقد اقترح فكرة الجمعيـــة كل من ناصيف اليازجى وبطرس البستانى على الأمريكيين وأرادوا منها أن تساير التعليم فى المدارس الحديثة ورفـــع مستوى المعرفة بين الشبان والكبار عن طريق اتصالهم بالثقافة الغربية ، وتطورت الجمعية الى ان بلغ عدد أعضائها بعد عامين من تأسيسها خمسين عضوا أكثرهم من النصارى السوريين فى بيروت ، وكانت للجمعيـــة مكتبة صغيرة ولكنها كبيرة النفع ٠ وعملت الجمعيـــة على عقد اجتماعات دورية كل أسبوعين ثم أصبحت الاجتماعات تقــل مع الزمن ، وفى كل اجتماع يقوم أحد الأعضاء بالقاء بحث علمى ، واستمرت الجمعية مدة خمس سنوات ، وأصدرت فى عامها الأخير كتابا عن أعمالها حرره البستانى ، وكان هذا الكتاب يتضمن عرضا شاملا لما قامت به الجمعية من أعمال وتلخيصا موجزا لكل بحث القى فى اجتماعها ، وتأتى أهمية أعضـــاء

(١) عبد الكريم غرايبه (الدكتور) المصدر السابق ص ٢١٥

(٢) منشورات كلية العلوم والآداب ، الأصول العربية لتاريخ سوريه فى عهد محمد على باشا جمعها الدكتور أسد رستم الجامعة الأمريكية فى بيروت

(٣) جورج أنطونيوس المصدر السابق ص ١١٧

(٤) عبد الكريم غرايبه (الدكتور) المصدر السابق ص ٢١٥

الأرسالية الأمريكية في ذلك لكونهم ساهموا وساعدوا فى تأسيس الجمعية الأولى من نوعها فى بلاد الشام ، بل تكاد تكون فى أية منطقة أخرى من العالم الغربى ، فان فكرة رفع مستوى المعرفة ببذل جهد جماعى منظم كانت غريبة عن الطبيعة العربية الفردية التى كان أسلوبها فى تحصيل مستوى عال من التعليم يشبه أسلوب اليونان فى زمن أفلاطون ، وهذه الجمعية الجديدة كانت بدعة طيبة الثمار ، فتألفت جمعيات أخرى على غرارها كان لها دور هام فى نمو الحركة العربية القومية (١) ٠

ويرجع للجمعية العلمية السورية والمبشرين الأمريكيين الفضل فى تأسيس مجلة فى بيروت عرفت باسم « مجلة أعمال الجمعية السورية » وصدرت منذ عام ١٨٥٢ ودامت لمدة خمس سنوات بدوام الجمعية ، وكانت المجلة تصدر بمقالاتها العلمية والفنية والتاريخية والجغرافية والتجارية والأدبية والفلكية والشرائع والاكتشافات والاختراعات العصرية وغير ذلك ٠ وتعد هذه المجلة ثانى المجلات العلمية فى سوريا تحرر بأقلام بعض الشوام مثل المعلم بطرس البستانى والشيخ ناصيف اليازجي الى جانب المحررين الأمريكيين المبشرين فى البلاد السورية ، ولم تدم المجلة طويلا لأن أفكارها كانت بالدرجة الأولى أفكارا دينية تبشيرية تخللتها المقالات السياسية التى ترمى الى التحرر الفكرى والسياسى لمنطقة الشام ومع هذا فيرجع اليها الفضل فى تكوين رأى عام سياسى فيما بعد ناضل فى سبيل الاستقلال والحصول على المطالب الوطنية والاجتماعية (٢) ٠

وفى أول يناير عام ١٨٧١ م اصدر القساوسة الأمريكيون فى بيروت نشرة شهرية مصورة ذات أربعة صفحات متوسطة الحجم باسم « كوكب الصبح المنير » لتوزيعها مجانا على تلاميذ مدارسهم البروتستانتية تتضمن اخبارا وحكما والغازا روحية وترانيم دينية وفوائد أدبية وقد تعطلت بعد ذلك بمدة طويلة لأن أصحابها لم يكونوا حائزين على رخصة رسمية من الحكومة بجواز نشرها وتوزيعها (٣) ٠

استخدم المبشرون الأمريكيون وسيلة أخرى وهى الطب وعلاج المرضى كحيلة للتبشير ونشر مذهبهم البروتستانتى وبدأ نشاطهم فى ذلك منذ سنة ١٨٥٩ بانشاء أول عيادة طبية لخدمة أغراضهم فى بلدة

---

(١) جورج انطونيوس المصدر السابق ص ١١٦ ، ١١٨

(٢) شمس الدين الرفاعى (الدكتور) المصدر السابق ص ٤٨ ، ٤٩

(٣) نفس المصدر ص ٨٩

سيواس بتركيا ، ومنذ ذلك الوقت نظر الأمريكيون الى الطب على أنه أحد وسائل التنصير واعتبروه مشروعا مسيحيا ، وعلى هـــذا قال الطبيب الأمريكى « يول هاريسون عن الطبيب فى بلاد العرب « ان المبشر لا يرضى عن انشاء مستشفى ولو بلغت منافع ذلك المستشفى منطقة عمان بأسرها ، لقد وجدنا نحن فى بلاد العرب لنجعل رجالها ونساءها نصارى » ثم انهم فرضوا ان يكون الطبيب المبشر نسخة حية من الانجيل اذ بامكانه أن يغير الذين حوله ويجعل منهم نصارى حقيقيين أو أن يترك فى نفوسهم أثرا عميقا على الأقل (١) •

ويعتبر أبرز نشاط للارسالية الأمريكية فى مجال الطب هو انشائهم مدرسة الطب والصيدلة والتمريض فى اطار مدارس الكلية السورية منذ بداية تأسيسها (٢) •

ومع هذا فقد كان لهؤلاء الأطباء الأمريكيين دورا كبيرا فى تدريس علوم الطب وترجمتها ونشر مؤلفاتهم العلمية ، فانه لا يمكن انكار فضل كل من بلس ويوست وفان ديك فى أغناء اللغــة العربية بالاصطلاحات العلمية • وكان الدكتور جورج يوست ابنا لجراح أمريكى مشهور درس الطب واللاهوت فى نيويورك ، وجاء الى سوريا طبيبا ومبشرا عام ١٨٦٣ وأقام فى طرابلس وتعلم اللغة العربية وعين أول استاذ للنبات فى كلية الطب سنة ١٨٦٧ والقى دروسا بالعربية والف كتبا عربية فى الحيوان والنبات والتشريح والجراحة والأدوية كما قام بدراسة لنباتات ســورية وفلسطين وأصدر مجلة طبية وخلفه فى عمله ابنه الفرد •

كذلك ساهم فى عملية التعريب المبشر والطبيب الأمريكى يوحنا ورتبات استاذ التشريح ، والف تسعة كتب طبية وعلمية وصحية ، وبرز أيضا من هؤلاء الأمريكيين الدكتور كورنيليوس فان ديك الذى درس الطب والصيدلة والرياضيات واللغات القديمة ، وأختير عام ١٨٤٠ طبيبا مبشرا لسوريا فجاء بيروت وتعلم اللغة العربية واتصــل بالمعلم بطرس البستانى وألف فى هذه الفترة عدد من الكتب فى الجبر والهندســـة والمثلثات والطبيعيات والجغرافيا وغيرها ، وانتقل بعد أربع سنوات الى صيدا ثم الى الجامعــــة الأمريكية فى بيروت ، لتدريس الكيمياء والفلك

---

(١) عمر فروخ (الدكتور) المصدر السابق ص ٥٩

(٢) فيليب حتى المصدر السابق ص ٢٢٨

والباثولوجيا ، ونشر كتبا عربية فى هذه المواضيع وله من المؤلفات ثلاثة كتب فى الطب وكتابان فى الرياضيات ومثلهما فى الفلك وفى الكيمياء . ولا شك ان نشاطه هذا قد أدخل الى اللغة العربية عددا ضخما من الكلمات العلمية الحديثة وأوضح صلاحية اللغة العربية كلغة تدريس ودراسة وتأليف للعلوم (١) .

وقد وجد من هؤلاء الأمريكيون ، من نقد اطباء ارسالياتهم فى عملهم التبشيرى ، مثل دانيال بلس أول رئيس للجامعة الأمريكية ببيروت ـ ورغم انه هو نفسه أحد كبار مبشرى الارسالية ـ وكان نقد بلس لهم على أساس اهتمام الأطباء بالتبشير أكثر من التطبيب ، فهم يوزعون على المرضى نسخ حسنة الطبع من الانجيل ثم روجتة الدواء والتى تعطى بدون عناية أو اكتراث (٢) .

أعمال البر والأحسان :

ومن وسائل الأرسالية الأمريكية فى أعمالها التبشيرية أيضا أعمال البر والأحسان وهم فى ذلك استغلوا الأزمات الكبرى التى حلت ببلاد الشام . فعقب فتنة سنة ١٨٦٠ أرسلت أموالا أمريكية الى دانيال بلس لتوزيعها على محتاجى بعض قرى لبنان (٣) .

وفى سنة ١٩١٥ هجمت اسراب من الجراد على بيروت وأتت على كل أخضر فيها فأضافت الى ويلات الحرب ويلا آخرا ، وأحدث ذلك المجاعة الكبرى التى ألمت بالبلاد مع بداية الحرب ، وكان للمسنين الأمريكيين الفضل الكبير فى التخفيف عن شدة هذه المجاعة بما ارسلوه من أموال كبيرة الى السفارة الأمريكية والتى أعطتها بدورها الى الجامعة الأمريكية فى بيروت لتوزيعها بمعرفتهم على محتاجى لبنان وفقرائهم (١) .

وحقيقة كان للمبشرين الأمريكيين دورا فى استغلال هذه الأزمات لصالح أهدافهم التبشيرية ، الا أنه من ناحية ثانية كانت لها دورا كبيرا فى التخفيف من الأزمات ومساعدة المحتاجين .

---

(١) عبد الكريم غرايبه (الدكتور) المصدر السابق ص ١٩٦ ، ١٩٧

(٢) عمر فروخ (الدكتور) المصدر السابق ص ٦٣

(٣) نفس المصدر ص ١٩٤

(٤) يوسف الحكيم بيروت ولبنان فى عهد آل عثمان ص ٢٤٩ ، ٢٥٢

وكان للأساتذة الأمريكيين بالجامعة الأمريكية دور في هذه المساعدة والتعريف بها وخطورتها ونقل مشاهداتهم للأزمة ، فيصف أحدهم أحوال البلاد كشاهد عيان لما حدث فيقول : « بعد أن فرغ بعض الناس من بيع امتعتهم اتجه قسم منهم الى الداخل لتحصيل الأقوات ، وقسم ظلوا في قراهم يستقبلون الموت تحت سقوف منازلهم ، وقسم ثالث اتجه الى الساحل فأصاب بيروت منهم نصيب كبير ، فانضموا الى متسوليها ، وأصبحوا جيشا كبيرا منقسم الى فئتين ، الفئة الأولى ، هم الذين كان لم يزل فيهم شيء من النشاط مكنهم من أن يطوفوا على أبواب المخازن والمنازل للاستعطاء كما كانوا يبحثون عن قشور الموز والبطاطا والليمون وغير ذلك لسد المعد الفارغة ، كما كان بعضهم يقصد الجيف للالتهام منها ، أما الفئة الثانية فهم الذين خارت قواهم من شدة ما عانوه من سوء المعيشة والجوع ، وانطرحوا على جوانب الشوارع يستجدون بكلمات تفتت الاكباد » (١) .

فالأمريكيون اذن ،وبغض النظر عن اتجاهاتهم التبشيرية ،قد احسوا بالأزمة وتألموا لها ونقلوها بصورة مؤثرة ، فكان لذلك كله اثره الكبير على المساعدة والنجدة والتخفيف من ويلات هذه المجاعة .

ومن المؤسسات الأمريكية الخيرية التي تأثرت بذلك وكالة الأغاثة الأمريكية ، التي تحركت ومدت يد المساعدة في الفترة بين سنة ١٩١٦ وحتى سنة ١٩٢٩ فيفدى اليها الفضل في انفاق مائة مليون دولار على تغذية «١٢٫٥٠٠٫٠٠٠» شخص بلبنان وسوريا ومساعدة «١٫٠٠٠٫٠٠٠» وتعليم « ١٣٦٫٠٠٠ » (٢) وكان تحرك الأمريكيون وسلوكهم يشعر كبار اللبنانيين بهذه المساعدة .

فيقول يوسف الحكيم في كتابه بيروت ولبنان . ما يلي : « نقل الى صديقي اللبناني الأستاذ يونس خولي ان رئيس الجامعة الأمريكية أخذ منذ أن بدأت الحرب يقتصد في نفقاته مقدما ما يوفره لمساعدة الفقراء حتى انه كان ينزل من مصيفه في الشوير الى مقر عمله في بيروت مشيا على الأقدام ليوفر ركوب العربة فيدفعها لفقير » (٣)

وقد لا يكون هذا السلوك الفردي من رئيس الجامعة بهذا القدر من

---

(١) فيليب حتى المصدر السابق ص ٢٤٢

(٢) نفس المصدر والصفحة

(٣) يوسف الحكيم المصدر السابق ص ٢٥٣

التضخيم والرغبة في المساعدة بالدرجة الأولى ، الا انه على أية حال اثار عند اللبنانيين مشاعر التعاطف ٠

وفى مؤتمر سان ريمو سنة ١٩٢٠ دخلت سوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسى ، والعراق وفلسطين تحت الانتداب الانجليزى (١) ولم تحترم كل منهما رغبات شعوب المنطقة فى الاستقلال والتى طالبت بها وقضت انجلترا وفرنسا نظام الانتداب أمام لجنة التحقيق الأمريكية (٢)

وبدخول سوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسى ، بدأ يتغير وضع الرعايا الأمريكيين والأجانب فصك الانتداب الفرنسى يحتوى على مادة تلغى بموجبها الامتيازات الأجنبية فى سوريا ولبنان بشرط بقاء نظام المحاكم القنصلية الى أن يوضع نظام قضائى جديد ، وفى سنة ١٩٢٣ بدأ وضع أنظمة قضائية جديدة وبالتالى الغاء الامتيازات الأجنبية ، وأصبحت كافة أنواع المحاكم والتقاضى الفعلية والرياسة والنفوذ فيها للقضاة الفرنسيين (٣) ٠

ونفس الشىء أيضا بالنسبة لفلسطين وشرق الأردن حيث الغيت الامتيازات الأجنبية عمليا سنة ١٩٢٣ ، وأصبح لأنجلترا وهى الدولة المنتدبه عليهما الغلبة والسيادة وللقضاة الانجليز الرياسة والفصل واضطلعوا بالنظر فى أحوال الأجانب وشئونهم (٤) ٠

ومن ناحية ثانية كان تنازل تركيا رسميا عن حكم الولايات العربية التابعة لها فى مؤتمر لوزان سنة ١٩٢٣ اتماما لذلك ٠

ومن هنا يمكن ان نقول أن سنة ١٩٢٣ قد حددت وضع الرعايا والمبشرين الأمريكيين فى بلاد الشام ، وأصبح وضعهم مختلف بعد ذلك خاصة بعد الغاء الامتيازات الأجنبية واضطلاع انجلترا وفرنسا بالنظر فى شئون الرعايا الأمريكيين والأجانب ، وكذلك الغلبة لقضاتهم فى الفصل فى قضاياهم ومختلف المسائل الأخرى ٠

---

(١) أحمد عبد الرحيم مصطفى (الدكتور) المصدر السابق ص ٧

(٢) ذوقان قرقوط (الدكتور) المشرق العربى فى مواجهة الاستعمار قراءة فى تاريخ سوريا المعاصر ص ٣١ ، ٣٢

(٣) ف٠م٠ كودبى المصدر السابق ص ١٢٨ ، ١٢٩

(٤) نفس المصدر ص ١٢٠ ، ١٢٥

(٢) العراق :

ـ ضعف الأرساليات الأمريكية :

وفى العراق دخلت الولايات المتحدة الأمريكية وحصلت على امتيازات هناك ، متزرعة بمعاهدة امتيازاتها مع الدولة العثمانية وتحت ستار هذه الامتيازات وفدت ارساليات تبشيرية لتمارس نشاطها هناك .

الا أن النشاط التبشيرى فى العراق بصفة عامة لم يكن بحماس وشدة الحركة التبشيرية فى بلاد الشام وذلك لوجود حكم عثمانى مباشر من ناحية ، ومن ناحية ثانية ضعف النفوذ السياسى الأجنبى ، ومن ناحية ثالثة أن التيارات الفكرية المختلفة التى كانت تموج فى الشام فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر كانت تصل ضعيفة الى العراق فى الوقت الذى كان فيه لبنان بالذات منطلق الحركة التبشيرية الأمريكية والأوروبية الأخرى (١) .

ومع هذا فان ارساليات التبشير الأمريكية البروتستانتية مارست نشاطها فى العراق . ودخلت فى تنافس مع ارساليات التبشير الفرنسية الكاثوليكية (٢) ووسط هذا التنافس كان لها دورا هاما ، رغم ان تاريخ دخولها الى العـــراق يأتى متأخرا عن فرنســـا وانجلترا ، فالمبشرون الفرنسيون بدأ نشاطهم فى العراق منذ أوائل الحكم العثمانى (٣) .

أما المبشرون الانجليز فيأتى دورهم بعد الفرنسيين ولكن بفترة طويلة اذ يرجع مجىء أول مبشر انجليزى بروتستانتى الى العراق الى ســـنة ١٨٢٩ ، وبعد ذلك بعشر سنوات وصـــل الى العراق المبشر الأمريكى البروتستانتى « جرانت » فى صيف سنة ١٨٣٩ قادما من ايران (٤) .

---

(١) عبد العزيز ســليمان نوار (الدكتور) تاريخ العرب الحديث جـ ١ العراق ص ٢٣٤ ، ٢٩٨ ، ٢٩٩

(٢) نوار (الدكتور) دور العراق العثمانى فى حرب القرم ص ٢٣٠ « المجلة التاريخية المصرية ، المجلد الثالث عشر ١٩٦٧ »

(٣) نوار (الدكتور) تاريخ العراق الحديث ص ٣٠١

وأهم الطوائف المســيحية فى العراق غير الكاثوليك هى : اليعاقبة أو السريان ، النساطرة ، الكلدان الى جانب طوائف أخرى قليلة الشأن منها طائفة الأرمن الكاثوليك واللاتين الكاثوليك .

وفى ذلك انظر : « الدكتور نوار نفس المصدر السابق ص ٣٠٢ »

(٤) نوار (الدكتور) نفس المصدر ص ٣٠٧ ، ٣٠٩

فتاريخ مجيء الأرساليات البروتستانتية اذن ، تاريخ حديث ويرجع الى نهاية حكم داود باشا والى بغداد والذى اتسم حكمه بمعاملة المسيحيين معاملة طيبة بعيدة عن الضغط أو الاضطهاد (١) ٠

وبعد أن وصل المبشر الأمريكى جرانت كان هدفه الكبير هو تحويل نساطرة العراق الى البروتستانتيه ، وقد ذهب جرانت اولا الى ماردين وهناك وجد الشعب الماردينى وقد ملأ الغيظ قلبه ضد البعثة التبشيرية الأمريكية التى كانت قد استقرت فى أراضية وهاجموا مقرها ، ففضل جرانت أن يترك المدنية الى ديار بكر ، حيث وجد روح العداء للأوروبيين لا تقل شدة عما صادفه فى ماردين ، ويرجع ذلك على حد قول جرانت نفسه الى أن المسلمين كانوا يعتقدون تمام الاعتقاد ان كارثة نزيب (٢) التى لم تقع الا بسبب النظم الأوروبية ، التى سار عليها العثمانيون فى الجيش وفى الملبس ٠ وكان الاعتقاد السائد أن الأوروبيين لا يسعون الا الى أن يغنى المسلمون بعضهم بعضا حتى يسود الأوروبيون بلاد الشرق الأسلامى ٠ وبسبب ذلك الموقف المضطرب المنذر بالخطر ، ترك جرانت ديار بكر وذهب الى الموصل ،حيث وجد النساطرة هناك قد تحولوا فعلا الى الكاثوليكية وكان لهم « بطريرق » فعلا مستقر فى بغداد ولهم دير مشهور هو دير الرين هرموز ٠ وسعى جرانت من بعد ذلك الى أولئك النساطرة الذين لم يتحولوا بعد الى الكاثوليكية وهم نساطرة الجبال الكردية فى بلاد طيارى وتكوما ليعمل على تحويلهم الى المذهب البروتستانتى ، فقد رأى جرانت فى نساطرة طيارى الميدان الذى يستطيع أن يعمل فيه ، فقام بينهم واعظا وطبيبا يداوى المرضى ، وطلب منه قساوسة النساطرة أن يبنى لهم مدرسة لتعليم الشعب ٠ وفى هذه الظروف أقدم جرانت على عمل جديد ، خطير فى مخبره وبسيط فى مظهره ، وهو أنه أقدم على بناء مركز تبشيرى فى قرية نسطورية ، وليس هذا ما يثير فى الأمر (٣) ولكن

---

(١) نوار (الدكتور) داود باشا والى بغداد ص ١٣٤ ، ١٣٥

(٢) نوار (الدكتور) تاريخ العراق الحديث ص ٣٠٩

المعروف أن الدولة العثمانية منيت بهزيمة كبيرة فى معركة نزيب أمام الجيش المصرى فى يونيو سنة ١٨٣٩ وبعد ذلك بقليل انضم الأسطول العثمانى الى الأسطول المصرى ، فاصبح الباب العالى بلا جيش ولا أسطول ٠ وفى ذلك أنظر :

« نوار (الدكتور) المصالح البريطانية فى انهار العراق ١٦٠٠ ــ ١٩١٤ ص ٤٩ »

(٣) نوار (الدكتور) تاريخ العراق الحديث ص ٣٠٩ ، ٣١٠

المثير عندما حول هذه المدرسة الى ما يشبه القلعة القادرة على الصمود في وجه القوى المحلية اذا تحركت عسكريا ضده النساطرة (١) ٠

فكانت هذه المدرسة كلما ارتفع بنائها ، ارتفعت الشكوك والمخاوف منها ، فكل يوم يتضح انها ستكون قلعة حصينة ، فجدران المدرسة سميكة وأسوارها عالية والمخازن كثيرة والفناء متسع ، وفوق كل هذا وذاك بنى في الأسوار مراغل لتحتمى ورائها فرق لاطلاق نيران البنادق فانزعج نور الله بك – أمير حكارى – من هذا البناء أكثر من انزعاجه من ثورة النساطرة عليه ٠ اذ رأى في بناء تلك القلعة خطورة فعليه نحو سيطرة الأوروبيين على البلاد (٢) ٠

فكان لهذا النشاط اثره الكبير في ان تورطت المنطقة فى صراع طائفى بين الأكراد والنساطرة جلب اليها المتاعب والتدخلات الأجنبية ٠ ورغم هذه الأحداث الدامية التى دارت فى الأربعينات من القرن التاسع عشر (٣) استمر عناية الجمعيات التبشيرية الأمريكية بتلك المنطقة ، فبعثت بالمستر بركنز Perkins الى الموصل وعينتاب وكذلك المبشر الأمريكى فورد Ford الى الموصل أيضا ٠ كما عنيت هذه البعثات التبشيرية الأمريكية بالكلد وفتحت المدارس لتعليمهم وأحضرت لهم مطبعة طبعت كتبا تعليمية دينية بلغتهم الكلدية (٤) ٠

وفى مدينة البصرة أيضا مارست الأرسالية الأمريكية نشاطها فى بداية القرن العشرين فكان للمبشرين الأمريكيين نشاطهم الطبى والتعليمى، فاسسوا مستشفى في مدينة البصرة ومستشفي آخر في مدينة العمارة ، أما عن النشاط التعليمى فهو محدود ويرجع الفضل فيه الى نشاط الدكتور جون فانيس الذى وصل الى البصرة فى سنة ١٩٠٣ ، وبعد أن قام بجولة فى أرجاء العراق ولمس تأخر التعليم وانتشار الأوبئة قرر ان يؤسس مدرسة البصرة وحدث الوالى التركى بعزمه هذا ولكن الوالى اثناه عن عزمه فلم يستطع اقناع المسؤلين بتنفيذ فكرته الا فى سنة ١٩٠٨ حيث حصل على فرمان يجيز له فتح مدرسة المبنين سنة ١٩٠٩ على أن تكون اللغة العربية هى لغة التعليم بها علاوة على اللغة التركية والانجليزية

---

(١) نوار (الدكتور) تاريخ العرب الحديث ج ١ – العراق ص ٣٠٢ ، ٣٠٣
(٢) نوار (الدكتور) تاريخ العراق الحديث ص ٣١٠ ، ٣١١
(٣) نوار (الدكتور) تاريخ العرب الحديث ج ١ العراق ص ٣٠١ ، ٣٠٣
(٤) نوار (الدكتور) تاريخ العراق الحديث ص ٣١٣ ، ٣١٤

بالاضافة الى الدروس الأخرى ، ولم تفتح المدرسة أبوابها للطلاب الا فى سنة ١٩١٠ ، ودخل المدرسة عدد كبير من الطلاب منهم المسيحيين والمسلمين واليهود والصائبة ولم تستمر هذه المدرسة لفترة طويلة ، فقد ظلت تمارس نشاطها حتى عام ١٩١٤ بعد أن خرجت بعضا من العراقيين الذين لعبوا دورا هاما فى الحياة العامة بعد ذلك (١) .

يتضح مما سبق أن النشاط الأمريكى فى العراق محدود ولم يبدأ الا فى فترة متأخرة بنشاط تبشيرى غير كبير لم يتعد بعض من مناطق شمال العراق وجنوبه ، وكان للصعاب التي واجهها المبشرون الأمريكيون أثر كبير فى الحد من انتشارهم وفاعليتهم وتغلغل نفوذهم ، وبالتالى قلت مستشفيات ومدارس وطلاب الأرسالية الأمريكية التبشيرية .

ـ اهتمامات أمريكية أخرى :

كانت تلك هى اهتمامات الولايات المتحدة الأمريكية بولاية العراق العثمانية التى هى فى المقام الأول اهتمامات تبشيرية . ثم تطورت مع مطلع القرن العشرين وعلى وجه التحديد فى سنة ١٩٠٨ الى بداية اهتمامات اقتصادية بترولية (٢) أدخلتها فى منافسة مع انجلترا وفرنسا قبل الحرب العالمية الأولى (٣) وغير المنافسة على البترول دخلت الولايات المتحدة

(١) عبد الرزاق الهلالى تاريخ التعليم فى العراق فى العهد العثمانى ١٦٣٨ ـ ١٩١٧ ص ٢٠٤

(٢) توفيق سلطان اليوزبكى (الدكتور) ومحى الدين توفيق (الدكتور) وصلاح الدين أمين (الدكتور) دراسات فى الوطن العربى ـ الحركات الثورية والسياسية ص ٢٨

(٣) وثائق ونصوص اتفاقيات وعقود البترول فى البلاد العربية ج ١ ، الطبعة الثانية جمع واعداد الدكتور محمد لبيب شقير والدكتور صاحب ذهب (٤) ص ٦

ـ « من المعروف أن الولايات المتحدة لها الفضل الكبير فى صناعة البترول الحديثة وذلك يرجع الى سنة ١٨٥٩ باكتشاف ادوين دريك لبئر البترول فى ولاية بنسلفانيا فى الولايات المتحدة وكانت هذه هى النشأة الثانية لصناعة البترول العالمية الحديثة ، أما النشأة الأولى فكانت منذ خمسة آلاف عام فى العراق »

وفى ذلك أنظر :

(١) مصطفى خليل (الدكتور) تطور الصراع نحو السيطرة على البترول العالمى ص٢١

(٢) مصطفى خليل (الدكتور) أزمة الطاقة فى الولايات المتحدة الأمريكية ص١٠، ١٨

وفى هذين المصدرين معلومات أيضا عن بداية اهتمام الولايات المتحدة ببترول العراق .

الأمريكية أيضا مجال المنافسة مع دول أجنبية أخرى لمد خط سكة حديد العراق (١) ٠

كما كان للأمريكيين اهتمامات بالآثار العراقية فأرسلت فى أواخر القرن التاسع عشر بعثات أمريكية للتنقيب عن الآثار هناك (٢) ٠

وبعد أن دخلت بريطانيا كدولة منتدبة على العراق ، أصبح للأجانب والرعايا الأمريكيين وضع آخر يختلف عنه قبل ذلك ، وفى سنة ١٩٢٢ تعهد ملك العراق أن يقبل النصـــوص المعقوله التى يرى ملك انجلترا تطبيقها لصيانة مصالح الأجانب وذلك بعد الغاء الأمتيازات الأجنبية وعدم تطبيقه ، وحلت انجلترا محل الأجانب فى رعاية مصالحهم وأصبح القصاة الانجليز يرأسون كافة القضايا والمحاكم ولهم السيادة الفعلية فى كل شيء (٣) وتكتمل هذه الصورة بعد تنازل تركيا رسميا عن ولاية العراق فى سنة ١٩٢٣ ٠

(٣) الخليج العربى :

ـ امتيازات الولايات المتحدة التجارية بمنطقة الخليج :

ترجع صلة الولايات المتحدة الأمريكية بمنطقة الخليج العربى الى فترة مبكرة ، وذلك على وجه التحديد منذ سنة ١٨٣٣ ، عندما حصلت على امتيازات تجارية هناك ٠

فقد كان من نتيجة قيام الثورة الأمريكية فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر ، ونجاح تلك الثورة فى سنة ١٧٨٣ أن أمتد نشــاط الولايات المتحدة التجارى الى بلاد الشرق ودخولها ميدان التجارة الشرقية٠ فكانت منطقة الخليج العربى هى احدى هـــذه المناطق التى مارست فيها نشاطا تجاريا ٠ ويرجع لأحد التجار الأمريكيين الفضل فى اظهار هــذا النشاط وتدعيمه ، وذلك بعقد معاهدة تجارية بين بلاده والسيد سعيد بن سلطان٠وقد تمكن هذا التاجر واسمه «آدموند روبرتس **Edmond Roberts** من توقيع هـــذه المعاهدة فى ســنة ١٨٣٣ نيابة عن الرئيس الأمريكى

(١) نوار (الدكتور) مصر والعراق ٠ (مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام) ص ٢٤٥

(٢) عبد الرزاق الهلالى المصدر السابق ص ١٩٨

(٣) ف٠م٠ كورنى المصدر السابق ص ١٩٨

اندرو جاكسون (١) فى القصر السلطاني بمسقط مع السيد سعيد بن سلطان (٢) وعندما منح السيد سعيد الولايات المتحدة هذه المعاهدة وكل ما تريده من امتيازات اراد أن تعمل الحكومة الأمريكية على مساعدته وامداده بقوات لأستعادة جيشه فى شرق افريقيا ، ولكن الحكومة الأمريكية لم تر من مصلحتها تنفيذ تلك المغامرة (٣) ٠

وفى سبتمبر سنة ١٨٣٥ اتخذت المعاهدة وضعها النهائى بعد تعديلها ٠ وكانت عبارة عن معاهدة مودة وصداقه وتجارة بين الولايات المتحدة الأمريكية ومسقط وتوابعها فى شرق افريقيا والخليج العربى ٠ وكانت تنص على ابقاء العلاقات الودية الدائمة بين البلدين وحريه التجارة بالنسبة لرعايا الدولتين ، والتمتع بكافة المزايا التجارية الممنوحة للدول الأكثر رعاية كما نصت المعاهدة أيضا على أن يعين رئيس الولايات المتحدة الأمريكية ، قناصل يستقرون فى موانى السلطان ، يقومون بالحكم فيما قد ينشب بين الرعايا الأمريكيين من خلافات ، كما يقومون بتصفية ممتلكات الأمريكيين الذين يموتون فى ممتلكات السلطان ٠ ولكى يقوم القناصل بتلك الأعباء كفلت لهم المعاهدة بعض الحماية والإمتيازات التي بقوات لاستعادة منبه في شرق افريقيا ، ولكن الحكومة الأمريكية لم تر من تمكنهم من القيام بالمهام التى ألقيت على عاتقهم ، واذا حدثت مخالفات من أحد أولئك القناصل لقوانين البلاد ، فيمكن مخاطبة رئيس الولايات المتحدة بذلك ، الذى يبادر بسحب القنصل وتعيين غيره على الفور (٤) ٠

وبهذه المعاهدة التي عقدها السيد سعيد بن سلطان مع الولايات المتحدة ، يكون قد فتح ممتلكاته العربية والأفريقية للامتيازات الأجنبية والتى لم يمنحها للأمريكيين فقط بل منح امتيازات أخري مشابهة للانجليز والفرنسيين (٥) ٠

ولكن امتيازات الرعايا الأمريكيين كانت أسبق عن الدول الأجنبية

---

(١) جمال زكريا قاسم (الدكتور) دولة بوسعيد فى عمان وشرق افريقيا ١٧٤١ ــ ١٨٦١ ص ٢٢١ ، ٢٢٣

(٢) سيد نوفل (الدكتور) الأوضاع السياسية لإمارات الخليج العربي وجنوب الجزيرة ٠ الكتاب الأول ص ٩٤

(٣) جمال زكريا (الدكتور) المصدر السابق ص ٢٠٤

(٤) جمال زكريا (الدكتور) المصدر السابق ص ٢٢٣ ، ٢٢٤

(٥) صلاح العقاد (الدكتور) التيارات السياسية فى الخليج العربى ص ١٢٦

الأخرى ، واستفاد السيد سعيد بن سلطان فائدة كبيرة ، من النشاط التجارى الذى قامت به الولايات المتحدة الأمريكية ، فقد كان معظم الدخل الذى يتحصل عليه السيد سعيد من جانب الأمريكيين · والحق أن الأمريكيين كان لهم نشاط واضح ملموسا نسبيا وذلك اذا ما قارناهم بغيرهم من رعايا الدول الأجنبية الأخرى ، فمثلا كان يوجد فى سنة ١٨٣٣ أربعة تجار بريطانيين مقابل تسعة من التجار الأمريكيين · ويبدو أن السيد سعيد كان مرتاحا الى الامريكيين ، وكان يتوق الى تشجيع نشاطهم المجرد – فى ذلك الوقت – من الاطماع السياسية ، لما كان يعود عليه ذلك من الخير الوفير وكانت بريطانيا ترقب الامتيازات التى أعطاها السيد سعيد للأمريكيين فى معاهدة ١٨٣٣ بكثير من الشكوك واعتقدت حكومة الهند انه اعطاهم تلك الامتيازات للحصول على تأييد مركزه فى عمان ، ورأت بريطانيا أن تعيد صلاتها بالسيد سعيد خوفا من انصرافه الى غيرها من الدول ، ولعل ذلك ما دفعها الى عقد معاهدة سنة ١٨٣٩ التى كانت شبيهة الى حد كبير بالمعاهدة الأمريكية المذكورة (١) ·

ورغم التدخل الانجليزى الا ان الامتيازات التجارية الأمريكية مع سلطنة مسقط قد وصلت الى درجة الاكتمال فى سنة ١٨٥٩ رغما عما ساد هذه العلاقات من توتر نتيجة لبعض المواد السرية التى كان من المقرر أن تتضمنها المعاهدة التى عقدت بين أمريكا وفارس سنة ١٨٥١ وكانت تنص على مساعدة الأولى للثانية ضد سلطنة مسقط لاسترداد ميناء بندر عباس · وقد حاولت الحكومة البريطانية أن تستغل هذه الأزمة لكى تفقد ثقة السيد سعيد فى علاقاته مع الولايات المتحدة ولكنها لم تنجح فى ذلك فقد ازدادت العلاقات توثقا بين أمريكا والسلطنة فى خلال النصف الثانى من القرن التاسع عشر (٢) ·

ومع هذا فقد أخذت إنجلترا تزيد من نفوذها شيئا فشيئا بدءا من سنة ١٨٣٩ والتى عقدت فيها معاهدتها التجارية مع سلطان مسقط وفى هذه المعاهدة أعطيت للقناصل الانجليز امتيازات أكثر من ناحية السلطة القضائية عن القناصل الأمريكيين · فبينما كانت المعاهدة الأمريكية تنص على أن سلطات القناصل القضائية لا تتعدى الرعايا الأمريكيين ، كانت

---

(١) جمال زكريا (الدكتور) المصدر السابق ص ٢٢٤ ، ٢٢٧

(٢) جمال زكريا (الدكتور) الخليج العربى · دراسة لتاريخ الامارات العربية ١٨٤٠ ، ١٩١٤ ص ٨٢ ، ٨٤

المعاهدة البريطانية تعطى القنصل الانجليزى سلطه الفصل فى المنازعات بين الرعايا البريطانيين والعرب (١) ٠

ومع انتهاء القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين تعاظم الدور الانجليزى فى منطقة الخليج وتضائل الى جواره النشاط الأمريكى بدرجة كبيرة ٠

فما أن انتهت الحرب العالمية الأولى حتى وضح تماما تدعيم السيطرة البريطانية على منطقة الخليج العربى وكان لاختفاء الدولة العثمانية سببا فى أن أصبحت السيطرة البريطانية فى الخليج تمتد من شط العرب شمالا حتى المحيط الهندى جنوبا ، وهكذا حق لكثيرين ان يصفوا الخليج بأنه أصبح بحيرة انجليزية (٢) ٠

ومن الطبيعى ونتيجة هذه السيطرة البريطانية وتدهور أحوال مسقط الاقتصادية ان تعمل انجلترا على اعادة النظر فى امتيازات الولايات المتحدة التجارية التى حصلت عليها بموجب معاهدة سنة ١٨٣٣ ، وكانت الولايات المتحدة قد حصلت ضمن هذه الامتيازات على تسهيلات بعدم زيادة الضرائب الجمركية على البضائع المستوردة من قبل الأمريكيين ورعاياهم عن ٥٪ ، ولكن وزارة الخارجية البريطانية قد رفعت مذكرة بعد انتهاء الحرب الى الحكومة الأمريكية ، للتنبيه برفع الضرائب الجمركية على وارداتها وغيرها من الدول التى حصلت على نفس الامتيازات عن ٥٪ لمعالجة مشاكل مسقط وعمان الاقتصادية ، وهذه المذكرة تعطى الانطباع بتدهور امتيازات الأمريكيين ومصالحهم فى هذه المنطقة ، خاصة وان المصالح الأمريكية أصبحت فى رعاية الوكيل البريطانى لحكومة الهند (٣) ٠

وبعد انتهاء الحرب مباشرة ظهرت للولايات المتحدة اهتمامات اقتصادية أخرى فى منطقة اليمن والخليج العربى ، وهى محاولاتها الحصول على امتيازات التنقيب عن البترول لشركاتها فى هذه المنطقة ، ولكن فى اطار

---

(١) جمال زكريا (الدكتور) دولة بوسعيد فى عمان وشرق افريقيا ص ٢٢٧

(٢) جمال زكريا (الدكتور) المؤثرات السياسية للحرب العالمية الاولى على امارات الخليج العربى ص ١٧٧

« المجلة التاريخية المصرية ، المجلد السادس عشر ١٩٦٩ ، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية »

(٣) جمال زكريا (الدكتور) الخليج العربى ، دراسة لتاريخ الامارات العربية ١٩١٤ /١٩٤٥ ص ٣٦٠ ، ٣٦١

حماية الحكومة الانجليزية لهـــذا النشـــاط الأمريكى فى المحميات البريطانيـــة (١) فشركة الخليج الأمريكية أرسلت بعض من جيولوجييها للتنقيب عن البترول فى جزر البحرين ، وهناك اثبتوا وجـود البترول فى تلك الجزر وذلك فى بداية العقد الثالث من القرن العشرين (٢) .

ـ الارساليات الأمريكية :

أما عن المبشرين الأمريكيين فى منطقـــة الخليج ، فنجد أن الولايات المتحدة قد استغلت نفس الامتيازات الأجنبية التى حصلت عليها هنـــاك فى ممارسة نشاط آخر غير الاهتمام بالمصالح الاقتصادية ، وهذا النشاط هو الارساليات الأمريكية التبشيرية .

وقد قوبل العمل التبشيرى الأجنبى فى مسقط على عهد سـعيد بن سلطان (١٨٠٦ ـ ١٨٥٦) بالتشجيع والترحيب (٣) ومن ثم وفـدت ارسالية التبشير الأمريكية فى عهده الى مسقط لممارسة نشاطها التبشيرى، ومع ذلك لم تنجح البعثات هناك نتيجة لقسوة المناخ من جهة والى مناوأة السكان من جهة أخرى . ويسجل لنا المبشر زويمر أن كثيرا من الاناجيل قد أحرقت علنا واقتصر النشاط التبشيرى على بعض أطفال الزنوج ، كما اضطرت هذه البعثات الأمريكية على الرحيل الى البحرين واتخاذها مركزا لنشاطها (٤) وهناك فى البحرين عمل المبشر الأمريكى زويمر رئيســـا لارسالية التبشير محافظا على خطط التبشير واتجاهاته بدقة ونشـــاط كبيرين (٥) ورغم ان البعثة اتخذت من مدينة المنامة عاصـــمة البحرين مركزا رئيسيا لها ، الا أن مسقط ظلت فرع لامتداد نشاط البعثة بالاضافة الى منطقة الكويت (٦) وفى البحرين لم يحقق زويمر نجاحا تبشيريا يذكر ـ رغم نشاطه الكبير ـ فقد رفض شيخ البحرين أن يبيع له أرضـــا فى بلاده على الرغم من تعهد زويمر بألا يضع فيها ناقوسا أو غيره من آثار

(١) سيد نوفل (الدكتور) المصدر السابق ص ٩٥
(٢) صلاح العقاد (الدكتور) المصدر السابق ص ٣٢٣
(٣) جمال زكريا (الدكتور) دولة بوسعيد فى عمان وشرق أفريقيا ص ٢٣٣ ، ٢٣٤
(٤) جمال زكريا (الدكتور) الخليج العربى . دراســـة لتاريخ الامارات العربية ١٨٤٠ ـ ١٩١٤ ص ١٢١ ، ١٢٢
(٥) The Moslem World No. 2 Vol. XXVI.
(٦) جمال زكريا (الدكتـور) الخليج العربى دراســـة لتـاريخ الامارات العربية ١٩١٤ ـ ١٩٤٥ ص ٣٦٣

المسيحية ولا يدعو فيها الى دينه ، ولكن زويمر تذرع بالانجليز فى يوشهر فألح الانجليز على الشيخ عيسى بن على ، فقبل تأسيس مستشفى ومدرسة لتعليم العبيد المحررين ، وفى عام ١٨٩٣ عاد زويمر الى مسقط ، على أنه لم يكد يمضى أكثر من سنتين من وصول زويمر الى مسقط حتى اشتعلت ثورة ١٨٩٥ ، وكان لهذه الثورة أثرها الكبير فى اعاقة هذا المبشر عن عمله ونشاطه ، مما اضطره الالتجاء الى القنصلية البريطانية للاحتماء بها ولم يلبث أن عاد الى بلاده متأثرا من سوء الطقس ، وكثرة الأوبئة وغضب الناس ، ومما يذكر ان بعثات مسقط التبشيرية يرجع الفضل فى تأسيسها الى الدكتور كانتين عضو البعثة الأمريكية الهولندية ، وامتد نشاط هذه البعثات ، فشمل الساحل المهادن بين رأس الخيمة وأبو ظبى بالاضافة الى جزائر البحرين ، وهى مناطق تقع خارج نطاق السيادة العثمانية وتخضع لسيطرة بريطانيا (١) .

وقد تصورت الارسالية الأمريكية ، الوافدة للتبشير فى منطقة الخليج أن فقر السكان وحاجتهم بتلك المناطق سيكون سببا كبيرا لتحويلهم الى المسيحية ، ولكن لم تلبث ان تكشفت للأمريكيين أخطاء هذه النظرة (٢) .

(٤) اليمن وعــدن :

ــ الولايات المتحدة وتجارة البن اليمنى :

أما فى اليمن فنجد ان الولايات المتحــدة قد شاركت فيها ، بدور تجارى كبير ، فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ، ودخلت بذلك فى منافسة تجارية كبيرة مع شركة الهند الشرقية البريطانية .

ونجحت المنافسة الأمريكية أمام الشركة الانجليزية فى مجال تجارة البن اليمنى ، والذى تركز عليه بدرجة أساسية عمل التجار الأمريكيين ، ويرجع سبب نجاح التجار الأمريكيين الى عروضهم التجارية الأفضل والتى تميزت عن الأســعار التى كانت تتعامل بهــا ، شركة الهند الشرقية الانجليزية ، بالاضافة الى ضعف محصول البن مما أدى الى زيادة الطلب

(١) جمال زكريا (الدكتــور الخليج العربى · دراســة لتاريخ الامارات العربية ١٨٤٠ ــ ١٩١٤ ص ٣٨٥ ، ٣٨٦

(٢) صلاح العقاد (الدكتور)المصدر السابق ص ٣٧٦

وقلة العرض بدرجة كبيرة (١) • ويرجع نجاح التجار الأمريكيين أيضـــا على منافسيهم الانجليز الى ان هؤلاء كانوا على درجة فائقه من الهمـــة والنشاط ، بالاضافة الى أن حكومة الولايات المتحدة كانت تساندهم فى جهودهم الرامية الى مشاركة الانجليز بل منافستهم فى العمليات التجارية بالأسواق الشرقية ، بعد أن كانوا ينفردون باحتكارهم منذ انشـاء شركة الهند الشرقية الانجليزية فى عام ١٦٠٠ ، ومما يؤكد هذا الاتجـاه لدى حكومة الولايات المتحدة الأمريكية ، هو قيامها بعقد معاهدة سنة ١٨٣٣ ــ والسابق ذكرها ــ مع سلطان مسقط وذلك لضمان حسن سير عمليـات التبادل التجارى مع التجار الأمريكيين • كما حاول التجـار الامريكيون ، منافسة التجار الهنود فى بيع المنسوجات القطنية ، وشاركوهم فى تجارة البخور واللبان والصمغ والجلود والعاج • بل أن الأمريكيين كانوا يجمعون مخلفات الطيور البرية من بعض الجزر المواجهة للساحل الجنوبى للجزيرة العربية •

وقد تبينت شركة الهند الشرقيـة الانجليزية ، منذ أوائـل القـرن التاسع عشر ، أن الأمريكيين يعتبرون منافسين جادين لهم ، بالرغم من بعد بلادهم عن ميدان التجارة الشرقية فى البحر الأحمر والمحيط الهنـدى ، فبالرغم من هذا البعد ، أرسل التجار الأمريكيون سفنهم الى الموانى اليمنية، وخاصة مينا مخا ، حيث يحصلون على ثلاثة أرباع اجمالى محصـول البن اليمنى ، الذى كان يبـلغ فى عـام ١٩٠٨ ثلاثة عشر ألف باله ، وقد أدت منافستهم هذه فى مجال تلك التجارة ، الى رفع سعر البالة ، من ٥٦ دولار الى ٧٥ دولار ، وقد قام التجار الامريكيون باســتخدام الطريق التجارى الموصل الى البحر الأحمر عن طريق رأس الرجاء الصالح مع المرور بمحاذاة الساحل الشرقى لافريقيا ، وقد وفر ذلك عليهم نفقات النقل التى كانت تحصل عليها شركة الهند الشرقية الانجليزية والشركات الفرنسية الاخرى التى اتخذت من جزر موريشيوس ورينيون Mauretuis Reunion قواعد لها ، ومن أبرز هؤلاء التجار الامريكيون ، التاجـر تشـارلز ميليت Charle, Millet فقد أبحر هذا التاجر عن بلاده بسفينته الشراعية المعروفة

---

(١) فاروق عثمان أباظة (الدكتور) التنافس البريطانى الأمريكى فى جنوب البحر الأحمر فى النصف الأول من القرن التاسع عشر • ص ١٦ ، ١٧

« وهو أحد الابحاث التى قدمت الى ندوة البحر الأحمر فى التاريخ • وهى الندوة التى نظمها سمنار الدراسـات العليا للتاريخ الحديث بكلية الآداب جامعة عين شـمس فى اسبوعه العلمى الثالث تحت اشراف الأستاذ الدكتور أحمد عزت عبد الكريم • فى الفترة من ١٠ الى ١٥ مارس ١٩٧٩ م »

باسم Ann ووصل الى ميناء مخا فى ١٨٢٦/٦/٢٠ ومعه حمولة ضخمة من البضائع القطنية والمسامير والتبغ ، حيث أفرغ حمولته لدى التجار الذين كانوا يقومون ببيعها لحسابه حتى يعود اليهم فى رحلته التالية ، وكان ميليت هذا يقوم بشحن سفينته بكميات هائلة من محصول البن اليمنى يأخذه معه الى بلاده ، ثم يعاود رحلاته الى بلاد الشرق بصفة منتظمة . ويعتبر ميليت مثالا للتجار الامريكيين الذين كان لهم دور فعال فى التجارة الشرقية فى ذلك الحين ، وغير ميليت وصلت سفن أمريكية أخرى كثيرة الى ميناء مخا اليمنى وخاصة فى الفترة بين سنة ١٨٣٢ و ١٨٣٤ لنقل كميات كبيرة من البن اليمنى (١) .

وهكذا شكل التجار الامريكيون فى ذلك الوقت المبكر ، منذ بداية النصف الاول من القرن التاسع عشر ، منافسا خطيرا للنشاط التجارى لشركة الهند الشرقية الانجليزية فى منطقة البحر الاحمر والمحيط الهندى . وقد وجه ذلك البريطانيين الى ضرورة السيطرة على عدن للاستئثار بتجارة البن اليمنى بعد تحويلها من مخا الى ذلك الميناء ، فضلا عن احتكار الأسواق التجارية بمنطقة البحر الاحمر لتحطيم المنافسة الامريكية وغيرها ، بعد أن بدت خطورتها بشكل ملحوظ (٢) .

وأخذت انجلترا فى تنفيذ هذا المخطط باحتلال عدن فى سنة ١٨٣٩ لتحقق من وراء ذلك عدة مصالح استراتيجية وتجارية وبحرية ، ولأهمية عدن الكبيرة كقاعدة تجارية بين الشرق والغرب (٣) .

ونجحت انجلترا فى احتلالها لعدن ، من مواجهة المنافسة الامريكية وجذبت تجارة البن اليمنى الى عدن ، بعد أن كان ميناء مخا مركزها الرئيسى .

ومع هذا استمر التجار الامريكيون فى تجارة البن بعدن ولكن بكميات محدودة قياسا للحجم الكلى للتجارة هناك . فقد بلغ حجم تجارة الامريكيين « ٢٨٠٠ » جنيه استرلينى فى سنة ١٨٥٢ . هذا مع العلم بأن الحجم الكلى للتجارة فى عدن كان يقدر حينذاك بحوالى « ٦٠٠٫٠٠٠ » جنيه استرلينى

---

(١) فاروق أباظة (الدكتور) المصدر السابق « ندوة البحر الأحمر » ص ٢٧ ، ٢٨

(٢) فاروق أباظة (الدكتور) المصدر السابق ص ٣٠

(٣) جاد محمد طه (الدكتور) أسس تحول عدن من قاعدة بحرية الى قاعدة جوية صد ١ ، ٢ .

« وهو أيضا احد سلسلة أبحاث ندوة البحر الأحمر فى التاريخ »

سنويا . وكان ذلك دليلا على نجاح الانجليز فى كسر احتكار الامريكيين لتجارة البن اليمنى (١) .

ومن ناحية ثانية لم يكن من الرعايا الامريكيين بعدن سنة ١٨٥٦ سوى أمريكي واحد ، وكان ذلك الامريكى هو المستر وليم لوكرمان ، الذى كان يعمل بالتجارة هناك . وقد عينته حكومة الولايات المتحدة الامريكية قنصلا فخريا في عدن في سنة ١٨٧٩ . غير أن القنصلية الامريكية الرسمية ، أنشئت فى سنة ١٨٩٥ ، وكان القنصل الرسمى فى عدن حينذاك هو مستر ماسترسن (٢) .

ارساليات التبشير الامريكية فى مصر والسودان

(١) مصر .

ـ التمثيل القنصلى والدبلوماسى للولايات المتحدة الأمريكية فى مصر .

تعتبر ولاية مصر العثمانية من أكبر الولايات التى تأثرت بالامتيازات الأجنبية (٣) وذلك يرجع الى عصر محمد على الذى أوغلت فيه البلاد فى اتصالها بالعالم الخارجى (٤) وبالتالى بدأت تشهد وفود الأجانب اليها فى ظل سياسة محمد على ، التى اتسمت بالتسامح الدينى واستتباب الامن العام (٥) .

وكانت الولايات المتحدة الامريكية ورعاياها هى احدى الدول الأجنبية التى حصلت على الامتيازات الأجنبية ، فى ولاية مصر وفقا لاتفاقية سنة ١٨٣٠ مع الباب العالى (٦) .

---

(١) فاروق أباظة (الدكتور) المصدر السابق ص ٣٧

(٢) نفس المصدر ص ٣٤

(٣) ف.م. كودنى المصدر السابق ص ١٠٠

(٤) أحمد عبد الرحيم مصطفى (الدكتور) تاريخ مصر السياسى من الاحتلال الى المعاهدة ص ٤

(٥) أحمد عزت عبد الكريم (الدكتور) تاريخ التعليم فى مصر من نهاية حكم محمد على الى أوائل حكم توفيق ص ٨٢٢

(٦) J. Y. Brinton, The American Effort in Egypt A. Chapter in Diplomatic History in the Nineteenth Century, p. 11

وبعد ذلك مباشرة ، بدأ التمثيل القنصلى للولايات المتحدة في مصر وذلك بانشاء القنصلية الأمريكية فى مدينة الاسكندرية (١) ٠

ولم تكن الولايات المتحدة هى الدولة الوحيدة التى أقامت هذه العلاقات القنصلية الرسمية فى فترة حكم محمد على ، بل وجدت قنصليات أجنبية كالانجليزية والفرنسية وأوروبية أخرى ، أكثر أهمية وانتشارا من القنصلية الامريكية فى بداية تأسيسها (٢) وقبل التمثيل القنصلى والدبلوماسى للولايات المتحدة وكذلك قبل حصولها على الامتيازات الأجنبية لم يكن للرعايا الامريكيين دور أو نشاط ملموس فى مصر ، باستثناء مجىء بعض الرواد الأمريكيين ، مثل كاتيرين ليديارد «Catherine Ledyard» الذى وصل الى الاسكندرية فى سنة ١٧٨٨ ، وكان يعمل تابعا لبعثة انجليزية لاكتشاف داخل القارة الافريقية ٠ وفى القاهرة أصيب ليديارد بمرض أودى بحياته ، فكانت نهايته فى مدينة القاهرة التى دفن بها ٠

وغير ليديارد هناك أيضا أمريكى آخر هو الجنرال وليم ايتون «Willian Eaton» وهو أحد قواد البحرية الامريكية الذى وصل الى شواطىء افريقيا الشمالية فى مهمة بحرية خاصة ومنها الى الاسكندرية، التى أبحر منها أيضا فى رحلة نيلية الى مدينة القاهرة ، وقد رفعت على المركب التى اقلت ليديارد العلم الامريكى ، وقد بدأ الرحلة من الاسكندرية الى القاهرة فى ٤ ديسمبر سنة ١٨٠٤ ولم تطل فترة اقامته فى القاهرة والتى عاد منها ثانية الى الاسكندرية التى أبحر منها مغادرا مصر فى ٣ مارس سنة ١٨٠٥ (٣) ٠

وغير هؤلاء هناك عددا آخر من الأمريكبين الذين وفدوا الى مصر فى بداية القرن التاسع عشر وقبل توقيع اتفاقية الامتيازات ، ولم يكن دخولهم كرعايا أمريكيين ، بل دخلوا البلاد تحت أسماء انجليزية ، أى كرعايا انجليز واحتموا فى ذلك بالقنصل الانجليزى (٤) ٠

ولم تكن هناك أى نوع من الحماية الامريكية المباشرة لمصالح هذا العدد المحدود من الامريكيين فى مصر الى أن وقعت اتفاقية سنة ١٨٣٠ بين

---

(١) أحمد أحمد الحته (الدكتور) التمثيل القنصلى والدبلوماسى للولايات المتحدة الأمريكية فى مصر فى القرن التاسع عشر ص ١

(٢) أحمد أحمد الحته (الدكتور) تاريخ مصر الاقتصادى فى القرن التاسع عشر ص ٣٤٠

(٣) J. Y. Brinton, Op. Cit., p. 3-6

(٤) Ibid. p. 8.

الولايات المتحدة الامريكية وتركيا وحصلت بموجبها على الامتيازات الأجنبية شأنها فى ذلك شأن الدول الأوربية الأخرى التى حصلت عليها قبل ذلك • وهذه المعاهدة أوجدت نوع آخر من التعامل على أساس الامتياز لهؤلاء الرعايا وبالتالى حماية مصالحهم المختلفة • وكان يلزم ذلك بالضرورة ان يكون هناك تمثيل قنصلى أمريكى فى مصر (١) وفى البداية لم يكن هدا التمثيل مكتملا بل اعتمد على الدبلوماسيين الامريكيين فى تركيا والذين انابوا عن القنصل الامريكى أحد رجال الأعمال الانجليز واسمه جون جليدون «John Gliddon» وعين فى الاسكندرية بدرجة وكيل قنصل فى سنة ١٨٣١ وفى سنة ١٨٣٢ عين ابنه المستر جورج جليدون «George Gliddon» بدرجة وكيل قنصل أيضا فى مدينة القاهرة • وفى سنة ١٨٣٤ شعر جون جليدون بعدم الكفاية ، وأنه فى حاجة الى معاون آخر ، فطلب ذلك من أحد الامريكيين وهو المستر لويس مكلان Louis Mclane ولم تكن درجة وكيل قنصل معروفة فى ذلك الوقت بين الأوساط الأجنبية ومن هنا رقى الى درجة قنصل فى سنة ١٨٣٦ (٢) •

فبداية التمثيل القنصلى والدبلوماسى للولايات المتحدة الامريكية اذن ارتبط بتوقيع معاهدة الامتيازات الاجنبية ، والذى تعتبر أحد نتائجها ، واعتمد فى البداية على رجال الاعمال الانجليز ممثلين عن الامريكيين •

ونتج عن ذلك أيضا ان بدأت تقوم العلاقات الرسمية بين مصر والولايات المتحدة ، وأصبح هناك ارتباطات ومصالح وحرصت أمريكا على اظهار ذلك •

وفى سنة ١٨٣٤ أبحرت الى الاسكندرية بعض السفن الحربية الأمريكية لزيارة مصر ، بقيادة الكومودور الامريكى ، دانيال باترسن «Daniel Patterson» والغرض من هذه الزيارة هو أن تثبت الولايات المتحدة لمصر صداقتها ، وان تستعرض أمام الوالى محمد على قطع البحرية الامريكية ، لتؤكد أن أمريكا قادرة على حماية حقوقها أمام حملات قراصنة البحر المتوسط ، ورغم أن محمد على لم يكن موجودا فى مصر فى ذلك الوقت ، الا أن القائد الامريكى استقبل استقبالا طيبا فى كل من القاهرة والاسكندرية (٣) •

---

(١) Ibid, p. 12.

(٢) Ibid. p.14.

(٣) J. Y. Brinton. Op. Cit., p. 17-18

وفى سنة ١٨٣٤ أيضا واستمرارا لتدعيم العلاقات المصرية الامريكية، فان القنصلية الامريكية قد طلبت من وزير خارجية الولايات المتحدة ان يمد مصر بآلة ضرب الارز ، وأخرى لاستخراج الزيت من بذرة القطن ، وبستة من المهندسين الامريكيين لاقامة هذه المصانع والاشراف عليها (١) .

وفى سنة ١٨٣٧ عاد القنصل الامريكى فى القاهرة الى واشنطن وقد كتب هناك التقارير التى ذكر فيها عن دوره فى تقوية العلاقات المصرية الامريكية ، والاهتمام بالتجار الامريكيين ، الذين وفدوا الى الاسكندرية وقد كانوا فى بداية مجيئهم على غير دراية بأسلوب التعامل ، وكذلك لغة وعادات المصريين ، ومن ثم قام القنصل بتقديمهم للبيوت التجارية الأجنبية الموجودة فى الاسكندرية .

وقد كانت لزيارة القنصل الامريكى نتائجها فى تنفيذ المشاريع التى سبق ان طالب بها وهى تركيب مضارب تبيض الارز لمدينتى دمياط ورشيد ، وكذلك معاصر لبذرة القطن التى أتت بدخل كبير لوالى مصر . وأرسل المهندسين الامريكيين الستة لتركيب ماكينات الطحن والجرش والتبييض (٢) .

وقد كان للقنصل الامريكى جون جليدون دور كبير واهتمامات قوية بمختلف شؤون مصر ، وكان لذلك اثره الكبير على شدة انتباه الولايات المتحدة بأحوالها مأخوذة فى ذلك بنشاط جليدون ، الذى كتب تقريرا هاما ونشره فى سنة ١٨٤٣ عن تاريخ مصر القديم وموضوعات أخرى مختلفة تتعلق بمصر (٣) .

وقد سلك جون جليدون ، سلوكا آخر عن قناصل الدول الأجنبية الأخرى وخاصة القنصلية الانجليزية ، وذلك فيما يتعلق بمنح الحماية الامريكية لرعايا العثمانيين أو غيرهم مقابل مبلغ من المال ، فقد رفض جون جليدون ذلك فى الوقت الذى منحت فيه هذه الحماية القنصليات الأجنبية الأخرى (٤) وتسابق القناصل فى منح المواطنين حمايتهم وتقاسموا فيما

---

(١) محمد رفعت . تاريخ حوض البحر المتوسط وتياراته السياسية ص ٢١٣

(٢) J. Y. Brinton, Op. Cit., p. 19-22.

(٣) Ibid. p. 27.

(٤) أحمد أحمد الحته (الدكتور) التمثيل القنصلى والدبلوماسى للولايات المتحدة الأمريكية فى مصر ص ٨

بينهم أمر مصر . فبعضهم اختص بالوجه البحرى ، وبعضهم اختص بالوجه القبلى ، يوزعون براءات الحماية على الراغبين وهم كثيرون (١) .

ونظام الحماية جعل أصحابها يدينون بالخضوع لدولتين على السواء فى وقت واحد . وهذا يمثل عدوانا على سيادة الدولة وسلطانها (٢) .

وكان هذا مسلكا معتدلا من القنصل الامريكى الذى رفض هذا النظام، الذى كان فيه مساسا باستقلال بالبلاد وتوسعا فى نظام الامتيازات الأجنبية ، وخروج عدد كبير من الرعايا عن سلطان القانون وأحكامه تحت ستار الحماية الأجنبية .

وانتهت خدمة جون جليدون كقنصل أمريكى فى مصر بوفاته فى يوليو سنة ١٨٤٤ ، وعين اسكندرتود قنصلا أمريكيا من بعده وأخبره وزير الخارجية الأمريكية بذلك فى ١٤ أغسطس سنة ١٨٤٤ وأعلن تمثيله قنصلا للولايات المتحدة فى مصر للمسئولين المصريين ، وممثلى الدول الأوروبية ، وحصل من السلطان العثمانى عن طريق ممثلى الولايات المتحدة فى الآستانة على براءة تعينه (٣) .

ولم يكن اسكندر تود «Alexander Tod» مواطنا أمريكيا بل كان أيضا كسلفه مواطنا انجليزيا ، وقد تزوج من ابنة جليدون ، ومارس عمله فى مكتب القنصلية الامريكية بمدينة الاسكندرية ، واستمر فى ذلك الى أن عين قنصل أمريكى آخر فى ٢٣ يوليو ١٨٤٦ وهو المستر هنرى . ب . همفرى «Henry B. Humphrey» (٤) .

وبعد أن زادت أهمية العلاقات بين مصر والولايات المتحدة ، وظهرت فائدة التجارة بينهما قرر الرئيس الامريكى ، رفع درجة التمثيل الدبلوماسى والقنصلى بين مصر والولايات المتحدة من قنصل الى قنصل عام لتمثيل حكومة الولايات المتحدة فى مصر ، وبناء على ذلك عين دانيال سميث ماكولى «Daniel. S. Macauley» قنصلا عاما للولايات المتحدة فى مصر ، ووصل ماكولى الى الاسكندرية فى ٢٤ فبراير سنة ١٨٤٩ على ظهر سفينة حربية

(١) محمد رشدى التطور الإقتصادى فى مصر ج ١ ص ١٠٠

(٢) بنك مصر ، اليوبيل الذهبى ، ١٩٢٠ — ١٩٧٠ ص ٥

(٣) أحمد أحمد الحته (الدكتور) المصدر السابق ص ٨ ، ٩

(٤) J. Y. Brinton, op. cit., p. 32.

أمريكية (١) ودرجة قنصل عام ، معروفة فى بلاد الشرق بأنها تعطى لصاحبها احتراما أكثر وامتيازات وقوة كبيرة عن درجة قنصل فقط. (٢) فيقول ماكولى أنه استقبل استقبالا حسنا من الخديوى عباس فى مارس سنة ١٨٤٩ ، وقد ذهب الى القلعة بعد أن قدم له حصانا للركوب فى احتفال بهيج ، وكذلك عاد من القلعة ممتطيا هذا الجواد مصحوبا بالتعظيم والاحترام الى الفندق الذى يقيم فيه (٣) .

وجاء بعد ماكولى ، ريتشارد جونز «Richard Jones» فى ٢٨ديسمبر سنة ١٨٥٢ ، قنصل عام للولايات المتحدة فى مصر ، وعين جونز نوابا له فى مدينتى السويس والأقصر لمساعدة السياح الأمريكيين ، وقرر جونز منذ البداية ، الاستمرار فى عدم حماية غير الامريكيين ، ولم تعط هذه الحماية الا للموظفين الغير أمريكيين العاملين فى خدمة القنصلية الامريكية وبلغ عددهم خمسة أشخاص (٤) .

ولم تطل فترة جونز ، ففى العام التالى ، عين ادوين دى ليون «Edwin de Leon» قنصل عام فى ٢٦ نوفمبر سنة ١٨٥٣ واستمر مارس سنة ١٨٦١ ، وفى عهده حدثت أزمة بين الخديوى عباس واليونانيين، وحاول عباس توسيط ، دى ليون ، ليقوم بطرد اليونانيين من الاسكندرية ولكن ليون لم يقم بتنفيذ هذه الوساطة ، وكان من رأيه أن مجتمع اليونانيين فى مدينة الاسكندرية من أكبر المجتمعات الأجنبية وأقدمها وأكثرها احتراما، ولم يخرج اليونانيون من البلاد ، وهدأت الأزمة وبعدها قدم ملك اليونان شكره واحترامه لدى ليون ، تقديرا لموقفه من الجالية اليونانية (٥) .

وبعد دى ليون عين وليم تايير «Willian Thayer» قنصلا عاما حتى سنة ١٨٦٣ (٦) ثم المستر شارلز هال «Charlés Hale» ويعتبر من أبرز هؤلاء القناصل العاميين ، الذين خدموا فى مصر ، فقد حضر احتفالات قناة السويس (٧) كما شارك بدور نشيط فى محادثات

---

(١) أحمد أحمد الحته (الدكتور) المصدر السابق ص ٩ ، ١١

(٢) J.Y. Brinton. op. cit., p. 32.

(٣) Ibid. p. 36.

(٤) أحمد أحمد الحته (الدكتور) المصدر السابق ص ١٨/١٥

(٥) J. Y.Brinton. op. cit., p. 45-46.

(٦) Ibid. p. 67.

(٧) Ibid., p. 73-74.

تأسيس المحاكم المختلطة ، وهى تلك التى لعبت دورا كبيرا فى تاريخ القضاء والعدالة بمصر ، ولفترة طويلة بعد ذلك ، وقد كان المستر هال ممثلا لدى الحكومة الأمريكية ، وأحد مؤيدى تأسيس المحاكم المختلطة ، فرغم قلة عدد الرعايا الأمريكيين فى مصر قياسا الى الأجانب الآخرين ، الا انه يلزم وجود نظام قضائى ، يبعد عنهم العقوبات الصارمة والتى لا تتمشى مع شرائعهم ، وكذلك لبقية الأجانب فى مصر ، فارست الولايات المتحدة اذن هذا النظام وأقرته مع الدول الأخرى بالرأى والمشاركة بالقضاة وكافة وسائل التدعيم والتأسيس الى ان ظهرت المحاكم المختلطة ومارست دورها ابتداء من سنة ١٨٧٦ (١) .

وبذلك تكون الولايات المتحدة قد شاركت فى ارساء أكبر دعامة من دعامات الامتيازات الاجنبية التى جعلت لهم وضعا خاصا ، وابعدتهم عن طائلة الشرائع والقوانين المحلية وغيرتهم عن المصريين ، فأضاعت بذلك حقوقا وخربت مصالح كثيرة ، وظلمت أحكاما طالما انها تخص صالحا أجنبيا ..

وقد استمر المستر هال قنصلا عاما للولايات المتحدة فى مصر لمدة ست سنوات ، توطدت فيها العلاقات المصرية الامريكية ، وفى نهاية خدمته ارسل له الخديوى اسماعيل خطابا فى ١٨٧٠/٣/١٢ يقول فيه «كم أنا آسف على نهاية خدمتكم وان اراكم تتركون بلادى ففى خلال السنوات الست التى عملتم فيها توطدت العلاقات الأمريكية فى مصر ، وانتهز هذه الفرصة لأعبر لكم عن امتنانى لشخصكم وعملكم الشريف ، وحسن مقصدكم مع حكومتنا .. مع خالص تقديرى واحترامى » وفى سنة ١٨٧٠ عين الكولونيل جورج .هـ . بتلر «George H.Butler» قنصلا عاما خلفا للمستر هال (٢) .

وفى الفترة بين سنة ١٨٧٦ وسنة ١٩٢٢ عينت الولايات المتحدة ، سبعة عشر قنصلا عاما ، استمر بعضهم بين سنة واحدة واكثر مدة كانت خمس سنوات وهم بالترتيب بين سنة ١٨٧٦ وسنة ١٩٢٢ كما يلى « البرت فارمان Elbert Farman سيمون وولف Simon Wolf جورج بومبردى George Pomery جون كاردول John Cardwell ايوجين سكيلر Eugene Schuyler جون اندرسون John Arderson

(١) J. Y. Brinton, op. cit., p. 78-84.

(٢) Ibid. p. 86.

ادورد لتل Edward Little فردريك بنفيلد Frederic Penfield
توماس هاريسون Thomas Harrison جون لونج John Long
جون رايدل John Riddle لويس ايدنجز Lewis Iddings
بيتر اغسطس Peter Augustus أرلنى أرنولد Olney Arnold
هامبسون جارى Hampeson Gary جارول سبرج Garroll Sprigg
مورتون هول Morton Howell»

عمل هؤلاء على تأكيد المصالح الأمريكية وحماية امتيازات رعاياهم ، وكان ابرزهم ، المستر البرت فارمان وهو الوحيد بينهم الذى قضى مدة خمس سنوات قنصلا عاما للولايات المتحدة فى مصر فى الفترة بين سنة ١٨٧٦ وسنة ١٨٨١ (١) .

ولم تكن القنصليات الامريكية قاصرة على الاسكندرية فقط ، بل كانت لها وكالات فى مختلف انحاء القطر المصرى ، فكانت هناك وكالات قنصلية ومندوبين عن القنصل الامريكى العام فى كل من القاهرة ، وطنطا والمنصورة ، وبنى سويف ، والمنيا ، وأسيوط ، وجرجا ، والأقصر ، وهذه الوكالات الفرعية تقوم بمساعدة السياح الامريكيين واسداء النصح لهم وكذلك حماية أعضاء البعثات الدينية الأمريكية (٢) .

ولم يكن بالضرورة ان يكون مندوبى القناصل العامين الامريكيين فى هذه الاماكن من الرعايا الامريكيين بل لجأت القنصلية الامريكية الى تعين مندوبين عنها من جنسيات اخرى وخاصة من الانجليز ، ففى بورسعيد كان المسيو « هارى برواد بنت » وهو من الرعايا الانجليز يعمل وكيلا لأشغال القنصلية الأمريكية ومصالحها فى المدينة ، كما عمل أخيه أيضا فى نفس الوظيفة قبل ذلك ، وكان هذا التعين من قبل القنصلية الأمريكية يلزم أخذ موافقة وكيل نظارة الخارجية عليه حتى يصبح رسميا وقانونيا (٣) .

أما عن ألبرت فارمان قنصل أمريكا العام ، فقد ذكرنا انه من أبرز ممن تولوا هذا المنصب ، وقد كتب كتابا عن مصر عنوانه « مصر وكيف غدر

---

(١) Ibid. p. 134.
(٢) أحمد أحمد الحته (الدكتور) المصدر السابق ص ٦٤
(٣) مجموعه وثائق ديوان الخديوى ، سيادية . (قناصل) دار الوثائق القومية بالقلعة .

بها » والكتاب مكون من ثمانية وعشرون فصلا ويقع فى ٣٣١صفحة ، يتحدث فيه عن مشاهداته الأولى فى مصر واستقبال الخديوى له ، ثم نيل مصر وبعض العادات والتقاليد ، ورحلاته الى جبل سيناء وواحة فيران ، وبحيرة المنزلة ، واماكن اخرى وموضوعات أخرى تتعلق بالآثار وقنــاة السويس والتدخل الأجنبى فى شئون مصر (١) .

ويتحدث البرت فارمان عن استقبال الخديوى له بعد ان وصل من الإسكندرية الى القاهرة . فيقول : « كان اول واجب أقوم به فى القاهرة هو زيارة الخديوى اسماعيل باشا ولقد تم ذلك فى قصر الجزيرة الواقع على الشاطىء الغربى للنيل ، فى مواجهة المدنيه ، ودخلت القصر ، فتقدمنى كبير التشريفات ، حيث لقينى الخديوى فى غرفة استقبال فاخرة ، ولقد استقبلنى سموه عند الباب استقبالا حارا ، وكان حديثنا يدور حول موضوعات عامة ، ورحب بى الخديوى فى بلاده وسألنى ، ما اذا كنت مسرور بزيارتى ، كما سأل عن صحة رئيس الولايات المتحدة وحالة البلاد العامة .. » (٢) .

وفى حفل استقبال رسمى قدم البرت فارمان خطاب اعتماده ، كقنصل عام الى الخديوى فى قصر عابدين ، ومما جاء فيـــه ان رئيس الولايات المتحدة ، وقع اختياره على أ. فارمان . من مواطنى الولايات المتحدة ، كمعتمد ، وقنصل عام للولايات المتحدة فى مصر ، لكى يقيم فى القاهرة ويشرف على المصالح الامريكية ، وتنمية العلاقات الطيبة بين البلدين ، وفى استقبال آخر مع الخديوى قدم له سيفا مقوسا ذا نصل دمشقى وغمد مرصع بالذهب كرمز لسلطته فى البلاد . كما كان حسب العادة أن يقدم لكل قنصل عام جودا رشيقا مجهز أحسن تجهيز ، ولقد قبل القناصل العامون لكل الدول هذه الهدية بما فيهم قناصل الولايات المتحدة ، فيما عدا القنصل السابق لفارمان الذى صدرت التعليمات الامريكية ابتداء من عهده بألا يقبل هذه الهدية ، وبناء على ذلك تكرر هذا الحذر والتعليمات فى عهد فارمان ، الذى لم يقبل هدية الجواد أيضا (٣) .

وبعد ذلك فى سنة ١٨٩١ صدرت التعليمات من الولايات المتحـــدة

---

(١) وفى ذلك أنظر : البرت فارمان . مصر وكيف غدر بها ترجمة عبد الفتاح عنايت

(٢) نفس المصدر ص ١٠ ، ١١

(٣) البرت فارمان . المصدر السابق ص ١٦ ، ١٨

للقناصل العامين فى مصر بعدم قبول هدية السيف أيضا ، وأصبح عليهم اذن عدم قبوله كهدية الجواد تماما ، وجاء فى رفض القنصل العام قبول السيف ، انه لن يقبله بناء على التعليمات ، ولعدم وجود هذه العادة فى الولايات المتحدة (١) ٠

ونظرا لنشاط القناصل العامين الأمريكيين فى مصر ، فان الحكومة المصرية كانت تمنحهم الأوسمة والنياشين تقديرا لجهودهم ، ففى سنة ١٨٩٢ منحت الحكومة المصرية براءة النشان المجيدى من الدرجة الاولى للمسيو ادوارد لتل القنصل العام الأمريكى فى ذلك الوقت ، وقد أرسلت الحكومة المصرية هذا النشان لوزارة الخارجيـــة المصرية ، والتى قامت بدورها بارساله اليه بعد أن غادر مصر عائدا الى بلاده (٢) ٠

وكان من الطبيعى ان يكون هذا النشاط القنصلى الذى توج توقيع اتفاقية الامتيازات الأجنبية أحد العوامل الأساسية التى أرست جسور العلاقة بين مصر والولايات المتحدة وتوطيدها (٣) كما عمل هؤلاء القناصل الامريكيين على رعاية المصالح والرعايا الامريكيين وحمايتهم فى مصر ، وذلك وفقا للامتيازات العديدة التى منحت لهم ولغيرهم من الاجانب ٠

ولا توجد احصائيات دقيقة لحصر عدد الأمريكيين فى مصر فى القرن التاسع عشر ، ومع هذا فقد كانوا بصفة عامة قليلو العدد ، وفى بداية القرن العشرين حددت الاحصائيات أعدادهم ، ففى احصاء سنة ١٩٠٧ كان عددهم قد وصل الى « ٥٢١ » امريكيا وهو عدد قليل جدا قياسا الى جملة الأجانب فى مصر فى ذلك الوقت (٤) وفى سنة ١٩١٧ كان عددهم

---

(١) مجموعة وثائق ديوان الخديوى — سيادية — وثائق عربيه الى جهات ، محفظه رقم (١٢)

« ملف نظارة المالية نمرة (١) من شهر يناير حتى أغسطس سنة ١٨٩١ » دار الوثائق القومية بالقلعة

(٢) مجموعة وثائق ديوان الخديوى — سيادية — وثائق عربية الى جهات ، محفظة رقم ٥٤٨ (٤) دار الوثائق القومية ٠

(٣) مجموعة الوثائق الأوروبية ، ادارة الوثائق الخاصة ، وهى خاصة بالمراسلات السياسية للفترة من ٣١ أغسطس سنة ١٨٦٩ الى ٨ مايو ســـنة ١٩١٣ ٠ دار الوثائق القومية ٠

(٤) الاحصاء السنوى العام للقطر المصرى لسنة ١٩١٦ ، نشرة حرف (هـ) نمرة (٨) وزارة المالية ص ٢٧

« مصلحة عموم الاحصاء الأميرية »

« ٥١٤ » أمريكيا (١) وانتشر هذا العدد المحدود فى بعض المدن المصريه وخاصة فى القاهرة والاسكندرية ، وأظهروا فيما بينهم تعاطفا وتماسكا وانتهزوا المناسبات القومية الخاصة بهم للاجتماع والاحتفال ففى احدى الصحف المصرية كتبوا يعلنون بأنهم سيجتمعون للاحتفال فى عشية ٢١ فبراير سنة ١٨٨٢ ، فى ليلة انس وسمر برياسة المسيو سيمون وولف القنصل الامريكى العام فى قاعة النيل أوتيل ، وذلك تذكارا بمولد واشنطون محرر أمريكا (٢) ٠

وفى احداث الاحتلال الانجليزى لمصر خربت بعض من منشآت الاجانب ومصالحهم ٠ وتعرض بعض من الامريكيين لهذا التخريب ، فقدموا طلبات بعد أن هدأت الاحوال ، للتعويض عما اصابهم من اضرار ، وبلغ عدد هذه الطلبات خمسة وعشرين طلبا ، وقدرت تعويضاتها المستحقة بمبلغ « ١ر٠٦١ر٦٦٠ » فرنك (٣) ٠

ـ النشاط التبشيرى والتعليمى

وقد مكنت الامتيازات الاجنبية الجالية الامريكية من الانتشار وممارسة انشطة مختلفة ٠

وكان أبرز وأهم أعمالهم ، نشاطهم التعليمى والتبشيرى فى نفس الوقت ٠

ويرجع مجىء ارساليات التبشير الامريكية الى مصر الى سنة ١٨٥١ ـ سنة ١٨٥٢ وذلك عندما جاء الى القاهرة ، احد اعضاء ارسالية التبشير الأمريكية فى دمشق وهو المبشر الأمريكى ليفى تافستر «Levi Tavsons» وبعد أن أقام بمصر أدرك انه من الممكن ان تكون هذه البلاد مكانا خصبا للعمل التبشيرى بما تتمتع به من هدوء واستقرار وجو عام يوافق هذا النشاط ، وتحمس ليفى تافسنز لهذه الفكرة فقام بتقديم طلب كله رجاء وأمل من ارسالية دمشق الى الكنيسة الامريكية ، لكى تجعل من القاهرة مركز تبشيرى جديد الى جانب دمشق ، بل انه رأى ان تكون القاهرة المقر الاول للارسالية الامريكية فى بلاد الشرق ، ونتج عن هذا أن بدأت وفود

---

(١) تعداد سكان القطر المصرى لسنة ١٩١٧ (الجزء الثانى) الحكومة المصرية ، وزارة المالية ص ٥٧٩ « مصلحة عموم الاحصاء »

(٢) المحروسة فى ١٨٨٢/٢/١٨ م

(٣) الأهرام فى ١٨٨٣/٦/١ م

الارسالية الامريكية التبشيرية تصل الى مصر بدءا من سنة ١٨٥٤ حيث وصل اثنين من المبشرين ومعهم سيدة أمريكية ثالثة تعمل أيضا فى هذا المجال ، وبدءوا نشاطهم ، وقد تابعهم فى المجىء الى مصر مئات من الأمريكيين لنفس الغرض يعملون لفترات بين القصيرة والطويلة ، وكان عملهم وفقا لبرامج ولوائح تحدد هذا النشاط فى مختلف انحاء البلاد وفى سنة ١٨٧٣ قامت الارسالية بتأسيس مركز لها فى أحد المنشآت المواجهة لفندق شبرد بمدينة القاهرة • وفى سنة ١٨٨٨ كتب قنصل أمريكا العام جون كاردول John Cardwell عن نشاط الارسالية الأمريكية واتساعه وأهمية ذلك وخاصة المراكز التعليمية التى تتبع الارسالية وأشار كاردول فى حديثه الى تقرير هام كتبه رئيس الارسالية وهو الدكتور اندرو واطسن Andrew :atson والذى ذكر أن نشاط الارسالية يعتمد على اقسام مختلفة ، أحد هذه الاقسام هو قسم التبشير بالانجيل ، وقد اقام على رعاية هذا القسم عشرة من القسس الأمريكيين ، واختص بتوزيع نسخ من الكتاب المقدس ، وقد وصل عدد النسخ التى وزعت فى عام واحد الى ٣٠٠٠٠ نسخة ، وقسم آخر يتبع الارسالية هو القسم التعليمى وهو الآخر منقسم الى فروع وأقسام متعددة لخدمة نفس الغرض (١) •

ومنذ البداية أخذت الارسالية الامريكية فى تأسيس المدارس بمختلف انحاء مصر فقبل سنة ١٨٧٠ اسست الارسالية ست مدارس بالوجه القبلى وثلاث مدارس بالقاهرة ومدرستين بالاسكندرية فكانت جملة مدارسها التى اسست قبل سنة ١٨٧٠ أحدى عشرة مدرسة (٢) وتدرجت الارسالية فى ازدياد مدارسها الى أن وصل عدد المدارس الامريكية فى سنة ١٨٧٨ الى ثلاثين مدرسة (٣) ولم يكن الغرض منذ البداية من هذه المدارس تعليمي تربوى فحسب ، وانما كان اساسا لخدمة اغراض الارسالية الدينية التبشيرية فى مصر • وكانت الارسالية تمد هذه المدارس بالكتب والمدرسين وكان المدرس فى هذه المدارس عضوا بالكنيسة يشارك فى اجتماعاتها المسائية وأيام الآحاد وذلك حتى تكون المدارس مركزا للنشاط الدينى

---

(١) J. Y. Brinton. Op. Cit., p. 52.

(٢) كشف احصاء التلامذة الموجودين بالمدارس العمومية والخصوصية بالقطر المصرى لسنة ١٩٠٧ ، ١٩٠٨ ص ٢٨

« ادارة عموم الاحصاء نظارة المالية »

(٣) J. H. Dunne, An introduction of the history of Education in Modern Egypt p. 410.

البروتستانتي المحض (١) وفي سنة ١٩٠٧ وصل عدد هذه المدارس الى « ٢٧١ » مدرسة منتشرة فى كل محافظات مصر بين مدارس ابتدائيه وتحضيرية وثانوية للبنين والبنات ، وبلغ جملة الطلاب المصريين والاجانب الذين التحقوا بهذه المدارس « ١٢٦٤٠ » طالبا وطالبة ، واكثرهم من المصريين اذ بلغ عددهم « ١٢٣٥٦ » مصريا ، واكثر المصريين من المسلمين اذ بلغ عدد المسلمين منهم « ٢٥٠٠ » طالبا مسلما (٢) .

وتناقص عدد مدارس الارسالية الامريكية بعد ذلك بدرجة كبيرة حتى انه وصل الى ٣٠ مدرسة فقط سنة ١٩١٥/١٤ م ، وعدد تلاميذها تناقص بالتالى الى « ٥٠٦١ » تلميذا وتلميذة (٣) وكان ذلك راجعا الى استحداث شهادة الدراسة الثانوية في المدارس الحكومية ابتداء من سنة ١٨٨٧ ، فأثر ذلك على تلاميذ مدارس الارسالية الأمريكية والأجنبية الأخرى التى تحولوا منها الى المدارس الحكومية التى تؤهلهم للوظائف الحكومية ، وذلك لان برامج مدارس الارسالية الأمريكية كانت مختلفة ولها وضعها الخاص وطابعها الدينى (٤) وتركز نشاط مدارس الارسالية الأمريكية فى أوقات ازدهارها بمدينة أسيوط بالذات حيث أسس هناك عدد كبير من مدارسها (٥) وكان لذلك أثره الكبير على الأقباط الذين رأوا فى نشاط الارسالية محاولات تحويل تلاميذها الى المذهب البروتستنتى وحركت هذه العوامل بطريرك الأقباط ، فقام برحلة الى أسيوط فى عام ١٨٦٧ م بغرض الحد من نشاط الارسالية الأمريكية ، وبعد وصول البطريرك الى الكنيسة القبطية جمع المسئولين الأقباط وبدأت مقاومته لمدارس الارسالية ومن ذلك انه أمر بتجريد أحد القسس بمديرية أسيوط من منصبه الكنسى لسماحه لأخيه وهو أحد خريجى مدرسة اللاهوت بالارسالية الأمريكية بالقيام بالخدمة فى الكنيسة القبطية ، وكان لذلك

---

(١) جرجس سلامة تاريخ التعليم الأجنبى فى مصر فى القرنين التاسع عشر والعشرين ص ٤٨ ، ٤٩

(٢) كشف احصاء التلامذة الموجودين بالمدارس العمومية والخصوصية بالقطر المصرى لسنة ١٩٠٧ ، ١٩٠٨ ص ٢٢٤ ، ٢٢٥

(٣) احصاء المكاتب والمدارس للقطر المصرى لسنة ١٩١٤ ، ١٩١٥ ص ١٦٢ « وزارة المالية ، مصلحة عموم الاحصاء الأميرية »

(٤) جرجس سلامة المصدر السابق ص ١٩٧

(٥) J. Y. Brinton, Op. Cit., p. 54.

أثره فى تناقص عدد التلاميذ الملتحقين بمدارسها (١) ٠

وحاول القنصل الأمريكى بعد ذلك الحد من مقاومة المصريين وبالذات الكنيسة القبطية رئاسة وجمهورا للارسالية الأمريكية وأن يقنع بطريرك الأقباط بالعدول عن مقاطعة الارسالية ، ذاكرا لهم ان الارسالية تعمل فى خدمة الدين ونشر الأنجيل ولكن محاولاته باءت بالفشل أمام اصرار المصريين على الرفض والمقاطعة (٢) ٠

وكان لهذه العوامل بالاضافة الى ما سبق ذكره من اســـتحداث شهادة الدراسة الثانوية فى المدارس الحكومية اثره الكبير فى الاقلال من عدد مدارس الارسالية الامريكية مع بداية القرن العشرين بدرجة كبيرة وواضحة ٠

الأمريكيون والدعوة الى مؤتمر القاهرة التبشيرى سنة ١٩٠٦ ٠

واما مختلف المشاكل التى واجهت الارسالية الامريكية فان اعضائها اتخذوا من مختلف المناسبات والفرص وسيلة لمواصلة نشاطهم وعملهم التبشيرى ٠

ومن هذه الفرص انهم دعوا الى عقد مؤتمر فى القاهرة سنة ١٩٠٦ لمناقشة مشاكل العمل التبشيرى ٠

وفكرة هذا المؤتمر ترجع الى احد المبشرين الامريكيين البارزين وهو القص صمويل زويمر رئيس ارسالية البحرين والذى وجد هذه المشاكل الكبيره فى مواجهة عملهم التبشيرى ومن هنا آثر ان يدعـــوا المهتمين بالتبشير الى مؤتمر عام يعقد فى القاهرة سنة ١٩٠٦ لمناقشة التبشير ووسائله ، والعقبات التى تواجه نشاط المبشرين ، وتامين وسائل التبشير المختلفة ، وكذلك تجنب الاخطاء الكثيرة التى تولدت من التجارب السابقة واظهار كافة الطرق والتفنن فيها لجـذب عدد كبير من المسلمين المبشرين والتلاحم معهم (٣) ٠

---

(١) سعد مرسى أحمد (الدكتور) وسعيد اسماعيل على (الدكتور) تاريخ التربية فى مصر ص ٣٦١

(٢) سعد مرسى أحمد (الدكتور) وسعيد اسماعيل على (الدكتور) تاريخ التربية والتعليم ص ٤٥٧ ، ٤٥٨

(٣) مؤتمر القاهرة سنة ١٩٠٦ ــ الغارة على العالم الاسلامى ــ المؤيد فى ١٩١٢/٤/٢١

ونجح زويمر فى اخراج فكرة المؤتمر الى حيز التنفيذ ، وعقد فى الفترة بين ٤/٩ ابريل سنة ١٩٠٦ فى منزل أحمد عرابى باشا ، وكانت جلساته سرية ، وحمل الأعضاء تصاريح بالدخول وتذكر الدعوة وفى جلسة الافتتاح أختير زويمر رئيسا للمؤتمر (١) .

ففكرة المؤتمر ترجع الى الارسالية الأمريكية وكذلك رآسته أمريكية وأغلب الحاضرين هم من مندوبى ارســاليات التبشير الأمريكية وبلغ عددهم ٢١ مندوبا ، أما مندوبى الارساليات الانجليزية فلم يزد عددهم عن خمسة أعضاء وعدد أقل لارساليات أجنبية أخرى (٢) وفى بداية جلسات المؤتمر تساءل زويمر قائلا ، ما هى الفائدة والنتائج المرجوه من هــذا الاجتماع والمناقشات التى ستدور فيه ؟ وأجاب على ذلك بنفسه قائلا :

« اننا نعتقد انه لدينا الآن موضوعات كثيرة مطروحة قيد البحث عن مشاكل العمل التبشيرى بين المسلمين وكان لاتساع العمل فى هــذا المجال والآمال المعقودة عليه لحل تلك المشاكل واثرها الكبير فى تحمس رجال الدين البروتستانتى لعقد هذا المؤتمر بدرجة لم تكن موجودة لديهم من قبل ، ولكى يمكن انجاح هذه الآمال المرجوة فان المؤتمر قد اختلق طرقا آمنة وفوائدها محققة والتى منها النشر الأدبى الهادف بين أكبر عدد ممكن من المسلمين لتيسير انجذابهم وتعاطفهم التدريجى الى ميادين اعمالنا والتى منها يمكن التسلل بيسر وسهولة لعقائدهم ونفوسهم ، ولقد بذلت جهود عملية فى هذا الاتجاه فى مناطق مختلفة من العالم » (٣) .

واستمرت جلسات المؤتمر التى نوقشت فيها موضوعات دينية هامة ومختلف الوســـائل التبشيرية ، وكذلك معلومات مختلفة عن العالم الاسلامى (٤) .

وفى المؤتمر تحدث عدد كبير من المبشرين الامريكيين نذكر منهم حديث المبشرة الأمريكية أناواطسن ، عن الارسالية الطبية الامريكيـــة ودورها التبشيرى فقالت : « يتردد على مستشفى ارسالية التبشير بمدينة طنطا حوالى ٨٠٪ من مسلمى المنطقة واغلبهم من الفلاحين الذين جاءوا من

(١) Methods of Mission Work Among Moslems p. 8-11.

(٢) مؤتمر القاهرة ١٩٠٦ ـ الغارة على العالم الاسلامى ـ المؤيد فى ١٩١٢/٤/٢١

(٣) Methods of Mission Work p. 8-9.

(٤) Ibid. p. 8.

القرى القريبة والمجاورة لطنطا ، وكانت خطورة كبيرة ان تخـــرج نساء الفلاحين ويدخلن المستشفى للعلاج وغير النساء دخلها الرجال أيضا ، وكانت خطة العمل التبشيرى فى هذه المستشفى أن يذكر الانجيل للمرضى بأسلوب بسيط لا يدعوا الى التطرف فى المناقشة ، وعندما تسمح لنـــا الظروف من آن لآخر لزيارة المرضى فى قراهم فاننا نفعل ذلك . وهناك كنا نقابل بالحفاوة والترحيب البالغين » (١) .

وفى نهاية المؤتمر قام القس فلمنج الامريكى بجمع كافة الموضوعات والقضايا والمعلومات والاحاديث العديدة التى تحدث فيها المبشرون عـــن مشاكل العمل التبشيرى ووسائله فى كتاب تحت عنوان وسائل العمـــل التبشيرى بين المسلمين ، وهذا الكتاب يمثل اهم الوثائق المنشورة عن هذا المؤتمر ونشاطه . ولأهميته الكبيرة كتب عليه عبارة لا يسمح بتداوله الا بين المبشرين وأصدقاء المبشرين (٢) .

ومن هذا يتضح الى أى حد أفسح المجال لنشاط الارسالية الامريكية والتى لولا نظام الامتيازات الاجنبية التى حصلت عليها فى مصر والولايات العثمانية الاخرى لما امكن لها ان تمارس ، وبمثل هذه الحرية هذا النشاط الموسع والتدخل الكبير فى امور العقائد والاديان للتبشير والتنفير ، ونشر المذهب البروتستانتى وان تسترت فى ذلك خلف عـــدد كبير من مدارس الأرسالية التى انتشرت فى مختلف انحاء مصر .

والذى يجب ان نقوله أن تلك الحرية فى الممارسة قد سمحت لهذا النشاط التبشيرى بالهجوم على الاسلام والدعوة الاسلامية ، ففى الجامعة الأمريكية بالقاهرة التابعة لارسالية التبشير الامريكية (٣) نجد أن هذه الجامعة تلعب دورا تبشيريا كبيرا ، وعلى سبيل المثال كان يدرس بها كتاب **Problems of Religion** ويقول هذا الكتاب عن النبى (صلعم) « انه فى السنوات الاخيرة من حياته سار مداورا ويخترع الرؤى والاحلام الموافقة لحاجاته . والاسلام دين حربى ينص على الجهـــاد على الكفار

---

(١) Methods of Work, p. 109.

(٢) Ibid. p. 8.

(٣) أسست الارسالية الجامعة الأمريكية بالقاهرة سنة ١٩٢٠ ، وظلت تابعة لها حتى سنة ١٩٢٢ .

وفى ذلك انظر : جرجس سلامة المصدر السابق ص ٢١٠

وتنقصه الصفات الرقيقة العذبة التي للمسيحية ، ولم يثبت حتى الآن أنه دين رقى وتقدم ، وهو يجيز الرق وتعدد الزوجات » (١) .

ويستمر هجـــوم مبشرى الارسالية الأمريكيـــة ، فيكتب زويمر فى مجلة العالم الاسلامى الواسعة الانتشار فى البلاد العربية والاسلامية وخاصة مصر ، كتب يقول : « لقد ظهر فى احد شوارع مكة ، رجـــل ادعى النبوة اسمه محمد ، فأخذ يجمع حوله الناس ، وقدم لهم ما ادعاه من دينه الجديد ، وقد ذكر لهم أن الله قد أمره أن يعمل على تخليصهم من الشرك والفساد » (٢) ويقول زويمر أيضا فى نفس المقال : « لقد تمكن محمد من أن يجمع حوله بعض الناس ، بعضهم قد جاء لمجرد السماع والبعض الآخر عن اقتناع به ، وأخذ محمد يقص عليهم كثيرا من القصص التى كان قد تعلم بعضها من التوراه ، فاجتمع هؤلاء حوله لكونهم مغرمون بالقصص وسماعها » (٣) .

فكان اذن هجوم المبشرين الأمريكيين على الاسلام كبيرا مشككين فى الرسول (صلعم) مستهزئين بأتباعه والمسلمين .

– اهتمامات امريكية أخرى .

وللولايات المتحدة وجاليتها المحدودة فى مصر ، اهتمامات أخرى غير ميدان التبشير والتعليم ، وهذه تتعلق بالآثار المصرية ، وقد بدأت هذه الاهتمامات منذ سنة ١٨٥٦ وذلك بمجىء بعض من المهتمين بالآثار من جامعة بنسلفانيا (٤) .

وبدأت أهم اعمال الأثريين الأمريكيين فى سنة ١٨٩٩ ، حيث قامت بعثة جامعة كاليفورنيا فى الحفر والتنقيب جنوب مصر عن المقابر والآثار ولمدة ثلاث سنوات بعد ذلك ، كما عملت البعثة ايضا فىمنطقة الاهرامات وشارك فى هذه المهمة جامعة هارفارد ومتحف بوستن فى سنة ١٩٠٥ واستمر عمل هذه البعثة لفترة طويلة وفى سنة ١٩٠٦ شـــارك متحف متروبوليتان بنيويورك فى أعمال البحث عن الآثار والتنقيب فى مصر ،

---

(١) أنور الجندى الصحافة السياسية فى مصر ، منذ نشأتها الى الحرب العالمية الثانية ص ٢١١

(٢) The Moslem World, p. 130-131.

(٣) Ibid, 137.

(٤) J.Y. Brinton, Op. Cit., p. 30.

وكان له دور كبير فى ذلك وقام بنسخ ونشر عدد من الصور والرسوم عن التاريخ المصرى القديم (١) ونتج عن البعثات الامريكيه للتنقيب عن الآثار أن تمكن أحد هؤلاء وهو المستر دافيز الامريكى من اكتشاف قبر الملكة تى فى مدافن طيبة ، وقد وجد فى هذا القبر حلى وأدوات بديعة الصنع عظيمة القيمة (٢) .

واستمرت اهتمامات علماء الآثار الامريكيين بالآثار المصرية وجمع التحف التى لها فائدة تاريخية كبيرة ، وعلى جانب كبير من الروعة والجمال ولفترة طويلة بعد ذلك (٣) كما شارك الأثريون الامريكيون فى مصر مع علماء الآثار الأوروبيين فى مؤتمر الآثار الدولى الذى عقد بمدينة الاسكندرية فى ربيع سنة ١٩٠٨ وبفضل هذا المؤتمر وجهود الأمريكيين والأوربيين تمكنوا من الوصول الى نتائج هامة تخدم الآثار فى مصر والعالم (٤) .

وغير الأنشطة والمجالات السابقة للولايات المتحدة ورعاياها فى مصر فان لها ايضا دورا كبيرا فى الجيش المصرى ، فقد استعان اسماعيل ببعض الضباط الامريكيين ، بعقود فردية لتدريب الجيش وتنظيمه وقد استعان اسماعيل بالامريكيين بالذات لصلتهم الطيبة بمصر ولتى تخلو من اى مطامع استعمارية بخلاف الدول الأوروبية الاخرى . ومن ناحية ثانية لكفاءة الأمريكيين الحربية (٥) وأختير الضباط الأمريكيون من بين المسرحين القدامى من الجيش وبلغ عددهم فى سنة ١٨٧٠ عشرين ضابطا ووصلوا الى خمسين فى سنة ١٨٧٨ م وفى نفس هذا العام بدأ الاستغناء عنهم بسبب اشتداد أزمة مصر المالية والتدخل الأجنبى (٦) .

ومن هذا يتضح ان الامتيازات الاجنبية ، قد سمحت للولايات المتحدة الأمريكية بممارسة انشطة مختلفة فى مصر ، ولكن ابرز هذه الانشطة ، هو نشاط ارسالية التبشير التى انتشرت بوسائلها المختلفة

---

(١) Ernest Jackh. Back ground of the Middle East p. 212, 213

(٢) تقرير السير الدن غورست عن المالية والادارة والحالة العمومية فى مصر والسودان لسنة ١٩٠٧ ص ٤١

(٣) تقرير غورست لسنة ١٩٠٨ ص ٤٩

(٤) تقرير غورست لسنة ١٩٠٩ ص ٤١

(٥) محمد محمود السروجى (الدكتور) الجيش المصرى فى القرن التاسع عشر ص١٠٢

(٦) محمد فؤاد شكرى (الدكتور) مصر والسودان ـ تاريخ وحدة وادى النيل السياسية فى القرن التاسع عشر ص ١٠٩

من مدارس ومستشفيات فى مختلف انحاء البلاد ٠ وخلف هذا يقف السلك القنصلى الامريكى حاميا للعمل التبشيرى ومطبقا لنظام الامتيازات على نحو ما رأينا ٠

٢ ـ السودان

ـ الارساليات الأمريكية التبشيرية فى السودان

يدخل السودان فى اطار هذه على اعتبار ان السودان ، هو احد البلاد العربية ، وكان محمد على قد قام بضمه الى مصر منذ سنة ١٨٢١ باسم الدولة العثمانية (١) وظل على هذا الوضع الى ان تنازلت تركيا عن كل حق لها فى مصر والسودان فى معاهدة لوزان سنة ١٩٢٣ (٢) ٠ وفى تلك الفترة المذكورة تعرض السودان لظروف مشابهة كتلك التى تعرضت لها مصر من حيث وفود الأجانب اليها ، وان كان مجيئهم الى السودان بأعداد أكبر من مصر وفى فترة مبكرة أيضا ٠ وسرت معاهدات الامتيازات الأجنبية فى السودان باعتباره جزء من ولاية مصر (٣) فالرعايا الأجانب المتمتعون بالامتبازات الأجنبية فى مصر يسرى عليهم نفس النظام فى السودان ٠ وكانت الولايات المتحدة هى احدى الدول التى حصلت على الامتيازات الاجنبية هناك ، وانشأت لها قنصلية فى الخرطوم تابعة لقنصلية مصر (٤) ٠

وكان ابرز نشاط للرعايا الأمريكيين فى السودان ، هو دورهم التبشيرى والتعليمى فى نفس الوقت ٠

ويبدأ نشاط الارسالية الامريكية الفعلى فى السودان ابتداء من سنة ١٨٩٩ (٥) حيث اتخذت الارسالية مركزا لها فى الخرطوم وأم درمان كما عملت مع الارسالية الأمريكية فى نفس المكان ارسالية التبشير الانجليزية (٦) وكان للارسالية الأمريكيه مركز ثالث فى عطبرة وفى هذه الأماكن الثلاثة مارست الارسالية خدمات تعليمية وطبية

---

(١) عمر فروخ (الدكتور) المصدر السابق ص ٢٤٨
(٢) عبد الرحمن الرافعى مصر والسودان فى أوائل عهد الاحتلال ص ٩٩
(٣) محمد فؤاد شكرى (الدكتور) المصدر السابق ص ٥٨ ، ٦١
(٤) أحمد الحته (الدكتور المصدر السابق ص ٦٤
(٥) عمر فروخ , الدكتور) المصدر السابق ص ٢٤٧
(٦) تقرير السيرالدن غورست لسنة ١٩٠٧ ص ٩١

للسودانيين (١) وانتشرت مدارس الارســـالية فى الخرطوم والخرطوم البحرية وأم درمان ووادى حلفا وبلغ جملة تلاميذ هذه المدارس « ١٤٠ » تلميذا (٢) ٠

وفى سنة ١٩٠٩ بلغ جملة مدارس الارسالية الامريكية في السودان ست مدارس ، اربع مدارس منها للصبيان ، ومدرستان للبنات احداهما خارجية والاخرى داخلية ، وعدد تلاميذ هـــذه المدارس ٤٨٦ تلميذا وتلميذه (٣) ٠

وتجاه المدارس التبشيرية الامريكية وغيرها من الأرساليات الاجنبية فان الحكومة البريطانية قد اتخذت سياسة معينة طبقتها فى أعمال المدارس التبشيرية ، وعن هذه السياسة يقول اللورد كرومر فى تقريره عن مصر والسودان لســنة ١٩٠٦ اتيح للمرســلين ان ينشـئوا مدارس لهم فى الخرطوم » ولمديرى هذه المدارس ان يعلموا فيها ما يشاؤون من انــواع التعليم الدينية ، ولكن الحكومة توجب عليهم ان يخبروا آباء التـــلاميذ المسلمين وآباء التلاميذ المسيحين الذين ليسوا من طوائفهم بالعلوم التى تعلم فى مدارسهم قبل ان يرسلوا ابنائهم اليها ٠ وقد وضعت القوانين اللازمة لذلك وهذه القوانين هى :

أولا : يجب على رئيس كل مدرسة من مدارس الارساليات قبل ان يقبل تلميذا مسلما فى مدرسته ان يوضح لوالده أو ولى امره ان المدرسة مسيحية ٠

ثانيا : يجب ايضا على رئيس المدرسة ان يحصل على الرضى التام من والد التلميذ مهما كانت جنسيته وديانته قبل تعليمه علوم الدين ٠

ثالثا : لا يحضر الدروس الدينية الا التلاميذ الذين وافق آباؤهم على الشرط السابق ٠

رابعا : للحاكم العام أو من ينوب عنه حق تفتيش المدرسة ، فى اى وقت شاء للتحقيق من تنفيذ الشروط السابقة ، ومسئولية مدير المدرسة مباشرة فى المحافظة على تنفيذها » (٤) ٠

---

(١) تقرير غورست لسنة ١٩١٠ ص ١٤٨
(٢) تقرير غورست لسنة ١٩٠٧ ص ٩١
(٣) تقرير غورست لسنة ١٩٠٩ ص ١٠٢
(٤) تقرير اللورد كرومر لسنة ١٩٠٦ ص ٢٢٨

ويبرر اللورد كرومر هذه السياسة بان الحكومة تقرر الحرية التامة فى اعمال المرسلين وكذلك الحرية التامة فى موقف اهالى السودان منهم وتعامل الجميع بالانصاف • فيقول فى تقريره عن مصر والسودان لسنة ١٩٠٤ « لابد للمسلمين فى مصر والسودان ان يعلموا خطة الحكومة البريطانية فى هذا الموضوع ، فليعلموا حق العلم ان الحكومة تطلق الحرية الدينية التامة للجميع على حد سواء وتعامل الجميع بالانصاف التام فى كل المسائل الدينية ، فليس من أغراض الحكومة البريطانية ان تدعوا الناس للانتقال من مذهب الى آخر لا فى ممالكها ولا فى الممالك التى فيها شىء من السلطة » (١) •

ويقول اللورد كرومر فى موضع آخر من نفس التقرير ان المبشرين الأمريكين هدفهم تمدين الاهالى ، وتهذيبهم إكثر من تنصيرهم وجاء فى ذلك : « ان اعمال المبشرين الامريكيين تسير سيرا حسنا ومستمرا ويقصد بأعمالهم تمدين الاهالى وتهذيبهم ، اكثر مما يقصد بها ادخال الديانة المسيحية بين القبائل الوثنية ، وعندى انهم مصيبون فى اتباع هذه الخطة » (٢) •

وينقل كرومر فى تقريره رأى لأحد الأجانب المتابعين لاعمال الأرسالية الامريكية جاء فيه « أن من ينظر الى اعمال هؤلاء المرسلين وهو من غير خدمة الدين يحسب انها عقيمة كلها ، ولكنى لا استطيع الا وأن أنظر بأشد الاحترام الى هؤلاء المرسلين الذين انكروا انفسهم وهجروا بلادهم واقاربهم وحرموا من كل الملذات ولا شىء ينقذهم من اتعابهم الا الموت » (٣) •

ولم تقتصر الارسالية الامريكية فى نشاطها التبشيرى على التعليم فقط بل كانت هناك ايضا الارسالية الطبية الامريكية • وهذه الارسالية مارست نشاطها فى مركز رابع فى الجنوب على نهر السوباط ، حيث يعلمون الأهالى ويدربونهم على الصناعات ويداوونهم ، فقد عمل الدكتور لمبى لمرضاه ثلاثين عملية جراحية فى سنة واحدة وعالج الفى مريضا من قبائل الشلك والدنكة والأنواك والنوير (٤) ورأس الارساليات الطبية

---

(١) تقرير اللورد كرومر لسنة ١٩٠٤ ص ٢٢٤

(٢) تقرير اللورد كرومر لسنة ١٩٠٤ ص ٢٢٦

(٣) نفس التقرير والصفحة (هامش)

(٤) تقرير السيرالدن غورست لسنة ١٩٠٩ ص ١٠٢ ، ١٠٣

الامريكية الدكتور جفن وله مساعدون من رجال الدين الأمريكيين والسيدات الأمريكيات (١) .

وتعتبر الارسالية الامريكية من انشط الارساليات الاجنبيـــة فى نزولها الى جنوب السودان وشاركتها فى ذلك الارسالية النمسوية . ويبدى اللورد كرومر أسفه فى عدم توجه أى من الارســـاليات الانجليزية نحو المناطق الجنوبية التى يسكنها الوثنيون رغم انه وجه نداءا لها للتوجه الى هناك ولكن بلا فائدة (٢) .

ويذكر كرومر أن الارسالية الانجليزية ارسلت بعد ذلك مبشريها الى مناطق النيل الابيض سنة ١٩٠٦ . ومع هذا فهو يشيد بالارســـاليه الامريكية فى الجنوب وأن اعمالها فى تقدم مستمر وقبائل الشلوك هناك تشعر بفائدة وجود هذه البعثة بينهم (٣) .

الأمريكيون وأعمال الاستكشافات الجغرافية والأثرية :

وللجالية الأمريكية فى السودان نشاط آخر غير التبشير .
فقد كانت هنـــاك احدى البعثات الامريكية للتنقيب عن الآثار فى الاطلال القديمة وقد تمكنت هذه البعثة خـــلال اربعة ســـنوات وحتى سنة ١٩١٣ ، أى فى الفترة التى عملت خلالهما من الكشـــف عن موقع هام للامبراطورية الوسطى فى كرمة وفى مردى فى الشمال تم العثـــور على آثار عديدة وهامة (٤) .

كما شارك بعض الضباط الامريكيين الذين عملوا فى مصر فى عهـــد الخـــديوى اســـماعيل فى أعمال الاســـتكشافات العلمية والجغرافيـــة والمساحية فى أقاليم السودان المختلفة ومن هؤلاء الضباط كولســـتون «Colsto n» وماسون Mason وبراوت «Prout» وكامبل «Campbell» ومتشيل «Mitchell» وغيرهم (٢! وقد

---

(١) تقرير ورست لسنة ١٩٠٧ ص ٩١.

(٢) تقرير اللورد كرومر لسنة ١٩٠٤ ص ٢٢٧

(٣) تقرير اللورد كرومر لسنة ١٩٠٦ ص ١٩٨

(٤) تقرير كتشنر عن المالية والادارة والحالة العمومية فى مصر والسودان لسنة ١٩١٣ ص ١٢٤

(٥) محمد فؤاد شكرى (الدكتور) المصدر السابق ص ١١٤.

عين بعض هؤلاء فى وظائف هامة فى السودان ، فقد تولى الكولونيل براوت الأمريكى وظيفة مدير مديرية خط الأستواء ولكن لفترة قصيره (١) .

فالسودان اذن برغم أنه شهد وفود عدد كبير من الأجانب الا أن الجالية الأمريكية وصلت فى فترة متأخرة فى نهاية القرن التاسع عشر ومارست نشاطا تبشيريا تعليميا وقد اعطتها الامتيازات الأجنبية حرية الحركة والأنتشار فى بعض من مدن السودان واقاليمه ، متميزه فى نشاطها التبشيرى عن بقية الارساليات الأجنبية الأخرى ولم تجد من سلطة الاحتلال الانجليزى فى مصر والسودان أى عقبة أو قيود ، بل المساندة والتشجيع .

خاتمة

وفى خاتمة لهذه الدراسة يمكن أن نقول ان الارساليات التبشيرية الامريكية لم تنجح النجاح المعقود عليها فى نشر البروتستانتية بين الارثوذكس والكاثوليك والديانات الأخرى . بل ان هذه الارساليات قوبلت بالعداء والنفور عندما اكتشف أمرها وأهدافها التبشيرية .

وهذا يرجع الى طبيعة العمل التبشيرى نفسه الذى يهدف الى تغيير مذاهب وعقائد دينية استقرت بين الناس وأصبحت سمة ونبراسا يميز سلوكهم ويحدد أهدافهم بطريقة عفوية فطرية متوارثة عبر الأجيال والعصور ، وأصبح مجرد الاقتراب من الأديان وبخاصة فى المشرق العربى فى محاولة تبديلها أو التشكيك فيها يثير عند أصحابها موجات غضب كبيرة تستمد قوتها من قوة الأديان التى هى عند بعضهم مسئلة حياة أو موت .

هذا رغم ان الارسالية الأمريكية البروتستانتية تعتبر من أنشط الارساليات الدينية الأجنبية التى مارست عملها فى بلاد الشام ومصر والسودان وسعت الى أهدافها بطرق وأساليب مختلفة ومتباينة تحت اقسى الظروف وفى اصعب الميادين .

واذا كانت الأرساليات الامريكية لم تحقق النجاح الدينى المنشود الا انها نجحت نجاحا كبيرا فى نقل بعض من حضارة الغرب المتطور وعلومه المتقدمة الى مصر والمشرق العربى وقربت بين الأفكار بهدف

تسهيل مهمتها التبشيرية وخلق المناخ المناسب لعملها ، ولكنها على أية حال أفادت كثيرا سكان هذه المناطق وخاصة فى مصر وسوريا ولبنان ٠

ولم يترك النشاط التبشيرى الامريكى أية فرصة لأنشطة أمريكية أخرى اللهما بعض الاهتمامات الاقتصادية المحدودة والتى لا تقارن الى جانب النشاط التبشيرى والذى كان سمة بارزة لبداية اتصال الولايات المتحدة الأمريكية بالبلاد العربية حتى سنة ١٩٢٣ ٠

والولايات المتحدة فى كل ذلك استفادت من الامتيازات الاجنبية التى حمت نشاطها وغيرت رعاياها وجعلت منهم قوة فوق قانون ولظم البلاد ٠

دكتور
عبد المنعم
الدسوقي

موقف عُمد ومشايخ القرى من انتخابات صدقي ١٩٣١

كلية التربية -
جامعة القاهرة

المجلة التاريخية المصرية - المجلة التاريخية المصرية - المجلة التاريخية المصرية - المجلة التاريخية المصرية -

ان عمد ومشايخ القرى هم نواب الحكومة في توطيد الأمن ببلادهم ، وقطع دابر الاشقياء واللصوص ، وعليهـم تنفيذ أوامر الحكومة والقيام بتبعاتها من تحصيل الايرادات وتأدية الطلبـات ، وكان تعينهـم يتم عن طريق الاختيار من البيوت الشهيرة أرباب الأطيان (١) ، ولما كانت للعمدة السلطة التامة على قريتـــه ، والخبرة الكاملة باحـوال ســـكان بلدته وعاداتهم (٢) ، فان الحكومات التى تعاقبت فى مصر استخدمت سلطانها للحد من نفوذ العمد المنتمين لأحزاب المعارضة فعزلتهم أحيانا وولت مكانهم أنصارها ومن تتوسم فيهم الســير فى ركابها ، كما استخدمت العمد فى أثنـاء الانتخابات للتأثير على الأهالى فى انجـــاح مرشـــحيها أو تعطيل

---

(١) مجلس شورى القوانين : محاضر جلسات سنة ١٨٩١ ــ ١٨٩٥ جلسة السبت ٢ مارس ١٨٩٥ وقد نصت المادة الاولى من القانون الصادر فى ٢١ مارس ١٨٩٥ على أن يكون العمدة مالكا لعشرة أفدنة على الأقل .

انظر فيليب جلاد : قاموس الادارة والقضاء ، المجلد الثالث ــ الاسكندرية . المطبعة التجارية ١٨٩١ ص ١٤٦ تحت عنوان منشـــور من نظارة الداخليـة الى جميع المديريات بشأن تنصيب المشايخ والعمد ووكلائهم .

(٢) المؤيد : عدد ٢٧٢٣ فى اغسطس ١٩٠٢ تحت عنوان «عمد البلاد وخفراؤها» .

الانتخابات ، وفى التاريخ المصرى المعاصر أمثـــلة عديدة على ذلك ، ففى عام ١٩٢٥ أعادت حكومة زيور اثنين وعشرين عمدة بعد أن كانت حكومة سعد زغلول قد طردتهم من مناصبهم (١) وفى نفس الوقت طردت عشر عمد من أنصار الوفد فى محافظة المنوفية (٢) ولما خرجت حكومه زيور من الحكم أعادت حكومة عدلى يكن ـ التى أيدها الوفد ـ جميع العمد المفصولين الى مناصبهم ، ولما جاءت وزارة مصطفى النحاس الأولى ضاعفت عدد العمد الوفديين بأن عزلت عمدا من أتباع الأحرار الدستوريين وأحلت مكانهـــم أنصار الوفد ، وفى عهد وزارة محمد محمود باشا عزل حوالى تسعين فى المائة من الوفديين (٣) وهـكذا تتابعت حركة العزل والتعيين بين العمد كلما ذهبت وزارة وجاءت أخرى ، ولما قدم مصطفى النحاس اســتقالة وزارته فى ١٧ يونية م١٩٣٠ (٤) عهـــد الملك فؤاد الى اسماعيل صدقى بتأليف الوزارة الجديدة (٥) ، وقد استهلت هذه الوزارة أعمالها بتأجيل انعقاد البرلمان لمدة شهر واغلاق أبوابه ، وصـــدر أمر ملكى فى ١٢ يوليو من نفس السنة ببطلان دستور ١٩٢٣ واستبداله بدســتور ١٩٣٠ وحل مجلسى النواب والشيوخ كما صـــدر قانون جديد للانتخاب (٦) مما أثار موجة من الاستياء والاحتجاج ، فانفجـرت المظاهرات فى أماكن متعـددة وخرج الطلبة والعمال يهتفون ضد الحكم الجديد مما دفع صدقى الى اللجوء لسياسة البطش لقمع معارضيه ، فارتفع عدد القتلى (٧) ، وأغلقت الصحف

---

(١) Lloyd. L, Egypt Since Cromer 2, vols, 1934, vol, 2 p, 110

(٢) الرافعى : فى أعقاب الثورة المصرية ج ١ ، القاهرة ١٩٤٧ ص ٢٤٧ ـ ٢٤٨

(٣) الاتحاد : العدد ١٩٤٣ فى ١٣ يناير ١٩٣١ تحت عنوان « مهزلة جديدة ـ يستقيلون بعد أن كانوا يطردون » .

(٤) قبل الملك فؤاد الاستقالة فى ١٩ يونية ١٩٣١ . أنظر الوزارات والنظارات المصرية ص ٣١٣ تحت عنوان « أمر ملكى رقم ٣٧ لسنة ١٩٣٠ بقبول استقالة حضرة صاحب الدولة مصطفى النحاس » .

(٥) النظارات والوزارات ص ٣١٧ تحت عنوان أمر ملكى رقم ٣٨ لسنة ١٩٣٠ صادر الى اسماعيل صدقى باشا بتأليف الوزارة الجديدة .

(٦) عن هذا القانون أنظر : دار الوثائق القومية ، الدستور المصرى وقانون الانتخاب فى ٢٢ أكتوبر ١٩٣٠ ، القاهرة ـ المطبعة الأميرية ١٩٣٠ .

(٧) بلغ عدد القتلى فى الحوادث التى وقعت احتجاجا على دستور ١٩٢٣ وفى سبيل اعادته عدد ١٢٢ قتيلا ، وعدد من أصيبوا بعاهات مستديمة ٣٥ شخصا أنظر ، مضابط مجلس النواب ـ مضبطة الجلسة التاسعة والعشرين فى الثلاثاء ١٥ سبتمبر ١٩٣٦ ص ١٤٦١ .

المعارضة لعدم امتثالها لأوامر الحكومة (١) ، ولما اجريت الانتخابات فى يونيه ١٩٣١ لم يدخلها سوى الحزب الوطنى ، وحزبى الشعب والاتحاد (٢) ٠ أما حزبا الوفد والأحرار الدستوريين فقد قاطعا الانتخابات وألفا لجنة للاتصال بهدف تقريب وجهات النظر بينهما (٣) كما تعاهدا على النضال من أجل دستور ١٩٢٣ ، ولكي يفسدا جو الانتخابات أو عزا الى أنصارهما من عمد ومشايخ القرى الى مقاطعتها في قرارهم وتقديم استقالاتهم (٤) احتجاجا عليها فحرض مصطفى النحاس في خطبة علنيه له العمد والمشايخ على مقاطعة الانتخابات فى كل مراحلها ، وهنأ الذين بدأوا بهذه الخطوة وضحوا بمناصبهم على مواقفهم الوطنية كما ناشد الآخرين منهم اتباع مسلك اخوانهم دون الخوف من الغرامات الباهظة (٥) ٠

ودعا محمد محمود العمد والمشايخ الى عدم القيام بواجبات وظائفهم وتقديم استقالاتهم وطمأنهم بأنهم لابد عائدون الى وظائفهم ، كما وعدهم

---

(١) قرر مجلس الوزراء بجلسته المنعقدة في ١٥ يوليه ١٩٣٠ تعطيل جرائد البلاغ وكوكب الشرق واليوم تعطيلا نهائيا ، وتخويل وزير الداخلية سلطة تعطيل كل جريدة أخرى تتستر بأسماء الجرائد المذكورة .

الوقائع المصرية العدد ٦٩ من السنة الاولى بعد المائة فى ١٧ يوليه ١٩٣٠ وعطلت جريدة السياسة الاسبوعية تعطيلا نهائيا ٠

الوقائع المصريه فى ٥ فبراير ١٩٣١ .

وأنذرت جرائد الفلاح المصرى والمساء والريفى والجرنال دي كير والضياء الضياء ٠ العدد ١١٠ من لسنة الاولى فى السبت ٧ فبراير ١٩٣١ كما عطلت جريدة مصر عشر ايام وصودر عددها الصادر فى أول ابريل ١٩٣١ الشعب ٠ العدد ١٠٠ فى الخميس ٢ ابريل ١٩٣١ ٠

(٢) الضياء : العدد ١١٠ من السنة الاولى فى السبت ٧ فبراير ١٩٣١ تحت عنوان « ياويل مصر من دعاة السوء » ٠

كما يتضح من احدى الوثائق ان حزب الاتحاد قد هيأ نفسه لخوض الانتخابات فذكر سكرتير الحزب مخاطبا الاعضاء « وجب علينا معشر الاتحاديين ان نجمع شملنا ونهيىء لهذه الانتخابات عدتنا حتي يأخذ رجال الاتحاد مكانهم اللائق بهم » دار الوثائق : محافظ عابدين ـ محفظة رقم ٢ (احزاب سياسية) وثيقة بتاريخ ١٩٣٠/١١/١٠ ٠

(٣) الرافعى : فى أعقاب الثورة المصرية جـ٢ . القاهرة . النهضة المصرية الطبعة الاولى ١٩٤٩ ص ١٤١ ٠

(٤) ذكرت جريدة الاتحاد أن الوفد والأحرار الدستوريين حرضوا العمد والمشايخ على تقديم استقالاتهم عن طريق الارهاب والترغيب أو بتحليفهم الايمان المغلظة الاتحاد : العدد ١٩٤٣ فى ١٣ يناير ١٩٣١ تحت عنوان « استقالة بعض العمد » ٠

(٥) الضياء : العدد ١٠٨ فى ٥ فبراير ١٩٣١ ٠

برد الغرامات الظالمة التي حكم بها عليهم (١) ، وذكر أن هذه الاستقالات تعتبر مثالا صالحا من أكرم أمثال التضحية فى سبيل الاحتفاظ بالمبدأ والدفاع عن الوطن (٢) ، ومن وثائق قلم الشياخات وقرارات التأديب والانتخاب الموجودة بدار المحفوظات ، ومن الصحف والكتابات المعاصرة لتلك الفترة يتضح لنا الدور الذى لعبه الكثير من العمد والمشايخ فى مناوأة الحكومة برغم انهم نوابها فى توطيد أواصر النظام ببلادهم فحرضوا الأهالى على مخالفة أوامر الحكومة ومقاطعة الانتخابات كما شجعوا على اقامة المظاهرات فى أثناء عملية الانتخاب للتأثير على الناخبين من أنصار الحكومة وارهابهم والتحرش بهم ، كما أن بعضهم استقال من وظيفته تنفيذا لقرار اضراب الأحزاب المعارضة للانتخابات ، واتسعت حركة الاستقالات تدريجيا حتي شملت عددا كبيرا من عمد الوجهين البحرى والقبلى مما أثر على مركز وزارة صدقى وأظهرها بأنها غير مرضى عنها حتي من مرؤوسيها من العمد والمشايخ ، وقوي مركز المعارضة ، ولم تقف حكومة صدقى مكتوفة الأيدي أمام هذه الاستقالات شبه الجماعية من العمد والمشايخ فحاولت فى أول الأمر اقناعهم بسحب استقالاتهم والا فانها ستعين عمدا مكانهم ومشايخ آخرين ، ولما لم تفلح حكومة صدقى فى ذلك ولم يعبأ معظم العمد (٣) بتهديدها ووعيدها أعلن اسماعيل صدقى أن استقالات هؤلاء العمد ترجع لتحريض آخرين ، وترجع الى عوامل شخصية وتحركها فى الخفاء أعراض حزبية (٤) ، وان اعلانهم عدم التعاون مع الحكومة فى الانتخابات يعتبر جريمة لأن عملهم هذا سيؤدى الى اختلال الأمن فى

---

(١) الاتحاد : العدد ١٩٥٤ فى ٢٦ يناير تحت عنوان « تعطيل جريدة الأحرار الدستوريين » .

(٢) الأحرار الدستوريون : العدد ٢٣ فى ٢٥ يناير ١٩٣١ تحت عنوان « حديث لحضرة محمد محمود باشا بشأن استقالات عمد البلاد ومشايخها » .

(٣) تراجع قليل من العمد عن استقالاتهم بعد تدخل بعض الوسطاء ، وعلى سبيل المثال فقد سحب صادق يوسف استقالته التى نشرها على صفحات مجلة السياسة فى ٢٩ نوفمبر ١٩٣٠ .

(٤) الأحرار الدستوريون فى ١٢ يناير ١٩٣١ تحت عنوان « الوزارة واستقالات العمد والمشايخ » .

البلاد (١) ، وقامت الحكومة بارهابهم عن طريق التهديد بالقبض عليهم ، ففى ناحيتى « منشاه سليمان » و « سمسطا الوقف » مركز ببا حاصرت قوات الحكومة بيوت المشايخ المستقيلين ثم قبضت عليهم وساقتهم الى منزل أحد المنتمين الى حزب الشعب فحجزوهم فيه أكثر من خمس ساعات ، وبعد أن فشل مأمور مركز ببا فى حملهم على العدول على الاستقالة حررت لهم محاضر ادارية وأفرج عنهم (٢) ، ثم حوصرت بيوتهم وعين لكل عمدة مستقيل نفرا من البوليس السرى يتتبع خطواته (٣) وفى مركز تلا أرسلت وزارة الداخلية رجالها وصاروا يهددون العمد المستقيلين وطلبوا منهم سحب استقالاتهم وكتابة تكذيب ينفى خبر هذه الاستقالات ولكن التهديد لم يجد نتيجة مع معظمهم ، فبادرت القوة الى نقل السلاح من دور العمد (٤) ، كما قررت الحكومة تقديمهم الى المحاكمة أمام لجان الشياخات (٥) .

وفيما يلى نعرض أمثلة للاتهامات التى وجهتها الحكومة الى بعض هؤلاء العمد فى أثناء التحقيق معهم : ففى الدقهلية وجهت الحكومة الى محمد عمر نوفل عمدة بلدة المندرة مركز أجا وابراهيم عقل شيخ البلد بها تهمة تعطيل عملية الانتخابات ، والقيام بالتحريض على الاضراب المعارض للحكومة ، وقيام العمدة بتقديم استقالته اقتداء ببعض رفقائه تنفيذا لقرار اضراب الأحزاب المعارضة للانتخابات ، ونشر ذلك فى جرائد الضياء والمساء المعارضة للحكومة بقصد التشهير بالوزارة والتأثير على مركزها واظهارها بانها وزارة غير مرضى عنها حتى من مرؤوسيها ، وأنه لما استدعى العمدة الى المركز للاستعلام عن أسباب استقالته امتنع عن الذهاب كما انقطع عن أداء عمله بمجرد تقديمه الاستقالة وانساق تحت تأثير وتحريض حسين بك فوده ومحمود باشا الاتربى ومحمد بك عبد النبى ، وراغب بك

---

(١) الاتحاد : العدد ١٩٤١ فى ١١ يناير ١٩٣١ تحت عنوان « مهزلة استقالة العمد » .

(٢) المساء : العدد ١٣٣ فى اول فبراير ١٩٣١ تحت عنوان « الادارة والعمد » .

(٣) محمد حسين هيكل وآخرون : السياسة المصرية والانقلاب الدستورى القاهرة ــ مطبعة السياسة ، الطبعة الاولى ١٩٣١ ص ٤٧ .

(٤) الأحرار الدستوريون : العدد ١١ فى ١٣ يناير ١٩٣١ تحت عنوان «الاحكام العرفية فى تلا » .

(٥) استفاد صدقى من تجربة زيور السابقة فلم يقدم العمد والمشايخ الى القضاء الذى ربما يصدر احكاما ببراءتهم ، بل احالهم الى لجان الشياخات .

فودة من حزب الوفد المعارض للحكومة (١) ، وفى ناحيـة سندوب مركز المنصورة وجهت الحكومة الى مسعد سليمان وردة شيخ بلدة بناحية سندوب وكفر الناصرة تهمة التعرض للشرطى المعين لمنع تجمهر الناس والقاء خطب سياسية بمسجد الناحية وتحريض الناس على مخالفة أوامر الحكومة (٢)٠

وفى مركز دكرنس وجهت الحـكومة الى محمد عبر الرحيـم عمدة الدراكسة تهمة تعضـيد الحزبين المعارضـين للحـكومة وتنفيذ قراراتهما المضادة لخطتها ، وتحريض أهالى البلدة على الخروج على طاعتها والاستخفاف بسلطتها وبث روح الفوضى والاخلال بالنظام العام لمنع اقامة الانتخابات ، والسماح للاهالى باقامة المظاهرات ضد الحـكومة فى أثنـاء الانتخابات ، والامتناع عن اعطاء صوته ليقتدى به أقاربه والأهالى ، وتعطيل المخابرات التلفونية حتى لايمكن لأحد الاتصال بالجهات الرئيسية ورغبته فى تعيين نفسه رئيسا فى لجنة الانتخاب لمنع الناس من الادلاء بأصواتهم(٣) ، وفى مركز دكرنس أيضا وجهت نفس التهم الى كل من عبد الحميد موسى عمدة ميت شرف وعز الدين السـيد شيخ البلد بهـا (٤) ، ومحمد عبد العال عمـدة ميت السودان (٥) والسيد أحمد سالم عمـدة ديرب الخضر (٦) أما عز الدين أفندى عمدة ميت طريف فقد وجهت اليه بجانب هذه التهم تحريض العمد الآخرين على معارضة أوامر الحكومة (٧) ، والرغبة فى أن يكون عصـيانه قدوة لبعض العمد فى المركز ، كما وجهت اليه تهمة قطع الكوبرى الموصل الى بلده بغرض منع وصول الناس الى مكان الانتخاب ، ومنع وصول قوات الحكومة الى البلد حتى يتمكن المتظاهرون من منع الناخبين اعطاء أصواتهم أو الوصول الى قاعة الانتخاب (٨) ، ووجهت الى ابراهيم عبد الرحمن سليم عمدة « ميت بتومه » تهمة التلاعب فى تشـكيل لجنة الانتخابات ، حيث طلب تغيير رئيس اللجنة المعين وسـمح لأخيه السيد

---

(١) دار المحفـوظات العموميـة . كوبيـا قرارات التأديب والانتخـاب ، مديرية الدقهلية ــ قلم الشـياخات تحت رقم ١٩١٣ عين ٣٥ مخزن ٥ مكاتبـة تحت رقم ٩١ لسنة ١٩٣١ .

(٢) نفسه تحت رقم ١٩٠٩ .

(٣) كوبيا قرارات التأديب والانتخاب ، قلم الشـياخات السـابق الذكر مكاتبة تحت رقم ٤٤٦ لسنة ١٩٣١ .

(٤) نفسه مكاتبة تحت رقم ٤٢٩ لسنة ١٩٣١ ص ٣٠٦

(٥) نفسه مكاتبة تحت رقم ٤٤٧ لسنة ١٩٣١ ص ٣١١ .

(٦) نفسه مكاتبة تحت رقم ٤٤١ لسنة ١٩٣١ ص ٣٤١ .

(٧) نفسه مكاتبة تحت رقم ٤٤٤ لسنة ١٩٣١ ص ٣١٨ .

(٨) نفسه ص ٣٣٠ .

« أفندى » المحامى بمكتب الأستاذ وليم « أفندى » مكرم عبيد بحض الأهالى على مقاطعة الانتخاب ، كما امتنع هو شخصيا عن الادلاء بصوته ، فكان ظهوره بهذا المظهر مانعا لكثير من المواطنين من الحضور لاستعمال حقوقهم الانتخابية ، كما نبه على شيخ الخفر والخفراء بعدم اعلان الأهالى بالانتخاب وتستر على تسعة أشخاص من بلده حرضوا الأهالى على مقاطعة الانتخابات (١) ، كما وجهت تهمة مقاطعة الانتخابات أيضا الى محمد عبد العال أبو النصر شيخ عزبة بناحية برج الحمص مركز أجا (٢) ، وعبده أفندى سالم عمدة ناحية أشمون الرمان مركز دكرنس (٣) ، وعباس حلال البسيونى عمدة ناحية « بهيدة » مركز ميت غمر ومحمد محمد البسيونى شيخ البلد بها (٤) .

ولما كانت أشد عقوبة يمكن الحكم بها على العمدة أو الشيخ المستقيل هى الغرامة الى عشرين جنيها أو الرفت أو بالعقوبتين معا ، وذلك طبقا للائحة تأديب العمد والمشايخ الصادرة فى ٢٨ نوفمبر ١٩١٢ (٥) ، فقد رأت وزارة الداخلية أن هذه الغرامة ضئيلة ولا تشكل عقبة فى سبيل استفحال هذه الاستقالات لذلك رأت تجزىء تهمة الاستقالة الى عدة تهم لتضاعف الغرامة ، وتتضاعف بنسبتها العقوبة ، ففرضت عشرين جنيها على كل جزء (٦) وبذلك تراوحت الغرامة على كل عمدة مستقيل مابين الستين والمائة والثلاثين جنيها ، كما أخذت تنبش فى ماضى العمد لمحاولة ارهابهم ، فغرمت الشيخ محمد آدم العمدة بمركز اسنا خمسة جنيهات لاهماله فى ضبط حادثة خطف طفل (٧) ، كما رفت محمد توفيق أفندى الأنور عمدة مهدية بالشرقية وتم تغريمه أربعين جنيها عن تهمتين سابقتين الأولى ادعاؤه على مهندس مجلس المديرية أنه طلب منه رشوة ، والثانية تهمة سابقة (٨) وكانت لجنة الشياخات فى مجملها تقرر باجماع الآراء

---

(١) نفسه ص ٤٢٢ .

(٢) نفسه ص ٤٥٩ .

(٣) نفسه ص ٣٢٢ .

(٤) نفسه ص ٣٢٧ .

(٥) الوقائع المصرية رقم ١٣٨ السنة الثانية والثمانون فى الاثنين ٢ ديسمبر ١٩١٢ تحت عنوان « ارادات وأوامر عالية » انظر ملاحق البحث ، الملحق رقم(١) .

(٦) الضياء : العدد ١٠٤ من السنة الاولى بتاريخ الأحد أول فبراير ١٩٣١ .

(٧) المقطم : العدد ١٢٧٤٧ فى الجمعة ٢٣ يناير ١٩٣١ .

(٨) المقطم : العدد ١٢٧٤٨ فى السبت ٢٤ يناير ١٩٣١ .

تغريم كل عمدة عشرين جنيها عن كل تهمه ثم رفته من وظيفته (١) ٠

ولما رأى بعض العمد أن الحكومة تقسم الاستقالة جملا وألفاظا وتعتبر كل واحدة منها تهمه مستقلة تستحق غرامة عشرين جنيها اكتفوا بأن جعلوا نص استقالاتهم كلمات ثلاث هى « أرجو قبول استقالتى » (٢) ومع هذا فقد وجهت الحكومة الى بعض الذين بعثوا بهذه الاستقالة أكثر من عشر تهم هى :

١ ـ تعضيد الحزبين المعارضين للحكومة ٠

٢ ـ تحريض الأهالى على الاستخفاف بسلطة الحكومة ٠

٣ ـ نشر روح الفوضى والاخلال بالنظام والحجر على حرية اعطاء الأصوات فى الانتخابات ٠

٤ ـ التشجيع على اقامة مظاهرات معادية للحكومة فى أثناء الانتخابات ٠

٥ ـ الامتناع عن اعطاء العمدة صوته ليقتدى به الأهالى ٠

٦ ـ تعطيل المخابرات التلفونية لعرقلة الاتصال بالجهات المسئولة ٠

٧ ـ التأثير على مركز الوزارة القائمة باظهار أنها غير مرضى عنها ٠

٨ ـ اهمال القيام باعمال الوظيفة بالتستر على الأهالى الذين شجعوا على مقاطعة الانتخاب ٠

٩ ـ نشر الاستقالات فى الجرائد المعارضة للحكومة بطريقة تتضمن الطعن على أعمال الوزارة والتشهير بها ٠

١٠ـ الامتناع عن الذهاب لنقطة البوليس لسؤالهم عن سبب الاستقالة

١١ـ الامتناع عن أداء أعمالهم قبل البت فى استقالاتهم (٣) ٠

وكانت طريقة الحكومة فى تحصيل الغرامات تنم عن سياستها العدوانية وتعسفها فى المضى فى هذه السياسة فقد كان تحصيل الغرامات يتم بطريقة ارهابية ففى مركز بنى مزار أمرت الحكومة على أثر استقالة العمد مباشرة أن يحاكموا أمام لجنة الشياخات ، فحكمت عليهم اللجنة

---

(١) انظر على سبيل المثال قرارات التأديب والانتخابات ، مديرية الدقهلية ـ قلم الشياخات رقم ١٦٣١ عين ٣٥ مخزن ٥ ص ٢٢٨ ٠

(٢) محمد حسين هيكل وآخرون : المرجع السابق الذكر ص ٤٨ ٠

(٣) انظر : قرارات التأديب والانتخاب بمديرية الدقهلية ـ قلم الشياخات ٠ دفتر رقم ١٦١٣ عين ٣٥ مخزن ٥ ٠

بالرفت وبعشرين جنيها غـرامة لكل تهمة حتى بلغت الغـرامات حـوالى ألفي جنيه ، وعندما قام العمد بدفع الغرامات المقررة عليهم أهينوا أشد اهانة وهددوا أسوأ تهديد ، أما العمد الذين تأخروا أربعا وعشرين ساعة عن الدفع فقد ارسلت لهم وزارة الداخليـة قوات من الجيش والبوليس واللوريات المسلحة أزعجت بلادهم أشد ازعاج ، فاذا لم تجد العمدة في بلده أخذت بعض الرهائن ، وكانت هذه الرهائن تؤخـذ لتحبس بالمركز حتى تسترد الغرامة المحكوم بها على العمدة أو الشيخ من ذلك ما حدث بكفر الشيخ ابراهيم اذ اعتقلت الحكومة زوجه العمدة كى يسدد هو المبلغ بنفسه دونما التفات الى قيم العرض والشرف التى يعتز بهـا الفلاحـون واريد أخذها للمركز فى احدى لوريات الحكومة لولا أنها هددت بأن تقتل نفسها فاخذوا بدلا منها الحاج عبد الله حسانين بخيت والشيخ ابراهيم الجارحي وخادم الشيخ مبروك (١) ٠

وفى أسيوط حكمت لجنة الشـياخات على العمد والمشـايخ الذين استقالوا بالرفت والغرامات الباهظة التى تراوحت بين ١٣٠ و ٨٠ جنيها(٢) فحكمت على تسعة عشر شخصا بمبالغ بلغت ١٦١٩ جنيها ، وبعد صدور هذه الأحكام قام رجال الادارة بتحصـيل الغرامات من العمد والمشايخ فى الطريق العام والا اقتيدوا الى الحجز حتى تدفع المبالغ المحكوم بها عليهم(٣) كما بلغت عمليات تعذيب رجـال الحكومة لمعارضـيهم فى مديرية أسيوط حدا كبيرا من البشاعة المنافية لآدمية الانسان وكرامته (٤) ٠

وفى تلا قبض على عمدة صندفا الذى لم يدفع الغرامة حتى الساعة الحادية عشر مساء مع أنه رجل مسن لا تحتمل صحته أن يقاسى آلام المرض والاعتقال (٥) وفى ميت القرشى دقهلية أرسلت وزارة الداخليـة رجالها فحاصروا بيت العمدة المستقيل أنور عبد المعطى كى يأخذوا منه الغرامة

---

(١) الاحرار الدستوريون : العدد ١٣ فى ١٥ يناير ١٩٣١ تحت عنوان « صـورة ما يجرى فى بنى مزار » ٠

(٢) الضياء : العدد ١٠٨ من السنة الاولى بتاريخ الخميس ١٥ فبراير ١٩٣١

(٣) الضياء : العدد ١٠٧ فى ١٤ فبراير ١٩٣١ ٠

(٤) بلغت عمليات تعذيب رجال الحكومة لمعارضيهم حدا ان كانوا يدخلون العصى فى ادبارهم ، كما كانوا يعاملون الرجال معاملة النساء ٠

انظر : محمد حسين هيكل : مذكرات فى السياسة المصرية جـ ١ ١٩١٢ ــ ١٩٣٧ ، القاهرة ــ النهضة المصرية ١٩٥١ ص ٣٥٢ ٠

(٥) الاحرار الدستوريون فى ١٦ يناير ١٩٣١ تحت عنوان « فى تلا بعد بنى مزار »

التى قررتها لجنة الشياخات بالدقهلية عليه وهى مائة وعشرون جنيها فلم يمتنع العمدة بل دفع الغرامة لقائد القوة المهاجمة وطلب منـــه ايصـالا فامتنع القائد عن اعطائه بل أمر القوة بالقبض عليه فســاقوه الى المركز وأودعوه الحجز بأمر من المأمور الذى قام بتهديده اذا لم يسحب استقالته ، ولكن العمدة رفض ، ولما رأت الحكومة اصراره على موقفه وتمسكه برأيه واعتزازه به لم تجـد مفرا أن تطلق سراحه (١) ، وبلغ من فزع الأهالى بسبب مهاجمات البوليس لبلادهم أن هجر بعض الرجال والنساء والأطفال منازلهم وانطلقوا يقضون ليلهم فى البرد القارس بالمزارع والحقول (٢) .

ولنا أن نتساءل عن حق العمد فى الاستقالة مثـل حق أى موظف عمومى دون أن يتعرض لأى ايذاء ، وعن نوع الغرامات التى فرضت على العمد المستقيلين ، وهل هى غرامات ادارية كالتى توقع على الموظف المقصر فى عمله وتخصم من راتبه أم هى عقوبة جنائيـة اذا امتنع المحـكوم عليه عن دفعها يحبس ، ولماذا يزاد مقدار هذه الغرامات رغم أنه محدد بنص المادة الخامسة المعدلة بالأمر العالى الصادر فى ٢٨ نوفمبر ١٩١٢ (٣) ثم كيف تستطيع لجان الشياخات محاكمة عمدا استقالوا بالفعل ؟ .

والواقع أن من حق العمدة أن يستقيل من وظيفته كمـا يستقيل أى موظف عمومى ، وقد برأ القضـــاء من قبل العمد الذين استقالوا فى أثناء وزارة زيور ، ومع ذلك فان صدقى باشا . اعتبر الاستقالات شبه الجماعية – فى وقت كانت حكومته تعد للانتخابات – مظهرا عدائيـا له برغم أنها قدمت بالطرق المشروعة ، وتركت للوزارة لكى تعين فيهـا من شاءت ، وقد ارتاعت حـكومة صـدقى لتلك الاسـتقالات وبوجه خاص بسبب أن هؤلاء العمد تركوا مناصبهم قبل البت فى استقالاتهم .

حقيقة ان من الصعب على أى قوة ارغـام أحـد على مخالفـة ضميره والمضى فى مزاولة مهام منصبه لتأييد نظام لايتفق ومبادئه ، ولكن نشر هذه الاستقالات فى الصحف وبطريق شـبه جماعيـة اعتبرته الحكومة فى ذلك الوقت عملا عدائيا موجها لها ، وتدخلا فى أعمالها ومناصرة للأحزاب المناوئه لها ، وهذا يتنافى فى رأيها – الحكومة – مع واجبات وظائفهم .

أما ما ذكرته جريدة الأحرار الدستوريين عن انقطاع علاقة الحكومة

---

(١) الضياء : العدد ١٠١ من السنة الاولى فى الخميس ٢٩ يناير ١٩٣١ .

(٢) محمد حسين هيكل وآخرون : السياسة المصرية والانقلاب الدستورى ص ٥٠

(٣) عن هذا الأمر العالى ، أنظر ملاحق البحث ، الملحق رقم (١) .

بالعمد اذا استقالوا لأنهم ليسوا موظفين يتقاضـــون أجرا على وظائفهم . بل ان عملهم تطوعا لهم أن يعدلوا عنه فى أى وقت شاءوا (١) ، فتعتقد أن هذا يمكن أن يكون جائزا فى الأحـوال العادية أما فى الأحـوال التى تعرضت لها حكومة صدقى فقد كان استفزازا لها .

ان حياد الموظفين فى المسائل السياسية أمر مطلوب ويجب التسليم به فتفشى روح الحزبيــة بين موظفى الادارة مفســدة لجهـــاز الحكومة ، أما العمد فلهم شأن آخر لانهم بحكم وظائفهم كانوا الصلة بين السـلطة الحاكمة والأهالى ، ومتى طلبت معونتهــم فى وقت اجراء الانتخابات فى عهد حكومة متجرده من النزعات الحزبية أمكنهم أن يقدموا هذه المعونة بغير أن يجوروا على ميولهم السياسية وآرائهم الخاصة ، ولكن اذا حدث العكس ووجدوا أنه من المتعذر عليهم المعاونة على اجراء الانتخابات فى عهد حكومة تصرح دائما أن همها هو قهر الأحزاب التى ينتمون اليها فان من حقهم أن يعبروا عن وجهة نظرهم كما أنه من الأمانة عليهم أن ينسحبوا (٢) ، وهكذا فانه فى ظل الظروف التى أوجدتهــا حكومة صدقى ــ من تعطيل الدستور ومحاولة تزوير الانتخابات ــ فانه كان من حق العمد أن يستقيلوا من مناصبهم ، برغم أن الحكومة اعتبرت ذلك حركة عدائية ضدها وتحريضا ظاهرا لمقاطعة الانتخابات (٣) فقد رأت حكومة صدقى انه اذا كان من حق كل من يشغل وظيفة عامة أن يستقيل منها فان من المفروض أن يظل فى وظيفته حتى يتم البت فى شــأن استقالته ، وهذا مالم يحدث من العمد المســتقيلين .

أما عن مسألة الغرامات فان هنــاك لائحة لتأديب العمــد يجـوز بمقتضاها أن توقع على أحدهم فى حالات معينة غـرامة لاتتجاوز عشرين جنيها أو رفته أو بالاثنين معا ، ولكن الحكومة عددت التهــم ، وقدمتهم الى لجان ادارية حكمت عليهم بغرامات تصاعدت وتضـاعفت أضـعافا كثيرة والذى نراه هنا أن الوزارة بمعاقبتهـا هؤلاء العمد والمشــايخ قد حاولت السيطرة على زمام الموقف قبــل أن يفلت منها ، ولكنها لم تنجح .

---

(١) الاحرار الدستوريون العدد ٩ من السنة الاولى فى ١١ يناير ١٩٣١ تحت عنوان « انذار العمد والمشايخ للمديرية » .

(٢) الضياء ، العدد ١٠٤ من السنة الاولى فى أول فبراير ١٩٣١ تحت عنــوان « مسالة العمد » .

(٣) الاتحاد : العدد ١٩٤١ فى ١١ يناير ١٩٣١ تحت عنوان مهزلة استقالة العمد » .

بل زادت الطين بله بتعيينها عمدا ومشايخ لايرضى الأهالى عنهم . ومن المسلم به أنه لاعقوبة الا بناء على قانون ، وبما أن عقوبة استقالات العمد عقوبة ادارية فان استخدام القسوة والقهر وحجز العمد فى مراكز البوليس حتى يدفعون الغرامة المحكوم عليهم بها طريقة غير قانونية .

وبالنسبة لأماكن العمد الشاغرة فقد قامت لجان الشياخات بتعيين عمد ومشايخ بدلا من الذين استقالوا ، وكان العمد الجدد من الموالين اما لحزب الشعب أو لحزب الاتحاد – وهما الحزبان المناصران للحكومة – ففى أسيوط قررت لجان الشياخات بالمديرية تعضين مراد بك ثابت المنتمى لحزب الاتحاد عمدة لأسيوط ، وأحمد حسن مصطفى أحد المنتمين لحزب الشعب عمدة لناحية أولاد ابراهيم (١) ، وفى قنا عينت الحكومة مدنى حزين عمدة لاسنا قبلى ومحمد ابراهيم عمدة لأبى مناع ، وابراهيم أفندى بهيج عمدة لناحية الوقف بدلا من العمد المفصولين كما عينت عمدا لنواحى الكرنك وأبو طشت (٢) ، أما فى البحيرة فقد ألغى منصب العمدة فى ناحية منشاه دميستا بمركز « أبو حمص » وجعلت عزبة حيث لم يقبل أحد من سكانها هذا المنصب فى ظل وزارة صدقى (٣) ، ونتيجة لسوء اختيار الحكومة فى تعيين العمد الجدد فقد أرسلت الشكاوى من طول البلاد وعرضها الى ديوان الملك فؤاد والتى يتظلم الأهالى فيها من العمد الذين عينتهم الحكومة ، ويطالبون باعادة العمد المفصولين أو اجراء انتخابات لهم (٤) . ففى ناحية بنى غالب مركز أسيوط اشتكى الأهالى من رفت عمدتهم بلا ذنب وطالبوا باعادته لوظيفته أو اتباع طريقة الانتخاب فى اختيار

---

(١) المساء : العدد ١٣٤ فى الاثنين ٢ فبراير ١٩٣١ .

(٢) المقطم : العدد ١٢٤٨٠ فى الثلاثاء ٢٧ يناير ١٩٣١ .

(٣) المساء : العدد ١٣٥ فى الثلاثاء ٣ فبراير ١٩٣١ تحت عنوان «الادارة والعمد»

(٤) لقد عبر حزب الوفد خلال الفترة الواقعة بين الحربين العالميتين عن رغبته أكثر من مرة فى أن تحل الانتخابات المباشرة محل التعينات من جانب الحكومة ففى صيف ١٩٢٦ اعدت اللجنة البرلمانية للشئون الداخلية مشروع قانون ينص على جعل انتخابات العمد والمشايخ لفترة سبع سنوات وأن تتم عن طريق ناخبين يتكونون من كل قرى له حق التصويت الا أن عدلى يكن عارض المشروع كما أن سعد زغلول أسقط هذا الاقتراح – خشية هزيمة الحكومة ، ثم أعيد احياء المشروع أثناء وزارة النحاس ١٩٢٨ الا أن حكومته سقطت قبيل اقراره .

ج . بير : دراسات فى التاريخ الاجتماعى لمصر الحديثة – ترجمة الدكتور عبد الخالق لاشين – وعبد الحميد الجمال ، القاهرة – الحرية الحديثة ، ص ٨٦ .

العمدة الجديد (١) وفى مديرية أســـوان أشتكى أهالى كشتمنة شرق مركز الدر » من رفت عمدتهم واستبداد العمدة الجديد (٢) ، وفى مركز البلينا اشتكى أهالى ناحية يعقوب من رفت حكومة صدقى لعمدتهم (٣) ، وفى بندر فاقوس شرقية تظلم الأهالى من رفت عمدتهـم التى يقوم بكافة واجباته وتعيين آخر مكانه (٤) ، وفى مركز اطسا بالفيوم تظلم اهـــالى جردو من قرار وزارة الداخلية ايقاف عمدتهم وطالبوا بالغاء هذا القرار ، والتمسوا اعادة عمدتهم الشيخ عبد الرحمن العشيرى الى عمله الذى قام به نحـو العشرين عاما بمـا يرضى الجميع ، وذكروا أنه رفت فقط لعـلاقه المصاهرة مع أحد الدستوريين (٥) .

وفى مركز « تلا » تظلم أهالى كفر الشيخ سليم من العمدة عبد الصمد على عطية الذى عينته حكومة صدقى لتعامله بالربا الفاحش واحتكار بيع السماد وعدم قيامه بواجبات وظيفته (٦) كما حدث نفس الشيء فى مركز أشمون منوفية حيث تظلم أهالى « رملة الانجب » من العمدة الذى عينته الحكومة برغم اعتراضهم على ذلك (٧) .

والجدير بالذكر أنه على الرغم من وقوف معظم العمد والمشـــايخ الى جانب المعارضة ضد الحكومة فان هنـاك بعض العمد ناصروا الحـكومة ، وهؤلاء يمكن تقسيمهم الى قســمين : قسم خشى على المنصب ورفض تركه حتى لا يتقلده خصم له أو منافس (٨) ، وقسم آخر من الذين عهد فيهم مشايعه العكومة فى آرائها ففى أبو طواله شرقية ، ارغم عمدتها مواطنى بلدته على تكذيب عريضة أهالى الشرقية بالتماس اقالة الوزارة (٩) ، وفى ناحية الحجز مركز ادفو أسرع محمود بكر عمدة الناحية الى تقديم بلاغ ضد

---

(١) محافظ عابدين : ديوان جلالة الملك ، محفظة رقم ٦ التماسات جماعية التماس بتاريخ ٢٥ يونيه ١٩٣٠ .

(٢) نفسه

(٣) نفسه

(٤) نفسه

(٥) محافظ عابدين : ديوان جلالة الملك ، محفظة رقم ٧ تحت عنوان « التماسات جماعية » شكوى رقم ٧/٥/٧٥٣ بتاريخ ٣ يوليه ١٩٣٠ .

(٦) نفسه ، محفظة رقم ٧ التماس بتاريخ ١٦ يوليو ١٩٣٠ .

(٧) نفسه : التماسات جماعية ـ الادارة العربية ملف رقم ٦٩٤ .

(٨) المساء : العـــدد ١٣٤ فى الاثنين ٢ فبراير ١٩٣١ تحت عنـــوان « محاولات غير مجدية » .

(٩) المساء : العدد ١٣٦ فى ٤ فبراير ١٩٣١ تحت عنوان « شيخ مستقيل » .

محمد أحمد « شيخ البلد » بتهمة انه عاب فى حق الحكومة مما عرضه للتحقيق (١) ، وفى ناحية الصعايدة مركز ادفو قام العمدة بابلاغ المديرية أن عبد العزيز محروس سكرتير لجنة الوفد حرض مشايخ الناحية على الاستقالة فقبض عليه ، وحجز لمدة يومين (٢) ٠

وفى مركز دسوق أبلغ عمدة سنهور المدينة مأمور المركز بأن اثنين من مشايخ البلد منضمان الى حزب الوفد فتم التحقيق معهما (٣) كما كان من أنصار الحكومة أيضا حسن بك الجمل أحد أعضاء حزب الشعب وعمدة الميمون مديرية بنى سويف (٤) ٠

وبالاضافة الى ذلك فقد تراجع بعض العمد فى استقالاتهم وكذبوها على صفحات الجرائد ، ففى الشرقية أنكر عمدة كفر الاشراف ارسال تلغراف باستقالته (٥) كما أنكر الشيخ أمين مصطفى عمدة المجفف ارسال تلغراف الاستقالة فقبلت الحكومة اعتذاره (٦) ٠

ولم تكتف حكومة صدقى بفصل العمد المستقيلين وتغريمهم أفدح الغرامات بل لجأت أيضا الى القضاء على خصومها من العمد والمشايخ حتى ولو لم يستقيلوا ففصلت اداريا عبد الرحيم بك مصطفى عمدة ساحل سليم لموقفه البارز فى تأييد قرار حزبى الوفد والأحرار الدستوريين بمقاطعة الانتخابات (٧) كما فصلت محمود قناوى عمدة أبو عمورى ومحمد بك عبد العال عمدة الأوسط سمهور بمركز نجع حمادى لنزعتهما الوفدية(٨)، وفى مديرية المنيا صدرت الأوامر بوقف ستة من عمد بنى مزار وفصل عمدة آخر اداريا من المركز نفسه وذلك لعدم ثقتها بهم وعدم اطمئنانها

---

(١) المساء : العدد ١٤٢ فى ١٠ فبراير ١٩٣١ ٠

(٢) المساء : العدد ١٤٢ من السنة الاولى فى ١٠ فبراير ١٩٣١ ٠

(٣) الاحرار الدستوريون : العدد الثامن من السنة الاولى فى ١٠ يناير ١٩٣١ ٠

(٤) المساء : فى ٣١ ديسمبر ١٩٣٠ ٠

(٥) الضياء : العدد ٩٩ من السنة الأولى فى الثلاثاء ٢٧ يناير ١٩٣١ ٠

(٦) المقطم : العدد ١٢٧٤٧ فى السنة الثالثة والأربعون فى الجمعة ٢٣ يناير ١٩٣١ تحت عنوان « لجنة الشياخات فى مديرية الشرقية » ٠

(٧) الأحرار الدستوريون : العدد ٨ من السنة الاولى فى السبت ١٠ يناير ١٩٣١

(٨) المساء : العدد ١٤٨ من السنة الأولى فى ١٦ فبراير ١٩٣١ تحت عنوان « استقالات عمد وفصل آخرين » ٠

الى توكيل رياسة تحرير جداول الانتخاب اليهم (١) ، كما أقالت بعض المشايخ مثل على حسن رخا عمدة بنايوس التابع لمركز الزقازيق شرقية ، وموسى أحمد نوح شيخ غفر كفر هلال مركز السنطة غربية لانتمائه الى حزب الأحرار الدستوريين (٢) ، كما لجأت الى طرق غريبة فى محاربة خصومها فطلبت من العمد والمشايخ أن يوقعوا على كشوف تثبت عضويتهم فى حزب الشعب ، وان يدفعوا اشتراكه واشتراك جريدته (٣) ، وقصرت الترقيات على موظفى الادارة الذين يستطيعوا أن يحشدوا للحزب الجديد أكبر عدد من الأنصار (٤) كما اضطهدت الادارة كل من حرض على مقاطعة الانتخابات .

لقد رغبت حكومة صدقى فى أن يكون العمد من الفريق الذى لايتردد فى ممالأتها على أغراضها ومشايعتها الى غاياتها (٥) حتى لو اضطرها الأمر الى تعيين أشخاص من المشبوهين الذين ثبتت ضدهم مسئوليات رسمية أو جنائية أو تأديبية (٦) .

وقد أدت هذه السياسة الى حالة من القلق داخل البلاد كما أدت الى اختلال الأمن واضطرابه فقامت المنازعات بين العائلات وكثرت الحوادث(٧) وانقسمت البلاد الى فريقين أحدهما فى صف العمدة الذى اضطهدته والآخر فى صف العمدة الذى عينته الحكومة ، وقد صور توفيق الحكيم هذه الانقسامات فذكر أن تغيير العمد فى القرى كان يظهر بوضوح لدى ظهور موكب مصحوب بالعويل والبكاء من فريق من أهالى القرية

---

(١) الفلاح المصرى : العدد الاول من السنة الرابعة فى ٢٤ ديسمبر ١٩٣٠ تحت عنوان « الوزارة والعمد ـ من المسئول عن الأمن وما يصيبه » .

(٢) محافظ عابدين : ديوان جلالة الملك ـ التماسات جماعية . الادارة العربية ملف رقم ٦٩٤ .

(٣) محافظ عابدين : ديوان جلالة الملك ـ التماسات جماعية ، استغاثة موقع عليها من أعضاء مجلس الشيوخ وأهالى الفيوم مرفوعة بهيئة وفد من مديرية الفيوم الى الملك فؤاد .

(٤) محمد حسين هيكل وآخرون : المرجع السابق ص ٥٢ .

(٥) الفلاح المصرى : العدد الاول من السنة الرابعة فى ٢٤ ديسمبر ١٩٣٠ .

(٦) الجهاد : العدد ٥٩ من السنة الاولى فى ١٤ نوفمبر ١٩٣١ .

(٧) المقطم : العدد ١٢٧٤٨ فى السبت ٢٤ يناير ١٩٣١ تحت عنوان « جمع السلاح وعلاقته بالأمن العام » .

وبالفرح والتهليل من الفريق الآخر أثناء نقل جهاز التلفون من مقر العمدة المطرود الى منزل العمدة الذى حل محله (١) ٠

ولقد أدى تغيير العمد المستمر الى تشاحن العائلات وامتلاء القلوب بالأحقاد وافساد الأمن وقوع الجرائم (٢) حتى وصل الأمر الى قتل الاهالى لأحد العمد من اتباع الحكومة ، ففى البحيرة مثلا قتل بعض الأهالى عبد المقصود بك الديب عمدة بلدة صفط العنب باطلاق بعض أعيرة نارية عليه (٣) ٠

ومن الالتماسات والشكاوى الجماعية التى أرسلها الأهالى الى ديوان الملك فؤاد يتضح مدى الغبن الذى أصابهم نتيجة الخلافات الحزبية ، ومدى ما تعرضت له قراهم من اختلال فى الأمر نتيجة ايقاف وتغيير العمد فتذكر عريضة موقعه من أهالى الاقادمة مركز أبى تيج بمديرية أسيوط أن الأهالى يشكون من « اختلال الأمن فى بلدتهم بسبب الحزبية وقيام مفسدين ينتقمون من خصومهم باسم الوزارة الحالية ، ويتهمون العمدة باطلا » (٤) ومن التماس قدمه مشايخ وأهالى ناحية دهمرو مركز مغاغة يشكون فيه من رفت وزارة صدقى لعمدتهم بلا ذنب ، وتعيين عمدة آخر مكانه رغم أنه سبق أن تستر على جريمة قتل حدثت فى منزله (٥) ٠

وبالرغم من عدم اقبال الأهالى على الانتخابات وخلو معظم الدوائر الانتخابية (٦) فان جريدة الشعب هللت للحركة الانتخابية وصورت بعض صناديق الانتخاب وأمامها الكثير من الناخبين وكتبت تحت عنوان « يوم النصر الحاسم » قائله « هاهى صناديق الانتخاب توضع وترفع

---

(١) توفيق الحكيم : يوميات نائب فى الارياف ، القاهرة ـ مكتبة الآداب ص ١٠٠ ـ ١٠٢ ٠

(٢) الفلاح المصرى : العدد الأول من السنة الرابعة فى ٢٤ ديسمبر ١٩٣٠ تحت عنوان « الوزارة والعمد ـ من المسئول عن الامن وما يصيبه » ٠

(٣) المقطم : العدد ١٢٤٩٥ فى السبت ١٤ فبراير ١٩٣١ تحت عنوان «حادث أليم ـ قتل عمدة » ٠

(٤) محافظ عابدين ، ديوان جلالة الملك ، محفظة رقم ٦ عريضة بتوقيع أهالى الاقادمة مركز أبو تيج ٠

(٥) ديوان عابدين ، محفظة رقم ٦ التماس بتاريخ ٢٥ يونية ١٩٣٠ موقع عليه من مشايخ وأهالى ناحية دهمرو مركز مغاغة ٠

(٦) فاطمة اليوسف : ذكريات ، القاهرة ـ مكتبة روز اليوسف ـ الكتاب الذهبى ٣١٤ ص ١٥٥ ٠

ملاى باسماء الناخبين ، وهاهى الأمة تقبل على الانتخاب فرحة مستبشرة ، وهاهى نتائج الانتخاب تبلغ حدا ما بلغته فى أى انتخاب سبق رغم ما أقيم فى سبيله من عقبات (١) .

كما أعلن اسماعيل صدقى فى بيان ألقاه على الصحفيين أن الانتخابات أسفرت فى أيامها الثلاثة عن نتيجة باهرة تغتبط بها الحكومة أعظم اغتباط وان « نسبة عدد الناخبين الذين اشتركوا فيها تفوق كل نسبة سبقتها(٢) حيث بلغت نسبتهم المئوية الى مجموع الناخبين ٦٧ر $\frac{١}{٨}$ فى المائة .

والجدير بالذكر أن نتيجة الانتخابات تهكمت عليها بعض الصحف واعتبرتها « طبخ » للانتخاب كما ذكر رئيس حزب الوفد بأن ما حدث فى الانتخابات لم يسمع التاريخ بأسوأ منه لأنها أجريت فى جو خانق من الاكراه والتزوير وسفك الدماء ، وان الأمة قاطعتها ، ولم يشترك فيها أكثر من خمسة فى المائة وليس $\frac{٧}{٨}$ر٦٧ كما ذكر صدقى (٣) .

والواقع ان انتخابات صدقى تميزت بوقوع بعض الحوادث الدامية التى لم يسبق لها مثيل منذ صدور دستور ١٩٢٣ فقد اشترك رجال الادارة فى عملية تزييف المحاضر بحيث أثبتت فيها حضور الناخبين كذبا وزورا مما أدى الى فوز حزب الشعب بأغلبية كبيرة فكانت هذه المأساة الانتخابية سابقة خطيرة اتبعتها الادارة فى العمليات الانتخابية كلما أرادت اصطناع برلمان صورى (٤) .

لقد اشتكى الكثير من الأهالى مر الشكوى من تدخل الحكومة فى الانتخابات وانتصارها لفريق دون آخر فهدموا بذلك المساواة التى

---

(١) الشعب : العدد ١٤٢ من السنة الاولى فى الثلاثاء ١٨ مايو ١٩٣١ .

(٢) الشعب : العدد ١٤٣ من السنة الاولى فى الأربعاء فى ١٩ مايو ١٩٣١ والجدير بالذكر ان اسماعيل صدقى جعل الانتخابات على ثلاثة أيام بدلا من يوم واحد، وكانت نتيجة الانتخابات على درجتين الاولى الانتخابات الخمسينية أى أن ينتخب كل خمسين ناخبا مندوبا عنهم ، ثم الانتخابات البرلمانية وفيها ينتخب المندوبون الخمسونيون أعضاء مجلس النواب ثم أعضاء مجلس الشيوخ .

الرافعى : فى أعقاب الثورة جـ٢ ص ١٥٠ .

(٣) الجهاد : العدد ٥٩ من السنة الأولى فى ١٤ نوفمبر ١٩٣١ تحت عنوان « خطبة الرئيس الجليل مصطفى النحاس » .

(٤) الرافعى : فى أعقاب الثورة جـ ٢ ص ١٥٠ .

تعتبر أكبر دعامة فى صرح الدستور (١) ، كما اشتكى بعض آخر من اضطهاد الادارة لهم ، ومعاكسة أعمالهم لأنهم قاطعوا الانتخابات (٢) ووصلت الى السير لامبسون المندوب السامى الانجليزى فى مصر عشرات الآلاف من الشكاوى من مختلف طبقات الأمة مصريين وأجانب يوضحون فيها رفضهم لحكومة صدقى وما حدث فى الانتخابات من تزوير ولذلك فقد رأى الانجليز « أنه من الخطر الذى يهدد سلامة الامبراطورية البريطانية فى مصر أن يترك الشعب المصرى فى مثل هذه الحالة التعسة » (٣) وأنه من الأفضل ضرورة الاعتماد على حكومة مصرية تتمتع بثقة الشعب ومنتخبيه فصدر أمر ملكى فى ٣٠ نوعمبر بالغاء دستور ١٩٣٠ والعودة الى دستور ١٩٢٣ ، وبذلك توقفت تجربة صدقى بعد أربع سنوات من استمرارها ٠

والجدير بالذكر أن مسألة اعادة العمد والمشايخ الذين فصلوا نتيجة للانقلاب الدستورى ١٩٣٠ ورد الغرامات التى حصلت منهم أثيرت فى الصحف كما أثيرت فى مجلس النواب بعد خروج حكومة صدقى من الحكم ٠

وعن الصحف فقد ذكرت جريدة السياسة أن العمد والمشايخ الذين قدموا استقالاتهم بسبب رفضهم الاشتراك فى انتخابات لاترضاها ضمائرهم من حقهم أن يعودوا الى مناصب العمدية ، وان الاحكام التى صدرت ضدهم من لجان الشياخات بغرامات فادحة عن طريق تفتيت التهمة الواحدة الى عدة تهم باطلة ، ويجب الغاؤها واعادة ما دفعوه من غرامات البهم (٤) ، وطالبت الحكومة بضرورة الاسراع فى هذا الموضوع (٥) ٠

---

(١) محافظ عابدين : ديوان جلالة الملك ـ محفظة رقم ٢٧ التماسات جماعية ٠ استغاثة موقع عليها من أعضاء مجلس الشيوخ وأهالى الفيوم مرفوعة بهيئة وفد من مديرية الفيوم الى الملك فؤاد ٠

(٢) محافظ عابدين : ديوان جلالة الملك ـ التماسات جماعية ، ملف رقم ٦٩٤ شكوى ضد رجال الادارة لاضطهادهم بعض الأهالى حتى ضاعت تجارتهم لانهم قاطعوا الانتخابات ٠

(٣) محافظ عابدين : محفظة رقم ٣ أحزاب سياسية ، تقارير أمن عن الأحزاب المختلفة ، ملف حزب الشعب ، تقرير بتاريخ ٦ سبتمبر ١٩٣٤ ٠

(٤) السياسة : العدد ٣٥٥٧ فى ١٩ نوفمبر ١٩٣٤ تحت عنوان « مظالم يجب أن ترفع » ٠

(٥) السياسة : العدد ٣٥٦٠ فى ٢٢ نوفمبر ١٩٣٤ تحت عنوان « مظلمة العمد الذين استقالوا والذين رفتوا » ٠

أما عن مجلس النـواب فبالنسـبة للمسألة الأولى فقـد طالب بعض الأعضاء « برد العمديات للبيوتات التى خرجت منها وارجـاع الحالة الى ما كانت عليه قبل الانقلاب الدستورى فى سنة ١٩٣٠ (١) » وقد نظر ذلك الموضوع فى جلسـة ٢٠ ابريل ١٩٣٧ وتقرر احالته الى السـلطة التنفيذية لبحث كل حالة على حدة طبقا للمصلحة العامة والعدالة (٢) .

وقد بدأت وزارة الداخلية تتخذ الاجراءات الخاصة بذلك فبعد أن كانت اللوائح تقتضى أن لايقيد العمدة أو الشـيخ الذى رفت فى كشف المرشحين الا بعد مضى زمن كاف لزوال الأسباب ، ولما كانت طائفة كبيرة من العمد الذين فصلوا بسبب انتخابات ١٩٣١ أو بسبب سـياسى آخر بعد ذلك قد منعت من ادراج اسمائهـا فى كشوف المرشحين فى الوزارة السابقة فقد رأت الوزارة الجديدة أنه من الانصـاف أن يعـاد ادراج أسمائهم (٣) كما كلف محمد توفيق نسيم رئيس الوزارة وزارة الداخلية باعداد مذكرة تتضمن بيان باسماء العمد والمشـايخ المفصولين سـياسيا بسبب امتناعهم عن الانتخابات تمهيدا لانصافهم (٤) ، وقد أذاعت وزارة الداخلية كشفا بأسماء العمد والمشايخ الذين فصلوا من وظائفهم فى الفترة من ١٩ يونيه ١٩٣٠ الى ١٤ نوفمبر ١٩٣٤ كما اذاعت قرار وزير الداخلية بفصل العمد الذين حلوا محلهم فى وظائفهـم تمهيدا لفتح باب الترشيح أمامهم وعرض الأمر على لجان الشياخات (٥) ، وعن المسـألة الثانية فقد ردت جميع الغرامات الى أصحابها بعد أن قرر مجلس الشيوخ والنواب قانونا « برد الغرامات التى حصلت من عمد ومشـايخ البـلاد وقبائل العربان لمناسـبة اصـدار دسـتور ١٩٣٠ والانتخابات التى أجريت تنفيذا له (٦) .

---

(١) مضابط مجلس النواب ـ مجموعة مضابط الانعقاد العادى الثـانى ، المجلد الثانى مضبطة الجلسة الثامنة والعشرين بتاريخ الثلاثاء ١١ مايو ١٩٣٧ ص ٨٠٢ .

(٢) مضابط مجلس النواب : المضبطة السابقة الذكر ص ٨٠٣ .

(٣) السياسة : العدد ٣٥٦٦ فى ٢٩ نوفمبر ١٩٣٤ تحت عنوان « بدء الانصـاف فى مظلمة العمد » .

(٤) السياسة : العدد ٣٥٧١ فى ٥ ديسمبر ١٩٣٤ تحت عنوان « اعادة العمـد والمشايخ المفصولين سياسيا » .

(٥) السياسة : العدد ٣٥٨٤ فى ٢٠ ديسمبر ١٩٣٤ تحت عنـوان « العمـد والمشايخ المفصولون لأسباب سياسية » .

(٦) مضابط مجلس النواب : الانعقاد العـادى الأولى . ملحق لمضـبطة الجلسة الحادية والثلاثين بتاريخ الخميس ١٧ سبتمبر ١٩٣٦ ص ١٥٩٨ .

ومما سبق يتضح أن حزب الوفد استطاع أن يزعج حكومة صدقى باستقالة أنصاره من العمد والمشـــايخ ، وباعلانه بالاشتراك مع حزب الأحرار الدستوريين مقاطعة الانتخابات وطواف زعمائه بالقرى والأقاليم يدعون الى هذه المقاطعة ونشرهم الشائعات بأن الحياة النيابيـــة لن تدوم بمقتضى الدستور الحالى (١) كمـا يتضح تمتع الكثير من العمد والمشايخ بحيـــوية سياسية دافقة ووعى وطنى ، وأنهم بثباتهم واستهانتهم بالأذى ضربوا مثـلا طيبا فى التضحية وانكار الذات فعـلى الرغم من أن منصب العمودية وما له من رونق ، والامتيازات التى يلقاها العمد والمشايخ نظير خدماتهم للحكومة مثل اعفائهـم وأولادهم من الخدمة العسكرية ومن أشغال العـونة (٢) ، ومن دفع الأموال الأميرية عن خمسـة فدادين من الأطيان التى يمتلكها كل منهم (٣) فانهم آثروا الاستقالة رغم معرفتهم انها ستفقدهم هذه الامتيازات ، كما أثبت الشعب حيويته بمقاومة وزارة صدقى التى تولت الحكم ضد ارادته (٤) مما زعزع الثقة فى هذه الوزارة وأدى فى النهاية الى اسـقاطها واســـقاط الدســتور الذى أتت به واعـادة دستور ١٩٢٣ .

---

(١) محافظ عابدين : تقارير سياسية ، تقرير بتاريخ ١٩٣١/٦/٢٤ .

(٢) فيليب جلاد : قاموس الادارة والقضاء ج ٣ ، الأسكندرية ، المطبعة التجارية ١٨٩١ ص ١٥٢ (أمر عال فى ٣١ ديسمبر ١٨٨٨) .

(٣) جرجس حنين : الاطيان والضرائب فى القطر المصرى ، القاهرة المطبعة الأميرية ببولاق ، الطبعة الاولى ١٩٠٤ .

(٤) الرافعى : فى أعقاب الثورة ج ٢ ص ١١٩ .

ملاحق البحث

ملحق رقم (١)

ارادات سنية وأوامر عالية

أمر عال

بتعديل المادة الخامسة من الأمر العالى الصادر فى ١٦ مارس ١٨٩٥ بشأن اختصاصات العمد والمشايخ (١) .

نحن خديو مصر

بعد الاطلاع على المادتين الثانية والخامسة من أمرنا الصادر في ٢٠ رمضان سنة ١٣١٢ ـ ١٦ مارس سنة ١٨٩٥ الخاص بعمد ومشايخ البلاد ، وبناء على ما عرضه علينا ناظر الداخلية وموافقة رأى مجلس النظار وبعد أخذ رأى مجلس شورى القوانين أمرنا بما هو آت .

المادة الأولى

تعدل المادة الخامسة من الأمر المشار اليه كما يأتى :

يجوز رفت العمد والمشايخ بقرار يصدر من نظارة الداخلية وفى حالة تقصيرهم فى تأدية واجبات وظيفتهم يجوز للمدير أن يحكم عليهم بأحد الجزاءات التأديبية الآتية وهى الانذار والتوبيخ .

غرامة لا تتجاوز المائة قرش .

التوقيف عن وظيفتهم فى أثناء عمل التحقيق عن أعمالهم بشرط ألا تزيد مدة التوقيف عن ثلاثة شهور الا اذا قضت الظروف باطالة مدة التوقيف فيكون تمديده بقرار يصدر من ناظر الداخلية .

ويجوز للمدير فى حالة التوقيف أن يعين من يقوم مقامهم من مشايخ البلد واذا ظهر أن الأمر الذى ارتكبه العمدة أو الشيخ يستوحب جزاء أشد من ذلك فعلى المدير أن يحيله على اللجنة المذكورة فى المادة

---

(١) الوقائع المصرية رقم ١٣٨ السنة الثانية والثمانون فى الاثنين ٢ ديسمبر ١٩١٢ .

الثانية ، ولهذه اللجنة بعد سماع أقوال المتهم أن يحكم عليه بالعقوبتين الآتى بيانهما منفردتين أو منضمتين الى بعضهما وهما الغرامة لغاية عشرين جنيها أو الرفت ، وتبلغ هذه الأحكام الى نظارة الداخليـة وهى يجوز لها أن تصدق عليها أو أن تستبدلها بأخف منها ٠

المادة الثانية

على ناظر الداخلية تنفيذ أمرنا هذا ٠

صـــدر بسراى عابدين فى ١٨ ذى الحجـــة ١٣٣٠ (٢٨ نوفمبر سنة ١٩١٢) ٠

عباس حلمى

بأمر الحضرة الخديوية

رئيس مجلس النظار وناظر الداخلية

محمد سـعيد

ملحق رقم (٢)

بلاغ رسمى عن العمد المستقيلين لاسباب سياسية (١)

أصدرت وزارة الداخلية بلاغا عن العمد والمشايخ الذين استقالوا أو بالأحرى حرضوا على الاستقالة فكان عدد العمد ٨٧ والمشايخ ١٨٩ ومما يذكر أنه لم يستقيل أحد فى مديريتى الغربية وأسوان وهاك جدول ببيان العمد والمشايخ المستقيلين ٠

المديرية	عمد	مشايخ
القليوبية	٣	٤
المنوفية	١٦	١١
الدقهلية	١٣	٤
البحيرة	١	٦
الشرقية	٥	١٠
الجيزة	١	٦
بنى سويف	—	٣
الفيوم	٤	٦
المنيا	٢٥	١٢٢
أسيوط	١٥	١٣
جرجا	١	٩
قنا	٣	...

(١) الاتحاد : فى ٢ فبراير ١٩٣١ .

ملحق رقم (٣)

عن اقتراح النائب زكرى بدار رد العمديات للبيوتات التى خرجت منها وارجاع الحالة الى ما كانت عليه قبل الانقلاب الدستورى فى سنة ١٩٣٠ (١) ٠

أشير الى الكتاب الآتى :

حضرة الدكتور المحترم رئيس مجلس النواب ٠

أتشرف بان أرفع لحضرتكم تقرير لجنة الداخلية عن اقتراح النائب المحترم زكرى بدار رد « العمديات » للبيوتات التى خرجت منها وارجاع الحالة الى ما كانت عليه قبل الانقلاب الدستورى فى سنة ١٩٣٠ ٠

وقد انتخبت اللجنة حضرة النائب المحترم الأستاذ محمود صبرى مقررا لها أمام المجلس ٠

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام

رئيس اللجنة
محمد يوسف

تحريرا فى ٢٧ ابريل ١٩٣٧

---

(١) الدولة المصرية ٠ مجلس النواب ـ الهيئة النيابية السادسة ، مجموعة مضابط الانعقاد العادى الثانى ، المجلد الثانى من مضبطة الجلسة السادسة والعشرين الى مضبطة الجلسة الاربعين ، مضبطة الجلسة الثامنة والعشرين لمجلس النواب فى الثلاثاء ١١ مايو ١٩٣٧ ص ٨٠٢ ٠

ملحــق رقــم (٣)

عن اقتراح النائب زكرى بدار رد العموديات للبيوتات التى خرجت منها وارجاع الحالة التى كانت عليه قبل الانقلاب الدستورى فى سنة ١٩٣٠(١) أشير الى الكتاب الآتى :

حضرة الدكتور المحترم رئيس مجلس النواب ٠

أتشرف بأن أرفع لحضرتكم تقرير لجنة الداخلية عن اقتراح النائب المحترم زكرى بدار رد « العمديات » للبيوتات التى خرجت منها وارجاع الحالة الي ما كانت عليه قبل الانقلاب الدستوري في سنة ١٩٣٠ ٠

وقد انتخبت اللجنة حضرة النائب المحترم الأستاذ محمود صبرى مقررا لها أمام المجلس ٠

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام

رئيس اللجنــة
محمد يوسف

تحرير فى ٢٧ ابريل ١٩٣٧

الرئيس : الكلمة لحضرة المقــرر

المقرر : أحــال المجلس هذا الاقتراح على لجنــة الداخليـــة بتاريخ ١٨ أغسطس ١٩٣٦ فنظرته بجلسة أول سبتمبر ١٩٣٦ ولم تنته منه لانتهاء الدورة ، وقد جدده حضرة مقدمه فأحيل على اللجنة بتاريخ ٨ ابريل سنة ١٩٣٧ فنظرته بجلسة ٢٠ ابريل ١٩٣٧ وحضر اجتماعهـــا حضرتا المقترح والأستاذ المحترم الوكيل البرلمانى لوزارة الداخلية وقرر أن هذا الاقتراح خاص بمسألة يحسن تركها للسلطة التنفيذية فتبحث كل حالة على حدة طبقا للمصلحة العامة والعدالة ، وقد رأت اللجنة أن تعطى الوزارة

---

(١) الدولة المصرية ، مجلس النواب ــ الهيئة النيابيــة السادســة ، مجموعة مضابط الانعقاد العادى الثانى . المجلد الثانى من مضبطة الجلسة السادسة والعشرين الى مضبطة الجلسة الاربعين ، الجلسة الثامنة والعشرين لمجلس النواب فى الثلاثاء ١١ مايو ١٩٣٧ ص ٨٠٢ ــ ٨٠٣ ٠

هذا الاقتراح العناية اللازمة لتنفيذه فقرر حضرته أنها ستحل هذه الرغبة محلها من الاعتبار بقدر ما يتفق مع المصلحة العامة ٠

لهذا تشير اللجنة على المجلس الموقر باحالة الاقتراح على وزارة الداخلية لبحثه ٠

نص الاقتراح ٠

عندما حدث الانقلاب الدستورى فى سنة ١٩٣٠ فكرت الوزارة فى ذلك العهد فى توطيد ذلك النظام وعملت بكل قواها لتنفيذه فقسمت بعض البلاد ذات العمدية الواحدة (التى خالف فيها العمد رأى تلك الوزارة سياسيا) الى عمديات بحجة الأمن العام وفصلت بعضهم وغرمتهم وذلك للنكاية بهم ، وفى البلاد التى خلت عمدياتها بوفاة أصحابها لم تشأ الوزارة فى ذلك الحين تعيين عمد من أهاليهم لمخالفتهم مبدأها السياسى أو لاضرابهم عن ترشيح أنفسهم ، وعدم التعاون مع حكومة ذلك العهد فعينت فى تلك العمديات من سايرها فى سياستها ٠

وحيث أن الأحزاب اتفقت جميعا على ارجاع دستور سنة ١٩٢٣ وهو دستور الأمة ، وكان لها ما أرادت اقترح ارجاع الحالة الى ما كانت عليه تلك العمديات قبل ذلك الانقلاب الدستورى ، وفى العمديات التى خلت بوفاة شاغليها ، ولم تر حكومة ذلك العهد تعيين أحد بدلا منهم من أقاربهم لمخالفتهم مبدأها السياسى أو لاضراب هؤلاء الأقارب عن ترشيح أنفسهم للعمديات لعدم تعاونهم مع تلك الحكومة ، وان ترد تلك العمديات للبيوتات التى خرجت منها فى هذا الدستورى السعيد ٠

١٤ يوليه سنة ١٩٣٦

زكرى بدار
نائب ارمنت

الرئيس : هل توافقون على تقرير اللجنة

موافقة عامة

ملحق رقـــم (٤)

باســم حضرة صــاحب الجلالة فاروق الأول ملك مصر قرر مجلس الشيوخ ومجلس النواب القانون الآتى نصه ، وقد صدقنا عليه وأصدرناه

المادة الأولى

يفتح فى ميزانية السنة المالية ٣٦ ـ ١٩٣٧ قسم ٩ ـ وزارة الداخلية فرع (١) باب (٢) اعتماد اضافى بمبلغ ١٨٧٣٥ ج ٠ م ٠ لرد الغرامات التى حصلت من عمد ومشايخ البلاد ، وموظفى وقبائل العــربان لمناسبة اصدار دستور ١٩٣٠ والانتخابات التى أجريت تنفيذا له (١) ٠

---

(١) مضابط مجلس النواب ٠ الانعقاد العادى الاول ـ ملحق لمضبطة الجلســة الحادية والثلاثين لمجلس النواب فى الخميس ١٧ سبتمبر ١٩٣٦ ص ١٥٩٨ ٠

ملحق رقم (٥)

سؤال موجه الى حضرة صاحب الدولة رئيس مجلس الوزراء من النائب الدكتور محمد على الشربينى (١) ٠

١ ـ ما عدد الأشخاص الذين استشهدوا فى الحوادث التى حدثت احتجاجا على الغاء دستور الأمة من سنة ١٩٣٠ الى الآن ، وما هو عدد من أصيبوا فى تلك الحوادث بعاهات أقعدتهم عن كسب عيشهم وعيش أولادهم ؟

٢ ـ ألم تفكر الحكومة فى مساعدة الفقراء من هؤلاء المنكوبين باعانتهم ماليا ؟

رد الوكيل البرلمانى لوزارة الداخلية ٠

بلغ عدد القتلى فى الحوادث التى وقعت احتجاجا على الغاء دستور ١٩٢٣ وفى سبيل اعادته عدد ١٢٢ وعدد من أصيبوا بعاهات مستديمة خمسة وثلاثون هذا عدا ستة عشر مصابا بعيارات نارية تقرر لهم علاج أكثر من عشرين يوما ، وعدد ١١٢ مصابا تقرر لهم علاج أقل من عشرين يوما ، ولم يتقرر شىء بعد بصدد ما جاء فى الشطر الأخير من سؤال حضرة العضو المحترم ٠

(١) مضابط مجلس النواب ـ مضبطة الجلسة التاسعة والعشرين فى الثلاثاء ١٥ سبتمبر ١٩٣٦ ص ١٤٦١ ٠

المصادر والمراجع

أولا ـ الوثائق

(أ) وثائق غير منشورة

١ ـ دار الوثائق القوية بالقلعة ٠

محافظ عابدين :

(أ) أحزاب سياسية محفظة رقم ٢ ، ٣ ٠

(ب) ديوان جلالة الملك ، التماسات جماعية ـ محفظة رقم ٦ تقارير سياسية ٠

٢ ـ دار المحفوظات العمومية ٠

قلم الشياخات ، كوبيا قرارات التأديب والانتخاب مديرية الدقهلية ـ تحت رقم ١٩١٣ عين ٣٥ مخزن ٥ ٠

(ب) وثائق منشورة

١ ـ الدستور المصرى وقانون الانتخاب أكتوبر ١٩٣٠ ٠ القاهرة ـ المطبعة الاميرية ٠

٢ ـ مجلس شورى القوانين ، مارس ١٨٩٥ ٠

٣ ـ مضابط مجلس النواب ، سبتمبر ١٩٣٦ ـ مايو ١٩٣٧

ثانيا ـ المراجع العربية

١ ـ توفيق الحكيم ، يوميات نائب فى الأرياف ، القاهرة ـ مكتبة الآداب ٠

٢ ـ ج ٠ بير : دراسات فى التاريخ الاجتماعى لمصر الحديثة ٠ ترجمة الدكتور عبد الخالق لاشين وعبد الحميد الجمال ، القاهرة ـ مكتبة الحرية الحديثة ٠

٣ ـ جرجس حنين : الأطيان والضرائب فى القطر المصرى ٠ القاهرة المطبعة الاميرية ، الطبعة الأولى ١٩٠٤ ٠

٤ ـ عبد الرحمن الرافعى : فى أعقاب الثورة المصرية ج ١ ، ج ٢
القاهرة ، النهضة المصرية · الطبعة الأولى ١٩٤٧ ، ١٩٤٩ ·

٥ ـ فاطمة اليوسف : ذكريات ، القاهــرة ـ مكتبة روز اليوسف
الكتاب الذهبى ٢١٤ ·

٦ ـ فيليب جــلاد : قاموس الادارة والقضــــاء المجــلد الثالث
الاسكندرية ، المطبعة التجارية ١٨٩١ ·

٧ ـ محمد حسين هيكل : ١ ـ مذكرات فى السياسة المصرية
القاهرة ، النهضة المصرية ١٩٣١ ·

٢ ـ السياسية المصرية والانقلاب الدســـتورى القاهــرة ،
مطبعة السياسة · المطبعة الأولى ١٩٣١ ·

٨ ـ مركز تاريــخ مصر المعاصر : النظارات والوزارات المصرية ،
الجزء الاول القاهرة ـ مطبعة دار الكتب ١٩٦٩ ·

ثالثا : المراجع الأجنبية

Lloyd, L. : Egypt Since Cromer 2. Vols London 1934. Vol 2

رابعا : الددريات

١ ـ الاتحـــاد : يناير ١٩٣١ ·

٢ ـ الأحرار الدستوريون : يناير ١٩٣١ ·

٣ ـ الجهـــاد : نوفمبر ١٩٣١ ·

٤ ـ السياسة : نوفمبر ـ ديسمبر ١٩٣٤ ·

٥ ـ الشعب : ابريل ـ مايو ١٩٣١ ·

٦ ـ الضياء : يناير ـ فبراير ١٩٣١ ·

٧ ـ الفلاح المصرى : ديسمبر ١٩٣٠ ·

٨ ـ المســاء : ديسمبر ١٩٣٠ ـ فبراير ١٩٣١ ·

٩ ـ المقطم : يناير ـ فبراير ١٩٣١ ·

١٠ـ المؤيد : أغسطس ١٩٠٢ ·

١١ـ الوقائع المصرية : ديسمبر ١٩١٢ يوليه ١٩٣٠ ـ فبراير ١٩٣١ ·

التطلعات الأمريكية تجاه المنطقة العربية إبان الحرب العالمية الثانية

دكتور رءوف عباس حامد

كلية الآداب ـ جامعة القاهرة

التطلعات الامريكية تجاه المنطقة العربية
ابان الحرب العالمية الثانية

دراسة وثائقية

اتبعت الولايات المتحدة الامريكية سياسة ذات طابع معين منذ بداية اهتمامها بالمنطقة العربية وحتى قيام الحرب العالمية الثانية ، قامت على حماية حقوقها التجارية ومصالح رعاياها ، مع تجنب التورط سياسيا أو تحمل تبعات سياسية فى منطقة كانت تعدها دائما منطقة مصالح ومناورات سياسية للقوى الاوربية الكبرى بالدرجة الأولى وظلت الولايات المتحدة متمسكة بهذه السياسة حتى السنوات الأولى من الحرب (١) ، حتى أجبرتها الظروف على تغيير سياستها بعد أن دخلت طرفا فى الحرب الى جانب الحلفاء ، فازدادت التزاماتها السياسية

---

(١) يذكر رايموند هير ان الولايات المتحدة لم تهتم بتكثيف تمثيلها الدبلوماسى فى مفوضية القاهرة التى كانت تعد قاعدة العمل الدبلوماسى بالمنطقة خلال الحرب الثانية ـ الا اعتبارا من اكتوبر ١٩٤٠ بعد دخول ايطاليا الحرب باربعة شهور ثم زادت من عدد الدبلوماسيين بالمفوضية بعد دخول الولايات المتحدة الحرب الى جانب الحلفاء .

انظر :

Raymond A. Hare, The Great Divide : World War II, in the Annals of the American Academy of Political and Social Sciences, May 1972, pp. 24-25.

والعسكرية وتنوعت اهتماماتها بالمنطقة العربية ، ولم يعد اطار دورها السياسى فى المنطقة قبل الحرب يرضى مصالحها وتطلعاتها تجاه المنطقة ، فتخلصت من ذلك الاطار الذى لم يعد يتفق مع حقائق الموقف التى خلقته ظروف الحرب وراحت تضع لنفسها اطارا جديدا لسياسة شرق أوسطية تعكس تطلعاتها تجاه المنطقة .

وتعنى هذه الدراسة برصد هذه التطلعات ، وتتبع السياسة الأمريكية الجديدة فى المنطقة العربية فى مرحلتها الجنينية حتى اكتملت ملامحها عندما أوشكت الحرب على الانتهاء مؤذنة بقيام عالم جديد ، انتقل فيه مركز الثقل السياسى فى الغرب الى الولايات المتحدة الأمريكية .

الدور الأمريكى فى المنطقة العربية خلال الحرب :

وجدير بالذكر أن دور الولايات المتحدة الامريكية فى المنطقة العربية العربية ابان الحرب العالمية الثانية ، كان دور القوة المعاونة للجهود العسكرية البريطانية بتقديم الامدادات العسكرية والمدنية ، ووسائل النقل ، وأعمال الصيانة ، وهى مساعدات كانت ذات أهمية حيوية للقوات البريطانية وقوات الكمنولث ، فى وقت كان النصر فيه يتأرجح بين مد وجذر . وبلغت تلك المساعدات ذروتها بعد صدور قانون الاعارة والتأجير فى مارس ١٩٤١ . وبفضل تلك المساعدات استطاعت قوات الحلفاء ان تحقق نصرا ساحقا على الالمان فى معركة العلمين الشهيرة .

وتحت مظلة قانون الاعاة والتأجير ، لعبت الولايات المتحدة الامريكية دور الشريك لبريطانيا فى مركز تموين الشرق الأوسط Middle East Supply Center (MESC) الذى تمركز فى القاهرة ، وقد اقامه الجيش البريطانى لتنسيق نقل المؤن اللازمة لبلاد المنطقة ، فى مواجهة الظروف الناشئة عن اغلاق البحر المتوسط فى وجه الملاحة التجارية . ولكن الحاجة الى تناول مسائل ذات صبغة سياسية ومدنية تتصل باقتصاديات بلدان المنطقة كلها ، دفعت العسكريين الانجليز الى نقل تبعية مركز تموين الشرق الأوسط الى وزارة النقل الحربى ، ودعى الامريكان الى المشاركة فيه فى ربيع ١٩٤٢ .

وقبلت الولايات المتحدة الدعوة ، وعينت Frederick Winant الذى كان ضابط اتصال بادارة الاعارة والتأجير

بواشنطون ـ ممثلا مدنيا لامريكا بمركز تموين الشرق الأوسط ، يعاونه عدد محدود من الموظفين ، ما لبث أن ازداد بازدياد حجم دور الولايات المتحدة فى أعمال المركز ، حتى تجاوز الخمسين موظفا فى وقت من الأوقات . كذلك عينت الولايات المتحدة الجنرال Russeil Maxwell قائد القوات الامريكية بالشرق الأوسط ـ ممثلا عسكريا لها بمركز تموين الشرق الأوسط ، يعاونه عدد من الضباط الامريكيين .

غير ان ظروف الحرب زادت من حجم الدور العسكرى للولايات المتحدة الامريكية على الحدود الشرقية للمنطقة العربية ، عندما اضطلعت بعبء مد القوات السوفيتية بالعون عبر ايران ، مما تطلب وجودا عسكريا أمريكيا تمثل فيما سمى بقيادة (الخليج الفارسى) ، التى دخل فى اختصاصها النقل البحرى والنقل الجوى عبر الخليج وأجوائه ، بما صاحب ذلك من استخدام الطائرات الامريكية للمطارات البريطانية فى المنطقة ، وكذلك استخدام السفن والناقلات الأمريكية لموانى الخليج ، وما ترتب على ذلك من زيادة « الوجود » الأمريكى بالخليج ، وقد بلغ عدد الجنود والضباط الأمريكان المنضوين تحت لواء « قيادة الخليج الفارسى » ما يزيد على ٢٨ ألفا من الرجال (١) .

التطلعات البترولية الامريكية :

وكان لهذا الوجود العسكرى الامريكى فى الخليج مغزاه الخاص ، فقد ظل الخليج ـ حتى اندلاع الحرب العالمية الثانية ـ منطقة نفوذ بريطانية خالصة ، ولكن ظروف الحرب التى جلبت الوجود العسكرى الامريكى الى هذه المنطقة الغنية بالموارد البترولية ، كان من شأنها أن تمكن الولايات المتحدة الامريكية من انتهاز الفرصة النادرة التى اتاحتها ظروف الحرب لتدعم مصالحها البترولية فى المنطقة ، وخاصة فى البحرين والسعودية ، التى كانت قد وطدت أقدامها فيهما بالفعل قبيل الحرب ، وخاصة أن ظروف الحرب ، والدور الذى لعبته الولايات المتحدة الأمريكية لتعويض نقص البترول فى أوربا الغربية نتيجة اغلاق قوات المحور للبحر المتوسط عام ١٩٤٢ وظهور الغواصات الالمانية أمام مصادر البترول فى البحر الكاريبى ، قد زادا من تطلعاتها البترولية فى المنطقة العربية .

فقد اضطرت الولايات المتحدة الى شحن كميات هائلة من البترول

---

(١) Ibid, p. 26.

المنتج من الآبار الامريكية الى الميدان الاوربى عبر المحيط الاطلنطى ، فى محاولة لتوجيه ضربة قاضية الى العدو الالمانى ، اذ كان القاء طن واحد من القنابل على برلين يحتاج الى استهلاك خمسة أطنان من البنزين . وبحلول عام ١٩٤٣ ، كان البترول الأمريكى يمثل أكثر من ٧٠٪ من موارد الطاقة المستخدمة فى الحرب (١) .

ونظرا لاستحالة استمرار الانتاج الامريكى من البترول بنفس المعدلات التى دعت اليها حاجة الحرب ، وجه هارولد أيكس Harold Ickes - وزير الداخلية الأمريكى المسئول عن امدادات البترول للاغراض الحربية - تحذيرا ذهب فيه الى أن الأمور اذا استمرت على هذا المنوال ، فان احتياطيات البترول الأمريكية سوف تنفذ خلال « الأربعة عشر عاما القادمة » .

وفى تقرير قدمته لجنة تقصى الحقائق المتعلقة ببرنامج الدفاع القومى الى مجلس الشيوخ الامريكى (١٧ فبراير ١٩٤٤) ، لخص الموقف البترولى فى أمريكا على النحو التالى : « ان استنزاف مواردنا البترولية لا يشير الى احتمال وقوع كارثة ، لأن لدينا - لحسن الحظ - موارد بترولية كافية لكسب الحرب ، ولكن مثل هذا الاستنزاف يطرح مشكلات تحتاج منا الى اهتمام مباشر، والى التصرف بحكمة لضمان مستقبل أمننا القومى واستمرار تقدمنا الصناعى . وان ثمة ما يبرر تصريح هارولد أيكس الذى ذكر فيه اننا لسنا فى وضع يسمح لنا بامداد حرب جديدة بالبترول » (٢) .

كما توصل بعض الدبلوماسيين والساسة الأمريكان - وخاصة الملحق البترولى بمفوضيه القاهرة والسناتور بروستر Brewster الذى رأس اللجنة سالفة الذكر - الى ان شركات البترول البريطانية العاملة فى الخليج العربى توفر انتاجها على حساب الموارد البترولية القومية فى أمريكا . مما دفع هارولد أيكس الى تقديم مذكرة الى السفير البريطانى بواشنطون ، طالب فيها بأن تسدد المملكة المتحدة ما تحصل عليه من البترول الامريكى خلال الحرب فى صورة كميات مماثلة من البترول الخام بعد أن تضع الحرب أوزارها (٣) .

---

(١) H. Mejcher, American Oil Interests and Policies in Saudi Arabia and the Amirates of the Gulf in World War II, p. 2.

(٢) 1) Congressional Records, Investigation of National Defence Program, pp. 4-7.

(٢) FO 371\50388 Halifax to Eden, 23-12-1943.

لذلك لم يكن غريبا إن ترنو الولايات المتحدة ببصرها نحو البلاد العربية الغنية بالموارد البترولية فى الخليج والجزيرة العربية ، فأخذت الشركات الامريكية — وخاصة تلك التى زاولت نشاطها فى المنطقة — تضع دراسات تحليلية للثروة البترولية فى العالم، كما طوفت البعثات الفنية بالسعودية والخليج عام ١٩٤٣ لجمع آخر المعلومات عن الثروة البترولية فى المنطقة ، وفى مطلع عام ١٩٤٤ وضعت بعثة الدكتور Everette De Golyer خلاصة ابحاثها فى تقرير ذهبت فيه الى أن « مركز الجاذبية فى الانتاج العالمى للبترول ينحصر عن منطقة الكاريبى متجها صوب الشرق الأوسط — وخاصة منطقة الخليج الفارسى — ويبدو انه سيستمر فى الانحسار حتى يتركز فى تلك المنطقة » (١) . كذلك كرر أيكس — فى مناسبات عدة — تصريحه الشهير (فى ١٨ اغسطس ١٩٤٣) الذى أعلن فيه ان « الأوضاع البترولية فى العالم تأتى فى المرتبة الثانية بعد كسب الحرب ، بالنسبة للامة الامريكية (٢) » .

وعبر الرئيس روزفلت عن جوهر السياسة الامريكية الجديدة تجاه المملكة العربية السعودية فى تصريح (١٨ فبراير ١٩٤٣) أعلن فيه ان السعودية « أصبحت من الآن فصاعدا ذات ضرورة حيوية للآمن القومى للولايات المتحدة الامريكية (٣) » ، وذلك بمناسبة صدور القرار الخاص بمد نطاق المعونة المقدمة ضمن برنامج الاعارة والتأجير ليشمل السعودية ، حتى لا يترك الحبل على الغارب للمصالح البريطانية وحدها فى تلك المنطقة الاستراتيجية الهامة من العالم العربى .

وفكرت الحكومة الامريكية — جديا — فى شراء امتيازات البترول الامريكية فى المملكة السعودية ، أو أن تأخذ على عاتقها — على الأقل — ادارة مشروع انابيب البترول الذى اقترح اقامته لربط مناطق الانتاج فى السعودية بالبحر المتوسط Tap-Line فيصبح مشروعا حكوميا أمريكيا . ولم تتردد الحكومة الامريكية فى تقديم تأييدها السياسى للمصالح البترولية الامريكية فى السعودية (١٩٤٢—١٩٤٣)، وضمنت تلك المصالح البترولية المساعدات المالية التى تقدمها لابن

---

(١) H.M. Sachar, Europe Leaves the Middle East 1936-1954, London 1974, p. 395.

(٢) FRUS, Diplomatic Papers, 1943, vol IV, p. 19.

(٣) Ibid, p. 859.

سعود للتخفيف من غلواء الأزمة المالية التى تعانى منها المملكة نتيجة توقف الحج ..

وكان فى مقدمة الاجراءات التى اتخذتها أمريكا لتدعيم مصالحها فى السعودية ، رفع درجة التمثيل الدبلوماسى فى جدة ، والتوسع فى مد السعودية بالمعونات فى اطار قانون الاعارة والتأجير ، وايفاد بعثة هوسكنز Hoskins وكلبرتون Cluberton التجاريتان الى المنطقة ، مما ترتب عليه زيادة المصالح التجارية الامريكية فى السعودية ، ودخول الامريكان كمنافسين للانجليز فى تدريب القوات السعودية (١) .

فقد خشيت الولايات المتحدة من أن يحقق الانجليز مكاسب بترولية مقابل اعتماد السعودية عليهم ماليا ، ولذلك حرصت الحكومة الامريكية على أن تشارك بريطانيا فى المعونة المالية المقدمة للسعودية ، وخاصة ان خبراء لجان الخارجية الامريكية المختصة برسم السياسة الاقتصادية لفترة ما بعد الحرب كانوا على وعى تام بأن الانجليز سوف يعملون على توسيع نطاق سوق البترول الاسترلينية فى الشرق الاوسط حتى يتسنى لهم احتكار سوق البترول فى أوربا بعد الحرب . كذلك كان مما يثير مخاوف المصالح البترولية الامريكية فى السعودية والخليج العربى ان المستشار المالى الانجليزى للملك عبد العزيز بن سعود كان يعمل على جر السعودية ـ تدريجيا ـ الى كتلة الاسترلينى ، عن طريق اصدار عملة ورقية سعودية من خلال بنك يقام لهذا الغرض فى جدة ، وذلك كبديل للعملة السعودية الفضية . وكان ذلك يهدد بفقد التجارة الامريكية للسوق السعودية ، وبأحكام الانجليز لسيطرتهم على انتاج البترول السعودى وسياسته التسويقية (٢) .

وهكذا جر اهتمام الولايات المتحدة الأمريكية بالسعودية الى تزايد فرص الاحتكاك بالانجليز ، فعندما اقترح هل Hull ـ وزير الخارجية الامريكى ـ تعيين خبير أمريكى على البعثة الاقتصادية للحلفاء الى السعودية ، عارض ايدن ـ وزير الخارجية البريطانى الاقتراح .. ففى مذكرة بريطانية ردا على ذلك الاقتراح ، ذكر ايدن أن بريطانيا لا تعارض المصالح الامريكية فى السعودية ، وليس لديها النية لوضع

---

(١) FRUS, Diplomatic Papers, 1944, vol. V, p. 38 ff; 1942, vol. IV p. 576 ff.

(٢) FRUS, Diplomatic Papers, 1942 vol. IV, V, p. 24 ff; 1943, vol. IV, p. 19 ff.

حد لتلك المصالح ، «ولكن يجب أن تتذكر الولايات المتحدة ان العلاقات البريطانية ـ السعودية بالغة القدم ، وان لبريطانيا مصالح اقتصادية وسياسية فى تلك البلاد » • ووردا على المذكرة البريطانية ، أشار هل الى ان الولايات المتحدة الامريكية لا تجادل فى ان الشرق الأوسط « يقع ـ بالدرجة الأولى ـ فى اطار المسئولية العسكرية لبريطانيا » ، ولكنها تصر على أن « المصالح الغالبة فى الاقتصاد السعودى هى ـ بلا ريب ـ مصالح امريكية الطابع ، ويفترض أن تستمر كذلك للعديد من السنين . « كما احتجت الخارجية الامريكية لأن الوزير البريطانى المفوض لدى السعودية » يبذل أقصى جهده للاضرار بعلاقتنا بابن سعود ، واحراج وضعنا فى السعودية (١) » ••

التنافس التجارى الانجليزى ـ الأمريكى :

لقد كانت التطلعات الامريكية فى الخليج والسعودية ـ اذن ـ بداية لتنافس انجليزى ـ امريكى حول المنطقة فى السنوات الأخيرة للحرب ، بل كان ثمة ما يشير الى امتداد التنافس بين الحليفتين الى ميدان التجارة فى المنطقة العربية ككل ، اذ أحس ممثلو أمريكا فى مركز تموين الشرق الأوسط ـ وكذلك زملاؤهم الانجليز ـ باحتمال قيام مثل هذا التنافس من خلال عدة شواهد رصدها كل فريق للآخر ، وزاد المشروع الامريكى لمد خط انابيب البترول عبر الجزيرة العربية من مخاوف الانجليز ، الذين اعتبروه تكتيكا سياسيا لارغامهم على الدخول فى مفاوضات مع الامريكان حول المصالح البترولية فى المنطقة (٢) •

وزاد من مخاوف الانجليز ما بدا واضحا من اتجاه الامريكان الى اتخاذ مصر قاعدة للتجارة الامريكية فى المنطقة العربية بعد الحرب ، كما أسفر عنه سلوك ممثلى أمريكا بمركز تموين الشرق الاوسط والمفوضية الامريكية بالقاهرة ، وما كشفت عنه رقابة البريد فى مصر ـ التى كانت خاضعة للانجليز ـ من ترتيبات أمريكية ترمى الى اتخاذ مصر مركزا للتجارة الامريكية •

فقد لاحظ مايلز لامبسون ـ السفير البريطانى بالقاهرة ـ فى مذكرة مطولة (٣) بعث بها الى ايدن ـ وزير الخارجية البريطانى ـ ان

---

(١) Cordell Hull Memoirs, vol. 11, pp. 1515-16, Quoted in H.M. Sachar, op. cit., p. 392-5.

(٢) F. O 371/42687 Halifax to Eden, 11-2-1944.

(٣) F.O. 371/35597 Miles Lampson to Eden, 10-4-1943.

ظروف الحرب وما أدت اليه من اضطرار مركز تموين الشرق الأوسط الى جلب السلع من الولايات المتحدة الامريكية فى حالة صعوبة استيرادها من بريطانيا ، جعلت الامريكان يستثمرون تلك الظروف ، فأخذوا يبدون اهتماما أكبر بمصر لم يكن له وجود قبل الحرب تمثل فى :

(أ) مجموعة من الرسائل حملها الوزير الامريكى المفوض الى مصطفى النحاس باشا رئيس الوزراء المصرى بمناسبة مرضه ، تضمنت تحيات الرئيس روزفلت وتمنياته للنحاس باشا « بمتابعة النضال من أجل الحرية والديمقراطية » .

(ب) توثيق الامريكان لصلتهم بالسوق المصرية ، واقامة العلاقات مع المؤسسات التجارية التى تمارس نشاطها فى مصر .

(جـ) ازدياد النشاط الاعلامى الامريكى فى مصر من خلال الصحافة الامريكية .

غير ان لامبسون هون — فى تلك المذكرة — من شأن النشاط الامريكى ، وقلل من مقدرة الامريكان التجارية على احتلال مكان الانجليز فى مصر « السوق التقليدية للبضائع الانجليزية ، نظرا لما اكتسبته السلع الانجليزية من سمعة فائقة » .

وعلقت الخارجية على مذكرة لامبسون بأن ليس ثمة ما يدعو الى اثارة ازمة مع الولايات المتحدة بسبب نشاط رجالها فى مصر ، ورات ان الموقف الامريكى ايجابى — أحيانا — وضربت مثلا لذلك بتعاون الامريكان مع الانجليز فى تسويق القطن المصرى ، كما رات ان الحل الأمثل لهذه المشكلة يكمن فى ضرورة عودة البضائع الانجليزية الى السوق المصرية فى اقرب فرصة ، وخاصة ان بريطانيا تتوقع منافسة دول اخرى فى السوق المصرية مثل اليابان وايطاليا ورومانيا ، واشارت الى أن المنسوجات الانجليزية كادت تفقد السوق المصرية قبيل الحرب بسبب ارتكانها الى سمعتها التقليدية . واقترحت الخارجية البحث عن صيغة للتعاون الانجليزى — الامريكى فى مصر ، بعد الرجوع الى مصلحة التجارة الخارجية Department of Overseas Trade (DOT) بدلا من تبادل الاتهامات على صفحات الجرائد بواشنطون ولندن .

غير أن مصلحة التجارة الخارجية DOT لفتت انظار

الخارجية البريطانية (١) الى انه ليس من الحكمة الاستهانة بالنشاط الأمريكى فى مصر ، واثارت الحجج التالية :

(أ) قيام الملحق التجارى الامريكى بمفوضية القاهرة بارسال خطابات دورية الى الشركات التجارية التى تمارس نشاطها فى مصر (بما فى ذلك الشركات البريطانية) ، يستعلم فيها عن مدى استعداد تلك الشركات للتعامل مع الشركات الامريكية بعد الحرب . وتضمنت تلك الخطابات أسئلة عن حجم معاملات تلك الشركات قبل الحرب ، ورأس المال المستثمر والمستودعات ، وأسماء وجنسيات المديرين ، والسلع التى تتجر بها ، والشركات الامريكية التى ترغب فى التعامل معها .

(ب) اتجاه القسم الاقتصادى بالقوات الامريكية بمصر نحو تمهيد السبيل امام التجارة الامريكية بعد الحرب ، ويتضح ذلك من قيام المندوبين الامريكان بمركز تموين الشرق الأوسط بجمع البيانات التفصيلية الخاصة بالتجارة والصناعة فى منطقة الشرق الأوسط من ارشيف المركز ، وزيارتهم للمؤسسات الصناعية والتجارية بالمنطقة ، واعدادهم لتقرير اقتصادى شامل عن الأوضاع الاقتصادية فى مصر وفلسطين والعراق ، استخدموا فيه المادة التى جمعوها من أرشيف المركز ، ولم يطلعوا الجانب البريطانى على ذلك التقرير ، مما يوحى بأنهم يعدون العدة لمنافسة الانجليز فى المنطقة .

(جـ) وضعت رقابة البريد فى مصر يدها على خطابات واردة من امريكا الى المؤسسات التجارية فى مصر تعرض عليها القيام بأعمال الوكالة التجارية فى المنطقة للمؤسسات الامريكية بعد الحرب . كما ان بعض الخطابات المتبادلة بين رجال الأعمال الامريكان فى المنطقة وزملائهم فى الولايات المتحدة تضمنت انتقادات موجهة الى النشاط التجارى البريطانى فى الشرق الأوسط .

(د) استغلال المسئولين الامريكيين لمؤسسات مشروع الاعارة والتأجير بمصر والمنطقة العربية بصورة تخدم التجارة الامريكية بعد الحرب .

(هـ) اتصال بعض الشركات الامريكية بمؤسسة اعلانية فرنسية كبرى لتنظيم حملة دعائية للسلع الأمريكية فى الصحف العربية ،

---

(١) F.O. 371/35597 Lyal to Scrivener, 20-8-1943.

والتفكير في اقامة مكتب للاستعلامات التجارية بالقاهرة لتوثيق الصلات بين المؤسسات التجارية فى المنطقة العربية ودوائر الأعمال الأمريكية(١).

كذلك وضعت مصلحة التجارة الخارجية البريطانية يدها على تقرير أمريكى(٢) يتضمن خطة شاملة لاعادة تعمير المنطقة العربية بعد الحرب ، وضعها الدكتور ارنست برجمان Ernest Bergmann وهو صهيونى أمريكى كان على صلة وثيقة بالعديد من الدوائر الحكومية والعسكرية فى الولايات المتحدة الامريكية ، ويعد خبيرا باقتصاديات الشرق الأوسط . ويدور محور الخطة حول فلسطين التى يمكن تحويلها الى قاعدة صناعية حديثة ، على حين تتخصص البلاد العربية فى انتاج المواد الخام اللازمة للصناعة وكذلك المواد الغذائية ، وتوفر سوقا للصناعة الفلسطينية .

ورأى برجمان ان هناك العديد من المبررات التى تهيىء فلسطين للعب هذا الدور الهام ، ففيها نواة صناعية لا بأس بها ، كما ان بها عدد كبير من الخبراء الفنيين والصناعيين يمكن زيادتهم بالهجرة (اليهودية) الى فلسطين ، وان تهيئة فلسطين للعب دور القاعدة الصناعية للمنطقة يبرره — فى رأى برجمان — فشل محاولات تصنيع مصر بالتعاون مع رأس المال الأجنبى .

ولفتت مصلحة التجارة الخارجية انظار وزارة الخارجية البريطانية الى ما لتقرير برجمان من دلالات ، وخاصة ان الدوائر السياسية الامريكية التى تملك صنع القرار كانت تدرسه بعناية ، مما يعكس ما تدبره الولايات المتحدة لزحزحة بريطانيا عن المنطقة التى تعد — تقليديا — منطقة نفوذ بريطانى .

وعاد السفير البريطانى الى توجيه انظار الخارجية الى النشاط الأمريكى فى مصر الذى اتخذ المظاهر التالية :

(أ) انتهاج المندوبين الامريكان فى مركز تموين الشرق الأوسط لسياسة تضر بالمصالح البريطانية بالسعى لتخفيف قيود الاستيراد من الولايات المتحدة ، ومحاولة الحصول على قرار من الحكومة المصرية

---

(١) F.O. 371/35597 Lyal to Scrivener, 24-9-1943.

(٢) F.O. 371/39984 Warren to Young, 4-1-1944.

بتخصيص حصة من واردات المنسوجات لأمريكا . ومن ذلك ـ أيضا ـ حرص الامريكان على أن يتم التفاوض والتعاقد على توريد العربات وغيرها من السلع الهندسية مع الحكومة المصرية مباشرة دون اشراك الانجليز ، وعقد صفقة بيع شاحنات أمريكية للجيش المصرى دون استشارة البعثة العسكرية البريطانية ، مما يعد عدوانا صارخا على ما أسماه السفير « بحقوق بريطانيا فى مصر » .

(ب) قيام بعض ضباط قيادة القوات الامريكية بمصر بزيارة مصلحة السكك الحديدية المصرية لجمع المعلومات التفصيلية عن نشاط المصلحة واحتياجاتها من القاطرات وآلات الصيانة وقطع الغيار .

(جـ) قيام المفوضية الامريكية بالقاهرة ببث الدعاية السياسية لصالح بلادها من خلال اصدار النشرات ، والترويج للمشروعات التى تزمع الولايات المتحدة اقامتها فى مصر مثل مصفاة البترول بالاسكندرية التى قيل ان امريكا تعتزم اقامتها بعد مد خط أنابيبى البترول عبر الجزيرة العربية . وكذلك اقامة « بيت أمريكا America House » على مساحة كبيرة من الأرض وسط القاهرة ليضم وكالات الشركات الامريكية ومكتب الاستعلامات الامريكى ، وكذلك مشروع اصدار طبعة عربية من مجلة ريدرز دايجست ، ومحاولات تسويق آلات النسيج الامريكية فى مصر .

(د) وقوع خطابات متبادلة بين أحد كبار رجال الأعمال فى أمريكا ومدير البنك البلجيكى الدولى فى يد رقابة البريد ، تفيد اعتزام بنك تشيس مانهاتن الامريكى افتتاح فرع له بالقاهرة ، عن طريق شراء البنك البلجيكى الدولى بمصر ، أو تكليفه بافتتاح فرع لبنك تشيس مانهاتن بالوكالة . وقد اكد رجل الأعمال الامريكى فى خطاباته أن المشروع يحظى بتأييد المفوضية الامريكية بالقاهرة . وكذلك وقع فى يد الرقابة خطابات متبادلة بين احدى المؤسسات التجارية الأمريكية وعملائها فى مصر تدور حول ضرورة الاستفادة من ظروف الحرب واستيراد المزيد من السلع الامريكية لتخزينها بمصر للاستفادة من ارتفاع الأسعار المترقع بعد الحرب .

(هـ) تشجيع كبار رجال الأعمال المصريين على اقامة علاقات مع دوائر الأعمال الامريكية عن طريق لقاءات تنظمها المفوضية الامريكية

تجمع بين الطرفين ، وتوجيه الدعوة لعـــدد من رجال الأعمال المصريين لزيارة المؤسسات الصناعية بالولايات المتحدة (١) .

وختم السفير البريطانى مذكرته المستفيضة بمطالبـة الخارجيـة بوضع حد للنشاط الامريكى فى مصر عن طريق التفـاهم مع الولايات المتحـــدة ، ليحل التنسيق محـل التنـــافس بين الحليفتين ، وعبر عن اعتقاده بأن ذلك النشـــاط لا يعنى ان لأمريكا سياســـة خاصـــة تتعلق بالمنطقة ، وأرجع ذلك النشاط الى طموح بعض الدبلوماسيين الامريكيين وصلاتهم بدوائر الأعمـــال فى بلادهم ، وليس الى موقف رســـمى من جانب الحكومة الامريكية .

غير ان الوثائق الامريكية توضح – بما لا يدع مجالا للشـــك – ان الولايات المتحدة كانت ترسم سياستها الخاصـــة بالمنطقة مســـتندة الى ما لحق بمكانة وهيبة الانجليز من اضمحلال فى أعين شـــعوب المنطقة بالاضافة الى كراهيتهم التقليدية لبريطانيا ، وذلك نتيجة الهزائم التى منى بها الانجليز فى السنوات الأولى للحرب . على حين ازدادت مكانة أمريكا فى المنطقة وقدرتها شعوبها ، فلم يكن لها ماض اســـتعمارى أو سوابق عدوانية . كما ان ظروف الحرب أقامت الدليل على ان بريطانيا سوف تصبح عاجزة عن البقاء فى المنطقة دون مساندة أمريكا . فضلا عن الأهمية العسكرية للمنطقة بالنسبة لأمريكا ، اذ يمكن اقامة قواعد عسكرية فى السعودية تكون بمنأى عن هجوم العدو سواء من البحر المتوسط أو من المحيط الهندى والبحر العربى . كذلك كان الامريكان يعملون – بوعى تام – لاتخاذ مركز تموين الشرق الأوسط أداة لفتح الباب أمام التجارة الأمريكية فى المنطقة بعد الحرب (٢) .

ومن الجلى أن كيلرن – السفير البريطانى بالقاهرة – لم يكن على بينة بأبعاد التطلعات الامريكية تجاه المنطقة العربية ، كمـــا كان كبـــار رجال الخارجية الانجليز يميلون الى الاعتقاد ان أمريكا أبعد ما تكون عن

---

(١) F.O. 371/41397 Killearn to Maurice Paterson, 18-2-1944.
وقد اعتمد اللورد كيلرن على ما نقله اليه أحمد عبود باشـا من أخبار الاجتماعات التى دعى الى حضورها بدار المفوضية الامريكية ، كما كان شاكر باشـا مدير عام الســـكة الحديد المصدر الذى استقر منه كيلرن معلوماته عن النشاط الأمريكى فى ذلك المجال .

(٢) FRUS, Diplomatic Papers, Memorandum by the Chief of the Division of Near Eastern Affairs to the Secretary of State, 8-5-1942. vol. IV, pp. 76-8.

التفكير فى منافسة بريطانيا أو وراثتها بالمنطقة ، بقدر ما تسعى الى أن تحظى بدور الشريك لبريطانيا فى المغانم الاقتصادية التى تجنيها منه ، وانها اذا حرمت من ذلك قد تعود الى عزلتها السياسية التقليدية وهو مالا يتفق مع مصلحة بريطانيا ، ولذلك كان على بريطانيا أن تنسق خططها مع الولايات المتحدة ، فتحصل على اعترافها بالشرق الأوسط منطقة نفوذ بريطانى مقابل المشاركة فى المصالح الاقتصادية بالاقليم (١)٠

رد الفعل البريطانى :

ومهما كان الأمر ، فقد أخذت بريطانيا تعد العدة لرسم سياسة جديدة خاصة بالمنطقة العربية فى ضوء التغيرات الناتجة عن الحرب ، فعقد مجلس الحرب بالشرق الأوسط Middle East War Council عدة جلسات لهذا الغرض بالقاهرة (١٠ ـ ١٣ مايو ١٩٤٣) برئاسة وزير الدولة البريطانى بالشرق الأوسط R. G. Casey لوضع أسس السياسة البريطانية فى الشرق الأوسط لفترة ما بعد الحرب ، بهدف ضمان الوجود البريطانى وتأمين المصالح البريطانية ، وتوصل المجلس الى أن هذه السياسة يجب أن تدور حول محاور أربعة)٢(:

(أ) ابقاء الأوضاع الراهنة فى فلسطين على ما هى عليه دون تغيير ، مع عدم السماح للعرب أو اليهود بالاخلال بالتوازن القائم فى فلسطين ، واصدار أعلان سياسى لتأكيد المبادىء الأساسية التى وردت بالكتاب الأبيض (١٩٣٩) ، مع الحصول على تأييد الولايات المتحدة لهذه السياسة .

(ب) الزام حكومة فرنسا الحرة بتوقيع معاهدتين مع سورية ولبنان مماثلتين للمعاهدة الانجليزية ـ العراقية ، تتمتع بمقتضاها الدولتان العربيتان بالاستقلال ، تمهيد للتخلص من الوجود الفرنسى بالمنطقة نهائيا ٠

(جـ) استمرار مهمة مركز تموين الشرق الأوسط فيما بعد الحرب ، على أن يتحول الى مجلس اقتصادى للشرق الأوسط Middlle East Economic Council فى صورة منظمة اقليمية تعاون دول المنطقة على حل المشكلات المتصلة بالنواحى

---

(١) F.O. 371/41397 Minute by Hankey, 7-3-1944.

(٢) F.O 371/34975 Casey to Eden, 20-5-1943.

الاقتصادية والسياسة النقـــدية ، التي تعجز تلك الدول عن حلهـــا بمفردها ، وذلك بالتعاون مع الولايات المتحدة .

(د) ايجاد شكل من أشكال الاتحاد العربي ، على أن يكون اتحادا واهنا مفكك العرى ، لامتصاص التيار القومي الذى يشكل خطرا على المصالح البريطانية ، ويوفر قدرا من التنسيق السياسى بين حكومات المنطقة فى فترة ما بعد الحرب ، على حين تتولى بريطـــانيا الاشراف على الجوانب الاقتصادية والثقافية للبلاد العربية . واذا تعـــذر ذلك ، تعمل بريطانيا على اقامة اتحـــاد « ســورية الكبرى » من سورية ولبنـــان وفلسطين وشرق الأردن .

وكان الجــانب الخــاص بســورية فى قرارات مجلس الحـــرب بالشرق الأوســط موضع انتقاد الخارجيـــة البريطـــانية ، التى اعتبرتها مخالفة للخط السياسى البريطانى فى المنطقة . كما اعتبرت الخارجيـــة ان اقامة « سورية الكبرى » التى تشمل فلسطين لن يكون فى صـــالح بريطانيـــا ، لأن أى تغيير فى السياســـة البريطانية المتعلقة بفلســـطين سوف يسبب المتاعب من جانب اليهود ومن ثم « يجب ابقاء فلســـطين خارج مثل هذا الاتحاد ، والمحافظه على الأوضاع الراهنة فيها ، والبعد عن اتخاذ أى خطرة واسعة لتحقيق الوحدة العربية (١) » .

وازاء هـــذا التباين فى وجهـــات النظـــر بين الخارجية البريطـــانيه ومجلس الحرب بالشرق الأوسط عقد اجتماع فى لندن برئاسة وزير الحرب حضره وزير الدولة بالشرق الأوسط والوزير المفوض بســـوريه ولبنـــان وخبراء الشرق الأوسط بالخارجية البريطـــانية . وعرض كاسى فى ذلك الاجتماع وجهات نظـــر مجلس الحزب بالشرق الأوسط ، فأشار الى ان المنطقة تقف حاجزا بين الد عدوين لبريطانيا : ألمانيا واليابان ، وتحتوى على المصـــالح البترولية البريطانيـــة الحيـــوية ، وخطوط المواصلات ذات الأهمية الاستراتيجية لبريطانيـــا . واتفق الجميع على ضرورة المحافظة على النفـــوذ البريطانى فى المنطقـــة ، كما وافقوا على اقتراح وزير الدولة بالشرق الأوسط حول ضرورة قيام نوع من التنسيق بين بريطانيا والولايات المتحدة الامريكية ، يحول دون تعرض الانجليز للمنافســـة الأمريكية التى تضر بالنفوذ البريطـــانى ، فى مقـــابل تأييد بريطانيا للمصالح الأمريكية فى منطقة البحر الكاريبى ، فبريطانيا تحتاج

---

(١) F.O. 371/34975 Minute by R.M.A. Hankey, 24-5-1943.

في رأيه ــ الى مساندة أمريكا لها في الشرق الأوسط ، وبدون ذلك لايمكن ضمان نجاح الاستراتيجية البريطانية في المنطقة (١) .

وفي ضوء الأفكار التي طرحت على بساط البحث في تلك الاجتماعات تبلورت الخطوط العامة للسياسة البريطانية في الشرق الأوسط التي قامت على ضرورة الزام الفرنسيين بتنفيذ تعهداتهم السابقة ، ومنح سورية ولبنان الاستقلال التام ، وفتح الطريق بذلك أمام اقامة منظمة اقتصادية للشرق الأوسط باسم «المجلس الاقتصادي للشرق الأوسط » بالتعاون مع الولايات المتحدة الامريكية ودول المنطقة ، على أن يكون عمل هذه المنظمة امتدادا لنشاط مركز تموين الشرق الأوسط ، والدخول في مباحثات صريحة مع الولايات المتحدة حول هذا الموضوع . وبدأت هذه السياسة تكتسب الصفة الرسمية بمصادقة مجلس الوزراء البريطاني عليها في منتصف يوليو ١٩٤٣ (٢) .

المحادثات السياسية الانجليزية ــ الأمريكية :

وهكذا أيقن الانجليز انه لا يمكن ابرام أمر يتعلق بالمنطقة العربية دون الحصول على تأييد الامريكيين ، أو ــ بعبارة أخرى ــ دون ارضائهم بتحديد دور لهم في المنطقة دون المساس بالاستراتيجية البريطانية . وخاصة ان أمريكا لم تعد تكتفي بدور المتفرج ، فقد عبر الوزير الأمريكي المفوض بالقاهرة لوزير الدولة البريطاني بالشرق الأوسط ــ غير مرة ــ عن عدم ارتياح حكومته لاغفال بريطانيا استشارتها فيما يتعلق بالمنطقة ، وألمح الى أن ذلك قد يدفع أمريكا الى تكوين سياسة خاصة بالمنطقة مستقلة تماما عن السياسة البريطانية لحماية مصالحها البترولية وخطوط الطيران المدني التابعة لها في المنطقة (٣) . ولذلك طلب كاسي من حكومته أن تعطيه الصلاحيات اللازمة لاطلاع زميله الأمريكي بالقاهرة على السياسة البريطانية والمخططات الاقتصادية البريطانية في المنطقة على وجه الخصوص . ولم يتردد ايدن في السماح لكاسي باستطلاع الموقف عن طريق مفاتحة السلطات الامريكية بالقاهرة حول امكانية عقد مباحثات بين البلدين للنظر في مستقبل التعاون بينهما في المنطقة ،

---

(١) F.O. 371/34975 WC Note of a Meeting Held in SIR Alexander Cadogan's Room on 28-6-1943.

(٢) F.O. 371/34975 Note by Eden Submitting Recommendations as regards to the British Policy in the Middle Est. 15-7-1943.

(٣) F.O. 371/34975 Casey to Eden, 8-7-1943.

وذلك قبل تكليف السفير البريطاني بواشنطون (اللورد هاليفاكس) باثارة موضوع المباحثات مع الحكومة الامريكية بصفة رسمية (١) ٠

وفى اوائل يناير ١٩٤٤ ، بدات السفارة البريطانية بواشنطون الاتصال بالخارجية الأمريكية حول الدخول فى مباحثات رسمية بين الدولتين بشأن الشرق الأوسط ، تغطى مختلف الجوانب السياسية والاقتصادية ٠ وقد وافقت الخارجية الأمريكية على الفكرة من حيث المبدأ ، ولكنها رأت ان تكون المحادثات غير رسمية ، وان تتخذ من واشنطون مقرا لها ، على الا يتطرق البحث الى المسائل البترولية التى يجب ان تفرد لها محادثات خاصة بها ، وكانت حجتهم فى ذلك عدم وفرة العدد الكافى من خبراء الشرق الأوسط بالخارجية الأمريكية حتى يمكن ايفاد بعضهم الى لندن ، لأن ذلك يؤثر على سير العمل بفرع الشرق الأوسط ٠ وأصر الأمريكان على ان تتناول المحادثات مصر وتركيا وأثيوبيا (٢) ٠

وقد رد أيدن على هذه المطالب الأمريكية ببرقية أرسلها الى اللورد هاليفاكس ، ذكر فيها ان :

(أ) يجب الاصرار على اتخاذ لندن مكانا لانعقاد المحادثات ، لأن الخارجية البريطانية ـ بدورها ـ ليس لديها العدد الكافى من الخبراء الذين يمكن ايفادهم لمناقشة المسائل المتعلقة بالشرق الأوسط بما فى ذلك البترول ومصر واثيوبيا ٠

(ب) عقد المحادثات فى واشنطون بالقرب من مراكز الضغط الصهيونى لن يجعل عائدها لصالح بريطانيا وخاصة ان الولايات المتحدة « تنشد الزعامة » ، والتسليم لها بذلك يضر بمصالح بريطانيا فى المنطقة ، وكذلك بعلاقاتها التقليدية بالحكام المحليين ٠

(ج) اعتراض وزارتى الهند والمستعمرات على الاقتراح الأمريكى باختيار واشنطون مكانا للمحادثات لأنها سوف تتطرق بالضرورة الى مناطق تدخل فى اختصاص الوزارتين ، ويجب ان تدور المحادثات على مقربة منهما فى لندن ٠

(د) الاعتراض على الطلب الأمريكى بادراج مصر فى جدول أعمال المحادثات ، « لأن مصر منطقة مصالح بريطانية حيوية » ، فاذا أصر الجانب الأمريكى على موقفه يجب اخراج قناة السويس من دائرة المحادثات (٣) ٠

---

(١) F.O. 371/34975 Eden to Casey, 16-7-1943.

(٢) F.O. 371/39984 Halifax to Eden, 9-1-1944.

(٣) F.O. 371/39984 Eden to Halifax, 14-1-1944.

وأخيرا ، قبل الجانب الأمريكي باتخـــاذ لندن مقـــرا للمحادثات السياسية ، ولكنه أصر على ان تكون المحادثات « استطلاعية غير رسمية » ، والا يتطرق البحث الى المسألة البترولية التي يجب ان تفرد لها محادثات « استطلاعية » خاصـــة تعقد على مستوى الخبراء ، تتلوهـــا مباحثات على المستوى الوزارى ، على ان يكون مقرها واشنطون ، مع الموافقة على استبعاد مصر واثيوبيا من اطار المباحثات • وبناء على ذلك قدمت الحكومة البريطانية مذكرة تفصيلية الى الخارجية الأمريكية تتضمن السياسة الانجليزية فى الشرق العربى بالاضافة الى أفغانستان وايران ، ليكون الجانب الأمريكى على بينة بوجهـــة النظر البريطـــانية ، ولتتخـــذ هـــذه المذكرة كأساس للمحادثات (١) •

ومن الملاحظ ان الجانب الأمريكى لم يتقدم بمذكرة مقابلة للمذكرة البريطانية ، وربما كان ذلك يعود الى حرص الامريكان على عدم الارتباط بمواقف ومبادىء سياسية محددة فيما يتعلق بالمنطقة موضوع البحث ، لأن الولايات المتحدة لم تكن تنظر الى مستقبل المنطقة العربية وتخومها من زاوية المصالح الثنائية الانجليزية ــ الأمريكية وحدها على نحو ما فعـــل الانجليز ، فاذا عالجت الموقف على هذا النحو قد يجرها ذلك الى التعهـــد بالتزامات محددة قبل بريطانيا تشكل قيدا على حركتهـــا بعد الحرب • ولكنها كانت ترى ــ على ما يبدو ــ ان اعتبار المنطقة العربية وتخومهـــا منطقة مفتوحة أمام جميع القوى الكبرى ذات المصالح فيها على قدم المساواة يعطى الولايات المتحدة قدرا أكبر من المرونة ، ويساعد على تهيئة المنـــاخ الملائم لتنمية مصالحها الاقتصادية والاستراتيجية فى المنطقة بعد الحرب •

وعلى كل ، دارت المحادثات السياسية « الاستطلاعية غير الرسمية » بين الجانبين : الأمريكى برئاسة والاس موراى **Wallace Murray** والانجليزى برئاسة السير مورس باترسون **Sir Maurice Paterson** وكلاهما كان وكيلا لخارجية بلاده ، واستغرقت المحادثات ست جلسات فى الفترة من ١١ ــ ٢٦ ابريل ١٩٤٤ •

وخصصت الجلسة الأولى (٢) بكاملها لبحث المسألة الفلسطينية ، فعرض الجانب البريطانى لسياسة بلاده الرامية الى عدم الرغبة فى تصعيد

---

(١) F.O. 371/39984 Eden to Halifax, Memorandum on the British Policy in the Middle East, 7-3-1944.

(٢) F.O. 371/39985, Anglo-US Conversations Regarding the Middle East, 1st meeting, 11-4-1944.

الصراعات المحلية في فلسطين ، والمحافظة على الأوضاع الراهنة حتى نهاية الحرب ، مع استمرار العمل بالكتاب الابيض (١٩٣٩) ، ثم مهد الجانب الأمريكي عرضـــه لوجهـة نظره ، بالحـديث عن الضغوط الصهيونية في الولايات المتحدة ، التي تسعى لالغاء سياســة الكتاب الأبيض وتحقيق الوطن القومي اليهودي باعلان تأسيس الدولة اليهودية ، والبحث عن حل لمشكلة المهاجرين اليهود من أوربا بفتح باب الهجرة الى فلسطين ، وتصنيع فلسطين حتى تصبح قادرة على استيعاب أكبر عدد ممكن من اليهود ، فاذا تعذر ذلك بسبب المقـــاومة العربية ، يجب الفصـــل بين الفريقين المتنازعين بتقسيم فلسطين . وأكد الجانب الأمريكي ان هذه المقترحات شخصية ولا تعبر عن وجهة نظر الحكومة الأمريكية ، لأن البت في هـــذا الموضوع من اختصاص البيت الابيض وحده .

وردا على هذه المقترحات ، أوضـــح الجانب البريطاني ان تصريح بلفور « لايلزم بريطانيا باقامة دولة يهودية في فلسطين » ، وان البت في المقترحات الخاصة بتوسيع نطاق الهجرة اليهودية أو تقسيم فلسطين يدخل في اختصاص مجلس الوزراء البريطاني ، ولا تستطيع الخارجية وحدها ان تقطع فيه برأى . ولكن الخارجيـــة البريطانية ترى ضرورة اقامة « دولة فلسطينية تضم العرب واليهود معا تحت شكل من أشكال الانتداب للأمم المتحدة » ، مع السماح بالهجرة اليهودية بحيث لا يتجاوز تعداد اليهود بفلسطين مائة الف نسمة .

عندئذ عرض الجانب الأمريكي فكرة الاتفاق على اصـــدار تصريح مشترك من الدولتين لتهيئة الأمور في فلسطين ، في حالة تأزم الموقف بصورة تهدد المجهود الحربي للحلفاء . وقدم الجانب الأمريكي نص مشروع التصريح المقترح ، الذي صيغ على النحو التالي :

« لما كان المجهـود الحربي المشترك يدفـــع حكومتي المملكة المتحدة والولايات المتحدة الأمريكية الى التركيز على الهدف الأساسي لكسب الحرب ، فانهما تبديان اهتماما بكل ما قد يؤدي الى تأخير تحقيق النصر النهائي على العدو . ولما كانت السلطات العســكرية الأمريكية والبريطانية تعلق أهمية كبرى على الحفاظ على النظام في الشرق الأوسط ، فقد تشاورت الحكومتان معا فيما يتعلق بفلسطين واتفقتا على ما يلي :

(أ) لا يجب اتخاذ أي قرار يمس الوضع السائد في فلسطين دون الرجوع الى الأطراف المعنية ، بما في ذلك العرب واليهود .

(ب) اذا استطاع الطرفان المعنيان : العرب واليهود ، التوصل الى تفاهم ودى بجهودهما الخاصة قبل انقضاء الحرب ، فان مثل هـذا التطور سوف يلقى ترحيب الحكومتين ·

(ج) فى حالة غياب التفاهم بين الطرفين المعنيين · فان الأوضاع فى فلسطين سوف تطرح على بساط البحث بعد كسب الحرب ، بهـــدف اقامة حل عادل ونهائى يقبل به الطرفان المعنيان ·

وفى نفس الوقت ، تود الحكومة البريطانية ــ التى تتحمل مسئولية الادارة والامن فى فلسطين ــ ان تؤكد انه ليس لديها الرغبة فى ان تسمح بحدوث أى تغييرات بالقوة فى أوضاع البلاد أو ادارتها · »

وطلب الجانب الأمريكى من الجانب البريطانى دراسة مشروع التصريح المقترح على مهل ومناقشته فى جلسة أخرى ، وفى حالة التوصل الى اتفاق حوله يجب ان يظل على الكتمان ، ولا يتم اصداره الا اذا بلغت الحالة فى فلسطين درجة من الخطورة يصبح عندها اصدار التصريح المشترك أمرا ضروريا · وقد وعد الانجليز بدراسة مشروع التصريح بعناية ·

وفى الجلسة الخامسة للمحادثات ، قدم الجانب البريطانى وجهة نظره فى مشروع التصريح المشترك ، فذكر ان ليس من الحكمة اصدار مثل هذا التصريح الذى قد يثير الصهيونية فى الولايات المتحدة ، وان من الأجدى ان تسعى الحكومة الأمريكية للحـــد من تطرف الصهيونية فى أمريكا ، واقناع قادة اليهود ان من واجبهم منع اتباعهم من الاقدام على عمل يضر بمصالح الحلفاء خلال الحرب ، لأن الحكومة البريطانية تعتقد ان اليهود فى فلسطين لن يلجأوا الى العنف خلال الحرب الا اذا كان ذلك بتحريض من الصهيونية الأمريكية · واذا تمكنت الحكومة الأمريكية من تهدئة الحركة الصهيونية ، فلن يكون ثمة حاجة ــ عندئذ ــ للتصريح المشترك · واقترح الجانب البريطانى الاحتفاظ بنص مشروع التصريح فى اضـابير وزارتى الخارجية بالبلدين للنظر فى امكانية اصداره اذا تغيرت الظروف ، مع ادخال التعديلات اللازمة عليـــه · فلقى الاقتراح البريطانى قبـــول الجـــانب الأمريكى (١) ·

وانتقلت المحادثات بعد ذلك الى بحث أهم جوانب الخـــلاف بين

(١) F.O. 371/39984, Anglo-US Conversations Regarding the Middle East, 2nd meeting, 19-4-1944.

الدولتين فى المنطقة العربية وهى السعودية والبحرين (١) . فقدم الجانب البريطانى عرضا للمصالح البريطانية فى السعودية ، وأكد ادراكه لأهمية المصالح البترولية الأمريكية المتنامية ، وان بريطانيا لاتقف حجر عثرة فى طريق تلك المصالح - كما تظن الحكومة الأمريكية - بل ان المسئولين الانجليز ذكروا للأمراء السعوديين عند زيارتهم للندن انهم يعترفون بالمصالح الأمريكية فى مجال البترول وانهم لايعترضون على تعامل السعوديين مع أمريكا .

أما الجانب الأمريكى فأكد على ان « للولايات المتحدة مصالح اقتصادية واستراتيجية فى بترول السعودية تعادل المصالح الاقتصادية والاستراتيجية البريطانية فى بترول ايران » وان السعودية ذات أهمية اقتصادية كبرى بالنسبة للولايات المتحدة التى تتطلع الى تطوير صناعة البترول فى تلك البلاد ، وان كل من السعودية وأمريكا تتطلعان الى توطيد أواصر الصداقة بينهما ، وتقوية العلاقات المشتركة بين البلدين .

وانتقل الجانبان الى بحث مسألة المعونة المالية للسعودية ، فأشار الانجليز الى ان بلادهم تدفع نفقات البعثات الدبلوماسية السعودية ، وقيمة البضائع الانجليزية التى تطلبها السعودية من انجلترا ، سواء كان ذلك مباشرة أو من خلال مركز تموين الشرق الأوسط ، وأن الولايات المتحدة تقدم للسعودية ١٥ مليونا من الريالات الفضية ضمن برنامج الاعارة والتأجير تنوى رفعها الى ٣٥ مليونا ، ومعنى ذلك ان الدولتان سوف تدفعان الكثير ما لم تنسقا جهودهما معا بهذا الصدد . واقترح الجانب البريطانى ان توحد الدولتان معونتهما المالية للسعودية على أساس البضائع التى تقدم لابن سعود من منطقة الاسترلينى ومنطقة الدولار ، على ان يتم ذلك من خلال مركز تموين الشرق الاوسط . وأشار الجانب البريطانى - كذلك - الى موضوع العملة السعودية لارتباطه بالمعونة المالية ، وعرض لفكرة اصدار عملة ورقية ترتبط بالاسترلينى يصدرها مجلس للنقد السعودى يكون مقره خارج السعودية فى لندن أو القاهرة وتمثل فيه السعودية وبريطانيا وأمريكا .

وفى المقابل ، عرض الجانب الأمريكى وجهة نظره فى موضوع المعونة المالية ، فوافق على فكرة التنسيق على ان يتساوى مقدار المعونة المقدمة من منطقتى الاسترلينى والدولار ، ولكن فيما يتصل بالعملة السعودية ذكر

---

(١) F.O. 371/39985 Anglo-US Conversations Regarding the Middle East, 2nd meeting, 12-4-1944.

الجانب الأمريكي ان الخزانة الأمريكية تعترض على المشروع البريطاني الخاص باصدار عملة ورقية ترتبط بالاسترليني ، واقترحت مشروعا بديلا لاصدار عملة سعودية فضية ترتبط بالاسترليني والدولار معا ، « وخاصة ان العملة الورقية قد لا تجد قبولا في مثل ذلك المجتمع البدائي » ٠

ورد الجانب البريطاني بأن فكرة ربط العملة الفضية السعودية بالاسترليني والدولار معا يصعب تطبيقها من الناحية العملية ، وان العملة الورقية قد تجد قبولا في المراكز الحضرية مثل مكة وجدة والمدينة لتمويل الحج ، وخاصة ان الابقاء على العملة الفضية يمثل استنزافا للمعونة المالية الأمريكية نتيجة تسرب الفضة التي تقدم لابن سعود الى الخارج ، لأن قيمة الريال السعودي أقل من قيمة الفضة المستخدمة في سكه ٠

ثم استطرد الجانبان في بحث نقاط الخلاف الأخرى حول السعودية دون حسم موضوع العملة التي كان الأمريكان يحرصون على بقائها مستقلة عن دائرة الاسترليني لتجنيب مصالحهم التجارية ما قد يترتب على ذلك من مشاكل بعد الحرب ٠ فانتقل الطرفان الى بحث مسألة المعونة الفنية للسعودية في الشئون المالية والعسكرية ، وعرض الانجليز لمطالب الملك عبد العزيز بن سعود بتعيين مستشار مالي وآخر عسكري من المسلمين السنة ، واقترح الانجليز ان يختار المستشارين من المسلمين السنة الهنود، على ان تشكل لجنتان استشاريتان احداهما مالية والأخرى عسكرية تتكون كل منها من المستشار المسلم السني الهندي وزميلين آخرين احدهما أمريكي والآخر بريطاني ٠ فلقي الاقتراح استحسان الجانب الأمريكي ٠

وتطرقت المحادثات بعد ذلك الى البحرين ، فذكر الجانب الأمريكي ان الحاجة ماسة الى افتتاح قنصلية أمريكية بالمنامة لرعاية المواطنين الأمريكيين الذي بلغ عددهم ١٨٠٠ مواطنا نتيجة انشاء مصفاة البترول الجديدة ، وعلل ذلك بأن الخارجية الأمريكية تواجه نقدا شديدا من جانب أولئك المواطنين لأنها لا تتحمل مسئولياتها نحوهم ٠ واعترض الجانب الأمريكي على ادعاء الانجليز ان السماح باقامة قنصلية أمريكية بالمنامة يضر بالنظام السياسي الذي وضعته بريطانيا لمنطقة الخليج ، لأن تأسيس القنصلية سوف يؤدي الى مطالبة الدول الأخرى فتح قنصليات لها بالخليج ، مما يهدد المصالح البريطانية فيه ٠ وأكد الامريكان ان للولايات المتحدة وضع فريد في البحرين تؤكده مصالحها البترولية في الجزيرة ٠

ولكن الجانب البريطاني أصر على موقفه ، وقدم اقتراحا بديلا بأن

يتولى القنصل الأمريكى فى الظهران رعاية مواطنى الولايات المتحدة بالبحرين ـ بصفة غير رسمية ـ وخاصة ان المسافة بين الظهران والمنامة لاتتجاوز الساعتين .

واكتفى الجانب الأمريكى بالوعد بدراسة الاقتراح ، ثم عاد الى اثارة الموضوع فى الجلسة الخامسة للمحادثات ، فأصر على ضرورة خضوع الجالية الأمريكية فى البحرين للسلطة القضائية القنصلية لبلادها . وبعد مناقشات مستفيضة حول هذا الموضوع عرض خلالها الجانب الأمريكى انشاء قوة شرطة أمريكية تعمل تحت أمرة المقيم البريطانى بالخليج أو اسناد هذه المهمة الى الشرطة العسكرية الأمريكية التابعة لقيادة الخليج ، اعترض الجانب الانجليزى بشدة على هذه المقترحات ، وأصر على ضرورة تجنب المتاعب السياسية التى قد تنجم عن ذلك . غير ان الجانب الأمريكى احتج على معاملة الأمريكيين قضائيا فى البحرين على قدم المساواة مع الايرانيين ، ووعد بتجربة اسناد الخدمة القنصلية الى القنصل الأمريكى بالظهران على سبيل التجربة ، والبحث عن حل بديل فى حالة فشل التجربة .

وطرحت مسألة الوجود الفرنسى فى سورية ولبنان على بساط البحث فى الجلسة الثانية للمحادثات (١٢ ابريل) ، فعرض الجانب البريطانى لابعاد الموقف بما فى ذلك المفاوضات التى دارت على المستوى المحلى والاتفاقية الخاصة بنقل السلطة فى سورية ولبنان الى حكومة فرنسا الحرة ، والمفاوضات التى أجريت مع الجنرال كاترو . وأكد الجانب الأمريكى ان الولايات المتحدة تستعد للاعتراف باستقلال سورية ولبنان ، وتعيين وزير أمريكى مفوض فيهما بمجرد اعلان الاستقلال . واعترض على فكرة اخراج الفرنسيين من المنطقة التى اقترحها الجانب البريطانى لسبر غور الأمريكان ، وأصر الجانب الأمريكى على ضرورة احتفاظ الفرنسيين بصلاحيات ادارية فى سورية ولبنان حتى تضع الحرب أوزارها ، على ان يتحول القائد العام الفرنسى فى بيروت الى سفير فوق العادة . ولكن الجانب البريطانى رأى أن ينظم الفرنسيون علاقتهم بالبلدين فى شكل معاهدة على ما فعلت بريطانيا مع مصر والعراق ، وان يتخذ الفرنسيون موقفا محددا من مطالب الاستقلال فى البلدين حرصا على مصالح الحلفاء فى المنطقة ، وانه يجب عقد اتفاقية تسوية اذا فشلت تجربة تعايش المصالح الانجليزية ـ الفرنسية .

وقبل الجانب الأمريكى بالمقترحات البريطانية ، غير أنه أعلن اعتراضه

على ما تعهدت به بريطانيا لفرنسا الحرة فى اتفاقية ليتلتون – ديجـــول (٢٥ ، ٢٧ يوليو ١٩٤١) من ان يكون لفرنسا امتيازات خاصـــة فى سورية ولبنان دون سائر الدول الكبرى الأخرى لأن ذلك يتعارض – فى رأيهم – مع مبدأ « التعايش السلمى Modus vivendi » الذى طالبت به أمريكا فى المنطقة ٠

وكان الوفـــد الأمريكى قد اقترح اعتبار المنطقة العربية « منطقة تعايش سلمى لجميع الدول الكبرى دون تمييز » ، وذلك ردا على محاولات الجانب البريطانى انتزاع اعتراف أمريكا بالمنطقة العربية وتخومها منطقة نفوذ بريطانى،طالما أن اهتمامات أمريكا بالمنطقة اقتصادية وثقافية بالدرجة الأولى ٠

وتناولت المحادثات موضوع التعـــاون الانجليزى – الأمريكى لدعم

اقتصاديات المنطقة فى اطار « المجلس الاقتصادى للشرق الأوســـط Middle East Economic Council (MEEC) كامتداد لنشاط مركز تموين الشرق الأوسط ، الذى نجح فى تحقيق قدر من الاكتفاء الذاتى لبلاد المنطقة خلال انقطاع الخطوط الملاحية فى البحر المتوســـط بسبب ظروف الحرب ، على ان يكون المجلس المقترح بمثابة مؤسسة انجليزية – أمريكية تقوم بتقديم المشورة الفنية لدول المنطقة فى المجال الاقتصادى ٠

وقد وافق الجـــانب الأمريكى على المشروع ، على ان يكون المجلس المقترح « منظمة اقليمية » تساهم فيها جميع دول المنطقة مساهمتها فى الأمم المتحدة ، وتعتمد على جهود الكفايات الفنية والعلمية المحلية ، وتموله دول المنطقة ، ويقتصر دور الانجليز والأمريكان على تقـــديم المشـــورة الفنية (١) ٠

أما عن مســـتقبل العلاقات الانجليزية – الأمريكية بالمنطقة العربية فتدارس الجانبان الشكاوى التى اثارها ممثلو الدولتين بالمنطقة ، وما تتركه من أثر على الدوائر السياسية بالبلدين ٠ ولفت الجانب الأمريكى انظار الجانب الآخر الى ان تكرار الشكوى من سلوك كل طرف ازاء المصـــالح الاقتصادية للطرف الآخر قد يؤدى الى خلق جو من التوتر ، تعجز أمامه الحكومتان عن اقناع الرأى العام فى بلديهما بسلامة نية الطرف الآخر ٠

(١) F.O. 371/39985 Anglo-US Conversations Regarding the Middle East, 4th meeting, 18-4-1944.

« ففى الولايات المتحدة جماعات ضغط قد تهتم بالمسائل الصغيرة وتحيلها الى تيارات رأى عام قد تؤثر على مستويات سياسية أعلى » · ولذلك من المصلحة تصفية تلك المشكلات فى مواقعها المحلية حتى لا تصل الى لندن أو واشنطون ، لأنه « بمجرد مناقشتها بالكونجرس الامريكى أو البرلمان البريطانى يصبح من الصعب معالجتها » (١) ·

وكان فى ذلك اشارة واضحة الى ان أمريكا لا تكترث لتلك الضجة التى اثارها الدبلوماسيون الانجليز بمصر والسعودية حول تزايد المصالح الأمريكية بالمنطقة ، ومنافستها للتجارة البريطانية · كما كان تحذيرا مقنعا للانجليز بخطورة التمـــادى فى تلك الحملة التى قد تفرق السبل بالحليفتين ·

وعلى أية حال ، لم يكن من المتوقع ان تعترف أمريكا بالشرق العربى منطقة نفوذ بريطانى ، فى الوقت الذى كانت قد مهدت فيه الطريق لتوطيد نفوذها بالمنطقة مستفيدة من ظروف الحرب · وكانت استراتيجيتها تقوم - على نحو ما رأينا - على توسيع نطاق مصالحها الاقتصادية عامة والبترولية خاصة · ومن ثم كان تركيز الأمريكان فى تلك المحادثات على مصـــالحهم الاقتصادية فى الخليج والسعودية ، وعلى الدور الاقتصادى الذى يمكن ان يلعبوه فى المنطقة بعد الحرب ، وطرحهم لمبدأ التعايش السلمى بين الدول الكبرى فى المنطقة بدلا من الاعتراف بها مرتعا للنفوذ البريطانى وحده · كل ذلك فى اطار محادثات سياسية استطلاعية غير رسمية حتى يجنبوا أنفسهم الالتزام بشىء محدد أمام الانجليز يقيد حركتهم بعد الحرب ·

المحادثات البترولية الانجليزية - الأمريكية :

وبنفس الأســلوب ، ادار الأمريكان دفة المحـــادثات الاستطلاعية البترولية التى جرت بينهم وبين الانجليز على المستوى الفنى أولا ، ثم المستوى الوزارى أخيرا · ففى المحادثات التى دارت بين خبراء البلدين بواشنطون فى الفترة من ١٣ ابريل حتى ٣ مايو ١٩٤٤ ، استعرض الطرفان المصالح البترولية البريطانية والأمريكية بالمنطقة ، وتوصلا الى المبادىء التالية (٢) :

---

(١) F.O. 371/39985 Anglo-US Conversations Regarding the Middle East, 6th meeting 26-4-1944.

(٢) National Archives Washington 800/6363, Minutes of the Joint Session of the Anglo-American Exploratory Discussions on Petroleum, No. 1, 18-4-1944 (Quoted in H. Mejcher, op. cit., pp. 17-18.

(ا) يجب ان يقوم استغلال الموارد البترولية العالمية على أساس المساواة والترشيد فى جميع المناطق التى تحتوى على ثروات بترولية ٠

(ب) يجب ان يحقق استغلال الموارد البترولية المنفعة القصوى للبلاد المنتجة (وخاصة البلاد المتخلفة التى لم تبلغ درجة من التطور السياسى تؤهلها لتحقيق النضج الاقتصادى بجهودها الذاتية) ، ولذلك يجب ان يوفر استغلال البترول على يد الحكومتين قدرا من التطور الاقتصادى للبلاد الأجنبية التى تتمتع فيها الحكومتان بامتيازات بترولية ٠

(ج) يجب ان يكون من حق الشعوب والامم الحصـــول على الموارد البترولية بسهولة ويسر فى اطار ميثاق الاطلنطى ، على ان يخضـع ذلك للشروط التى توضع لضمان الامن الجماعى ٠

(د) اعتراف جميع الاطراف المعنية بمبدأ تكافؤ الفرص فى أعمال التنقيب عن البترول واستغلاله فى مناطق الامتياز الحاليـة ، دون ان يترتب على ذلك تدخل أحد الطرفين فى نشاط الطرف الآخر ، أو وضع قيود سياسية تحد من الحركة فى هذا المجال ٠

(هـ) تتعهد الحكومتان الأمريكية والبريطانية ورعاياهمـا باحترام عقود الامتياز الحالية ، وبعدم التعرض للحقوق التى تخولها تلك العقود لأصحابها بطريقة مباشرة أو غير مباشرة ٠

(و) لا يجب ان تضع الشركات أو الحكومات العراقيل أمام خطط التوسع فى استغلال الموارد البترولية أو تطويرها على نطاق واسع ٠

واتفق الطرفان ـــ من حيث المبدأ ـــ على عقد اجتماع سنوى لمناقشة المسائل المتعلقة بانتاج البترول ونقله وتوزيعه ٠ غير ان الحكومة البريطانية ترددت فى الدخول فى المرحلة الثـانية من المحادثات ، ثم ما لبثت أن اضطرت الى الاستجابة لطلب الحكومة الأمركية ، فعينت اللورد بيفر بروك Beaverbrook رئيسا للوفد ، وتولى هل Hull وزير الخارجية الأمريكى رئاسة وفد بلاده ، وبعد محادثات طويلة وقع الجانبان على مبادىء التعاون البترولى (٨ أغسطس ١٩٤٤) ٠

غير ان كل الجهود التى بذلت للوصول الى هذا الاتفاق ذهبت ادراج الرياح ، فعندما أرسل الرئيس روزفلت نص الاتفاقية الى مجلس الشيوخ الأمريكى للتصديق عليها ، عارض ممثلو الشركات البترولية الأمريكية فى

الولايات الجنوبية هذه الاتفاقية واقنعوا مجلس الشيوخ بأنها تعد بمثابة « كارتل » دولى ، فرفض المجلس التصديق عليها • (١)

السياسة الأمريكية الجديدة :

وعلى كل ، خرجت الولايات المتحدة الأمريكية من تلك المحادثات الاستطلاعية السياسية والبترولية دون ان تلتزم بشىء نحو بريطانيا - الدولة ذات المصالح التقليدية فى المنطقة العربية - وبذلك أصبح باستطاعتها ان تضع اطار سياستها الخاصة بالمنطقة بما يخدم مصالحها وحدها • وقد وقع على عاتق اللجنة التنفيذية للسياسة الاقتصادية بالخارجية الأمريكية تحديد معالم السياسة الأمريكية ، فأنجزت مهمتها (فى ٢٠ ابريل ١٩٤٥) قبل أن تضع الحرب أوزارها بأشهر معدودات ، وعممت الحكومة الأمريكية تلك الخطة السياسية على بعثاتها الدبلوماسية فى صورة مذكرة تفصيلية بالغة السرية (٢) •

وقد حددت المذكرة أهداف السياسة الأمريكية فى المنطقة على النحو التالى :

١ - تدعيم المصالح المستقلة للولايات المتحدة الأمريكية لضمان السلام والامن فى المنطقة على أساس حسن الجوار •

٢ - الاعتراف بحق الشعوب فى اتباع النظم الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التى ترغب فيها •

٣ - ضمان تكافؤ الفرص بين الدول على قدم المساواة ، ونبذ سياسة الانغلاق أو التمييز فى التجارة والنقل ، والتأكيد على حرية التفاوض مع أقطار المنطقة ، سواء من خلال المؤسسات او الوكالات الحكومية أو التجارية الخاصة ذات المصلحة فى ذلك بغض النظر عن النظم السياسية القائمة •

---

(١) M. Sachar, op. cit., p. 394.

(٢) إستطاعت الخارجية البريطانية الحصول على نص تلك المذكرة عن طريق الوزير الأمريكى المفوض فى كابول ، وقد اعتمدنا هنا على النص كما ورد بالوثائق البريطانية .

انظر : F O 371/45267 Squire to Baxter, 1-6-1945.

٤ ـ توفير الحماية لجميع المواطنين الأمريكيين فى المنطقة ، وتوسيع نطاق الحقوق الاقتصادية الأمريكية الحالية واحتمالاتها فى المستقبل •

وأكدت المذكرة على ان السياسة الأمريكية فى المنطقة تتجه نحو مساعدة الدول المستقلة فى الحفاظ على استقلالها ، وتشجيع الدول الأخرى ـ بالطرق المناسبة وفى الوقت الملائم ـ على تحقيق استقلالها •

وأوصت اللجنة فى مذكرتها باتخاذ الاجراءات التالية لوضع هذه السياسة موضع التنفيذ :

١ ـ تقديم معونات مناسبة لدول الشرق الأوسط التى تتطلع الى تحسين أوضاعها الاقتصادية ورفع مستوى معيشة شعوبها ، بما يترتب على ذلك من زيادة القوة الشرائية فى تلك الدول ، وزيادة الاستقرار الاقتصادى والسياسى فيها ، ولتحقيق ذلك يجب محاولة :

(أ) توفير القروض التى توجه للاغراض الاقتصادية الانتاجية فى تلك البلاد •

(ب) تشجيع الجهود الرامية الى الغاء جميع القيود والضوابط التى تعوق حرية انتقال التجارة والسلع من بلاد الشرق الأوسط واليها • ونظرا لافتقار معظم بلاد المنطقة الى الدولارات ، يجب على الولايات المتحدة ان تضع نصب عينيها ان الواردات ترتبط بالصادرات ، ولذلك يجب عقد اتفاقيات تجارية مع هذه الدول تتعلق بالتعريفة الجمركية لفتح الطريق أمام السلع الأمريكية ومساعدة تلك الدول على زيادة حجم تجارتها مع الولايات المتحدة •

(ج) مراجعة جميع المعاهدات التجارية التى تربط الولايات المتحدة بهذه الدول ، وغيرها من المسائل الاقتصادية ، من أجل وضع برنامج بناء لتوسيع نطاق هذه العلاقات •

(د) تزويد البعثات الدبلوماسية والقنصلية بالفنيين الاكفاء فى مجالات الزراعة والصناعة والتجارة على وجه السرعة ، لاعداد التقارير الدورية عن تلك المجالات فى بلاد المنطقة ورصد التطور فيها ، وذلك لتسهيل مهمة تقديم المعونات الفنية والاستشارية لتلك البلاد ومد المؤسسات الأمريكية التى تمارس نشاطها فى تلك البلاد بالمعلومات الدقيقة عنها •

(هـ) تشجيع دول المنطقة على اقامة منظمة خاصة لمساعدتها على النهوض بالزراعة والنقل والمواصلات والصحة العامة ، على ان يستلهم هذا التشجيع تجربة التعاون الاقتصادى الذى مارسته الولايات المتحدة فى المنطقة خلال الحرب •

(و) المشاركة فى الحياة الاقتصادية للمنطقة بالاستجابة لطلبات المساعدات الفنية والاستشارية لأن ثمة ما يؤكد ان دول المنطقة سوف تتجه صوب الولايات المتحدة طلبا لهذه المساعدات بدرجة متزايدة ، وتلبية تلك الطلبات « يدعم مكانتنا فى المنطقة ويخدم المصالح العامة للولايات المتحدة » •

٢ ـ يجب ان يكون التنسيق المتبادل « دعامة سياستنا الاقتصادية وسياسات الدول الأخرى صاحبة المصالح فى المنطقة ، وخاصة بريطانيا والاتحاد السوفييتى وفرنسا • وبصفة عامة يجب ان تعمل من أجل ضمان الحرية الاقتصادية دون تمييز فى جميع المسائل المتعلقة بالتجارة والترانزيت ، وغيرها من الأنشطة الاقتصادية ، وفقا للاهداف العامة لسياستنا التجارية كما تعبر عنها المادة السابعة من اتفاقية المعونة المتبادلة والاعلان المشترك الصادر فى ١٩٤١ » • ويجب ان يكون الهدف النهائى تطوير موارد المنطقة بعيدا عن الممارسات الاستغلالية والتمييز والسيطرة « التى سببت الخلافات بين الدول فى المناطق المتخلفة فى الماضى » •

لقد كانت الولايات المتحدة الأمريكية تتأهب للسيطرة على الشرق العربى ، متخذة من مصالحها الاقتصادية ركيزة لتحركها السياسى ، بعد ان استكشفت نيات بريطانيا من خلال المحادثات السياسية والبترولية التى أجرتها معها • وكانت تريد ـ على ما يبدو ـ ان تنبه الانجليز الى حقيقة ان انفرادهم بالمنطقة أمر لا يمكن القبول به ، فهى تريد المنطقة العربية مفتوحة على مصراعيها أمام مصالحها الاقتصادية ، ولذلك لم تعترف بالامتيازات التى خلعتها كل من بريطانيا وفرنسا على نفسها فى المنطقة ، وهو ما لم يدخله الانجليز فى حسابهم عندما خططوا لسياستهم فى المنطقة فيما بعد الحرب • وظل الانجليز ـ حتى اللحظات الأخيرة ـ يظنون ان باستطاعتهم احتواء الاطماع الأمريكية فى اطار من التعاون الثنائى •

وغاب عنهم ان الحرب العالمية الثانية قد غيرت من موقف الولايات المتحدة حيال المنطقة ، وزادت من تطلعاتها تجاهها ، كما نقلت لواء قيادة الغرب الى أمريكا (بعد الحرب) ، فأخذت ترسم سياستها فى ضوء المتغيرات الجديدة لترث القوى الاستعمارية التقليدية فى المنطقة العربية التى احتوت على معظم احتياطى البترول العالمى . وهى اذ تسعى لذلك لا تلجأ الى الصدام المباشر ، فقد ولى زمانه ، وانما تلجأ الى أسلوب الزحف الوئيد ، وخطب ود الشعوب ، والعمل على تقويض دعائم النظم السياسية التى ارتبطت تقليديا ببريطانيا ، وابقاء الاتحاد السوفييتى بعيدا عنها .

التأييد السوفييتي لإسرائيل، جذوره ودوافعه

دكتور محمد كمال يحيى

- كلية السياحة - جامعة حلوان

التأييد السوفييتي لاسرائيل
جذوره ودوافعه

تسرب النفوذ السوفييتى الى المشرق العربى فى أعقاب الحرب العالمية الثانية مستغلا التناقضات التى كانت سائدة حينئذ بين سكان المنطقة فى جانب ، والاستعمار البريطانى أو الفرنسى فى الجانب الآخر — وقد كانت فلسطين احدى هذه البلاد التى حاول أن يمد نفوذه اليها .

ولاشك ان الموقف السوفييتى من النزاع العربى الاسرائيلى — الصهيونى فى فلسطين قد تأثر الى حد كبير ، سلبا وايجابا ، بالاحداث الجارية على المسرح الاوربى . وقد اتضحت أبعاد هذا الموقف فى التصويت السوفييتى لصالح مشروع القرار الخاص بتقسيم فلسطين فى الجمعية العامة للامم المتحدة فى نوفمبر ١٩٤٧ — ورأوا فى هذا القرار «خطوة عظيمة الى الامام فى حل مشكلة فلسطين برمتها» .

على أن الموقف السوفييتى من قرار التقسيم أعمق من ذلك بكثير ، جاء نتيجة لتراكمات مختلفة على مر سنوات عديدة ، أدت به الى تأييد هذا القرار .

فالاتحاد السوفييتى ، كان الدولة الثانية فى العالم — بعد الولايات المتحدة الامريكية — من حيث عدد اليهود الموجودين فيه — اذ تذكر

احصائية رسمية لهم نشرت بجريدة « البرافدا» فى فبراير عام ١٩٦٠ ، أن عددهم بلغ ٢٫٢٦٨٫٠٠٠ نسـمة ، بينما تذهب بعض التقـديرات اليهـودية غير الرسـمية الى ان عددهم بلغ ثلاثة ملايين أو ثلاثة ملايين ونصف (١) .

وهم ينتشرون فى مختلف جمهوريات الاتحاد السوفييتى ، من شواطىء البلطيق وحدود بولونيا ، حتى المحيط الهادى وتخوم الصين. على أن المنطقة التى يتكاثفون فيها أكثر من غيرها ، هى منطقة أوكرانيا ، وأغلبهم يقيمون فى المدن الكبيرة ، وتضم موسكو أكبر تجمع لهم .

وقد كان وضع اليهود اعقد مشكلة واجهها القادة السوفييت ، واتسم تاريخهم فى كثير من الاحيان بالاحداث غير السارة ، من اضطهاد، وملاحقة ، وتمييز فضلا عن المحاكمات والتطهير .

وازاء هذا الوضع المعقد ، وحتى لايبدو النظام السوفييتى عاجزا عن حل قضايا الشعوب ، بما فيها وضـع اليهـود ، نبتت فكرة اقامة اقليم مستقل استقلالا ذاتيا لليهـود يتيح لهم أن يحتشـدوا فيـه ، ويمارسوا حياتهم مع بنى دينهم ، ويحققوا لانفسهم فيه المبدأ اللينينى « حق تقـرير المصير» ـ فكان أن قامت مقاطعـة «بيروبيدجان» ذات الحكم الذاتى فى مارس ١٩٣٤ ، طبقا لنص الدستور السوفييتى (٢) .

وفى الوقت الذى كان القادة السوفييت يعالجـون فيـه مشكلة اليهود فى الاتحاد السوفييتى ، كانوا يتابعون الصراع الدائر فى فلسطين بين العرب واليهود ، ويلحظون التعاطف الشديد بين اليهود السوفييت وبين أبناء جلدتهم فى فلسطين ، بل ورغبتهم فى الهجرة اليها ، للجهـاد الى جانبهم ، ونيـل شرف «الاستشهاد» معهم لاقامـة «دولتهـم القومية » .

وقد تصادف فى ذلك الوقت ، أن اندلعت فى فلسطين الاضطرابات الأولى التى سبقت الثورة الفلسطينية الكبرى فى صيف عام ١٩٣٦ ، والتى شملت طول البلاد وعرضها ، وكانت أعنف ماعرفته البلاد حتى ذلك الحين . وعندما جرت مناقشة قضية تقسيم فلسطين لأول مـرة فى عصبة الامم ، كان راى السوفييت صريحا ضدها ـ ورات موسـكو أن العرب سيفقدون بالتقسيم افضل اراضيهم ، فى الوقت الذى كان هم البريطانيين فيه توجيه ضربة للحركة الثورية العربية باقامة دولة يهـودية ـ وقالت موسـكو ، أن اليهـود لن يفيدوا من مثـل هـذه المغامرة (٣) .

ومن المدهش حقا ، ان هذه الفترة التى شهدت تأييدا سوفييتيا للثورة العربية فى فلسطين ، قد صاحبتها فى نفس الوقت تقريبا حركة عرفت فى الاتحاد السوفييتى «بالتطهير الكبير» — شملت كثيرين من اليهود — اذ سرعان ما حلت النوادى والمنظمات الصهيونية ، واعتقل الكثيرون من زعمائها ، لاسيما فى لينينجراد ، وكيف ، ومسكو . وكان الصهيونيون يحاكمون بموجب تهمتين ، هما : عضوية منظمة سرية شبه عسكرية ، وصلتهم بالدول الاجنبية ، لاسيما انجلترا ، التى منحتهم وعد بلفور (٤) .

كانت الاستراتيجية الاساسية للاتحاد السوفييتى فى هذه المرحلة، مكافحة قوى المحور — واتسمت الفترة الممتدة من انعقاد المؤتمر السابع للكومنترن ، حتى توقيع المعاهدة السوفيتية — الالمانية ، اى من أغسطس ١٩٣٥ حتى أغسطس ١٩٣٩ ، بالتوتر العدائى الشديد فى العلاقات السوفيتية الالمانية — ولذلك كان قادة الاتحاد السوفيتى يتوجسون خيفة من الاتصالات التى جرت بين قادة الحركة الوطنية الفلسطينية ، وعلى راسهم امين الحسينى ، مفتى القدس ، وبين المانيا وايطاليا ، واتخذوا موقفا معاديا من هؤلاء القادة ، بل ومن الحركة كلها (٥) .

لكنه مع تزايد الخطر المباشر لألمانيا النازية على الاتحاد السوفييتى بعد سنة ١٩٣٨ ، اصبح موقف موسكو من الصهيونية اقل عنفا — ذلك لأنها تقف فى عدائها للنازية الى جانب الاتحاد السوفييتى — فتوقفت تماما خلال الحرب العالمية الثانية الدعاية السوفيتية المناوئة للصهيونية . وعقب الهجوم الالمانى على الاتحاد السوفيتى أعلن القادة الصهيونيون تعاطفهم مع موقف الاتحاد السوفيتى ، وتأييدهم له فى الحرب (٦) . كما أسهم الصهيونيون ، وبالذات « الهستدروت » ، عن طريق « عصبة النصر لمساعدة روسيا السوفيتية» فى تقديم مساعدات حربية ودوائية الى الاتحاد السوفيتى خلال الحرب — وكانت هذه المساعدات تسلم عن طريق ايران ، وسلمت أول دفعة منها فى ابريل ١٩٤٢ . كما أقام اليهود فى فلسطين علاقات وثيقة مع نقابات العمال السوفيتية ، وأقيم معرض فى الاتحاد السوفييتى لبيان تقدم المستوطنات اليهودية فى فلسطين . ولهذا ، لم يكن غريبا ماقاله ايفان مايسكى ، نائب قوميسارى الشئون الخارجية فى الاتحاد السوفييتى عندما زار المستعمرات اليهودية فى فلسطين سنة ١٩٤٣ : «بأننا لن نعتبر الصهيونية عميلة للاستعمار البريطانى بعد الآن — فقد تغير الموقف تماما ، كما تغيرت

نظرتنا ايضا ــ ويجب أن يكون واضحا أن التقدميين فى فلسطين سيحظون بتأييدنا المتزايد ، أكثر من العرب المتخلفين ، الذين يحكمهم الملوك الاقطاعيون » .

ومن ناحية اخرى ، يذكر اينشتاين ، أن هناك عددا غير قليل من القادة السوفيت فى الحرب الثانية ، كانوا من اليهود ، ولعبوا دورا مؤثرا فى الحرب ، مثل الميجور جنرال كرايزر Major Ceneral Kreyzer الذى قاد الفرقة الاولى فى موسكو ، ثم الجيش الثالث ، والجيش الخامس ، لتحرير حوض الدونيتز فى عام ١٩٤٤ ، ثم تقدم الى ليتوانيا ، وأشترك مع باقى المجموعات الشمالية فى تحرير لاتفيا واستونيا . وهناك أيضا الميجور جنرال ليف ميخائيلوفيتش دونانور ، ومارشال الجو سموشكتفتش ، بطل معركة ليننجراد (٧) .

ويضيف اسحاق دويتشر الى ذلك ، أن اليهود المنضمين الى القوات المسلحة السوفيتية قاتلوا ببسالة ، ونالوا أرفع الاوسمة والانواط العسكرية ، ولكن لم ينظر اليهم على انهم يهود ، بل كأبطال فى الجيش الاحمر السوفييتى .. لذلك ، فقد انتقم منهم الالمان ، خاصة عند احتلالهم كييف ، حيث قضوا على نحو ستين ألفا منهم ، كانوا يقيمون فيها ــ بل انه لم يسمح بعد ذلك بتشييد اى نصب تخليدا لذكراهم ، كما اتبع مع باقى قتلى الحرب فى الجمهوريات الأخرى (٨) .

من الواضح اذن ، أن هناك « موقفا » سوفيتيا معينا بدأ يتبلور فى خلال هذه الفترة ــ وهو الموقف الذى اتضحت ابعاده فى التصويت السوفيتى لصالح مشروع القرار الخاص بتقسيم فلسطين فى الجمعية العامة للامم المتحدة فى نوفمبر ١٩٤٧ .

وقد تناول عدد من الباحثين والمختصين مسألة تأييد الاتحاد السوفييتى لمشروع تقسيم فلسطين ، والذى ادى فى النهاية الى تأييد قيام اسرائيل ــ رغم ان أيديولوجية كل من الشيوعية والصهيونية على طرفى نقيض . ومن أشهر من تناولوا هذه المسالة وولتر لاكير ، الذى قرر فى أحد مؤلفاته أن التأييد السوفييتى لقيام دولة يهودية جاء كحدث عارض ، وفى لحظة من لحظات شرود ذهن ستالين (٩) . على أنه فى بحث آخر ، يذكر أن التأييد السوفييتى لقرار التقسيم كان على الأرجح تأثرا بجو العطف الانسانى الشامل على اليهود بعد الحرب (١٠) . ويذكر باحث آخر أن موقف الاتحاد السوفييتى فى الجلسة الاولى الخاصة

للامم المتحدة ، التى عقدت فى أبريل ـ مايو ١٩٤٧ ، كان أميل الى فكرة اقامة دولة اتحادية ذات جنسيتين . ولعلهم تصوروا امكان ذلك ، لان الاتحاد السوفييى يتكون من جنسيات مختلفة – وهذا قياس خاطىء، اذ أن جنسيات الاتحاد السوفييتى تتعايش فى اطار الايديولوجية الشيوعية ، التى لاتعترف بالقومية كعامل أساسى فى تكوين الدولة بينما سبب مجيء اليهود الى فلسطين ، هو الادعاء بكيان قومى ، دفعهم الى الهجرة والغزو وانتزاع البلاد من القومية الاخرى صاحبة الحق فيها (١١) .

هذا ـ بينما يرى باحث ثالث ، أن موقف الاتحاد السوفييتى من هذه المسألة ، كان بداية لخطأ جسيم ، ولم يكن تطبيقا أو التزاما بمبدأ تقرير المصير ـ ذلك لأن هذا كان يعنى انتزاع وطن قومى مستقر ، والرضوخ لارادة مستعمر آخر أشد نكاية وبشاعة (١٢) .

على أية حال – فقد انعقدت الجمعية العامة للامم المتحدة ، بناء على طلب الحكومة البريطانية ، لعقد جلسة خاصة للنظر فى مشكلة فلسطين ، فى ابريل ١٩٤٧ ـ وقام مندوب الهيئة العربية العليا ، ففند مزاعم الصهيونية ، واعلن أن العرب سيقاومون اى مشروع للتقسيم بالدم ، وانهم يرفضون تقرير لجنة التحقيق بتوصيته ، الذى كان يدور فى نطاق التقسيم ، وينتهى اليه . ثم اعلن أن الحل الوحيد الذى يقبله العرب ، هو دولة ديمقراطية مستقلة ، تنشأ فى كل فلسطين . وكان معنى ذلك ، أن العرب قد رفضوا انصاف الحلول ، أو التنازل عن حقوقهم ـ هذا فى الوقت الذى أعلن فيه مندوب الوكالة اليهودية قبولهم بتوصية التقسيم ، واعترض فى الوقت ذاته على ترك الجليل الغربى والقدس خارج الدولة اليهودية ـ اى انه فتح الباب لترضيات جديدة ، أو لمطالب أخرى تضمن له أن يحصل على ما أوصت به لجنة التحقيق لليهود .

وتتابع المندوبون ـ وكانوا بين مؤيدين للتقسيم ، أو بين مؤيدين للعرب فى رفضهم للتقسيم . وقام المندوب البريطانى ، واعلن عزم حكومته على تنفيذ الجلاء عن فلسطين ، وعدم استعدادها لتنفيذ حل لايوافق عليه كل من العرب واليهود فى نفس الوقت . كما أعلن امتناع بريطانيا عن التصويت ، حتى لاتتهم بالوقوف فى هذا الجانب أو ذاك ـ وكأنها قد احتفظت بموقف محايد فى المشكلة .

وعندما جاء دور الاتحاد السوفيتى ، وقف أندريه جروميكو ،

وزير الخارجية يعلن مانصه : « .... ان انشاء دولة عربيــة يهودية ، يتمتع فيها العرب واليهود بحقوق متساوية ، يمكن اعتباره احد الحلول الممكنة للمشكلة الفلسطينية لمصلحة الشعبين ولجميع سكان فلسطين ، وأمن وســلام الشرق الأوسط ـ واذا ظهر أن هــذا الحل غير عملى بسبب سوء العلاقات بين العرب واليهود ، فلابد من تقسيم فلسطين الى دولتين مستقلتين ، عربية ويهودية ..» (١٣) .

وتذكر بعض المصادر ـ من جهة اخرى ـ أن القرار السوفييتى بتأييد تقسيم فلسطين ، لم يكن قرارا عشوائيا ، خاضعا لشــطحات الفكر ، أو شرود الذهن ، بل ان هذا الموضوع على وجه التحديد ، قــد جرى بحثه قبل ذلك بعامين تقريبا بين كل من الرئيس الامريكى روزفلت وستالين ، أثناء مباحثات السلام التى عقدت فى يالتا ، واقتنع خلالها الزعيم السوفييتى بتأييدالبرنامج الصهيونى فيما يختص بفلسطين(١٤). ولاشك أن الولايات المتحدة ، سواء على عهد الرئيس تيودور روزفلت، أو خلفه هارى ترومان ، قد لعبت دورا كبيرا فى اقناع الحلفاء بالوقوف الى جانب المطالب اليهودية . ويؤيد هذا المعنى «صافران» ـ ويذكر على سبيل المثال ، انها استطاعت اقناع بريطانيا ، الدولة المنتدبة على فلسطين ، بالسماح لحوالى مائة الف يهودى بالهجرة الى فلسطين على الفور ، رغم احتجاجات العرب وسخطهم (١٥) .

وقد عبر عبد الرحمن عزام باشا ، الأمين العــام لجــامعة الدول العربية عن هذا السخط فى مؤتمر صحفى ، عقد فى لندن فى ١٩ سبتمبر ١٩٤٧ ، واعلن : «.. انه يتوقع انشاء اتحاد عربى يمتد من المحيط الى الخليج ، ويعيش فيه اليهود والعرب جنبا الى جنب» ـ ثم أعرب عن رغبته فى أن يسعى العرب قدر جهدهم لخير اليهود» بسبب حالتهم التى يرثى لها فى العالم» ـ وقد اسف لأن اعمال الارهاب الصهيونية عقدت الأمور . ثم قال : « .. اننا لانتنظر أن يرتضى العرب مائة ألف يهودى ارهابى فى بلادهم ، مهما صدقت الرغبة فى مساعدة اليهود والآخــذ بأيديهم » (١٦) .

على أن « صافران » يؤكد فى بحث آخر له ، أن وقوف السوفييت الى جانب قيام دولة يهودية فى فلسطين ، لم يكن سوى مرحلة تاكتيكيةـ فى الوقت الذى بقيت فيه عــداوتهم للصــهيونية لم تتغير ، كأســاس ايديولوجى (١٧) .

ومن المعروف ـ ان السياسة السوفيتية فى الشرق الأوسط فى الفترة التى اعقبت الحرب العالمية الثانيه ، كانت تسعى أساسا الى تأمين الحدود الجنوبية للاتحاد السوفيتى حتى لا تستخدم هذه المنطقة كنقطة وثوب على اراضيه ـ ولذلك شجعت كل الحركات المناهضة للاستعمار البريطانى (١٨) . وقد رأى السوفييت فى مناوأة الصهيونية للانجليز فى فلسطين ، فرصة سانحة للتخلص من النفوذ البريطانى ، وفى نفس الوقت ـ ان اقامة دولة يهودية فى هذه المنطقة سيزيد من حدة الصراع فى الشرق الأوسط وبالتالى ايجاد فرصة ملائمة لانتشار الشيوعية . وقد وضع المسئولون السوفييت فى اعتبارهم العلاقة الوثيقة بين التجمعات اليهودية فى الولايات المتحدة وبين فلسطين ، وادركوا احتمال أن تسعى الولايات المتحدة لتحل محل بريطانيا فى هذه المنطقة بعد خرجها منها ـ وبالتالى ، فان استقطابهم لليهود سوف يقلل من التأثير الأمريكى على المنطقة . هذا بالاضافة الى أن وجود عدد من القادة الصهيونيين ينتمون فى نشأتهم الى الأصل الروسى أو الى أوربا الشرقية انما هو أمر جدير باهتمام الاتحادالسوفييتى(١٩) .

والقيمة العملية لخطاب أندريه جروميكو فى الجمعية العام للامم المتحدة فى ١٤ مايو ١٩٤٧ ـ هى انه مهد السبيل لتأييد تقسيم فلسطين ، ثم لانشاء الدولة اليهودية . وقد بدأ جروميكو خطابه بهجوم على الانتداب والدولة المنتدبة ، ثم أوضح أن حل المسألة الفلسطينية يجب أن يأخذ فى اعتباره المصالح المشروعة لكل من الشعبين ، العربى واليهودى ـ فكل ، على حد تعبيره ، له جذور تاريخية فى فلسطين . واكد بصفة خاصة ، أن سوف يكون من غير العدل ان ينكر على الشعب اليهودى حقه فى تحقيق آماله فى انشاء دولته الخاصة به . وقد استعرض الحلول المكنة للمسألة الفلسطينية : تكوين دولة واحدة ، عربية يهودية ، يتمتع فيها العرب واليهود بحقوق متساوية ـ أو بتقسيم فلسطين الى دولة عربية ، واخرى يهودية ـ أو انشاء دولة عربية صرفة فى فلسطين بدون اعتبار لحقوق السكان اليهود ، أو العكس . وقد رفض الحلين الاخيرين باعتبارهما غير عادلين ، لا يأخذ أيهما فى اعتباره المصالح المشروعة « لشعبى فلسطين » ولا يؤدى الى استقرار العلاقات بينهما . ثم اكد

ان الوفد السوفييتى يفضل الحل الأول « تكوين دولة عربية يهودية مستقلة ديمقراطية » يكون لليهود والعرب فيها حقوق متساوية — باعتباره الحل الذى يكفل حماية مصالح الشعبين . غير أن جروميكو أضاف انه فى حالة عدم امكان تحقيق هذا الحل ، بسبب سوء العلاقات بين العرب واليهود سوف يكون من الضرورى بحث الحل البديل المتمثل فى التقسيم . وأكد جرميكو مرة أخرى تفضيله للحل الأول بقوله : « .. اننى أكرر ان هذا الحل لمستقبل فلسطين ، سوف يكون مبررا فقط ، اذا كانت العلاقات بين السكان اليهود والسكان العرب الفلسطينيين سيئة فى الواقع ، لدرجة يصبح معها من المستحيل التوفيق بينهما ، وتأمين التعايش السلمى للتعايش فى تلك البلاد» .

وهكذا — ظل حل الدولة الواحدة حلا أفضل — لكن الحل بالتقسيم أضحى ، بوضوح ممكنا .

ويذكر فرانك جرفازى ، وهو كاتب صهيونى ، فى هذه المناسبة — انه فى أثناء مناقشة المشروع فى الجمعية العامة ، قبل الحاخام هيليل سيفر ، المتحدث باسم الحركة الصهيونية العالمية خمس الرغيف $\frac{1}{5}$ بدلا من لا شىء على الاطلاق — وهو يعنى الجزء الذى خصص حينئذ للدولة اليهودية المقترحة — ثم أضاف : « لو كانت التضحية هى الشرط الذى لا مفر منه للوصول الى حل نهائى ، واتاحة الفرصة لانشاء الدولة اليهودية ، فان الحركة الصهيونية على استعداد لأن توصى بقبول الحل الذى ينادى بالتقسيم (٢٠) » .

كانت كارثة اليهود فى أوربا قد بدأت تنكشف أبعادها تدريجيا بعد انتهاء الحرب (٢١) — وبدأ زعماء الحلفاء ينظرون اليها باعتبارها احدى مسئولياتهم التى يجب عليهم وضع الحلول المناسبة لها، بصرف النظر عن أية اعتبارات ايديولوجية أو سياسية . لذلك — فانه بالنظر الى المبادىء الأساسية الشهيرة التى تنطوى عليها الأيديولوجية السوفيتية ، يعتبر تأييد الاتحاد السوفييتى لقيام دولة يهودية فى فلسطين خروجا على المألوف ، وتناقضا مع طبيعة الأشياء .

ومهما كان الرأى حول هذا التأييد ، فان الاتحاد السوفييتى على الصعيد العملى قد اتبع تأييده هذا بتزويد العصابات الصهيونية العاملة فى فلسطين بالمعدات العسكرية، التى أرسلت عن طريق تشيكوسلوفاكيا، والتى استمر أمدادهم بها حتى بعد اعلان قيام اسرائيل فى مايو عام ١٩٤٨ .

وتذكر بعض المصادر ، أن المعدات التى أرسلت الى اليهود فى هذه الفترة الأولى من النزاع المسلح بين الطرفين، بلغت قيمتها ١٦٫١ مليون دولار - كانت ترسل عبر المرافىء اليوغوسلافية على الادرياتيك ، وتنقل بحراسة ميليشيا الحزب الشيوعى اليوغوسلافى ، بحسب اعتراف مجلة The Weinner Liboory Bulletin التى كانت تصدرها منظمة «بنى برت» الصهيونية (٢٢) - ومن بين هذه المعدات العسكرية التى أرسلها الاتحاد السوفيتى عن طريق تشيكوسلوفاكيا ، كميات من الأسلحة ، شملت طائرات المانية من طراز « مرشميدت » وطائرات بريطانية من طراز « سبيتفاير » و « موسكيتو » ، ودبابات ومدفعية ميدان مضادة للطائرات ، وقاذفات لهب ، ومدافع مضادة للدبابات - وبالاضافة الى ذلك ، قامت وزارة الدفاع التشيكية ، بموجب اتفاق عقدته مع منظمة « الهاجاناه » الارهابية بتدريب عدد من ضباط الجيش اليهودى فى تشيكوسلوفاكيا ومن بينهم ضباط طيران.

واذا كانت المجلات والصحف الأجنبية قد أسبت فى الحديث عن امداد الاتحاد السوفييتى لليهود بالأسلحة والذخائر ، لفرض وجود اسرائيل على العرب ، فان العرب الفلسطينيين قد لاحظوا بأنفسهم ذلك ، وتناولوه بالتعليق فى الصحف (٢٣) .

وقد تمثل ايضا التأييد العملى السوفيتى لقيام دولة يهودية فى فلسطين ، فى السماح بهجرة اليهود اليها . وتذكر بعض المصادر فى هذا الصدد ، ان السلطات السوفيتية قد غضت النظر عن موجات الهجرة اليهودية الجماعية من اوربا الشرقية الى فلسطين بعد الحرب مباشرة ، وربما شجعتها أيضا . وقد ظهر ذلك فى تأييد الرسميين الشيوعيين فى كل من رومانيا وتشيكوسلوفاكيا وبولندا ويوغوسلافيا للهجرة اليهدية غير الشرعية . ففى بولندا ، ابلغت حكومة الاتحاد الوطنى ، التى كانت تضم وزراء شيوعيين ، اليهود البولنديين ، ان بامكانهم الهجرة « اذا أرادوا » - وفى تشيكوسلوفاكيا ، خصصت السلطات التشيكية تسع قاطرات لنقل اليهود من الحدود البولندية الى الحدود النمساوية ، او الى المنطقة الامريكية فى المانيا المحتلة . وساهمت فى اقامة معسكرات مؤقتة للمهاجرين اليهود . كذلك قدمت السلطات الرومانية والسلطات اليوغوسلافية مساعدات « استثنائية » لتسهيل هجرة اليهود الى فلسطين ، ورأوا فى ذلك مناوأة للبريطانيين « الامبرياليين » (٢٤) .

وقد انعكست الآثار السياسية لعمليات ترحيل يهود أوربا

الشرقية على موقف بريطانيا فى فلسطين ، وزادت من متاعبها الادارية مما حمل الحكومة البريطانية على الاحتجاج لدى موسكو وبوخارست فى ١٩٤٦/٨/٨ ، « على الطريقة التى تواطأت بها روسيا ورومانيا فى تنظيم نقل المهـــاجرين من المرافىء الرومانية الى فلسطين » ــ ثم اتبعت ذلك بالاحتجاج لدى الحكومة التشيكية فى ١٩٤٦/٨/٩ ثم فى ١٩٤٦/٨/٢١ ٠ وفى ١٢ أغسطس ١٩٤٦ ، أصدرت الحكومة البريطانية بيانا أعربت فيه عن « قلقها » ــ لأن نسبة كبيرة من المهاجرين اليهود غير الشرعيين يأتون من أوربا الشرقية ، وليس من مراكز تجميع المشتتين فى ألمانيا والنمسا وايطاليا ٠ وقال البيان : « ان الحكومة البريطانية قد تدخلت لدى الحكومات المعنية لوقف هذا السيل من مصدره ، بداعى ان الغاية منه هو ــ محاولة اجبار الحكومة على تقرير سياسة جديدة فى فلسطين » (٢٥) ٠

وكانت السياسة الجديدة التى تحدث عنها هذا البيان ــ هى ان عمدت الحكومة البريطانية الى نشر بعض ما فى حوزتها من وثائق ــ على غير ما هو مألوف ــ بعد ان اتضح لها ميل اليهود الى جانب السوفييت، والمعونات التى يدفع بها السوفييت اليهم فى فلســطين ــ فضــلا عن السماح لهم بالهجرة اليها ٠ تلك الثائق التى تثبت ان تشيكوسلوفاكيا قامت بدور هام فى دعم الســلاح الجــوى اليهــودى ، وزيادة عــدد وحــداته ، وكيف ان اليهــود تلقــوا كميات من القنــابل الحارقة ، والمتفجرات وماكينات خاصة للطائرات ، وأجهزة لاسلكى ، ومحركات وقطع غيار ، وأسلحة صغيرة وأسلحة أوتوماتيكية وانواعا اخرى من الذخائر ــ وكيف ان خبراء من مصانع « سكودا » التى تملكها الحكومة التشيكية قدموا الى فلسطين لمســاعدة اليهــود على تحــويل الطــائرات المدنية الى حربية ٠ وذكرت وزارة الخارجية البريطانية أن أسطولا صغيرا من الطائرات يحمل علامة دولة غير أوربية كان يشترك فى نقل العتاد من تشيكوسلوفاكيا الى اسرائيل ــ بعد قيامهــا مبــاشرة ، وأثناء اندلاع الحرب بين اليهود والعرب » ــ وكانت الحكومة البريطانيــة قد آثرت عدم نشر هذه الوثائق ، ولكن بعد أن صار العرب يوجهون اليها أصابع الاتهام ، بأنها ساعدت اليهود فى الاســتيلاء على الأمور فى البــلاد ، عادت وقررت نشرها ، وكلفت سفيرها فى واشنطون بابلاغها الى وزارة الخارجية الأمريكية (٢٦) ٠

وقد استمر قلق الحكومة البريطانية قائما من جراء «الدسائس» التى تحيكها لها السلطات السوفيتية فى فلســطين ــ مما اضطرها الى

ايفاد مبعوثين من قبلها على مستوى عال الى البلاد العربية المختلفة للوقوف على الحالة ، ورفع تقرير الى الحكومة ـ ولم تهدأ ، الا بعد أن وردت هذهالتقارير مطمئنة لها ـ اذ ورد فى احداها : «.. أما فيما يختص بالنشاط السوفيتى فى بلاد الشرق الأوسط ، فانه لم يبلغ فيهما بعد المرحلة التى يخشى خطرها ، غير ان دعاة السوفييت فى المنطقة يلقون أشد المقاومة من حكوماتها وهيئاتها الريفية ، التى لا تنفك عن التصريح بأن المبادىء الشيوعية تتنافى مع تعاليم الدين الاسلامى (٢٧) »..

ومهما يكن من أمر ـ فان السياسة السوفيتية قد خطت بعد ذلك الخطوة الثانية والأهم تجاه قبول التقسيم . ففى الثالث عشر من اكتوبر ١٩٤٧ ، ألقى ممثل الاتحاد السوفيتى «سيميو تسارابكين» بيانا فى اللجنة الخاصة بفلسطين كرر فيه مهاجمته لنظام الانتداب ، والقى عليه اللوم فى أحداث النزاع بين العرب واليهود (٢٨) . وفى بحثه عن الحل الملائم لهذا النزاع ، لم يعط اهتماما كبيرا لوجهة النظر العربية القائلة بالحق التاريخى للعرب فى فلسطين ـ اذ مناط الأمر ليس عدد السنين التى قضاها اليهود والعرب فى فلسطين ، وانما جوهر الموضوع هو حق تقرير المصير بالنسبة لكل من الشعبين . واضاف الى ذلك اعتبارا سياسيا آخر ، وهو معاناة اليهود فى أثناء الحرب الثانية ، خاصة وأن دولة أوربية واحدة لم تنهض للدفاع عنها ـ واعتبر المندوب السوفييتى أن هذا يفسر رغبة اليهود فى الحصول على وطن لهم ـ وهى الرغبة التى يجب الا تشوبها اعتبارات تاريخية أو قانونية . ورأى أن ميثاق الامم المتحدة ، الذى يكفل حق كل شعب فى الاستقلال ، يوجب مساعدة هؤلاء اليهود . ثم ذكر ان حل الدولة الواحدة ، وان كانت له مزاياه وفوائده ، لم يعد حلا افضل من حيث التطبيق بسبب وصول العلاقات بين العرب واليهود الى حالة من التوتر ، أصبح مستحيلا معها التوفيق بين وجهات نظرهم بشأن حل المشكلة ـ ومن ثم ، فقد أصبحت خطة تقسيم فلسطين الى دولتين ، واحدة عربية ، وأخرى يهودية ، فى ظل هذه الظروف ، هى الافضل ـ من حيث التطبيق . ووصف المندوب السوفييتى هذا القرار بأنه «خطوة عظيمة الى الامام فى حل مشكلة فلسطين برمتها» ـ وأيد الاتحاد الاقتصادى الوارد فى القرار ، واعتبره على جانب كبير من الأهمية ، لانه يعود بالخير على فلسطين جميعها ، ومن شأنه أن يفتح الباب لتقارب الشعبين كما يحقق قيام علاقات سياسية وثيقة بينهما فى المستقبل .

سارت بعض دول أمريكا اللاتينية فى نهج الاتحاد السوفييتنى فى مناقشات الجمعية العامة للامم المتحدة ، واظهرت ميلا شديدا نحو اليهود — فاقترحت أورجواى مثلا تهجير آلاف الاطفال المشردين فى أوربا فورا ، ودون انتظار — وطالبت جواتيمالا بانشاء قوة دولية ، حسب أهمية الاعضاء فى المنظمة الدولية ، باستثناء الدول الكبرى ، وذلك لتنفيذ مشروع التقسيم بالقوة . وفى هذا الوقت تقدمت بريطانيا باقتراح هام جديد — وهو حل مشكلة المشردين اليهود ، بأن تتحمل كل دولة من أعضاء الامم المتحدة أعباء تهجير هؤلاء اليها ، كل بنسبة امكانياته الاقتصادية — وهكذا ، نلاحظ أن المناقشات انحرفت عن موضوع مستقبل فلسطين العربية ، الى بحث مسألة تشريد اليهود — وهذا يعنى ضمنا أن غالبية الاعضاء ربطوا ربطا وثيقا بين المسألتين ، وهو منطلق خاطىء للقضية (٢٩) .

ثم جرت مساومات كثيرة فى هذه الاثناء مع العرب الذين رفضوا التقسيم ، فحاولت بعض الدول أرضاءهم بتوسيع المنطقة العربية بضم النقب ، املا فى ان يقبل العرب مبدأ التقسيم . وفى الحال أوفدت الوكالة اليهودية ، حليم وايزامان ، لمقابلة الرئيس ترومان ، حتى يثنى الاعضاء عن فكرة المساومة على المنطقة المخصصة لليهود ، وابرز وايزمان للرئيس الامريكى أهمية النقب الحيوية لليهود ، باعتبارها المنفذ الذى يصل الدولة المقترحة بالبحر الاحمر — وذكر انه فكر فى هذا الامر منذ سنة ١٩١٨ ، وكان يتردد على هذه المنطقة ، ويتأمل فى طريق الشرق ، وكيف أن هذا الطريق هو مسألة حيوية بالنسبة للاقتصاد الاسرائيلى — واضاف وايزمان انه يتوقع ان تحظر الملاحة الاسرائيلية فى قناة السويس ومن المحتمل عندما تتقدم العلوم التطبيقية ، أن يصبح فى الامكان شق قناة اخرى تنافس قناة السويس التى ستتم سيطرة مصر عليها عند انتهاء امتياز الشركة . واخيرا — كان اليهود هم أقدر على تعمير صحراء النقب ، باستخدام الوسائل العلمية الحديثة . وبهذا الاسلوب ، استطاع أن يقنع الرئيس الامريكى ، فابلغ ممثله فى الامم المتحدة بالضغط على الوفود لعدم اثارة موضوع اعادة النظر فى حدود التقسيم .

تابعت الجمعية العامة للأمم المتحدة مناقشة توصيات اللجنة الخاصة ، بشأن المسألة الفلسطينية فى الفترة من ٢٦ الى ٢٩ نوفمبر — وفى هذه المناقشة القى أندريه جروميكو فى ٢٦ نوفمبر خطابا ، استعرض فيه مواقف الاتحاد السوفيتى ابتداء من الدورة الطارئة ، وأكد التزام الاتحاد السوفيتى بتأييد توصية اللجنة الخاصة بالتقسيم ، اتساقا مع هذه

المواقف من ناحية ، ومع موقف الاغلبية من ناحية اخرى . وفى هــذا الخطاب ، اورد جروميكو تفسيرا لتأييد السوفيت للتقسيم ، بقوله : « يعيش فى فلسطين شـعبان . أحدهما عـربى . والآخر يهودى ـ لكل منهما جذوره التاريخية العميقة فى هذا البلد ـ ولقد أثبتت الدراسة ، بما فيها خبرة اللجنة المختصة ، أن اليهود والعرب فى فلسطين لا يمكنهم أن يعيشوا سويا فى دولة واحدة . ولذلك ، فليس ثمة بديل عملى آخر سوى انشاء دولتين ويزيد من ملآمة هذا الحل ، الوضع الـذى وجد الشعب اليهودى نفسه فيه نتيجة للحرب الاخيرة ، خاصــة ان دولة واحدة فى اوربا الغربية لم تكن قادرة على تقديم الحماية المناسبة للشعب اليهودى من النازية ـ ويستمد هذا الحل أساسه النظرى من المبادىء والاهداف النبيلة للامم المتحدة ، ويتطابق مع مبدأ تقرير المصير القومى للشعوب ، وهو المبدأ الذى اتبعه الاتحاد الســوفيتى فى حل مســألة القوميات الخاصة بشعوبه . (٣٠)

وعند اجراء التصويت ـ فى ٢٩ نوفمبر ـ كانت اصوات المجموعة السوفيتية كلها الى جانب خطة التقسيم ـ ومما زاد فى الاهمية النسبية لهذه الاصوات ، انهــا كانت تســتطيع ان تغير الموقف برمته ، لو انها صوتت ضد القرار (٣١) .

لقد قامت اسرائيل كمــا كان متوقعا لها فى الخامس عشر من مايو ١٩٤٨ ـ ولم يلبث أن أرسل الاردنيون فليقهم العربى برئاســة القائد البريطانى « جلوب » ـ كما كان من المنتظر أن يدخل الملك عبد الله القدس فى الخامس والعشرين من نفس الشهر .

وكان لدى المصريين لواءان يضمان وحدات مصفحة كانا فى طريقها الى تل ابيب ـ كما قامت فرقة عراقية بمهاجمة الجبهة الرئيســية ، على حين هاجمت فرقة آلية سورية المنطقة الشمالية . لقد كانت القوات العربية فى مجموعها ضئيلة نسبيا ، وغير مسلحة على نحو سليم ـ كما انه لم يكن هنــاك اى تنســيق بينها . وعلى ذلك اســتطاع اليهود أن يتمسكوا الى حد ما بمواقعهم ابان المرحلة الاولى ، ثم انتقلوا الى الهجوم بعد ذلك . (٣٢)

وفى خلال شهرى اغسطس وســبتمبر من عام ١٩٤٨ تم تبــادل البعثات الدبلوماسية بدرجة مفوضية بين الاتحاد السوفيتى واسرائيل ـ اذ افتتحت مقر بعثة سوفيتية فى أغسطس ١٩٤٨ فى تل أبيب ، وفى ٣ سبتمبر وصلت جولدا مايرســـون (مئير فيما بعــد كأول مبعوث

دبلوماسى الى موسكو ، وبصحبتها أعضاء البعثة الدبلوماسية الاسرائيلية وتجمع المصادر المختلفة على أن حادثة استقبال جولدا مئير قد كشفت عن حماس اليهود السوفييت ، خاصة العناصر المتدينة منهم ، وهم الاغلبية ، لقيام أسرائيل ، وتغلغل الروح اليهودية بينهم ، والتى كان القادة قد اعتقدوا أنها خمدت ، بعد صهر القوميات المختلفة التى يتكون منها الاتحاد السوفييتى فى بوتقة الشيوعية .

رمر تقديم أوراق الاعتماد فى الكرملين فى ١٠ سبتمبر فى جو ودى ــ وفى ١٥ سبتمبر زارت مئير نائب وزير الخارجية «فاليريان زورين» ، وتحدثت معه عن مشكلات النقب ، واللاجئين ، والقدس ــ وذكرت مئير أن زورين قد وعد بأن تكون السياسة السوفيتية الحالية ، القائمة على أساس تأييد قيام دولة اسرائيل فقط ــ لا الصهيونية ــ لن تتغير ، وأن السوفييت سوف يقدمون كل عون ممكن لاسرائيل .

ومضت العلاقة بين الجانبين ، سلبا وايجابا ، حتى اذا كان ابريل عام ١٩٥٤ ــ أعربت موسكو عن رغبتها فى رفع التمثيل الدبلوماسى بينها وبين أسرائيل الى درجة سفارة ، وسلم ابراموف ، السفير السوفيتى مذكرة تتضمن هذه الرغبة الى موسى شاريت ، وتم وضع خطوات التنفيذ فى يونيو من ذلك العام . وانتهز السفير السوفيتى هذه الفرصة ، وجعل تقديم أوراق اعتماده فى القدس ، على أساس أنها عاصمة لاسرائيل (٣٣) ــ وهو ماارتاح اليه المسؤولون الاسرائيليون ، وامتدحوا فيها السفير السوفيتى .

حواشي وهوامش الدراسة

١ ـ نجده فتحى صفوه ، اليهود والصهيونية فى علاقات الدول الكبرى ، بغداد ، ١٩٦٧ ، ص ٢٢ .

٢ ـ النص الكامل لدستور الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية ، القانون الأساسى مع التعديلات والاضافات التى أقرتها الدورة السادسة للسوفييت الاعلى للاتحاد السوفييتى ، فى حلقته التشريعية السابعة ـ الطبعة العربية ، دار التقدم ، موسكو ، ١٩٧٠ ، ص‌ص ٢٩ — ٣٠ .

ـ وكذلك ، انظر دراسة للمؤلف بعنوان «مقاطعة بيروبيدجان اليهودية بالاتحاد السوفيتى واضطهاد السوفييت لليهود»

ـ المجلة التاريخية ، المجلد رقم ٢٢ ـ القاهرة ، ١٩٧٥ ـ ص ٣١٣ .

٣ ـ والتر لاكير (مترجم) ، الاتحاد السوفيتى والشرق الاوسط ، المكتب التجارى للطباعة والنشر ببيروت ـ الطبعة الاولى ، ١٩٥٩ ، ص ١٥٠ ـ ١٥١ .

٤ ـ اسحاق دويتشر ، ترجمة فواز طرابلسى ، ستالين سيرة سياسية . دار الطليعة ببيروت ـ الطبعة الاولى ، يوليو ١٩٦٩ ـ ص ٦٢٥ .

٥ ـ محمد السيد سليم ، الاتحاد السوفيتى والقضية الفلسطينية دراسة بمجلة السياسة الدولية ، العدد ١٧ ، مؤسسة الاهرام، القاهرة ، يوليو ١٩٦٩ ص ٣٢ .

٦ ـ تحطمت المقاومة السوفيتية عقب الهجوم الالمانى عام ١٩٤١ بسرعة وسهولة ـ واستدعى الامر اتخاذ اجراءات سريعة حتى لاتقع المصانع الهامة فى أيدى النازيين ـ وهو ماكان يهدف اليه الالمان ، حتى يحرموا المقاومة السوفيتية من انتاجية هذه المصانع ـ كذلك سعى السوفييت الى تامين الامدادات التى

كانت تأتيهم من الخارج ـ وخاصة الفحم . حول هذا الموضوع، انظر :

— Nove, Alec and Newth S.A. ;
The Soviet Middle East, London, 1967, pp. 47-48.

— Ainsztien, Ruben : Soviet Jewry in the Second World War, Essay in : Kochan, Lionel, The Jews in Soviet Russia Since 1917-Oxford, New York, 1970, p. 277.

٨ ـ اسحاق دويتشر ، مصدر سابق ، ٦٢٦ .

٩ ـ الاتحاد السوفيتي والشرق الاوسط ، مصدر سابق ، ص ١٧٤ .

١٠ ـ — Laqueur, W., The Struggle for the Middle East, London, 1968, p. 48.

١١ ـ الدكتور صلاح العقاد ، قضية فلسطين ـ المرحلة الحرجة (١٩٤٥ ـ ١٩٥٦) معهد البحوث والدراسات العربية العالية ، القاهرة ١٩٦٨ ، ص ٥٠ .

١٢ ـ اديب ديمترى ، الماركسية والصهيونية ، دار الطليعة للطباعة والنشر ببيروت ، ١٩٧١ — ص ٢٠٨ .

١٣ ـ

— Verbatim Record of the Seventy-Eight meeting of the General Special Session. New York, City-Building — Flushing Meadows, N.Y., Wednesday, 14 May — at 3.00 p.m. — Special Committee. (A/307).

وحول هذا الخطاب ، انظر :

— Horowitz, David : State in Making — Translated from Hebrew by : Jullian Mettzer, New York, — 1953, p. 270.

وترجع أهمية هذا الكتاب ، الى أن مؤلفه كان أحد أعضاء الوفد اليهودى الذى يتبع الوكالة اليهودية فى الامم المتحدة .

١٤ ـ ناجى علوش ، الماركسية والمسألة اليهودية ـ دار الطليعة ببيروت فبراير ١٩٦٩ ، ص ٥٩ .

وانظر ايضا وقائع جلسات مؤتمر يالتا ، التى نشرها الاتحاد السوفيتي فى :

— The Tehran, Yalta, and Potesdam Conferences. (Documents) Progress Publishers — Moscow, 1969 — p. 54.

وكذلك ايضا :

— G. Deborin : Secrets of the Second World War, Progress Publishers — Moscow, 1971 — p. 190.

ويلاحظ انه لم يرد فى هذه الوثائق أى ذكر عن هذا الموضوع — ويبدو أن الاتفاق قد تم بينهما فى المناقشات التى جرت خارج المؤتمر .

١٥ —

— Safran, Nadav., From War to War, New York, 1969 — p. 96.

— وايضا :

— Snetsinger, John : Truman, The Jewish Vote and the Creation of Israel. Hoover Institution Press — Stanford University California; 1974, p. 58.

وايضا :

— Yaha Armajani, Middle East, past and present, New Jursey, 1970, p. 369.

١٦ — السياسه الاسبوعية ، العدد ٥٣٨ ، فى ١٩٤٧/٩/٢٠ — ص ٨

١٧ — — Safran, Nadav., The United States and Israel., Harvard Unive rsity press — Camridge, Massachuse, 1963 — p. 228.

١٨ — الدكتور جورج كرندى ، الاتحاد السوفيتي والقضية الفلسطينية (١٩١٧ — ١٩٤٧) دراسة منشورة بمجله مركز الدراسات الفلسطينية ، جامعة بغداد ، الوزيرية ، العدد ٢٠ يناير — فبراير ١٩٧٧ — ص ٦٥ .

١٩ — — Reich, Berrard, B. A., M. A., Israel Foreign policy., Adissrtation presnted to the graduate Faculty of policy., Adissertation presnted to tne praduate Faculty of the University of virginia in Candidacy for the Degree of philosophy. June, 1964 — pp. 90 — 92.

٢٠ ـ فرانك جرفازى (مترجم) ـ القضية فى صالح اسرائيل ، مع مقدمة لأبا ايبان وزير الخارجية الاسرائيلية (بدون ذكر السنة أو مكان الطبع) ـ ص ١٢٥ .

٢١ ـ حول هذه الأبعاد أنظر :

Mowat, R. C. : Ruln and Resurgence (1939 1965) Blandford press — London, 1966-p. III

ومؤلف الكتاب استاذ التاريخ الحديث والمعاصر بجامعة اكسفورد .

٢٢ ـ القضية الفلسطينية والخطر الصهيونى ، مؤسسة الدراسات الفلسطينية ببيروت ، سلسلة الدراسات رقم ٣٤ ـ الطبعة الأولى ، ١٩٧٣ ـ ص ٤٧٤ ..

٢٣ ـ من ذلك ـ مثلا ـ ما روته احدى الصحف العربية ، من انه فى منتصف ليلة أول ابريل ١٩٤٨ ـ شوهدت فى غزة باخرة كبيره تقترب من الشاطىء تتقاذكها أمواج البحر لم تلبث ان اصطدمت بالرمال ، وجنحت الى الشاطىء ـ وكانت ترفع على ساريتها العلم الصهيونى والعلم الروسى معا (هكذا !!) ـ فهرع اليها رئيس المجلس البلدى وأعضاء البلدية واللجنة القومية وقائد حرس التواطىء فى اللواء الجنوبى ـ ثم اندفع اليها جموع غفيرة من أهالى القرية الذين صعدوا الى ظهر الباخرة ، وتبين لهم أن الباخرة اسمها « لا يكوفا » ـ فاستولوا على ما كانت تحمله ـ وكانت بها كميات كبيرة من الذخائر والمواد الغذائية بمختلف أنواعها ، كانت مرسلة الى مستعمرة نتساليم ومن بين هذه الأسلحة ثمانية مدافع عيار ٤ بوصة ذات القذائف زنة ٢٥ رطل ، ومدافع هاون ، و ٥٠٠ مدفع برن ، وسيارتين . أنظر :

الاخوان المسلمون ، القاهرة ، العدد ٥٩١ ، فى ١٩٤٨/٤/٢ .

٢٤ ـ لا يستبعد أبدا أن يكون تشجيع هذه البلاد لهجرة مواطنيها من اليهود الى فلسطين ، راجعا لأسباب داخلية ، سواء كانت اقتصادية أو اجتماعية ، وبالذات فى خلال هذه الفترة ـ اذ المعروف ان اليهود قد تسببوا بشكل مباشر أو غير مباشر فى احداث قلاقل لكثير من الحكومات ، ورأت هذه الحكومات فى

هجرتهم الى فلسطين خلاصا من مشاكلهم ــ وبالطبع فان اليهود قد رحبوا كثيرا بموقف هذه الحكومات .

٢٥ ــ القضية الفلسطينية والخطر الصهيونى ــ مصدر سابق، ص‌ص ٤٧٤ ــ ٤٧٥ .

٢٦ ــ نشر الاهرام هذه البيانات تحت عنوان « بريطانيا تكشف الستار عن تسليح اليهود » أسطول من الطائرات التشكيلية لنقل العتاد الى فلسطين . انظر :
ــ الاهرام ــ العدد ٢٢٧٧٥ فى ١٩٤٩/١/٧ .

٢٧ ــ الترجمة الحرفية للتقرير « السرى الخطير » الذى رفعه البريجادير تشارلز كلايتون الوزير المفوض البريطانى فى الدول العربية ، والرئيس العام لادارة الجاسوسية (المخابرات) الانجليزية فى الشرق الاوسط الى الحكومة البريطانية ، بتاريخ ١٩٤٧/١٢/١٤ . منشور فى :

ــ الاخوان المسلمون ــ العدد ٥٤٣ ، بتاريخ ١٩٤٨/٢/٦ .

٢٨ ــ
— Dagan, Avigdor, : with an introduction by : Abba Eban., Moscow and Jerusalem, Twenty Years of relations be-btween Israel and the Soviet Union. London. 1970, p. 25

٢٩ ــ الدكتور صلاح العقاد ، قضية فلسطين ــ المرحلة الحرجة ــ مصدر سابق ، ص ٤٥ .

٣٠ ــ اديب ديمترى ، الماركسية والدولة الصهيونية (الوجود والكيان) ــ دار الطلية للطباعة والنشر ، بيروت ، يناير ١٩٧١ ، ص‌ص ٢١٣ ــ ٢١٤ .

٣١ ــ احمد يوسف أحمد ــ السياسة السوفيتية تجاه اسرائيل (١٩٤٨ ــ ١٩٥٦) ــ بحث لدرجة الماجستير ، أجيز بجامعة القاهرة عام ١٩٧٤ ــ ص ١٨٢ .

ومن المعروف انه قد تمت الموافقة على قرار التقسيم بأغلبية ٣٣ ضد ١٣ ، وامتناع عشرة دول عن التصويت ــ وكانت اغلبية الثلثين المنصوص عليها فى الميثاق ستنتفى ، لو ان الأصوات الخمسة للمجموعة السوفيتية قد تحولت الى الموقف المضاد

للتقسيم ـ وكانت هـذه الأصـوات الخمسـة هي : الاتحـاد السوفيتي ـ روسيا البيضاء ـ اوكرانيا ـ تشيكو سلوفاكيا ـ بولندا ـ انظر ايضا :

— Horowitz, David., State in Making — op. cit., p. 302.
— Harry, B. Ellis : The Dilemna of Israel, Washington, p. 73.

٣٢ ـ

— La queur, W., : The Road to War 1967.,
The Origins of the Arab-Israel Conflict., London 1968.

٣٣ ـ يلاحظ هنا ، ان الولايات المتحدة الامريكية اعترضت على نقـل عاصمة اسرائيل من تل ابيب الى القدس ، وذكرت في مذكرة رسـمية بعثت بها الى اسرائيـل تقـول فيهـا « ... والولايات المتحدة لا تنظر بعين الارتياح لنقل وزارة خارجية اسرائيل الى القدس ، وهى لذلك لا تنوى نقـل السـفير الامريكي وموظفى السفارة الامريكية اليها » انظر نص المذكرة في :

ـ الوثيقة رقم ٢٦٦ ـ ملف وثائق فلسطين ، الجـزء الثـانى ، القاهرة ١٩٦٩ ـ ص ١٠٩٣ .